

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغداد
(٦٩١) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة ـ بغـداد
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

دراسات في تاريخ العراق وحضارته

المدينة والحياة المدنية

الجزء الثاني

نخبة من أساتذة التاريخ

بغداد - ١٩٨٨

المدينة والحياة المدنية

الفصل الاول

نمو المدن وتوزيعها في العراق في العهـود الاسـلاميـة الزاهـرة

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

مدن الادارة القديمة :

كان العراق عندما اتم العرب القضاء على الساسانيين وضموا الى دولتهم الواسعة ، مقسما الى اثنى عشر اسقانا او كورة يضم كل منها عددا من الاقسام الفرعية ، تسمى الطساسيج ، ويبلغ مجموعها ستون طسـوجا • وكان هذا التقسيم غرضه تأمين تنظيم جباية الخراج وقد ظلت هذه التقسيمات قائمة حتى القرن الرابع الهجري(١)•

ولابد ان مراكـز الاستانات كان في كل منها والٍ يشـرف على جباية الخراج في منطقته ، وعلى سك النقود فيه ، وقد ذكرت المصادر العربية اسماء ولاة بعض هذه المراكز ، كما وصلتنا مسكوكات كتب عليها مكان سكها في حلوان ، وكسكر ، ووصلتنا دراهم كتب عليها مكان سكها في طساسيج ومنها ميسان ، ودست ميسان ، والفرات ، وابرقباذ ، وكلها من طساسيج كور دجلة في جنوبـي العـراق ، ومسكوكات في البهقباذ الاوسط ، والبهقباذ الاسفل والمدينة العتيقة(٢) ، وكلها في العراق الاوسط •

وذكرت المصادر اسماء ولاة بعض هذه الاقسام ومراكزها ، فذكر ابن خرداذبه ان البهقباذ الاوسط يشمل باروسما ونهر الملك ، ممـا يدل على ان باروسما التي يتردد ذكرها في الاخبار كانت مركز البهقباذ الاوسط • وذكر اليعقوبي ان دير العاقول مدينـة النهروانالاوسط(٣) ، وان جرجر مدينـة النهروان الاسفل(٤)، ولعله قصـد بذلك ان كلا من دير العاقول وجرجر ايا كانت مركزا لاستان ، ولاتوجد معلومات عن اسماء بقية مراكز هذه الاقسام الادارية او مدى اهميتها •

ولابد ان اختيار اماكن لاقامة الولاة والعمال كان يراعى فيه احوال معينة ، وان اقامة الوالي يكسب المكان اهمية خاصة ويوصف احيانا بانه « منبر » غير انه لا توجد في تشريعات الدولة احكام تحديد اصناف مراكز التجمع البشري والتمييز بينها او تحديد حقوقها وامتيازاتها . وقد استعمل الكتّاب تعبيرات متعددة لوصف مراكز التجمع مثل البلدة ، والحاضرة ، والمدينة ، ولكن هذه الاستعمالات كانت كيفية ولا تقوم على تدقيق قانوني ، غير ان تدهور الاحوال العمرانية وركود الاحوال الاقتصادية في العراق قبل مجيء الجيوش العربية كانت من عوامل تقلص الحياة المدنية وقلة المدن ، وغلبة الريف والقرى في العراق .

اثر العرب في التطور وازدهار المدن :

ولما اتم العرب ضم العراق الى دولتهم الواسعة حدثت تطورات واسعة على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية ، فقد اصبح ضمن دولة لها سلطة مركزية واحدة تهيمن على أقاليم واراضي كثيرة ، وبذلك وحّدتها ، وأزالت الحواجز التي كانت تفصل اجزاء ما وثبتت الامن والسلم والاستقرار ، ويسّرت حرية العمل والتنقل والتجارة ، ووفرت مجالات الازدهار لابناء الشعب دون حصر الاهتمام بطبقة محدودة مستغلة ، وبذلك تنامى انتعاش في الصناعة وانتاج السلع الاستهلاكية الشعبية ، ونشطت التجارة ونقل السلع بين مراكزها في داخل العراق ، بالاضافة الى ما كان يرده او يمر به من تجارات اقاليم المشرق وبلاد المحيط الهندي ، كما ازداد توثق العلاقة مع جزيرة العرب وأهلها الذين حدثت في احوالهم تطورات واسعة ، وزاد قدوم البدو الى حواضر العراق لبيع الفائض من منتوجات مواشيهم او لاخذ الميرة ، وكذلك تصدر ما ينتج في اقاليمها وخاصة اليمن والبحرين وعمان من منسوجات ورماح وسيوف ومعادن .

قد تهدده ، هذه المراكز كانت حلوات ، وماسبنزان ، وقريبسيا ، والموصل ، والسلم وتأمين الحياة المطمئنـة التي تؤدي الى الاستقرار والازدهار وكان الوالي العربي رمز السلطة وممثلها تسانده قوة عسكريـة تؤمن الاستقرار وحماية الحدود وتوسيع الدولة • وتطلب هـذا اتخاذ مراكز ادارية خاصة بالاضافة الى الكوفة والبصرة اللتين كانـت كل منهما المركز الرئيسي لادارة العراق والاقاليم التابعة له في الادارة •

تطلب الحفاظ على الامن اتخاذ مراكز ثانوية تقيم فيها حاميات من المقاتلة العرب في المناطق المهددة لاجل القيام بعمل سريع للقضاء على الاخطار التي قد تهدد الامن والاستقرار ، وقد اتخذ سعد بن ابي وقاص اربعة مراكز في اطراف العراق تقيم في كل منها قوة من المقاتلة العرب لحماية العراق من الاخطار التي قد تهدده، هذه المراكز كانت في حلوان ، وماسبذان ، وقرقيسيا ، والموصل، والمركزان الاولان يقعان في الاطراف الشرقية من العراق،وقد اعدا لصد أي هجوم فارسي محتمل ، اما الموصل وقرقيسيا فكانتا في الاطراف الشمالية . وكان على الحاميات فيهما صد اي خطر رومي يقدم من تلك الاطراف • غير انه بالقضاء على دولة الفرس بعد معركة نهاوند ، واقصاء الروم عن الاطراف الشمالية بعد ان ضم العرب الجزيرة الفراتية انتفت الحاجة الى ابقاء هـذه الحاميات في تلك المراكز •

وبعد انتصار العرب في معركة نهاوند اتخذ سعد دستبى قاعـدة عسكرية امامية بوجه الديلم ، وجعل عليها اربعة قواد هم عصمة بن عبدالله الضبي ومهلهل بن زيد الطائي ، وسماك بن عبيد العبسي ، وسماك بـن مخرمة الاسدي ، وسماك بن خرشة الانصاري(٤) •

ثم اقيمت حاميات عسكريـة في عدد من المراكز التي لمواقعها اهميـة عسكرية ازاء حركات الثوار والمتمردين • ومن اهم هذه المراكز المدائن التي اتخذهـا سـعد بـن ابـي وقـاص مقـرا له ولجنـده الى ان انشـئت

الكوفة فانتقلوا عنها ، ولكن ابيح لمن اراد البقاء فيها ، فبقي فيها عدد من الافناء واكثرهم من عبس[٥]، وظل يقيم في المدائن طوال العهد الاموي رجال من اهل الكوفة وبيوتات الناس وبها مقاتلة لاتسعها عدة ان كان بأرض موخي (شرقي دجلة) او بارض الانبار[٦] . وكانت الحامية فيها في سنة ٧٦ هـ الف فارس اخذ منهم عدي بن عميرة خمسمائة لقتال الخوارج[٧] الفراتية وجعلتا تابعتين لوالي الشام .

وفي زمن خلافة عثمان بن عفان الحقت الموصل وقرقيسيا بالجزيرة الفراتية وجعلتا تابعتين لوالي الشام سنة .

ومن الاماكن التي كانت توضع فيها قوات عسكرية الراذان ، وكانت مسلحتها ثابتة ، يؤخذ افرادها من مقاتلة الكوفة[٨] ، وذكر من هؤلاء المقاتلة ابراهيم النجفي[٩] .

وفي زمن خلافة الامام علي كانت من الانبار مسلحة تبلغ خمسمائة رجل عليهم اشرس بن حسان البكري[١٠] كما كانت لهشام بن عبدالملك وغيره من الخلفاء الامويين ببغداد خمسمائة فارس رابطة يغيرون على الخوارج اذا خرجوا من ناحيتهم قبل ان يضعف امرهم.

لاريب في ان هذه الحاميات العسكرية كانت تقام في اماكن معمورة . وكانت اقامتها تزيد من اعمار ورخاء المكان الذي تقيم فيه ، لان المقاتلة العرب كانوا ياخذون العطاء ، فكانت عندهم قوة شرائية لاقتناء حاجاتهم من الاسلحة والالبسة والمأكل ، الامر الذي يولد نشاطا اقتصاديا ، وقد يساعد على انماء هذه المراكز دون ان تجتث تنظيماتها السابقة التي لانعلم عن تفاصيلها .

الامصار الجديدة : واسط وبغداد وسامراء :ـ

وفي سنة ٨٠ شيد الحجاج مركزا ثالثا قرب كسكر وسماه « واسطا » ، لوقوعه في مسافة متوسطة بين الكوفة والبصرة ، وكان الغرض الاول من انشائها ايجاد مركز للمقاتلة العرب ممن يعتمد عليهم بعد ان كشفت الحوادث

ان كلا من البصرة والكوفة اصبحت مركز نشاط مناوىء للدولة ، وقامت فيها ثورات هددت الامن والسلم ، وقد وضع الحجاج لواسط تنظيمات تشبه ما في الكوفة والبصرة ، وكان لها وال خاص ، وعندما كانت تجمع ولاية العراق في شخص واحد ، كان هذا الوالي يعين واليا على واسط وعلى احد المصرين عندما لايقيم فيه ، كما اصبحت واسط المركز الوحيد لسك الدرهم بين سنتي ١٠٤-١٢٨ هـ ، واحتفظت بسمتها العسكرية امدا غير قصير ثم تحولت بالتدريج الى مركز للحركة الفكرية .

ولما ولي العباسيون الخلافة ، اتخذوا مقرهم في العراق ، وقضوا السنوات العشر الاولى ينقلون مركزهم من الكوفة الى الهاشمية التي شيدوها بلصق الكوفة ، ثم تحولوا الى الانبار ، وعادوا بعدها الى الكوفة ، ولم يطل مقامهم فيها ، فقد شيدوا مدينتهم الجديدة « دار السلام » وهي بغداد ، على دجلة في منطقة كانت فيها المزارع والقرى والاديرة ، وجعلوها مدينة للخليفة واسرته وحاشيته وحرسه وجيشه ، ومركز ادارة العراق والدولة ، وسرعان مانمت فاصبحت اعظم مراكز الدولة في الحياة الاقتصاديةوالفكرية،وادى قيامها الى تناقص الاهمية الادارية لكل من الامصار ادارة الدولة ، وادى قيامها الى تناقص الاهمية الادارية لكل من الامصار الثلاثة الاولى وهي الكوفة والبصرة وواسط التي اصبح لكل منها وال يشرف على ادارة المدينةوما حولها فحسب،ولكنها احتفظت بحياة فكريةمزدهرة ونشطت دراسة جوانب غير قليلة من المعرفة .

ولما ولى المعتصم الخلافة شيد سامراء ونقل اليها مركز الخلافة ، وانتقل معه الوزراء ورؤوس الدواوين وجيشه ، والحقت بها بعض الاراضي من الموصل ، غير ان بغداد احتفظت بمكانتها الاقتصادية والفكرية كاكبر مركز في العالم الاسلامي ، وما لبث الخلفاء ان عادوا اليها بعد ثمانين سنة ، فتضاءلت سامراء ، وتابعت بغداد نشاطها ، وظلت محتفظة بمكانتها مركزا

للخلافة العباسية ومرجعا لاقاليم الدولة الاسلامية ، الى ان استولى عليها المغول سنة ٦٥٦ هـ وازالوا الخلافة العباسية •

مدن الادارة المدنية :

لاريب في أن تأسيس كل من واسط ، وبغداد وسامراء رافقه تعديل في التقسيمات الادارية للعراق ، ولم يعد بالامكان السير حرفيا على المبدأ القديم وهو ان كل مصر مسؤول عن ادارة البلاد التي فتحتها مقاتلة ذلك المصر ، وهو مبدأ يؤول تطبيقه الى ان يصبح والي الكوفة مسؤولا عن ادارة العراق واقاليم شمالي الهضبة الايرانية ، ووالي البصرة مسؤولا عن ادارة كور دجلة والاحواز واقاليم جنوبي الهضبة الايرانية •

اشارت بعض المصادر الجغرافية الى طبيعة بعض المعالم العمرانية فاليعقوبي مثلا وهو ممن يحرص على وصف المعالم الحضرية ذكر عن دير العاقول وجرجرايا بان كلا منهما مدينة طسوج بعينه ، اي ان المدينة هي مركز اداري ، وذكر ان قصر ابن هبيرة « مدينة عامرة جليلة ينزلها العمال والولاة[١١] وجبل[١٢] ، والمبارك ، وحلوان[١٣] ، وذكر ان جسر النهروان « بلد جليل قديم[١٤] » •

اما الاصطخري فذكر ان « الجامعان منبر صغير حواليها رستاق عامر[١٥] » ولم يصف غيرها بانه « منبر » غير انه ذكر عددا من معالم العراق وصف كلا منها مدينة : فذكر البصرة ، والابلة وعبادان ، والمفتح ، والمذار ، وواسط ، والكوفة ، والحيرة ، وصرصر ، والنهروان ، والمدائن ، والدسكرة وتكريت ، وعكبرا ، والبردان ، والنعمانية ، ودير العاقول ، وجبل ، وجرجرايا ، وفم الصلح ، ونهر سابس ثم قال « وسائر ما ذكرنا على شط دجلة من المدن فهي متقاربة في الكبر ليس بها مدينة كبيرة ، وهي مشتبكة العمارة ، وكذلك لكل مدينة من ذلك كورة[١٦] وتظهر جملته الاخيرة ان

كلا من هذه المواضع كان مركز كورة أي مركزا اداريا ، ولكنه لم يذكر اسم اي من هذه الكور ، كما ان كلامه يدل على ان المدن متباينة في الحجم ولا ريب في ان عدم ذكره الطساسيج واي من الاستانات القديمة يدل على انها كانت قد زالت في زمنه .

اما المقدسي فانه ذكر للعراق ثمانية معالم سمي كل منها « قصبة » وذكر لكل منها عدة توابع سمى كلا منها « مدينة » .

للبصرة : الابلة ، نهر الذير ، مطارا ، مـذار ، نهرزيان ، بـدران ، بيان ، نهر الامير ، نهر القديم ، عبادان ، ابو الخصـيب ، نهردبا ، المطوعة ، القندل ، المفتح ، الجعفرية .

وللكوفة : حمام عمر ، الجامعين ، سـورا ، النيل ، القادسية عين التمر .

ولبغداد : بردان ، النهروان ، كارة ، الدسكرة ، طراسـتان ، هارونية ، جلولا ، باجسـري ، باقية (بعقوبا) بوهـرز ، كلواذي ، درزيجان ، المدائن ، اسبانبر ، كيل ، سيب ، ديـر العاقول ، النعمانية ، جبل ، عبرتا ، بابل ، قصر هبيرة ، عبدس نهرابا .

ولواسط : فم الصلح ، نهر سابس ، درمكان ، باذبين ، قراقبة ، سيادة ، السكر ، قرقوب ، الطيب ، لهبان ، البسامية ، اودسه .

وناحية البطائح مدينتها الصليق ، ولها جامدة ، هرار ، الحدادية ، الزبيدية .

ولحلوان : خانقين ، زبوجان ، المرج ، شلاشان ، الجامد الحر ، السيروان ، بندنيجان .

ولسامرا : الكــرخ ، عكبرا ، الور ، الجامعين ، بت ، راذانان ، قصر الجص ، جوى ، ايوانا، بريقا ، ســنديه ، راقروبه ، دمما ، الانبار ، هيت ، تكريت ، السن[١٧] .

ان القصبات التي ذكرهــا كانت ، فيما عــدا حلوان والبطائح ، منذ القديم مراكز ادارة عسكرية ومقام خلفاء او كبار ولاة . اما المــدن التــي ذكرها ويبلغ عددها قرابة التسعين فمنها عدد لم يرد ذكره في أي مصدر اخر غير انه في كلامه عن العراق وصف عددا من هذه المدن التي ذكرها من حيث سعتها وعمرانها وسوقها وجامعها ، ومزارعها والصناعــات في بعضها . كما افرد فقرة عما اشتهرت به بعض المدن من الصناعات ، ومن الواضح ان هذه الصناعات مما يفيض عن حاجة البلد ويصدر الى غيره ، مما يدل على ان كثيرا منها كان اهلها يعملون في الصناعة والتجارة .

ولابد ان ما ذكره يصف تقسيمات للادارة المدنية ، وليس لجبايــة الخراج الذي استهدفتــه التقسيمات القديمــة ولابد ان كلا من القصبات الرئيسة والمدن التي تتبعها كان لها تنظيم اداري قد يشمل الولاة والجباة ، وربما القضاة ، ولكن المصادر لم تقدم تفاصيل عن كل ذلك ، كما انها لم تذكر الاساس الذي قام عليه التقسيم ، غير انه يدل تقارب مواقع كثير من هــذه الاماكن على انها كانت مراكز حضرية ، وان كانت تتباين في السعة ومــدى النشاط الاقتصادي والاجتماعي .

ومنذ القرن السادس الهجري تتردد في المصادر تقسيمات جديدة في العــراق تشمل تكريت ، ودجيل ، ونهر عيسى ، ونهر الملك ، وقوسان ، والحلة ، اضافة الى واسط والبصرة ، ولكل من هذه الاقسام صدر ومشرف وناظر وقاض وشحنة .

وقوام المدن على نشاط الصناعة والتجارة التي نمت بعد مجيء العرب بفضل الموارد الكبيرة التي كانت توزع على السكان فتزيد من قابلياتهم على

الشراء خاصة ان الدولة لم تضع قيودا على ممارستها ، ووفرت للصانع والعمل حرية التنقل والعمل، واباحت لهم متابعة تقاليدهم الخاصة في الصناعة[١٨] •

هاجر عدد غير قليل من العمال والصناع ورجال الاعمال والتجار الى الامصار الجديدة التي انشأها العرب ، وهي الكوفة والبصرة ثم واسط وبغداد وسامراء ، فسدوا بهجرتهم كثيرا من حاجات هذه الامصار في العمل والصناعة ، وكان لهم اثر غير قليل في تطور سماتها العسكرية وتحوله تدريجيا الى سمات بورجوازية[١٩] •

تنامي المراكز الحضرية والمدن :

غير ان عددا اكبر منهم فضل المقام في موطنه القديم والعمل فيه وتصدير الفائض من منتوجه الى هذه الامصار وغيرها ، وبذلك تنامى انتعاش يصعب رصد خطواته ، لان المصادر اقتصرت على ذكر اسماء المواضع دون وصفها ، كما ان العرب لم يضعوا شروطا ومواصفات لكل من التعابير الحضرية ، عدا مراكز الادارة التي صنفوها تبعا لعملها الاداري وليس لنوع الحياة فيها • بل حتى جغرافيي القرن الرابع الهجري الذين عنوا بذكر المدن ووصفها لم يرددوا في وصف مدن العراق التعابير التي رددوها في وصف المعالم الحضرية في الحجاز او في اقاليم المشرق •

ازدهار التجارة واثره :

وبالاضافة الى نمو الصناعة وانتاج السلع الاستهلاكية « الشعبية » فقد نمت التجارة وقل السلع ، وافاد العراق من هذا النمو فوائد واسعة ، وكانت بعض هذه السلع تورد الى العراق لتستهلك فيه ، وبعضها تمر بالعراق الى الاقاليم الاخرى ، فكان كثير من منتوجات بلاد المحيط الهندي تمر عبر العراق الى بلاد الشام ، كما ان منتوجات اقاليم المشرق بما في ذلك منسوجات خراسان القطنية ، ومنسوجات الأحواز الحريرية ، ومنسوجات الاطراف الشمالية من هضبة ايران تصدر الى العراق ، أو تمر به الى بلاد الجزيرة •

ثم ان انتشار الامن والاستقرار في شبه جزيرة العرب وازدياد علاقة اهلها بالعراق اسهم في انماء تجارته مع اقاليمها ، اذ لابد ان قدوم اعراب الجزيرة اليه ازداد الفائض من منتوجات مواشيهم من صوف وشعر ولبن ودهن وجلود او لاخذ الميرة من التمور والحبوب ، كما أزداد استيراد ما تنتجه اليمن من منسوجات وجلود وسيوف ومعادن ، وكذلك مع البحرين وعمان مما يحتاج اليه اهل العراق •

وكانت معظم المنتوجات المستوردة للاستهلاك المباشر ، غير ان بعضها يكون مواد أولية لصناعات تقوم في العراق ، وبذلك زاد نمو الصناعة بما توافر لها من مواد أولية •

ساعد نشاط التجارة على انماء المراكز الحضارية في المحطات الرئيسة على الطرق التي تسلكها التجارات ، والمسالك النهرية لهذه الطرق هي دجلة والجهات العليا من نهر الفرات ، اما المسالك البرية فاكثرها تسير موازية للانهار ، لذا ان اغلب هذه المحطات تقع على ضفاف الانهار ، خاصة دجلة والفرات ، وبمسافات متقاربة بينها مما يناسب حاجة القوافل •

وعنيت الدولة بالطرق الرئيسة التي تصل بغداد ، فعيينت واليا من كبار القادة والاداريين على كل من « طريق الموصل » و « طريق الفرات » الذي يمتد الى الجزيرة وبلاد الشام ، و « طريق الحج » الذي تسير عليه قوافل الحجاج الى الحجاز ، و « طريق خراسان » الذي يسير شرقا الى الهضبة الايرانية ، وكان تحت تصرف كل من هؤلاء الولاة قوات عسكرية تصد من يحاول العبث بالامن والاعتداء على القوافل • ولابد ان استتباب الامن اسهم في نمو محطات القوافل ، ولا نبالغ في القول بان هذه المحطات اصبحت اهم مدن العراق بعد المراكز الاربعة الكبرى بغداد والبصرة والكوفة

وواسط ، ومما يظهر اثر التجارة في نمو هذه المحطات هو انها لم تكن مراكز ادارية . وقليل منها كان مركز صناعات مختصة للتصدير .

تنظيم المدن :

نمت هذه المراكز واستقرت وتطورت الحياة الحضرية فيها بعد ان اصبح العراق ضمن الدولة الاسلامية ورافق هذا التطور استقرار الدولة الاسلامية وانتشار الاسلام في العراق ، ولابد ان هذه الاحوال اثرت في توجيه تنمية هذه المدن بما ينسجم مع الاتجاهات العامة للتنظيمات الاسلامية ، ولذلك يصح القول بانه كان ينطبق عليها كثير مما عرف من الخصائص العامة للمدن الاسلامية ، علما بانه لم تعرف في العراق مدينة تقطنها جالية اجنبية تكون كل سكانها وتكيف تنظيم المدينة التي يسكنونها على وفق اتجاهاتهم .

ذكر عدد من المفكرين المسلمين الشروط الواجب توافرها لتأسيس المدينة ونموها ، وابرز هذه الشروط توافر الماء ، وملائمة المناخ ووجود السوق. غير انهم لم يذكروا المبادىء التيعلى اساسها تتحدد المدن وتتميز عن مراكز التجمعات البشرية الاخرى كالبلدة والقرية والسوق ، وذكر بعض الفقهاء ان من شروط الامصار اقامة صلاة الجمعة فيها ، ولكنهم اختلفوا في هذه الشروط ، فذكر بعضهم وجوب وجود وال فيها ، وذكر بعضهم الحد الادنى لعدد سكانه ، واختلفوا في هذا العدد حتى وصل عند بعضهم الاربعين رجلا « كافيا » لاقامة صلاة الجمعة[٢٠].

ولابد ان اختيار الدولة اماكن لاقامة الولاة والعمال كان يراعى فيه توافر احوال معينة، والراجح ان اقامة الوالي يكسب المكان اهمية كأن يوصف بانه « فيه منبر » او غير ذلك .

لم تضع الدولة في تشريعاتها احكاما « لتحديد اصناف مراكز التجمع البشري والتمييز بينها ، او تحديد حقوقها وامتيازات بعض • لذلك كان استعمال الكتاب تعبيرات كالقصبة او المدينة ، او البلدة او الحاضر « وصفا » لمراكز التجمع انما هو استعمال كيفي غير قائم على تدقيق قانوني •

غير ان الاحوال العامة التي سادت في الدولة كان لها اثر على اوضاع المدن وتنظيمها • واول مظاهر هذه الاحوال هو ان جميع البلاد اصبحت ضمن دولة اسلامية واحدة على رأسها خليفة واحد ، ومن ابرز واجباتها نشر السلم والاستقرار وحفظ الامن ، وان تكون كلمة الله هي العليا في جميع البلاد ، ويتوفر للسكان حرية العمل والتنقل واتخاذ التنظيمات التي يرونها مؤمنة لمصالحهم ، على ان لايكون في ذلك تحد لمكانة الاسلام او مناقض لاسس مبادئه واخلاقياته ، ولايهدد الامن •

وكان لهذه الاحوال تأثير على تخطيط المدن ، فمسؤولية الدولة في نشر الامن والاستقرار تطلب ان تخلو هذه المدن من اقامة الجند الا من المراكز التي يقيم فيها الخليفة او تكون مهددة من الغزو الاجنبي ، والواقع ان الحاميات العسكرية التي وزعها الامويون في عدد من المراكز في العراق لم يعد لها ذكر في زمن العباسيين الذين وضعوا مسؤولية حفظ الامن في المدن على « صاحب المعونة » وفقدت الكوفة والبصرة سماتها العسكرية التي فرضتها اقامة المقاتلة فيها ، وبذلك سادت في المدن مظاهر الحياة « المدنية » التي فيها كثير من الاختلاف عن الحياة « العسكرية » •

وبالنظر لاستتباب الامن فقد انتفت الحاجة الى اقامة الاسوار الحصينة حول المدن ،بل حتى بغداد التي وضع لها ابو جعفر المنصور عندما اسسها سورا « حصينا » حول المدينة المدورة ما لبثت ان توسعت وازدحم السكان حولها

ولم يكن حول منازلهم في الارباض اسوار . ولم يذكر عناية العباسيين لمدن العراق ، سوى تسويرهم البصرة والكوفة في زمن ابي جعفر(٢١) .

وفيما عدا الامصار الثلاثة الاولى : الكوفة والبصرة وواسط ، ومركزي الخلافة في بغداد وسامراء ، لم تفرض الدولة تحديدا « على توسع المدن او شكلا « خاصا » يتخذه تنظيمها ، فكان التوسع والتقلص يجري تبعا للتطورات العامة ، وليس على احكام مفروضة .

وكان في كل مدينة جامع رئيس واحد لاقامة الجمعة ، وفي موقع متوسط من المدينة ، ويتجه بناؤه نحو القبلة ، وله مظاهر معمارية يخرج وصفها عن نطاق دراستنا ، وتختلف الجوامع بحجمها وطرزها المعمارية .

اما مقام الولاة في المراكز الادارية ، فكان في زمن الخلفاء الراشدين والامويين قرب الجامع ، ولم تذكر المصادر مواقع مقامهم في العصر العباسي ، علما بان كتب البلدان التي عنيت بوصف المدن اشارت الى ان كثيرا من مدن اقاليم المشرق في كل منها يقيم فيها الوالي ، وحولها ربض غير مسور تكون فيه مساكن الناس والاسواق والجوامع ، غير انها لم تذكر وجود مثل ذلك في مدن العراق ، مما يدل على ان هذه المدن لم يكن فيها هذان القسمان المتمايزان (القلعة والربض) .

وبالقرب من الجامع تقع الاسواق ، واكثرها دكاكين في دروب يختلف طولها ، والغالب ان اصحاب كل حرفة تكون دكاكينهم متقاربة في درب واحد ، والغالب ان تكون حول الجامع دكاكين تبيع ما يتصل بالمتدينين واهل العلم من شموع وكاغد واحذية ، ومن ورائها اسواق لمبيعات الاثاث والاقمشة والملبوسات وبعض المصنوعات ، اما اسواق المنتوجات الغذائية والاخشاب فتكون عادة قرب شواطىء الانهار .

يكون اصحاب السوق الواحد علاقات بينهم يقويهـا تقارب مواضع العمل والمصالح المشتركة ، وقد ينظمون انفسهم باصناف لكل منها رئيس يختارونه ، ويشرف على العلاقات بينهم ، ويعمل على حل الخلافات التي قد تظهر في معاملاتهم . ولا تتدخل الدولة في هذه التنظيمات ، ولكنها تعين « محتسبا » او « عاملا على السوق » يراقب اصحاب السوق لمنعهم مـــن غش سلعهم او مخالفاتهم المبادىء الاخلاقية العامة في معاملاتهم .

وتكون مساكن الناس وبيوتهم حول الجامع والاسواق ، ممتدة في طرق ودروب متفرعة وكثير منها ضيقة ملتوية ، واكثر البيوت صغيرة في كل منها غرف قليلة ، اما الاغنياء والوجهاء فتكون بيوتهم واسعة فيها غرف كثيرة ، وقد تكون في داخلها حدائق والغالب ان تكون بين اهل المحلة روابط مشتركة ، كأن يكونوا في الاصل من عشيرة واحـدة ، او يعتنقوا دينا او مذهبا واحدا ، وتقام في بعض هذه المحلات المساجد يصلي فيها اهل المحلة ، وقد يقيمون بعض مراسيم الاجتماع كالزيجات والمآتم كما تقام في محلات اهل الاديان الاخرى الكنائس وابنية العبادة .

ويشترك الاهلون في القيام ببعض الخدمات العـامة كالانارة واطفاء الحرائق ، وقد يوقفون املاكا يصرف ريعها على المعوزين والمحتاجين .

وكثيرا مايكون السكان علاقات متداخلة بعضهم مع بعض ، ويظهر فيهم من يخص بالاحترام والمكانة المرموقة من الوجهاء والعلماء ، وتكون مكانتهم تبعا لشخصياتهم وسلوكهم ، وليس لاي منهم مكانة وراثية او امتيازات قانونية ، فالشعب في نظر الحكومة واحد ، وافراده في نظر القانون متساوون ولهم حرية التصرف بما لا يخل بالامـن او الاداب العامة ، وهم ينظمـون حياتهم ويسيرون على وفق عادات وتقاليد تتطور ببطء وتحفظ للمدينـة مكانتها ، ومن حيث العموم تفخر المدن بما تنجبه من العلماء ، او ما تنتجه من السلع المتميزة .

غير ان المدينة تتميز عن الريف بان اراضيها تكون ملكا لاصحابها ، وفيها عدد محدود من الموظفين وابرزهم القضاة والشرط والمحتسبون وجباة بعض الضرائب ، وتنحصر اختصاصات عملهم على المدينة وحدها . والرابطة الاساسية المميزة لها هي الوالي الذي تعينه السلطة المركزية ، والجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة بالاضافة الى الصلوات الاخرى .

الهوامش :

١ ـ المالك لابن خرداذبة ٧ـ١٠ ، الخراج وضعه الكتاب لقدامة بن جعفر .
٢ ـ انظر : كتالوج النقود العربية ، لولكر (بالانكليزية) ، وكذلك الجداول الملحقة بكتاب (النقود الاسلامية) لزامباور (بالالمانية) .
٣ ـ الطبري ٢٤٩٧/١ .
٤ ـ الطبري ٢٦٤٩/١ .
٥ ـ الطبري ٢٤٨٧/١ .
٦ ـ الطبري ٩٨٠/٢ .
٧ ـ الطبري ٨٩٩/٢ .
٨ ـ الاغاني ٦٥/٢٠ .
٩ ـ الطبقات لابن سعد ١٩٥/٦ .
١٠ـ الطبري ٢٤٤٥/١ .
١١ـ البلدان ٢٤١ .
١٢ـ البلدان ٢٤١ .
١٣ـ البلدان ٢٧٠ .
١٤ـ البلدان ٢٦٩ .
١٥ـ المسالك ٨٦ .
١٦ـ المسالك ٨٧ .
١٧ـ احسن التقاسيم ٥٣ـ٥٤ ، ١١٣ـ١١٤ .
١٨ـ انظر طبقات ابن سعد ٢١/٦ ، اخبار القضاة لوكيع ٢٥١/٢ ، ٣٧٢ صحيح البخاري : بيوع ٢٥ .
١٩ـ انظر تفاصيل أوفى في كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .
٢٠ـ انظر في ذلك السعادة والاسعاد لأبي الحسن العامري ٣٦٥ مما ليس في تسهيل النظر للماوردي ، سلوك المالك لابن ابي الربيع ، ٧٧ فما بعد ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ (٤٩ ، ٥٠) .
٢١ـ انظر عن تحديد سور البصرة كتابنا ، خطط البصرة ومنطقتها .

الفصـــل الثاني

الامصار العربية في العراق
الكوفة والبصرة في العهود الاسلامية الاولى

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

مـدن شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام :

تذكر المصادر اسماء اماكن كثيرة في شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام وتشير الى خصائص بعض هذه الاماكن من حيث السعة او عدد السكان واعمالهم ونظمهم،غير ان المعلومات التي وردت عنها هي من حيث العموم مقتضبة فيها عدا ما يتصل بمكة والمدينة وكلاهما يقع في اقليم الحجاز ولهما علاقة وثقى بالرسول (ص)والاسلام في مطلع ظهوره ، فقد ولد الرسول (ص) من اسرة قرشية ، وعاش في مكة مدة اكثر من خمسين سنة نزل عليه الوحي طوال العشر السنوات الاخيرة منها ، وكان من اهلها معظم الصحابة الاولين، غير ان معظم اهل مكة قاوموا الدعوة الاسلامية عند ظهورها ، وتابعوا مقاومتها الى ان فتح الرسول (ص) مكة في السنة الثامنة ، ثم أخلص اهل مكة في التمسك بالاسلام والحفاظ على دولته ، اما اهل المدينة فقد بدأوا الاتصال بالرسول واعتناق الاسلام منذ السنة الثامنة للبعثة ، فلما هاجر الى المدينة ايده اهلها العرب واسهموا في تثبيت الدولة والدفاع عنها والتمسك بالاسلام ، وظلت المدينة منذ هجرة الرسول (ص) اليها مركز الدولة الاسلامية ومقام الرسول (ص) ثم الخلفاء الراشدين الثلاثة كما بقيت من ابرز مراكز الحركة الفكرية في الاسلام ٠

مكـة والمدينـة :

تميزت مكة بانها كانت في منطقة شحيحة المياه ، قليلة الزرع « واد غير ذي زرع » غير انه كان فيها بيت الله بناه ابراهيم جد العرب فكان يحج اليه الناس من كل فج عميق، وكانت حرما آمنا يأوي اليه المنشدون للسلم والطمأنينة ، كما كانت تقع على طريق القوافل وخاصة بين اليمن وبلاد الشام

ومصر . بالاضافة الى صلاتها التجارية مع الحبشة والعراق وبعض اقاليم شبه جزيرة العرب ، ودفعت هذه الاحوال الى نشاط التجارة واسهام اهلها فيها والى نشوء نظم ادارية وسياسية تتعلق بالمصالح العامة فمن ذلك مؤسسات تتعلق بامور الحج والاهتمام بمؤسساته والحجاج كالسدانة وعمارة البيت والسقاية والافاضة ، والرفادة ومؤسسات تتعلق بالامن العام كالرئاسة والاعنة ودار الندوة ، وكانت نظمها تسري على عدد من القرى المجاورة لها « حاضري المسجد الحرام » ، فهي دولة مدنية مستقلة في ادارة شؤونها وتقرير مصالحها الخاصة ، وان كان امتداد سلطانها محدود المكان .

اما المدينة فكانت تقع في منطقة مستوية واسعة تحيطها بعض المرتفعات ، وارضها بركانية خصبة تتوافر فيها المياه الباطنية والابار والمياه في الوديان العديدة التي تخترق ارضها ، ولذلك ازدهرت فيها الزراعة وخاصة النخيل والشعير وبعض الخضر ، غير ان موقعها النائي عن مسالك القوافل جعل اهلها عند ظهور الاسلام لايسهمون في التجارة ، ثم ان اهل المدينة كانت تسودهم النظم القبلية ولها تأثيرات متداخلة من تزاوج واتصالات سلمية، وتكتلات وحروب عدائية ولم يكن فيها قبل الهجرة مركز ديني عام أو مؤسسات ادارية وسياسية تعم المدينة وسكانها كافة .

الرسول (ص) والحياة الحضرية والتنظيم المدني :

وبعد ان هاجر الرسول (ص) الى المدينة واستقر فيها واتخذها قاعدة للاسلام ودولته عمل على نشر السلم والامن ، وجمع السكان برابطة عقائدية واجتماعية موحدة منبعثة من تعاليم الاسلام الذي امتدت رسالته الى التوحيد العقائدي ، وتوجيه السلوك الفردي والاجتماعي وجهة جديدة في ظل نظام يسوده الامن والسلم ويجمع للتوجه الى غاية واحدة ، اي انه اقام دولة تعنى بالعقائد والسلوك الفردي والاجتماعي ، ويتبع اهلها سلطة

مركزية عليا قائمة على اوامر الله تعالى المثبتة للمصالح العامة النافعة للمجتمع، وبذلك تأسست دولة المصالح العامة واوامر الله ، وقد اكدت هذه الدولة الجديدة على مبادىء عميقة لاتتطلب تنظيمات معقدة ، فاكدت على السلطة المركزية ووجوب طاعتها والرجوع اليها في الخلافات المهددة التي قد تظهر بين افرادها او الجماعات التي فيها ، فالمحور الاساس هو السلطة المركزية والقضاء العام ورمزه المسجد (الجامع) ومكانة الرسول (ص) ، دون الحاجة الى مؤسسات معقدة كالشرط والسجون والدواوين ، والتأكيد على العقائد والسلوك والتصرف الحسن والكلم الطيب دون الابنية الضخمة او الزخارف الحسية والمزركشات .

حارب الاسلام ما يناقض عقائده ومثله الاخلاقية والسلوكية ، وايد ما يتفق معها او ما يناقضها . فهدفه تنقية و « تخليص » العقائد والاخلاق ودفعها لانماء المجتمع السليم ولذلك ابقى عناصر « الخير و الصلاح » في مثلهم القديمة ، ورعى مكانة الرجال اذا ما تابعوا العمل في بناء المجتمع على وفق المبادىء الجديدة « خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام » ، وهكذا حث الاسلام على التطور السلمي للمجتمع بتقديره المثل العليا السليمة من شجاعة وصدق ووفاء وتعاون وتقدير للكلمة الطيبة ، والاسلوب البليغ ، ومما زاد في قوة التفاعل بين الاساليب العربية في الحياة والمثل الاسلامية ان انتشار الاسلام في زمن الرسول (ص) كان بالدرجة الاولى بين العرب غير ان مدى تشبعهم بالمثل العربية غير واحد ، فبعضهم وخاصة الاولين والذين كانوا ملازمين للرسول (ص) او قريبين منه ، كانوا اكثر تشبعا اما الذين اسلموا في اواخر سنوات حياة الرسول (ص) ولم يكونوا مقيمين بالقرب منه فقد كانوا اقل تشبعا في مبادئه التي يعتمد كثير منها على القناعة الباطنية وتحوير العقلية واسلوب التفكير ومواضيعه دون مجرد الاقتصار على مظاهر السلوك الخارجية ولكن ينبغي عدم المبالغة في

مدى هذا التعارض خاصة وان كلا المبدأين قائم على اساس متشابه من اللغة العربية والتقاليد السليمة للمجتمع ، فكان المجال واسعا لتوسع روح الاسلام باعتبارها رابطة اعم وهي تتفق مع كثير مما يؤمن بقيمته العرب •

وابرز مظاهر الاسلام انه حضري ، أي متصل بحياة الحضارة والمدن ، فهو يدرك نظمها ، ويعالج حياتها ، ويحث عليها فنظرته شاملة ، وروابطه واسعة ، ومثله حضرية ، وهو بهذا يختلف عن البداوة ، ومن مظاهر ذلك قلة الايات التي تذكر البدو ، فهي لاتتجاوز الست ايات اغلبها في معرض الذم لخصائصهم ، ومثل هذه المظاهر تجعل الاسلام اكثر انسجاما مع مثل اهل الحضر ونظمهم ، والواقع ان حركات الانشقاق والردة التي استمرت اثر وفاته (ص) كان اكثر القائمين بها من البدو،ورضي الرسول (ص) باعتناق البدو الاسلام وقبول مثله العليا ، وعمل على ان يكيف حياتهم بما يجعلهم بالتدريج متشبعين بروح الاسلام ومثله القريبة الى الحضارة وتثبيت دولة الاسلام في الجزيرة ، مكانة الحضر •

وعندما تم القضاء على حركات الردة وتثبيت الاسلام ودولته في كل شبه الجزيرة واستقرت مكانة السلطة المركزية العليا (الخلافة) في النفوس، اصبحت الجزيرة موحدة سياسيا في ظل دولة واحدة تؤمن بمبادىء اساسية واحدة وتعمل بتوجيهات هي اقرب الى روح الحضارة ، ويهيمن على توجيهها المركزي الخليفة ومن حوله من الصحابة وكلهم ممن تشرب الحياة الحضارية وادراك اهميتها بالصورة التي صقلها الاسلام •

وبعد ان قضى ابو بكر على حركات الردة ووحد شبه الجزيرة العربية واهلها في ظل دولة لها سلطة مركزية عليا تستمد قوتها من تعاليم القرآن الكريم الذي يحث على الوحدة وطاعة اولي الامر وجه الجيوش الى اطراف الجزيرة لتقوم بتوسيع الدولة التي كلمة الله هي العليا فيها ، وقد منع المرتدين من الاشتراك في هذه الجيوش ، ولما كان معظمهم من البدو ، فلم يكن

العنصر البـــدوي ، كبيرا ولكنه لــم يكن معدوما كليا ، لان عــددا غير قليل من البدو لم يكن قد ارتد ، وعندما ولى عمر بن الخطاب الخلافة سمح لكل أهل الجزيرة الانضمام الى الجيوش الاســلامية فكثر عــدد الجيش وازدادت نسبة البدو فيه وخاصة في الجيوش التي توجهت الى جبهة العراق التي اولاها الخليفة عمر بن الخطاب اهمية كبيرة ، وعززها بارســـاليات متتابعة حتى صار عدد المقاتلين فيها لايقل عمن ارسل الى جبهة بلاد الشام .

غير ان عمر بن الخطاب حرص على رعاية العنصر الحضري وتعــزيز مكانته فكان يولي « اهل المدن » القيادة ، ويتحاشى تولية « اهل الوبر » على « اهل المدر » ومن الواضح ان عمله هذا ينسجم مع روح الاســـــلام الحضرية ومع الاتجاه العام للصحابة الذين حوله في المدينة يولونه المشورة في توجيه الدولة .

تأسيس الامصار وتطور تنظيمها

الحاجة الى قواعد مستقرة :

لم يكن الغرض من انفاذ الخلفاء الجيوش التوسع والقيام بمجرد غزو مؤقت من اجل الحصول على غنائم مادية موقتة، وانما كان الهدف القيام بفتح منظم غرضه توسيع الدولة واستقرار حكم الاسلام ، ولتحقيق هذا الغرض تم اختيار المسالك التي تحقق ذلك ، فلم توجه الجيوش الاسلامية للاستيلاء على اغنى البقاع ، وانما لمقابلة القوى التي تعترض هذه الجيوش وتمنعها من تحقيق اهدافها • ومع ان المطلوب الاول من الجيوش الاسلامية هو الحركة ، الا ان هذه الحركة نحو اهداف واضحة ، فهي ذات اتجاهات ثابتة يقتضيها الفتح ، بعكس ما يتطلبه الغزو من حركة مؤقتة الاتجاهات ، وما دامت المسالك واضحة والهدف ثابتا فلابد من اتخاذ قواعد ثابتة لهذه الجيوش • وقد تم اتخاذ هذه القواعد حوالي سنة ١٦ هـ في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب ، وفي مختلف الجبهات ، اي في وقت مبكر من الفتوح ، وهو يكشف التصميم الاساس في استهداف العمليات العسكرية الفتح المنظم عن طريق القضاء على القوات التي تقف بوجه التقدم الاسلامي •

تعبير « المصر » وخصائصه :

وقد اختير لهذه القواعد اسم « مصر » وجمعها « الامصار » وهي كلمة عربية اصيلة كان يقصد بها « الحدود » ، ولم تستعمل قبل ذلك للدلالة على شكل معين من اشكال التجمعات البشرية ، وقد عرف العرب هذه الكلمة ووردت في القرآن الكريم لتطلق على الاقليم المشهور ، دون ان تكون لذلك صلة بالحدود ، او بالمعنى الذي اتخذته بعد انشائها •

ويروى ان عمر بن الخطاب عندما قرر اتخاذ هذه القواعد قـــال « مصروها » ، وقال « لا تتخذوا بيني وبينكم ماء » ، أي انه اشترط ان تتخذ هذه القواعد على الاطراف الشمالية من شبه جزيرة العرب ، لما في ذلك من اهمية . كما اشترط ان يكون مناخها جافا يلائـم الابل ، والامصـار لاتقتصر على قوات عسكرية صغيرة تقوم بعمل « السواتر » في مراقبة تحرك العدو والتصدي لتقدمه ، واعاقته ريثما تتجمع القوة الكبرى ، وانمـا هي قواعد استقرار رئيسة يقيم فيها العدد الاكبر من المقاتلة مع عيالاتهم لمـدة دائمية ، ويجدون فيها ما يحتاجون اليه من السلع ، ويسود فيها تنظيم واسع يجمع بين السمة العسكرية والمدنية .

واتخاذ هذه الامصار في اطراف الجزيرة لايعنى ان الخليفة عمر بـن الخطاب كانت طموحاته في توسيع الدولة محدودة ، او انه كان يقصد مـن اقامتها تدبيرا وقتيا ، فان كل المؤشرات تدل على ان هدف عمر كان استمرار التوسع وتيسير ذلك باتخاذ قواعد اكثر ملاءمة للوضع الجديد من مجـرد الاكتفاء بالمدينة مقر الخلافة . انه تعبير عن تيسير اشراك اهل الجزيرة كلهم في الفتوح ، فتتخذ قواعد قريبة الى ديارهم .

ان تاكيد عمر بن الخطاب ان تكون هذه القواعد متصلة بشبه جزيرة العرب دون ان يفصلها حاجز مائي معرقل يعبر عن اعتقاده باهمية سـكان جزيرة العرب وكونهم عماد الدولة وركيزتها ، وهي تنسجم مع ما اورده الرواة عن توصيته من يلي الامور بعده بالعرب خيرا « فانهم مادة الاسلام » « يمدون اخوانهم » ، فجزيرة العرب هي المستودع الاكبر للعرب الذين تقوم عليهم الدولة ، فمنهم الجيش ومنهم امداداته ، ولذلك حرص على ان تكون لهم مكانة متميزة ، فمنع استرقاق العرب ، وحرر المسترقين منهم ، ودفع فدية تحريرهم ، وامر بحسن معاملتهم وعدم الشدة عليهم او تحجيرهم ، كما انه لم يشجع زواج العرب بالاعجميات ، وامر بابطال الزيجات التـي

حدثت مع نساء المدن المفتوحة ، ولا ريب في انه فعل ذلك لان الاحوال في هذا الزمن المبكر كانت تقضي ان يكون للعرب المكانة المتميزة ؛ اذ كان الاسلام لايزال مقصورا على اهل شبه جزيرة العرب ، والتأييد الذي لقيته الفتوح جاء بالدرجة الاولى من العرب الذين كانت ديارهم في اطراف الجزيرة وقد مالوا عند تقدم الجيوش الاسلامية الى تلك الجيوش وايدوها وناصروها دون جيوش الدول التي هيمنت على ديارهم • فاقامة هذه الامصار في اطراف الدولة يجلب عرب الجزيرة الى المناطق التي سيتوسع فيها العرب ، ويوثق الصلة بالعشائر العربية التي ديارها قريبة منها وميولها مع العرب ، والواقع ان اخبار المعارك تظهر ان غالبية هذه القبائل قاتلت مع الجيوش الاسلامية، او كانت ميالة للعرب •

اهمية الامصار الجديدة :

كانت كل من هذه الامصار مركز امير الجيش المقيم فيها والذي كان عليه توسيع حدود الدولة في منطقة المصر ، وحفظ الامن والسلم في تلك المنطقة ، وتبع هذا القيام بمهمات ادارية فيها اضافة الى تأمين السلم ، فالمسؤولية الادارية للامصار تمتد لتشمل ما يتعلق بالمقاتلة العرب وكذلك الاقاليم التي حررها المقاتلة ، وبهذا لم تعد المسؤوليات الادارية مقصورة على المصر وحدها ، وانما امتدت الى ماوراءه من الاراضي والبلاد وقد بقيت السلطة العليا في الادارة للخليفة ، فهو المرجع الاعلى والمسؤول الاكبر ، وهو الذي يعين ولاة الامصار ويراقبهم ويعزلهم، ويصدر الاوامر الواجبة الطاعة، وبذلك كان المنسق الاعلى للادارة الاسلامية ، والمصدر الاول لتوحيد النظم التي تسود الدولة ، ولكن اصبحت لولاة الامصار مجالات واسعة في تطبيق الانظمة والممارسة الفعلية ، وبذلك كانت سلطاتهم الفعلية واسعة قد لا تقل عن سلطة الخليفة ، وخاصة في ما يتعلق بالاقاليم التابعة في ادارتها للمصر ، وزاد الصلة بين الخليفة واهل المصر الذي يقيم فيه ويتصل بأهله

وبمشاكلهم وافكارهم ، وتناقص اطلاعه على اهل الاقاليم الذين اصبح الولاة اكثر صلة بهم من الخليفة .

تم اختيار الامصار في العراق وبلاد الشام في رقعة بعيدة عن مراكز الادارة القديمة ، وتطلب هذا احداث تبدلات في التنظيم الاداري ، اذ كان لابد من نقل المراكز الرئيسة لبعض الدواوين ، وخاصة ما يتعلق بجباية الخراج والمالية الى هذه الامصار والمعروف ان العاملين القدماء في الدواوين ظلوا في عملهم، ولكن نقلهم الىالمراكز العربية الجديدة من شأنه انيؤثر في توجيههم، فمن ذلك انهم ياخذون عددا من مستخدميهم من اهل المصر ، وهم يخضعون لاشراف الولاة العرب ، كما ان قربهم من العرب في الامصار يزيد من اطلاع العرب على شؤون الادارة المالية .

ان اقامة الامصار هو تعبير عن الاهمية الواقعية للاقاليم والعرب المقيمين فيها في تكوين الدولة وتثبيتها وتنظيمها ، والواقع ان الحوادث في المدينة اصبحت مقصورة بالدرجة الاولى على انتخاب الخليفة او وفاته ومقتله والمناقشات التي يقوم بها اما الاغلبية المطلقة للحوادث المهمة واخبارها فقد اصبحت ترد من هذه الامصار ، حتى ليمكن القول بان تاريخ الاسلام بحوادثه وتسجيلاته هو تاريخ هذه الامصار واسهامات العرب المقيمين فيها .

اسس اختيار الموقع :

تذكر المصادر عن عمر بن الخطاب انه وضع شرطين للمكان المختار للمصر هي ان يكون مناخها جافا صحراويا « العرب لايصلح لها الا مايصلح للابل » ، وان لايفصلها عن الجزيرة العربية حاجز مائي ويمكن ان نضيف الى ذلك شرطا ضمنيا هو ان يكون الموقع جديدا ، اي ان يكون عربيا اسلاميا خالصا .

ان الشرط المناخي ذو اهمية للسكان ، فقد عانى المهاجرون عندما نزلوا المدينة من وخامة هوائها الناجم من كثرة المياه الضحلة فيها ، وظلت

المناطق الوخمة الهواء في الحجاز ، واشهرها خيبر والجحفة مما تكره الاقامة فيه • والواقع ان المناخ الرطب يفشي امراضا تؤثر على صحة الناس وكفاءتهم ومن ذلك الملاريا وبعض الامراض الصدرية وقد فضل موقع البصـــرة والكوفة على عدد من المواقع الاخرى الرطبة ، غير ان كلامنها انشىء في مواقع ليست بعيدة عن الاراضي الرطبة في الجهات الجنوبية من الكوفة •

وعدم فصل الامصار بحاجز مائي عن شبه جزيرة العرب غرضه توثيق الصلة بينهما ، ولابد ان الهدف الرئيس هو عسكري دفاعي لامكان امداد اهلها وسحبهم ، ولكن له نتائج اخرى هو تيسير انماء العرب والثقافة العربية امام واقع البلاد المفتوحة عدديا وحضاريا •

الكوفــة والبصرة :

أمر عمر بانشاء ستة امصار في الدولة ، منها اثنان في العـــراق همـــا الكوفة والبصرة ، وقد احتفظت كل منهما بموقعها الـــذي شـــيدت فيـــه منذ اول مرة ، ولم تتبدل رقعتهـــا وان كانـــت قـــد تعرضـــت الى توســـع وتقلص على مر الايـــام •

غير ان كلا منها شيد بلصق مركز حضاري قديم احتفظ بوجوده بعد تشييد المصر الجديد ، فالكوفة كانت ملاصقة للحيرة ، والبصرة كانـــت قريبة من الابلة ، لا تزيد المسافة بينها على عشرة اميال •

وقد احتفظت المراكز القديمة بوجودها ، فلم تزل او تنقرض ، والراجح ان اهلها احتفظوا بتنظيماتهم واساليب حياتهم القديمة ، فالبصـــرة نمـــت لتكون مركزا عسكريا وثقافيا في العلوم اللغوية والدينيـــة ، اما الابلـــة فظلت مركز التجارة البحرية ولم يعرف عنها اسهام ذو قيمة في الميادين التي تميزت بها البصرة ، ولم يعـــرف عن اهل الحيرة اســـهامهم في العلوم التي تميزت بها الكوفة ، او انهم تركوا اساليب حياتهم القديمة •

ولابد ان لغة كل من اهل الحيرة والابلة كانت عربية لانها في منطقـــة عربية ، واذا كانت معلوماتنا عن الابلـــة شحيحة ، فان معلوماتنا عن الحيرة

اوسع ، فسكانها عرب ، ينتمون الى عشائر عربية ، وكان ملوكها المنـاذرة قبل الاسلام ذوي صلات واسعة باهل الجزيرة ويؤمهم شعراء الجزيرة ويعنون بالشعر العربي وكان هذا من عوامل نمو الشعر في الكوفة بعـد الاسلام ، وانما ازدهر الشعر فيها استمرارا للتراث الذي كان قائما في شـبه جزيـرة العرب ، وهو لم يقتصر على الكوفة ، وانما امتد ايضا الى البصرة التي ليس للحيرة تأثير فيهـا •

التأسيس والتطور :

انشئت كل من البصرة والكوفة في الحد بين صحراء شبه جزيرة العرب، ومناطق الريف والزراعة في العراق ، وكان لابد ان تحدث علاقات سكانية واقتصادية وحضارية بينهما ، فكان اهل المصرين يعتمدون في معيشتهم على المنتوجات الزراعية التي يعمل فيها اهل الريف في غذائهم وكثير من اللوازم الضرورية لمعيشتهم ، كما ان عددا من اهل الامصار امتلك اراض في الريف وهاجر عدد من اهل الريف الى هذه الامصار واستقروا فيها ، وكانوا يعملون في كثـير مما يحتاج اليـه المصر من حـرف وبعض الصناعات • غـير انه ينبغي عدم المبالغة في سرعة ومقدار الامتزاج ، فان العرب كانت لهـم الغالبية العددية ، والمهاجرون اليها من غير العرب عددهم قليـل وثقافتهـم محدودة وكانوا آخذين من العرب اكثر من معطين •

انشئت الامصار لتكون قواعد لاستقرار المقاتلة العرب وعيالاتهم ، فالسمة العسـكرية هـي التي تميـز اهلها ، وحاجاتهم هـي التي تحظى بالافضلية ، اللباس والسكن والسلاح ، والمثل العسكرية هي الاظهر : تقدير القتال والشجاعة والاعتزاز بالدولة بالصورة التي يدعو اليها الاسلام •

غير ان السـكان لم يكونوا في قالب حضـاري واحد ، فمنذ اول انشائها كان فيها من هم متشبعون بروح البداوة ، ومن هم من اهل المدر ، اي الفلاحون ورجال الاعمال والتجار ، وفيهم المعنيون بالجيش والقتال ، والمعنيون بالفكر والاداب •

وبمر الايام حدثت تطورات في الحياة العامة في كل من الكوفة والبصرة :

١ ــ تناقص الاسهام العسكري في الحركات الحربية في كثير من الاماكن بعد توسع الدولة : فتناقص دور اهل الكوفة منذ زمن عثمان بن عفان ، وتناقص دور اهل البصرة منذ زمن معاوية حين نقلت جالية من المقاتلة الى خراسان والقي عليها واجب حفظ الامن وتوسيع حدود الدولة في اواسط اسيا .

٢ ــ تناقص الدافع للقتال بعد ان تكونت الدولة واستقرت وثبتت كلمة الله العليا ، واصبح تثبيت العقيدة يتطلب استعمال الفكر دون الحماية.

٣ ــ ضعف التدريب العسكري عند الناشئة بازدياد انغمار الناس وخاصة الجيل الجديد بالحياة المدنية وقد يكون المنصب العسكري وراثيا ، فيسجل الولد في العطاء الذي دخل فيه والده والذي هو مظهر العمل العسكري ، غير ان التدريب العسكري ليس وراثيا دائما ، فقد ينفر الابن من الجندية ويتحاشى العمل فيها ، حتى لو سجل في العطاء ، علما بانه لاتوجد اشارة الى تدريب عسكري تفرضه الدولة على الناشئة ، او ساحات للتدريب . والواقع ان الاولين تدربوا في الجزيرة وصحاريها للقيام بخدمة ضرورية ، لمجتمعهم ، ونقلوا ذريتهم الى الامصار عند تاسيسها ، اما بعد الاستقرار فان الدربة العسكرية تضاءلت ونقص كثير من اصحابها بوفاتهم او استشهادهم ، او بانضمامهم الى الثوار الذين تدل حركاتهم على تدربهم ، ولجأت الدولة الى الافادة من القادمين الجدد من الصحراء لتسجيلهم في العطاء واستخدامهم في القتال .

اقتصر تدخل الوالي في تاسيس المدينة على اختيار الرقعة التي تشيد عليها ، وربما المركز الرئيس ايضا وقام افراد من المقاتلة اختارهم الوالي بالاعمال المحدودة التي تولتها الدولة ، وهي تحديد المسجد الجامع ، والسكك والدروب ، وتخصيص القطائع للعشائر ، والعرب الذين ذكر قيامهم بهذا العمل هم من اهل الحجاز ، واكثرهم من البدو ، وليسوا من الصحابة

الاولين ، ولم ترد معلومات عن خبراتهم الاولى ، ولا يوجد دليل على اتصالهم بالحضارات الخارجية ، او خبراتهم عنها ، او انهم كانوا من اهل المدن في الحجاز ، فخبراتهم فطرية اصيلة ، وليست تقليدا مكتسبا ، واهتمامهم بتوفير الاستقرار للناس وتامين تسهيل حياتهم دون تأمين الترف لكل جماعة .

والقائمون بالعمل أفراد قليلون . والعمل مركزي عام ، فالهندسة العامة قام بها عدد محدود من العرب الخلص ممن عاشوا في الجزيرة ولم يعرف لهم اتصال بالخارج او علاقة بالاعاجم ، لذا يمكن اعتبارها عربية خالصة .

كانت الرقعة التي اختيرت لتشييد كل من الكوفة والبصرة ارضا مستوية لم تذكر فيها وهاد او تعاريج او مرتفعات او مجاري انهار قد تؤثر في تنظيم الخطط . غير انه كان في الطرف الشرقي من الكوفة ارض منخفضة سبخة يتلوها نهر الفرات الذي يكون حدا لنموها الشرقي ، غير انه يكون شريان مواصلات تسلكه الزوارق والسفن الحاملة لكثير من السلع ، وخاصة المواد الغذائية ، وكان له تأثير في تقرير موقع دار الرزق قرب السبخة في شرقي الكوفة .

اما البصرة فكانت مياه البطيحة تغمر اطرافها الشمالية الشرقية فتحد من توسعها في تلك الجهات ، غير انها تتصل بمجرى دجلة ويسر شق نهر معقل الاتصال بين البصرة ودجلة فكانت الزوارق والسفن تسلكه وعنده اقام جباة العشور مراكزهم .

وادى هذا الوضع الى ان تنشأ فيها بعض الاسواق وخاصة لبيع المنتوجات الزراعية المستوردة من مناطق الريف الواقعة عبر النهر . غير ان نمو هذه الاسواق ، وقيام دار الرزق ، لم يؤديا حتى في اوج نمو كل من البصرة والكوفة الى ان تنمي الاقسام الشرقية القريبة من النهر من أي منهما تنظيما خاصا يواجه الاقسام الاخرى .

ان استواء الارض وفقدان العوارض الارضية البارزة اتاح المجال

لتوسع كل من المصرين ، وامتداد الابنية فيه الى الاطراف • ولدينا عـ
توسع البصرة معلومات اوفر ، حيث ذكر عدد من القصور والمنازل الة
في اطرافها ، وبعضها بعيد عن عقد التجمع السكاني ، ففي الاطراف الجز
والغربية اقيمت قصور بالقرب من سفوان والشباك وقصور قرب المر
وقصر انس والقصر الابيض في الشمال(٢٢) وقد ظلت امدا دون سور وخنا

غير ان النشاط الرئيس الذي يشمل ازدحام السكان والاسواق
في اواسطها ، وكان يدعى في البصرة « الباطنة » وقد احتفظ كل م
قرونا طويلة بمكانه الذي انشىء فيه اول مرة ، الى ان حدث تحول و
في المركز ، فانتقل مركز البصرة اميالا شرقي المكان الذي انشئت فيه ، ا
مركزها الحالي ، اما الكوفة فقد انتقل مركزها في النجف على اميال مـ
مركزها القديم •

المنشآت العامة : الجامع ودار الامارة :ـ

انشئت الكوفةوالبصرة وبقية الامصار لاقامةالمقاتلة العرب المسلمين ال
يتبعون الدولةالتي تقوم على اعلاء كلمة الله وعلى سلطةمركزية عليا تنفذاوام
على الجميع فأساسها المركزي الدين والسلطة المركزية العليا ، من جهـ
والمقاتلة من جهة اخرى ، وقد روعي في تخطيط الامصار بروز هذين الجا
وتيسير التناسق بينهما •

فكان اول ما وضع في التخطيط تحديد مكان جامع واحد روعى
ان يتسع لكل المقاتلة دون تحديد خاص لاية جماعة متميزة او متفرد
وقد روعي في تشييده البساطة ، فكان ساحة واسعة محددة بسياج مـ
قصب ، وفي طرفه ظلة من القصب ، وحوله رحبة واسعة من الارض خ
من الزخارف والتزيينات ، وظل على هذا الحال اكثر من عشر سنو
استعيض بعدها عن القصب بالطين لتحديد حدوده ، وبعد ذلك بحوا
عشرين سنة بنى زياد بن ابي سفيان الجامع من اعمدة من الحجارة والطابـ
لكي تقي المسلمين اشعة الشمس في الصيف والمطر في الشتاء ، وظلـ

للمسجد ساحة واسعة مكشوفة للناس ، يتحلقون فيها للاحاديث والمناقشات والابحاث والمداولات في الشؤون الخاصة والعامه والعلوم والاداب ، وفي طرف منها يجلس القاضي لسماع الشكاوى والحكم فيها ، وفي هذا المسجد تقام صلاة الجمعة ويلقي فيها الوالي الاوامر والتوجيهات ، كما ان فيها يجتمع الناس عند حدوث اضطراب في الامن لنصرة الوالي ودعمه .

والمنشأة المركزية الثانية في المصر هي دار الامارة ، وكانت ملاصقة للمسجد الجامع في ضلعه القبلي المواجه لمكة ، ويعبر هذا التلاصق عن الصلة الوثيقة بين الدين والادارة ، ويسبغ على دار الامارة بعض حرمة الجامع .

ودار الامارة مكان اقامة الوالي واهله طيلة مدة ولايته ، وهي المركز الذي يصرف منه شؤون الادارة وما تتطلبه من مقابلة المراجعين من الافراد والوفود والجماعات .

وكان بناء دار الامارة من اللبن والطين وسقفه بالعشب ، ثم اعاد زياد بناءها بالطابوق والجص[٢٣] وفي كلتا الحالتين كان البناء بسيطا خاليا من الزخارف ، غير انه كان واسعا ليتسع للوالي واهله وضيوفه .

وبالقرب من دار الامارة كانت ابنية للدواوين[٢٤] وابرزها ديوان الجند والعطاء الذي يضم سجلات باسماء المقاتلة وعيالاتهم ومقدار عطاء كل فرد ورزقه وتجهيزاته ، وكذلك ديوان الرسائل التي تحفظ فيها الرسائل الواردة للوالي ونسخة مما يصدره ، ولعل فيه ايضا ديوان الخراج الذي تحفظ فيه سجلات تقدير جباية الخراج من البلاد التابعة للمصر .

وبالقرب من هذه المنشآت شيد السجن لحبس من يسيء التصرف ويخل بالنظام[٢٥] .

وبالنظر لاهمية هذه الابنية فقد خصص لها حرس خاص كانوا في البصرة من السيابجة ويبلغ عددهم خمسمائة يقيمون عند المسجد ليحرسوه ويمنعوا من يعبث بالامن عنده او يحاول استغلاله للتمرد والعصيان[٢٦] .

ومنذ زمن ولاية زياد بن ابي سفيان وضع للوالي حرس خاص قوامه خمسمائة رجل عليهم رجل يتم اختياره من رجال العرب المعروفين بحزمهم ومهابتهم[٢٧] ، وهم يخضعون لاوامر الوالي ، ويعززون سلطانه ، وينفذون اوامره •

السلطة المركزية وتوسعها :ـ

لا ريب في ان هذا الحرس ساعد على تقوية نفوذ الوالي ، غير انه لم يكن المصدر الوحيد لقوة الوالي ومركزه ، حيث كانت للوالي احوال اخرى تعزز مكانته المتميزة ، فهو ممثل الخليفة صاحب السلطة العليا للدولة ، وهو يرعى المصالح العامة للمجتمع ككل وليس مجرد مصلحة قبيلة او جماعة صغيرة وهو يحفظ التوازن بين هذه الجماعات . ويحدد الحقوق والواجبات بينهم فهو ليس مجرد حكم بين الناس وانما كانت له السلطة العليا وكان الجميع يعترفون ان « السلطان لا يعدي عليه »[٢٨] •

ثم ان الوالي لم يكن مسؤولا عن الادارة العامة في المصر فحسب ، وانما ايضا على مايرتبط بالمصر من المناطق ، وكان مسؤولا ايضا عن ادارة الدواوين في داخل المصر وغيره ، فمنطقة سلطانه واسعه ، وبمقدوره ان يصدر الاوامر لهذا الغرض •

وكان الولاة مسؤولين عن اعداد الحملات العسكرية والقيام بالفتوحات ، وكانوا في العهود الاولى يقومون بانفسهم بقيادة الجيوش الاسلامية ، يساعدهم في ذلك عدد يختارونهم من القواد الصغار او رؤوساء العشائر ، ثم اصبح الولاة متفرغين لشؤون الادارة وقلما يقودون بانفسهم الحملات وانما يختارون قواد الحملات العسكرية ، وولاة كثير من المدن التي تتبعهم في اداراتها ، وكانت لهذه القيادات الولايات اثر في تعزيز مكانة من يتم اختيارهم لها ، لذلك كان كثير من ذوي المكانة يتقربون الى الوالي للحصول على هذه المناصب ، فكان هذا من عوامل تعزيز مكانة الوالي ونفوذه •

وكان الخلفاء يختارون لولاية الامصار من يرون فيه الكفاءة والقدرة، ومسن يثقون فيه ، فكانت لصلة الوالي بالخليفة اثر في تعزيز مكانته ، يضاف الى ذلك ان عددا من الولاة كانت لهم شخصيات متميزة ، وثروات واسعة ، واموال عظيمة تحت تصرفهم ، فاعانت على توسيع نفوذهم وتقوية مركزهم ويسرت لهم قوة اجتماعية وسطوة شخصية واسعة بالاضافة الى القوة التي يستمدونها من منصبهم .

خطط السكان :ـ

كانت المنشآت العامة محدودة في عددها ، فهي تشمل المسجد الجامع ودار الامارات والدواوين وهي متقاربة في اماكنها وتختص بعناية الدولة في عمارتها وحراستها ، وكانت تحيطها رحبة واسعة مفتوحة لايحدها سور او سياج ، وانما تحيطها بيوت عدد من الناس واغلبهم ممن كانت لهم مكانة متميزة عندما اسس المصر ، وظلت لهذه البيوت ميزة ، اما لمكانة من انتقلت اليهم ملكيتها ، او لما اتخذت له من مراكز تجارة واسواق .

وتم تخطيط كل من البصرة والكوفة عند انشائها ، مركزيا فولي ابو الهياج الاسدي تخطيط الكوفة(٢٩) ، وولي محجن بن الادرع السلمي تخطيط البصرة(٣٠) .

ذكر الطبري تفاصيل عن تخطيط الكوفة عند تأسيسها فقال :

« لما اجمعوا على ان يضعوا بنيان الكوفه ارسل سعد الى ابي الهياج فاخبره بكتاب عمر في الطرق : انه امر بالمناهج اربعين ذراعا ، ومايليها ثلاثين ذراعا ، وما بين ذلك عشرين ، والازقة سبعة اذرع »(٣١) .

ويذكر انه بعد ان خط ابو الهياج مكان الجامع ودار الامارة والرحبة خط المناهج حول ذلك ، فوضع في الشرق ، وفي الغرب ثلاثة مناهج ، وفي الجنوب اربعة مناهج وفي الشمال خمسة مناهج ، ويذكر ان هذه المناهج المتفرقة مما حول المسجد ودار الامارة هي « مناهجها العظمى » أي شوارعها الرئيسة ، وانهم « بنوا مناهج دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها ،

واخر تتبعها ، وهي دونها في الذرع ، والمحال من ورائها وفيما بينها ،وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن[٣٢] .

الشوارع والطرق :ــ

فالمناهج ، أي الشوارع هي المحاور الرئيسة الثابتة الاساسية في تخطيط المدينة ، وهي مستقيمة تؤدي كلها الى الرحبة التي فيها الجامع ودار الامارة ، وعددها خمسة عشر منهجا تتوزع بين ٣ــ٥ في كل جهة ، ولم تذكر الابعاد بين منهج واخر ، والراجح ان الابعاد كانت حوالي ستين ذراعا ، والذراع قرابة ٦٥سم ، اي حوالي اربعين مترا . فتخطيطها الاصلي كهيئة العجلة ، وليست كهيئة رقعة الشطرنج الذي عرفت به المدن الاغريقية . عرض كل من هذه المناهج الرئيسة اربعون ذراعا أي حوالي ٢٥ مترا ، وهي تكفي لمرور الابل بسهولة ويسر ، فضلا عن مرور بقية حيوانات النقل والسابلة ، وظلت هذه المناهج الرئيسة السمة المميزة لتخطيط المدينة ، وقد منع زياد التجاوز عليها .

وبجانب المناهج الرئيسة مناهج اصغر عرض كل منها ثلاثون ذراعا اي حوالي عشرين مترا تحاذي الرئيسة ثم تلاقيها ، وبعضها اصغر من ذلك ، وتتفرع من الجميع ازقة عرض كل منها سبعة اذرع اي اقل من خمسة امتار ، وهي تكفي لمرور السابلة ويتوفر عليها في جدران البيوت حولها ، ولم تذكر تفاصيل عن ابعاد هذه المناهج الفرعية والازقة ، لان الاهتمام الاكبر كان على المناهج الرئيسة .

كانت هذه الشوارع والطرق مستقيمة مفتوحة ، ليست لها ابواب تغلق عليها او اقواس في مداخلها او جنباتها ، وكانت خالية من الزخارف ومظاهر الزينة ، ومع انها متعاقبة ، ومتوازنة ولايمكن تغييرها الا بالاخلال بالتصميم العام ، الا ان كلا منها كان بالامكان مده في تلك المنطقة المستوية الفسيحة ، وهذا المد يتيح توسع المدينة نحو الجهات كافة ، الا الجهة الشرقية التي يحد التوسع فيها امتداد النهر وما عند شواطئه من سباخ .

ولم تذكر الروايات تخصيص اراض لتكون ساحات عامة للتجمع او تدريب الجند ، ولا ذكرت فيها مناطق خصصت لتكون حدائق عامة ومتنزهات • وفقدان هذه الامور يسمها بسمة الجدية التي تتميز بها الحياة العسكرية للمقاتلة الذين انشئت لسكناهم واقامتهم ، وهي تنسجم مع الروح السائدة في الابتعاد عن الترف المادي الباذخ ، وقد اشارت المصادر الى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يحث الناس على الابتعاد عن الترف ويروي انه كان ينصح الناس ويقول « اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم » وان البناء الاول كان بالقصب ، ثم اباح لهم بعد حدوث الحرائق ان يبنوا باللبن ، وامرهم الايزيد مداهم على ثلاثة غرف والايطاولوا في البنيان وحدد قدر البناء بما لا يقربهم من السرف او يخرجهم عن القصد(٣٣) •

الخطط والقطائع :ـ

كان الهدف الرئيس من تأسيس الامصار ان تكون قاعدة لاستيطان المقاتلة وعيالاتهم واقامتهم دائميا فيها ، وقد منح عدد الشخصيات البارزة قطائع شخصية شيدوا عليها دورا لسكناهم ، وكانت كل هذه القطائع الشخصية بالقرب من المسجد الجامع وحول الرحبة ، فكانت كالسور المميز للمنشآت العامة التي في داخل الرحبة عما حولها • ونظرا لقرب هذه القطائع من المسجد الجامع ودار الامارة والدواوين ، وكذلك المكانة الشخصية لاصحابها ، فقد احتفظت بمكانة خاصة متميزة ، مدة اكثر من نصف قرن •

وقسمت الاراضي الواقعة على المناهج العظمى او بينها على المقاتلة وروعي في التقسيم الروابط القبلية ، فخصصت لكل عشيرة « خطة » اي ارض محددة تسمى باسم العشيرة التي رسمت اقامتها فيها ، واحتفظت هذه الخطط باسمائها العشائرية لعدة قرون ، وكان هذا من ابرز ما يميز الامصار الاولى عن المدن والبلدان الكثيرة التي قامت في اقاليم الدولة قبل الاسلام وبعده •

وكانت العشيرة تقسم خططها بين افرادها ، فيأخذ كل منهم قطعة يقيم

عليها مسكنه مع زوجته واطفاله ، وكان بناؤهم اول الامر بالقصب ، مما يسهل تبديل قطائع الافراد او تعديلها بما يؤمن الانسجام والاستقرار ، غيران القصب معرض للحريق ، ويروى ان كلا من البصرة تعرضت خلال السنوات الثلاث الاولى الى حريق مدمر فامرهم عمر بن الخطاب ان يعدلوا عن القصب بالطين يبنون منه البيوت • ويروى ان القطائع وزعت بالتساوي بين الافراد ، وكانت قطيعة كل فرد ستين ذراعا ، اي حوالي اربعين مترا ، وهي تكفي لتشييد بيت صغير ياوي اسرة محدودة العدد مكون من ثلاث غرف(٣٤) •

وروعي في وضع الخطط ان تستوعب المقاتلة كافة بمن فيهم الحاميات التي ترسل مؤقتاً الى المناطق التي تستدعي اقامة جند لحمايتها• ولابد ان مساحة الخطط كانت واسعة تستوعب المقاتلة وروادفهم(٣٥) وقد خصصت في كثير من هذه الخطط ارض فضاء لتكون مقابر لمن يتوفى من افراد العشيرة ، وبذلك كانت في الكوفة مقابر متعددة وموزعة على خطط العشائر ومسماة بها ، وتستخدم هذه المقابر لتجمع الناس ايضا •

استيعاب تزايد السكان :ـ

ثم تتابعت هجرات العرب من الجزيرة العربية الى هذه الامصار ، ولم تقيدها الحكومة وانما جعلتها حرة ، وكانت من مختلف ارجاء الجزيرة وغير منتظمة ، وادت هذه الهجرات الى تزايد السكان ، ولكنها تطلبت تنظيم اسكانهم ، وكان هؤلاء المهاجرون ينضمون الى عشائرهم المقيمة في المصر ، واعطي بعضهم لسكناه اقطاعات من الاراضي الخالية في الخطة ، كما ان بعضهم اعطي بعض القطائع التي قسمت من قبل ، غير ان بعض العشائر كانت من الكثرة لدرجة لا تستوعبهم خطة عشيرتهم ، فاعطوا خططا جديدة(٣٦) • وهكذا ازدحمت الخطط السابقة بأهليها ، واختلف مقدار هذا الازدحام ، فبعضها غص بالسكان وبعضها كان الازدحام فيه قليلا ، كما ان بعض العشائر كان لكل منها اكثر من خطة ومن حيث العموم كانت خطط

العشائر القديمة في الداخل واقرب الى مركز المدينة ، اما المهاجرة الجدد فكانت خططهم في الاطراف الخارجية •

اثر النظام القبلي في التخطيط :ـ

كان التنظيم القبلي اساس تنظيم كل من الكوفة والبصرة ، فكانت العشيرة هي الوحدة المتميزة ، وهي تتكون من عـدد من الافراد الذيـن ينتمون الى جد واحد ينحدرون منـه ويتسمون به ، ويشتركون في عدد من الحقوق والواجبات ، فانهم كانوا يشتركون في وراثة من لاوارث لـه ممن يموت من افرادها ، كما انهم يساهمون جميعا في دفع دية القتل الخطأ الذي يرتكبه احد افراد العشيرة او مواليها ، وهذا بالاضافة الى مايربطهم مـن اعتزاز باعمال اسلافهم وامجاد ابائهم ، وكان تقارب مساكنهم في خطة واحدة يزيد من قوة هذه الروابط واستمرارها ويجعلها تطغى على رابطة الاسرة ، وتهيمن على الفرد فتشده اليها •

فالعشيرة تكون وحدة متماسكة متميزة تصلح ان تكون اساسا لادارة السكان وتنظيم الجيش[٣٧] ، غير انه يبدو ان هذا لم يكن امرا سـهلا في السنوات الاولى لان هجرة العشائر لم تكن منتظمة ، فكانت بعض العشائر كثيرة العدد ، وبعضها قليلة الافراد ، كما ان عدد هؤلاء الافراد لم يكن ثابتا ، بل قد يزيد او ينقص بسبب الهجرات من الامصار واليها ، او بسبب الوفيات ومن يستشهد في المعارك • ونظرا لشدة حاجة الدولة الى ايجاد تنظيم يؤمن توزيع العطاء على السكان ، فان الدولة لجأت الى تقسيم السكان الى وحدات على كل منها عريف ، ولذلك كانت تسمى العرافات • ويذكـر سيف بن عمر انه خصص لكل عرافة مائة الف درهم من العطاء توزع سنويا على اهلها ويصيب كل فرد مقدار تبعا لقدم اشتراكه في المعارك ، « فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة واربعين رجلا ، واربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة الف درهم ، وكل عرافة من اهل الايام (اي المشاركون في المعارك التي سبقت القادسية) عشرين رجلا على ثلاثة الاف ، وعشرين

امرأة وكل عيل على مائة الف ، وكل عرافة من الردافة الاولى (أي انضم الى الجيوش الاسلامية بعد القادسية) ستين رجلا وستين امرأة واربعين من العيال ممن كان رجالهم الحقوا على الف وخمسمائة ، على مائة الف درهم، ثم على هذا الحساب »[٣٨] • وبالرغم من ان هذا التنظيم قام على اساس وحدات متساوية من العطاء ، فانه لم يهمل التنظيم القبلي ، حيث كانت لكل عشيرة راية تتميز بها • لاريب في ان هذا التنظيم يتميز بالمرونة ، فهو قائم على وحدات صغيرة الحجم ، وبذلك يسهل اضافة وحدات جديدة من المهاجرين الجدد او حذف وحدات يتناقص رجالها ، غير ان هذا التنظيم يتطلب تقسيم العشائر الكبيرة الى وحدات جزئية لتوزيع العطاء •

تطور التنظيم :ـ

وقد حدثت تطورات غير قليلة تطلبت اعادة تنظيم السكان على اسس جديدة ، فالتنظيم السابق كان التمييز فيه يقوم على اساس المعارك التي اشترك فيها الافراد ، وهو يعطي المشاركين في الايام الاولى عطاء اكبر ممن انضم الى الجيوش الاسلامية متأخرا وبذلك يصبح في العشيرة الواحدة اصناف متباينة في مقدار عطائها ، ثم ان كثيرا من هؤلاء المشاركين الاولين انقرضوا بعد سنوات ، كما ان العشائر انضم اليها عدد ممن لم يشارك في الحروب الاولى ، وقد تزايد عدد هؤلاء لدرجة كادت تخل بالنظام ، وتطلب اما ادخالهم في عطاء قليل ، او عدم ادخالهم ، مما كان يتطلب زيادة المصروفات الاجمالية وصعوبة تأمين العطاء للجميع ، ولعل هذا التطور كان من اسباب القلق الذي حدث في اواخر سني خلافة عثمان بن عفان •

وعندما ولي زياد العراق قام باعادة تنظيم كل من الكوفة والبصرة بما يؤمن الاستقرار والنظام فاخذ بتدقيق سجلات اهل العطاء وحذف اسماء الموتى من تلك السجلات ، ونقل خمسين الفا من مقاتلة البصرة والكوفة واوطنهم في خراسان[٣٩] ، ونقل عددا من الازد من البصرة الى مصر[٤٠]، ونقل من الكوفة عددا اوطنهم في قزوين واردبيل وربما الى مناطق اخرى ايضا[٤١] •

ثم جعل زياد كلا من الكوفة والبصرة مقسمة الى وحدات عشائرية تتكون كل واحدة من الف مقاتل ، وقسم العشائر الكثيرة العدد الى عدة وحدات ، اما العشائر القليلة العدد فضمها الى عشائر اخرى ليصبح العـدد الف مقاتل ، وقد قام هذا التنظيم على اسس عشائرية فكل وحدة تسمى باسم العشيرة التي ينتمي اليها افرادها ، كما ان العشائر الصغيرة التي ضمت الى غيرها قد احتفظت بوحدتها الاجتماعية والنسبية ، وكان الضم لاسباب ادارية فحسب .

وجعل زياد على كل عشيرة عريفا يعينه الوالي ويكون مسؤولا عـن حفظ سجلات باسماء مقاتلة العشيرة ونسائهم وعيالاتهم ، وعن تبليغ اوامر الولاة ، ومراقبة الامن في داخل العشيرة ، ومساعدة الدولة في القبض على المفسدين ومولدي الشغب ، كما انه كان يقوم بتسلم عطاء العشيرة وتوزيعه على المستحقين من افرادها تبعا لما في السجلات(٤٢) ، فهم حلقة الوصل بـين الناس والحكومة ، وهم يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة الامن مما كان يعين على توسيع سلطة الوالي على العشيرة ، واخذوا يحلون محل شيوخ العشائر الذين اخذ نفوذهم يتناقص تدريجيا .

غير ان التنظيم الاداري والمالي من حيث العموم كان منسجما مـع التنظيم القبلي ومعبرا عنه وقد اتسق هذا التنظيم مع النظام المركزي القائم على الوالي ، وظل هذا اساس التنظيم في الامصار وابرز سمة مميزة له .

وترد في المصادر اشارة الى انه كان فوق العرفاء منصبان اخران هما : النقيب والمنكب ، غير ان المعلومات عنهما قليلة مما يدل على ضآلة دورهما .

ويبدو ان العشائر تساوت فيه ، وزالت الفوارق القديمة على اساس التمييز تبعا للاشتراك في الفتوح الاولى .

غير ان هذا التنظيم اقتصر على من كان ياخذ العطاء من المقاتلة ، فلـم يشمل من لم يكن من اهل العطاء ممن كان ينتظر ان يزداد عددهم لعدم وجود

قانون يمنع الهجرة الى المصر الذي كانت حياته تعزى بالهجرة اليه ، كما ان هذا التنظيم لم يشمل الاعاجم •

اسـباع الكوفـة :

كان الغرض الاساس من انشاء الامصار هو استيطان المقاتلة وعيالاتهم في اوقات السلم ، وتنظيمهم بما يؤمن اشتراكهم في الحملات العسكرية واسهامهم في المعارك • وكان الاعتماد على الافراد او العشائر لايحقق هـذا الغرض بشكل كامل • لان عددهم كان كثيرا • وكانت العشائر غير متوازنة في عددها • لذلك كان لابد من وضع تنظيم خاص فوق الافراد والعشائر• مما يؤمن ادارة المقاتلة واعدادهم للمشاركة في المعارك • وعندما تأسست الكوفة امر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان يقسم سكانها المقاتلة الى اسباع يضم كل سبع عددا من العشائر يتراوح بين ٣ ــ ٥ عشائر • روعي فيها الى حد كبير اصول مساكنها القديمة • فكان سبع من عشـائر حضـرموت والسواحل الجنوبية ، وسبع من عشائر شرقي اليمن بما فيهم همدان وحمير وسبع من عشائر غربي اليمن بما فيهم مذحج وطي • وسبع من عشـائر اليمن بما فيهم بجيلة وخثعم والازد • وسبع شـمل بكر وتغلب • وسبع شمل قيس عيلان • وسبع شمل عشائر الحجاز ونجد بما فيها قريش • وكنانه ومزينة • واسد وتميم والرباب وقد وضعت عبدالقيس مع قيـس عيلان • وطي مع عشائر غربي اليمن اما البصرة فلم يرد ذكـر لتقسـيماتها في العهود الاولى • ولعل بعض ذلك راجع الى ان عدد مقاتلة اهل البصرة في السنين الاولى كان قليلا • وربما قسموا الى اخماس بعد ازدياد عددهم •

ارباع الكوفة واخماس البصرة :

ظل نظام الاسباع في الكوفة الى زمن زياد حيث جعل الكوفة ارباعا • يضم كل ربع مجموعات من عشائر شمالية وجنوبية • اما البصرة فكانت اخماسا • يضم كل خمس عشائر متقاربة في النسب وفي مواطن سكناها

القديم في الجزيرة . وهم اهل العاليه (ويقصد بهم عشائر الحجاز) وتميم، وبكر . وعبدالقيس ، والازد ، وكان لكل من ارباع الكوفة واخماس البصرة رأس يتم اختياره من ذوي المكانة البارزة في القبيلة ، ويتم تعيينه باقرار من الخليفة . وله سلطات واسعة مستعدة من مركزه الشخصي ومن الواجبات العظيمة المطلوبة منه ، فكان هؤلاء الرؤوس في وقت السلم يرأسون مجالس القبائل . ويحكسون في بعض الخلافات التي تنشأ بين افراد القبيلة ، ويمثلون القبيلة ومصالحها امام الوالي . ويقررون موقعها من الاحداث السياسية المهمة وغالبا ماكانوا يشتركون في الوفادات التي يرسلها الوالي الى الخليفة ، اما في وقت الحرب فكانوا يقودون قبائلهم المشتركة في الحملات . وكثيرا ماكانوا يقودون بعض الحملات الصغيرة الا انهم كانوا تابعين للوالي وخاضعين له باعتباره ممثلا للخليفة كما ان سلطاتهم اقتصرت على عشائر كل منهم فحسب . وقد تضاءلت هذه السلطات على اثر تناقص الحملات ونمو الحياة المدنية .

التنظيمات المالية

ونمو الحياة الاقتصادية

موارد المقاتلة : الغنائم :

كان الغرض من تأسيس البصرة والكوفة ان تكون كل منهما لاستيطان المقاتلة العرب المسلمين الذين يقومون بالفتوح وتوسيع الدولة وحفظ الامن والاستقرار فيها ، مما يتطلب منهم تكريس حياتهم للجندية ويقتضي ان تضمن لهم ولمن يعولون موارد عيش دائمة ، ومع ان حاجاتهم من المأكل والملبس والتجهيزات وغيرها متنوعة . الا ان قيام النظام الاقتصادي الاسلامي على النقود كان يقتضي ان يحصلوا على النقود بانتظام وبما يكفي لحصولهم على حاجاتهم في الحياة .

وقد حصل المقاتلة المشاركون في المعارك على بعض الموارد من الغنائم فيها . حيث كانت من القواعد الاساسية ان الغنائم تقسم بالتساوي على من شارك في القتال . بعد فرز خمسها وتخصيصه للدولة ويعطى الفارس ضعف نصيب الراجل . كما يأخذ من يقتل جنديا من العدو سلبه ، وقد غنم المسلمون في بعض المعارك غنائم كثيرة .

تنظيم الموارد :

غير ان المعارك التي تيسر الغنائم كانت محدودة قليلة العدد وقد توقفت بعد ان تمت الفتوح فالموارد منها مؤقتة بالاضافة الى انها قليلة تقتصر على البسة الجند وتجهيزاتهم وما يحصله الجيش من اموال محدودة لسد نفقاته ، ولذلك كان يجب تأمين موارد ثابتة تكفي لتأمين معيشة المقاتلة الذين كان عددهم كبيرا ، وتم هذا التأمين بتخصيص الموارد الكبيرة من

الاقاليم المفتوحة لتصرف على المقاتلة ، بعد تحويل خمسها الى الحجاز لتصرف على من كان يدفع لهم العطاء من اهله ٠

قرر عمر بن الخطاب ان تقوم الدولة بجباية الموارد من الاقاليم ٠ ثم توزيعها على المقاتلة ، وان تصرف موارد كل اقليم على عطاء المقاتلة الذين قاموا بفتح ذلك الاقليم ٠ وعلى هذا كانت موارد الكوفة من جبايات العراق والاقاليم الشمالية الغربية من الهضبة الايرانية ٠ اما البصرة فكانت مواردها من المناطق الواقعة على شط العرب وجنوبي العراق ، وكذلك من الاحواز والاقاليم التي في جنوبي الهضبة الايرانية ٠

ومن الواضح ان موارد الكوفة كانت في السنين الاولى كثيرة ٠ غير ان عدد مقاتليها كان كبيرا ايضا ٠ اما البصرة فكانت مواردها قليلة ولكن عدد مقاتليها غير كبير ٠ ثم تزايد عدد المقاتلة في البصرة ورافقه قيام مقاتليها بفتوح واسعة امنت لهم موارد كبيرة ٠ اما اهل الكوفة فقد ظل عددهم يتزايد بعد الفتوح الاولى ولكنهم لم يقوموا في السنين الاخيرة بفتوح واسعة ٠ فظلت مواردهم محدودة ٠

اجريت في اوائل زمن الخلافة الاموية تعديلات على موارد جبايات الامصار ، فارسل خمسون الفا من مقاتلة البصرة والكوفة واوطنوا خراسان واصبحوا يأخذون عطاءهم من مواردها ٠ كما اوطن عدد من مقاتلة اهل الكوفة في اردبيل وقزوين والري وصاروا يأخذون عطاءهم من هذه الاقاليم التي لم تعد ترسل جباياتها الى الكوفة ، وبذلك استقرت موارد الكوفة على مايجبى من العراق ، وموارد البصرة على مايجبى من مناطق شط العرب وجنوبي العراق والاحواز وفارس ٠

والمصدر الرئيس لهذه الموارد هي جباية الخراج أي الضرائب المفروضة على الاراض المزروعة في الاقاليم المفتوحة ، وكانت تصلها موارد من جباية العشور المفروضة على التجارات وعلى زراعة الاراضي التي امتلكها

العرب المسلمون ، غير ان المقدار الكلي لهذه الموارد لم يكن كبيرا ، وكانت حصيلتها تدخل في الموارد العامة •

وكان معدل مقدار جباية العراق مائة مليون درهم • وذكرت بعض المصادر ان مقدار موارد الكوفة من الجباية كان خمسون الف • وموارد البصرة ستون الف الف درهم[٤٣] وكان الدرهم في اول الاسلام مثقالا من الفضة اي حوالي اربع غرامات • وظل كذلك الى زمن ولاية الحجاج حيث جعل وزنه ٧٪ من وزنه السابق اي حوالي ٣ غرامات . وكان سعر التبادل بين الفضة والذهب يتراوح بين ١/١٢–١٠ •

تنظيم العطاء :

وضع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سنة ٢٨هـ قواعد لتوزيع الموارد على المقاتلة ، فجعل لكل من الصحابة ممن شارك في معركة بدر ولمن تلاهم الى صلح الحديبية وجعل لكل من شارك في المعارك الاولى في اطراف العراق • وهم يسمون اهل الايام ، ثلاثة الاف درهم ، ولمن شارك في القادسية ٢٠٠٠ درهم ولمن شارك بعد القادسية ١٠٠٠ درهم ، اما الذين انضموا متأخرين فقد جعلهم اصنافا « تبعا » لزمن انضمامهم • وكان عطاؤهم بين ٥٠٠ ــ ٢٥٠ درهما وفرض للنساء مائتي درهم وللصبيان مائة درهم[٤٤] •

اما في البصرة فقد قرر لمن شارك في فتوح الابلة والاهواز بالفي درهم[٤٥] • وفرض للباقين تبعا لزمن انضمامهم الى الجيوش الاسلامية • ومقدارها حدده يشبه ماطبق في الكوفة وفي الاقاليم الاسلامية الاخرى • وقد استوعب العطاء كل الموارد ولم يبق عمر بن الخطاب منه اي مبلغ احتياطي للطوارىء • وبالاضافة الى العطاء ، قرر عمر بن الخطاب ان توزع شهريا على المقاتلة ونسائهم وعيالاتهم ، مواد عينية وخاصة من الحنطة قدرها بما يكفي استهلاكهم •

ظل العطاء على وفق ما قرره الخليفة عمر بن الخطاب الباب الرئيس للمصروفات . ويدفع سنويا بالدراهم . ويختلف مقدار مايصيب كل فرد منه . غير ان التصنيف الذي وضعه عمر كان لابد من تعديله لان المشاركين في المعارك الاولى كانوا يتناقصون بسبب الوفاة . وقد استقر فيما بعد ان يكون اعلى مايعطى من العطاء ، ويسمى شرف العطاء . الفين وخمسمائة درهم . وكان عدد من شرف العطاء حوالي عشر المقاتلة . اما الاصناف الاخرى فكانت تأخذ مبالغ تتراوح بين ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ٧٠٠ ، والحد الادنى ٢٠٠ درهم ويعتمد هذا التصنيف على مهارة المقاتل ، وطول خدمته وتجهيزاته وكان اقل عطاء الفرسان ١٠٠٠ درهم(٤٦) .

كان العطاء يدفع سنويا بالدراهم ، ويطلب ممن يأخذه ان يستجيب لدعوة الدولة عندما تطلب اليه المشاركة في الحملات للقتال ، وعليه ان يجهز نفسه بمعدات القتال من نبال وسيوف ورماح ودروع وخيل ، ولاريب في ان مقداره غير كبير ولا يكون فروقا طبقية واسعة قائمة على الثروات . وهو يوثق ارتباط الافراد بالدولة التي تعتمد على قوتها وسلطانها جباية الاموال وتأمين الموارد وتنظيم توزيعه ، كما انه يؤمن للفرد ممن يأخذه ، وهم غالبية العرب والسكان في كل مصر ، موارد لمعيشته ومستقبله في حال المرض والشيخوخة وتقلبات الاحوال ويوفر له الوقت الكافي للاستزادة من المعرفة والتفكير وانماء الحياة السياسية والفكرية .

ان نقل موارد الاقاليم . وخاصة المناطق الزراعية الى مصر ادى الى زيادة النقود فيه ، كما ان توزيع المواد الغذائية بالمجان في مصر ادى الى بقاء معظم هذه النقود وعدم اعادتها الى مناطق الريف وهذا ادى بدوره الى تناقص الدراهم في الريف والى زيادة تكدسها في مصر . ولما كانت الدولة لاتوزع التجهيز على المقاتلة ، فانه كان عليهم الحصول على يحتاجون اليه

بالثراء • وقد ساعد هذا على نشاط الحياة الاقتصادية وازدهارها بمختلف المستويات من التجارة والصناعة والاعمال المالية •

هجـرة العمـال والعمـــل :

كان العرب الذين استوطنوا الكوفة والبصرة عند انشائهما . مقاتلة واجبهم الاول الخدمة في الجيش والمشاركة في المعارك • وكانوا يتميزون بالبعد عن الترف المادي وبالبساطة في المسكن والملبس والمأكل ولذلك لـــم تعن الدولة بالاســـواق ولم تخصص في تخطيطها رقاعا مـــن الارض ليقام عليها السوق • غير ان متطلبات الحياة ، واقتصار الدولة على دفع العطاء دون الاسهام بالخدمات الاخرى للافراد ، تطلـــب الاهتمام بالعمل لتوفير البناء وما يستلزمه من لبن وطابوق واخشاب وحديد كما تطلب وجود من يعمل لسد الحاجات الاخرى من مأكل وملبس وغيره ، ولابد ان عددا من الرجال والاولاد كانوا يقومون ببعض الاعمال التي تتطلبها الحياة ، بما في ذلك البناء ، كما ان عددا غير قليل من النساء كن يقمن باعمال البيـــــت والطبخ والغزل والنسيج ، واستخدم الرقيق ايضا في القيام بالاعمال في بيوت اسيادهم • غير ان كل هذه الاعمال المتفرقة لاتكفي لسد حاجـــة المدينة من الاعمال او توفير السلع • وقد تم سد كثير من هذه الحاجات اما باستيرادها من مصادر صناعتها • واما باستخدام بعض المهاجرين من غـــير العرب •

تنظيـــم العمـــــال :

ادرك عدد غير قليل ، وخاصة مــــن اهل المناطق المجاورة المجالات الواسعة للعمل في هذه الامصار ، والارباح التي يمكن ان يجنوها من ذلك • فاخذوا يتقاطرون اليها • ولم تعرقل الدولة هجراتهم وانما اباحتها • كما انها لم تتدخل في تنظيماتهم او معتقداتهم ، فظل كثير منهم محتفظا بدينه ولـــم

يجبر على اعتناق الاسلام • وتركت لهم حرية اختيار العمل • وكان بعضهم يفتقد المهارة في اي عمل وبعضهم مختص يتقن حرفة او صناعة وعندما قدموا لمصر كان بعضهم يعمل لحساب من يستخدمه • وبعضهم يعمل لحسابه الخاص في بيته او قرب السوق ، وقد يستعين باولاده في العمل ، واكثرهم من الاحرار • اذ لم تفرض عليهم الدولة ضرائب • غير انه كان على غير المسلمين ان يدفعوا الجزية ، ومقدارها قليل نسبيا كما ان الدولة لم تفرض قيودا على الصناعات سوى الحمامات التي وضعت شروطا لبنائها • وذلك لعلاقتها بالصحة العامة • غير ان طبيعة الامور كانت تقضي ان يتجمع ذوي الروابط بعضهم مع بعض، ولما كان الدين من اقوى الروابط • فقد كانت تجمعاتهم في الغالب تبعا لاديانهم وكانوا عموما قريبين من السوق ومتصلين به • نظرا لاهمية السوق في التزود بالمواد الاولية وتصريف المصنوعات • وقد اعتنق بعضهم الاسلام • ووالى العرب وحظي بحمايتهم ، حيث ان من واجب العشيرة حماية مواليها •

غير ان بعضهم لم يوال العرب ، وكان يحسد العرب على مكانتهم واخذهم العطاء الذي يؤمن معيشتهم ، وقد استغل بعض الطموحين من العرب هؤلاء الاغراب ، فأغروهم بالمشاركة ببعض الثورات ضد الدولة • وحاول الحجاج اخراجهم من الامصار ولكنه لم يفلح فظلوا مصدر قلق وخاصة في اوقات الازمات •

التجـــارة :

ان الاسلام يعترف بالملكية الخاصة ويقر اقتناء الثروات والكسب الحلال ، واعتبر القرآن الكريم « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »[٤٧] وقد بدأ الاسلام في مكة التي كانت مركزا لتجارة نشيطة ساهم فيها الرسول (ص) ومعظم المسلمين الاولين وكان العرب منذ القديم معروفين بعملهم من نقل السلع والتجارات مع مختلف الاقطار • وقد يسر توسيع الدولة الاسلامية

وتوحد الاقاليم في ظل دولة واحدة قوية ، على ايقاف الحروب والغزوات ، وازالة الحواجز المعرقلة للتنقل ، وقد منعت الدولة الجديدة الفساد والعبث بالامن ووطدت الطمأنينة والاستقرار ، واباحت حرية العمل والتنقل ، مما كان من شأنه تنشيط التجارة •

ومنذ بداية تأسيس الكوفة والبصرة كان السكان يحتاجون الى انواع متعددة من السلع يمكن اجمالها باصناف رئيسة هي المواد الغذائية فان توزيع الدولة الحنطة على السكان لم يكف لسد حاجاتهم من المواد الغذائية كافة • فقد كان يسجل في العطاء من العرب وغيرهم يحتاجون الى الحنطة ، كما ان العرب من اهل العطاء كانوا يحتاجون الى كثير من المواد الغذائية كالقطاني بما فيها الحمص والعدس واللوبيا والذرة والدخن • وكذلك المخضرات المنوعة • والفاكهة ، وبعض المنتوجات الحيوانية من لبن وسمن وجبن كما ان الصناعة تحتاج الى القطن والكتان والقنب وكثير من المنتوجات الزراعية الاخرى ، فضلا عن حاجتها الى الحيوانات وخاصة الخيل والبغال والحمير والابقار والاغنام •

اما المعادن ومصنوعاتها فابرز ماتحتاج اليه الكوفة والبصرة هو الاسلحة، وخاصة السيوف والسكاكين والاسنة والدروع . بالاضافة الى الرماح والدرق والتروس ، وكان العرب في الجزيرة قبل الاسلام وعند ظهوره يستوردون كثيرا من هذه المصنوعات من اقطار متعددة ، فكانوا يستوردون السيوف من الهند واليمن واطراف بلاد الشام . ويستوردون اجود الرماح من البحرين ، والدروع من اليمن • اما النبال والاسنة فكانوا يحصلون عليها من بعض المناطق التي تنتجها جزيرتهم ، ولابد انهم تابعوا بعد الاسلام استيراد هذه السلع من البلاد التي كانوا يستوردونها منها قبل ذلك ، وان هذا الاستيراد قد زاد لازدياد الحاجة الى الاسلحة وتوفر المال اللازم لشرائه •

وللفضة والذهب اهمية خاصة لغلاء ثمنها واستعمالاتها في العملة فضلا عن استخدامها حليا للزينة ، وكانت اكبر مناجم الفضة عند ظهور الاسلام في الاطراف الشرقية من الدولة قرب خراسان ، اما الذهب فان مناجمه في جنوب مصر والسودان وهي مناطق كانت قبل الاسلام تحت سيطرة الروم لذلك كان الذهب شحيحا في المشرق رغم اهميته في التجارة العالمية .

وكانت الفضة معدن الدرهم المتداول في المشرق ، وكانت الكوفة والبصرة تحصلان على كميات غير قليلة منها بما تجبيانه من الاقاليم التابعة لهما ولما توسعت الدولة الاسلامية واقصت الروم عن مصر ، اصبحت مهيمنة على مصادر الذهب ، واباحت تصديره الى المشرق ، فنشطت التجارة فيه وكانت مصدر ارباح كبيرة لعدد من المتعاملين به .

اما المنسوجات فقد كانت لصناعتها عند ظهور الاسلام عدة مراكز ، فالمنسوجات القطنية اشتهرت بها اليمن وعمان ، وعدد من مدن خراسان ، وكذلك العراق ، اما المنسوجات الحريرية فكان مركزها الرئيس مدن الاحواز ، والكتان في مصر ، والصوف في المناطق الجبلية في شمالي العراق(٤٨) .

ويتبين مما تقدم ان كلا من الكوفة والبصرة كانت تحتاج الى استيراد السلع من عدة مناطق ضمن شبه جزيرة العرب تستورد منتوجات الصحراء من خيل وابل واغنام ومنتوجاتها ، اضافة الى العطور والمنسوجات القطنية وبعض المعادن والاسلحة من اليمن وكذلك منسوجات واسلحة من البحرين وعمان وكان لابد لها ان تستورد من مدن العراق المنتوجات الزراعية ، والاخشاب وبعض المنسوجات ، ومن الاقاليم الشرقية بعض الفواكة المجففة والجبن والمنسوجات والفضة وبعض الاسلحة ، ومن مصر الذهب والكتان ، ومن الهند الاسلحة والاخشاب .

اباحت الدولة حرية التجارة ولم تعمل على عرقلتها[٤٩] . وكل ما فرضته عليها هو العشر على التجار الاجانب ونصف العشر على التجار العرب ، وهو مقدار غير كبير ولا معطل ، كما ان الاسلام حرم الربا ، واكد على وجوب اقامة المعاملات المالية والتجارية على اسس اخلاقية سليمة خالية من الغش وسوء الاستغلال ، ولم تتخذ ما يعرقل المعاملات او يقيدها .

السوق :

لم تخصص عند تخطيط كل من البصرة والكوفة رقعة خاصة لاقامة الاسواق ، لذلك لم تنحصر معاملات البيع والشراء في مكان واحد، وانما حيث تتوفر الارض الفضاء . ومن حيث العموم كان في كل من الكوفة والبصرة مكانان بارزان : احدهما في الاطراف الغربية والثاني بالقرب من السوق .

والسوق الذي كان في الاطراف الغربية يقع على الطريق الذي يربط كلا منهما بالجزيرة العربية وكانت ساحته تدعى في الكوفة (الكناسة) وفي البصرة « المربد » واكثر مايباع فيه منتوجات الجزيرة من ابل وخيل وجلود وصوف ووبر والبان . ونظرا لان اكثر رواده من اعراب اهل الجزيرة فقد كان يحضره ايضا عدد من المعنيين باللغة العربية واداب اهل الصحراء وتراثهم للتزود بالمعلومات عن هذه المعارف وبذلك اكتسبت « الكناسة » و « المربد » اهمية كبيرة في تطور اللغة والاداب العربية ، وصارت لهما مكانة خاصة فانشئت في كل منهما عدة قصور فخمة واسواق غنية .

اما السوق الثاني فكان في الرحبة عند المسجد الجامع[٥٠] ، أي في وسط المدينة . ولابد ان السلع التي كانت تعرض فيه منوعة ومتعددة .

غير ان كلا السوقين كان فسحة من الارض يعرض فيها الباعة سلعهم في المكان الذي ينزلون فيه يومهم ، فهو « مثل المسجد الجامع من سبق الى مكان فهو أحق ما جلس عليه فاذا قام اخر فجلس عليه فهو احق به »[٥١] .

فهو خال من الابنية • وليست فيه محلات او دكاكين مثبته للبائعين • وتباع فيه مختلف السلع دون تخصيص • والغالب ان المعروضات هي السلع الرخيصة تعرض بكميات قليلة ليسهل حمل مالايباع منه ورده الى دار البائع•

ثم جعلت بعض الدور للبياعات ففي الكوفة كانت دار الوليد للقصارين(٥٢) • ودار عمرو بن حريث لاصحاب الخز(٥٣) ودار حكيم لاصحاب الانماط(٥٤) • اما في البصرة فقد اشتهرت دار الزبير في الكلاء لتجارات اهل البحر(٥٥) • وتتميز هذه الدور بان مكان البيع ثابت ، ويمكن حفظ السلع فيها • فهي اشبه بما نسميه اليوم خانات •

وفي زمن خلافة هشام بن عبدالملك شيد في البصرة والكوفة فيه حوانيت تؤخذ من شاغليها اجور وكانت هذه السوق في الكوفة قرب الجامع ، غير ان اهل الكوفة هدموا ذلك السوق بعد القبض على خالد القسري والى هشام على العراق ، اما سوق البصرة فقد اشرف على تشييده بلال بن ابي برده الذي كان واليا على البصرة وقاضيا فيها ، ولم تذكر المصادر موقع هذه السوق او مصيرها •

تنظيم السوق والمعاملات :

كانت التجارة واعمال السوق مفتوحة لكل من يريد ممارستها وتختلف اصنافها وحجمها وانظمتها فكل منتوج محلي او مستورد يمكن ان يكون مادة للتجارة • كما ان حجمها يمتد من الباعة المتجولين والبقالين واصحاب السلع القليلة الى اولئك الذين يتاجرون بسلع غالية وبكميات كبيرة • وبعضهم يعمل لحسابه الخاص معتمدا على نفسه او مستعينا باولاده او اخوانه او بعض اقاربه •

وبعض التجار يقدمون الى الامصار مؤقتا لترويج تجاراتهم ثم يغادرونها • غير ان اكثرهم كان يقيم دائميا في مصر • ويجلب بضاعته من الخارج عن طريق وكلاء يختارهم في البلاد المنتجة للسلع التي ترسل الى

الامصار ، وقد يقيم في مصر وكيل عن تاجر يقيم في بلد اخر •

واغلب التجار يقومون بانفسهم في تجاراتهم • غير ان بعضهم يشارك اخرين في التجارة • وتكون هذه الشركات انواعا • فقد تكون مؤقتة او قد تكون دائمية ، وقد يكون الشركاء متساوين فيما يقدمونه من رؤوس اخرين في التجارة • وتكون هذه الشركات انواعاً • فقد تكون مؤقتة او بالاعمال المطلوبة •

اهل السوق :

وعلى أي حال فأن المركز الرئيس للنشاط والتجارة هو السوق ، ولا ريب في ان المصالح المشتركة والعمل الدائم في حرفة واحدة وفي مكان واحد ينمي على مر الايام علاقات مشتركة قائمة على المصالح التجارية وتتبع ماتتطلبه هذه المصالح من نظم ، وبذلك نمت في الامصار « الاسواق » وازداد عدد العاملين فيها واصبحت لهم تقاليد ونظم خاصة ، وصار « اهل السوق » مجموعة تتركز حول السوق ، وتقابل المقاتلة العرب الذين يتركزون حول مساجدهم المحلية •

وكان اهل السوق لايأخذون العطاء ، ويعتمدون في معيشتهم على ما يجنونه من ارباح ، وكان فيهم كثير من العرب ، الا ان عدد الاعاجم كان ملحوظا بين اهل السوق • وبالنظر للسمات الخاصة لنشاط السوق وتعقد اعماله ، والاخطار التي يولدها سوء التصرف فيه ، فقد عينت الدولة عاملا على السوق يشرف على المعاملات فيه ، ويحل بعض الخلافات التي قد تظهر في المعاملات ، ويتابع الاسعار ، ويدقق في ضبط المكاييل والموازين •

كان نمو الاسواق • وازدهار الحياة الاقتصادية قد وسع الاهتمام بجمع الثروة وتقدير الغنى ، وانما ماتسميه اليوم « الطبقة البرجوازية » باعمالها وعاداتها وتقديراتها ، غير ان هذه الاسواق لم تقض على السمة العربية القبلية للامصار • تلك السمة التي ظلت المميز البارز لعدة قرون •

الامصار مراكز الحركات الفكرية ومواطن العلماء

اهتمام العــرب بالفكــر :

تميز العرب بعنايتهم بالفكر وتقدير الكلمة الطيبة وتظهر معاجم اللغة العربية مدى ســـعة معارفهم وعمقها ، بما تحتويه مـــن مفردات عن البيئة الطبيعية في شبه جزيرة العرب مـــــن ارض ومنتوجات معدنية وحيوانية وزراعية ، وكذلك الاحوال الطبيعية وما يتصل بها من الرياح والامطـار وتقلباتها •

ويتجلى من لغتهم عنايتهم الفائقة بالانسان وما يتصل بخلقه واحاسيسه وعواطفه وتصرفاته وافكاره وامتدت عنايتهم بسلوك الانسان واخلاقه ، وتقديرهم الطيب منها • وحرصهم على تداول اخبارها ومتابعة اخبار الامم والشعوب واجدادهم وتداول اخبار البارزين في المجتمع ، مما يتصـــــل بالتاريخ •

غير ان اوسع عنايتهم تركزت على الكلمة الطيبة مـــن اقوال وامثال وحكم ، وتجلى ذلك بوضوح في شعرهم الذي عنوا بروايته وتناقله وفيه اظهار لاحساساتهم وعواطفهم وافكارهم وارائهم وكثير من الحوادث التي مرت بهم ، وكلها مدونة بلغة غنية المفردات ، دقيقة التعبير ، وبنسق موسيقي تألفه الاذن ويستسيغه الذوق ، ويقدره الفكر •

الاسلام والفكر واللغة العربية :

وقدم الاسلام للحركة الفكرية دافعا قويا وتوجيها جديدا وقامت دعوته على اساس فكري ، فهو يدعو الناس الى اعتناقه بالاقتناع الفكري الذاتي دون قسر خارجي ، وحض على استعمال البصر والنظر والعقل والتفكير ، واشاد بالحكمة والعلم والعقل وحض على الاستزادة منها ، وقال « يؤتي الحكمة من يشاء ومن اوتي الحكمة فقد اوتي شيئا كثيرا » ، « ويرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » . وذكر اخبار عدد من الامم الماضية واشار الى ما حل بها ، وطلب دراستها والتفكير فيها واخذ العبرة منها والاهم من ذلك هو النظرة الكونية الواسعة التي لاتقتصر على الحاضر ، وانما تمتد الى الماضي والمستقبل وهي اساس العقيدة الاسلامية ، وبذلك وجه الفكر ونطاقه وجهة جديدة طالب بأن تعم المسلمين كافة دون الاقتصار على افراد محدودين او طبقة معينة ، ورافق ذلك ايمان بالحرية التي تتصل بالفرد وسلوكه والاراء والمعتقدات التي ياخذ بها بعد ان يقتنع عقليا ووجدانيا بصحتها من غير الزام او فرض او رجوع الى سلطة سياسية او دينية تفرض على الناس اعتناق ما لا يؤمنون بصحته .

واولى القرآن الكريم اللغة العربية اهمية خاصة ، فذكر انه نزل بلسان عربي مبين ، « قرآنا عربيا غير ذي عوج »[٥٦] وذكر العرب فهسه « انا انزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[٥٧] وبهذا عزز مكانة اللغة التي كانت سائدة فيهم ، وعامة بينهم ، تجمعهم وتشدهم الى بعضهم وتوحدهم فكريا ، وهي اللغة العربية التي نظم فيها الشعراء ، وعبر بها البلغاء عن الاقوال المختارة والحكم والتراث ، والواقع ان القرآن الكريم يظهر كفاية اللغة العربية بالنهوض باي تقدم علمي ، وذلك بكثرة مفرداتها ومرونتها وقابليتها للاشتقاق وقدرتها على استيعاب التطورات الفكرية .

وكانت للعرب مكانة خاصة متميزة في الدولة الجديدة ، ففيهم ظهر الاسلام وبلغتهم نزل القرآن الكريم ، ومنهم كان المسلمون الاولون والخلفاء والقادة وكبار الاداريين والمقاتلة الذين انتصروا في المعارك ووسعوا رقعة الدولة وحموا حدودها ، وثبتوا الامن والاستقرار وظلت جزيرة العرب معينا ومادة للاسلام ، تمد المقاتلة بالرجال فتعوض ما يفقدون وتزيد من قوتهم العسكرية .

حمل العرب تراثهم الثقافي الى الامصار التي اسسوها واستوطنوها . ولم تثنهم المعارك التي خاضوها والفتوح التي اتموها عن متابعة الاهتمام بما كانوا يعنون به من تقدير للكلمة الطيبة ، وترديد للشعر ، وتقدير للسلوك الحسن والخلق الحميد ، وعناية بالماضي واخبار السلف ، وتفاخر بالامجاد وعزز الاسلام هذه الاهتمامات واعطاها افاقا جديدة ودوافع قوية. ومما عمل على انمائها تيسير العطاء والرزق ومتطلبات المعيشة ، فلم يعد الناس يشغلون وقتهم بما يؤمن حصولهم على القوت ، وبذلك توافر لهم وقت كاف ، وخاصة بعد تناقص الحملات والحروب ، للانصراف الى هواياتهم والاهتمام ببحث ما يتصل بالانسان وبتراثهم الثقافي من لغة واداب واخبار الماضين واحوال الكون ونظمه ومصير الانسان .

عنايةالعرب من الامصار بالفكر :

لقد استوطنت الامصار عشائر متعددة ، جاءت من مختلف ارجاء شبه جزيرة العرب ، يحمل افرادها تراثهم وثقافتهم وتقاليدهم ، فكانت اقامتهم الدائمية معا في مكان واحد يساعد على انماء المعرفة ، لان كل فرد يطلع على ما عند العشائر الاخرى من معارف ، كما ان اعتدادهم الذاتي يدفع الى التفاخر والمناقشة فيذكي التفكير ، ويوسع مجالات المعرفة ، وعزز ذلك الحرية الواسعة التي تعودوا عليها ، واباحتها الدولة ويسرت نشرها .

مراكز النشـــاط الفكري :

وكانت ابواب المعرفة مفتوحة للجميع ، بامكان اي فرد يرغب الاسهام فيها والاستزادة منها ، فلم تكن عليها اجور مادية ، ولاقيود تنظم طريقة الدراسة وساعاتها او سن من يشارك فيها ، ولم يشـترط لها مكان معين ، فقد تكون في البيوت او مساجد العشـائر او السـاحات غير ان اماكن الاجتماعات العامة كانت توفر مجالس اوسـع للتجمع والبحث والمعرفـة ، وابرز هذه الاماكن هي المسجد الجامع وساحة السوق .

فاما المسجد الجامع فكانت له مكانة متميزة بسبب ساحته الواسعة ، وتفرده في جمع الكافة للصلاة ، وخاصة صلاة الجمعة ، وموقعه المركزي المتوسط وصلته بالدين وحرمته المتميزة ، ولذلك كانت تجري فيه كثير من الاجتماعات و « الحلقات » لتداول الشعر ومناقشة امور السياسة والمجتمع، وبحث المواضيع المتعلقة بالدين ، واما ساحات الاسواق فابرزها الكناسة في الكوفة والمربد في البصرة وكل منهما ساحة واسعة يؤمها الاعراب مـن شـبه الجزيرة لبيع منتوجاتهم ، وعرض معارفهم عندما يطلب منهـم ذلك فكانت تجلب المستزيدين بالمعرفة الذين لايقتصـر دورهم على التساؤل ، وانما يمتد الى المناقشات وعرض الافكار .

القرآن الكـريم وعلومـــه :

كان القرآن الكريم ، وهو المصدر الاساسي لافكار الاسلام وتعاليمه، اول ما عنيت الدولة بنشر دراسته ، ويروى ان الخليفة عمر بن الخطاب امر بان يفضل قراء القرآن في العطاء ، وكان لكل من ابي موسى الاشعري والي البصرة ، وعبدالله بن مسعود وهو من كبار رجال الادارة في البصرة ، اهتمام خاص بالقرآن الكريم ، فشجعا على اتقان الناس قراءته ، وظهر في كـل من البصرة والكوفة عدد من فاق غيره في الاهتمام بقراءة القرآن ودراسته ، وقـد كادت قراءته تتأثر باختلافات في بعض الالفاظ وفي ضـبط حروف

الاحالة ، غير ان الخليفة عثمان بن عفان تدارك الامر فثبت قراءة واحدة في نسخ معتمدة وزعها على الامصار لتكون مرجعا في الضبط ومنع الاختلاف ، غير ان ضبط القراءات لم يوقف نمو الدراسات عن مختلف ما يتعلق به من امور ، منها الخط الذي يكتب فيه ، اي رسمه ، ومعاني مفرداته واياته ، وشرح احكامه وارائه ، وتفسيره ومتابعة تفاصيل ما اشـار اليه من اخبار الماضين وحوادث الاسلام .

وكون القراء جماعة متميزة مترابطة ، افرادها من عشـائر منوعة ، وكانت لهم اراء موحدة في بعض القضايا السياسية التي تعرضت لها الامصار، وخاصة في زمن خلافة الامام علي ، وفي زمن الحجاج ، فـكان منهم اول الخوارج واشـد مؤيدي عبدالرحمن بن الاشعث ، وقد ضعف دورهـم السياسي بعد القضاء على ثورة ابن الاشعث ، غير ان الدراسات عن القرآن وما يتصل به تتابعت ولمت واسهم المئات من اهل الكوفة والبصـرة ومنذ اوائل زمن خلافة العباسيين ، تزايد عدد الكتب المؤلفة فيها فبلغت المئات ، واكثرها تعتمد في معلوماتها الاولى على المعنيين بها من اهل البصرة والكوفة، وبدرجة اقل على اهل المدينة ومكة والشام .

الفقـه والمعامـلات :

ذكرنا ان العرب وهم غالبية السكان في الكوفة والبصرة كانوا يهتمون بسلوك الانسان وتصرفه وقد وضع الاسلام لهم توجها جديدا ، ودفع هذا الاهتمام الى بحث ما يتعلق بالعبادات وتنظيـم العلاقات الاجتماعية بما في ذلك الفرد والاسرة وشرائح المجتمع ، وكانت العناصر الاساسية في ارائهم ما جاء في القرآن الكريم من احكام ، وتوجيهات الرسول (ص) في اقواله واحكامه ، وكذلك الاعراف والتقاليد التي لاتناقض مبادىء الاسلام وروحه، وكان هذا الميدان واسعا ومتطلباته متعددة وهو يتعلق بحياة الناس والعامة من مختلف المشارب لدراسة ممارسات بعضها منوع تبعا لما الفوه قبـل

استيطانهم المصر ، ولابد ان المعنيين بهذه الامور كانوا كثيرين ، غير انه برز بمرور الايام اشخاص تميزوا بسعة المعرفة وعمق الفكر وسلامة الاحكام ، واطلق على ميدان معرفتهم « الفقه » ومعناها اللغوي الادراك العميق غير ان معناها الخاص هو الدراسات المتعلقة باعمال المجتمع وممارساته ، ومن الطبيعي ان نطاق دراساتهم متشابهة ومساند ارائهم واحدة غير انهم اختلفوا في اجتهاداتهم واحكامهم في الفرعيات ولكن ظلت عنايتهم الكبرى بدراسة ما كان سائدا في الامصار من اوضاع صارت المكون الاكبر لكتب الفقه الاسلامي ودراساته •

الحديث والسنن :

وكانت مكانة الرسول (ص) المتميزة في نزول الوحي عليه ، وقيامه بتبليغ رسالة الاسلام وتوجيه الفرد وتنظيم المجتمع وتثبيت الدولة وتوسيعها ، مبعث اهتمام وعناية ، فاقبل الكثيرون على تتبع اخباره واقواله، واعتمدوا في ذلك على الصحابة الذين عاشوا معه ، وكان عدد منهم قد نزل في الكوفة والبصرة ، ورجع كثير ممن لهم عناية زائدة في ذلك الى المدينة يستزيدون من الصحابة فيها المعلومات عن الرسول وظل هذا الاهتمام متوسعا ، غير ان اكثر ما ينقل شفاها ، الى ان امر عمر بن عبدالعزيز بتدوين احاديث الرسول (ص) وسننه ، ونظرا لان النقل كان يتم شفاها فقد دخله بعض التحريف من عدم ضبط النص او من دخائل غير اصيلة ، فصار تدقيق جمع الاحاديث موضوعا يلقى الاهتمام وكان المعنيون بجمع احاديث الرسول (ص) وسننه وفحصها وتدقيقها ، عددهم كبير جدا في الكوفة والبصرة مما يدل على سعة الاهتمام بذلك ،

الافكار والعقائد السياسية :

واهتم عرب الامصار في الشؤون العامة في امصارهم ، وكانت مكانتهم المتميزة في تكوين الدولة وتثبيتها قوة دافعة لهذا الاهتمام ، عززه ماكانوا

قد الفوه في مجتمعاتهم القبلية ، وتأكيد الاسلام على الاهتمام بالفرد وتوجيهه الذاتي ومسؤوليته الشخصية ، ولذلك شارك عدد غير قليل منهم وخاصة ذوي المكانة في الامور السياسية واتخذوا ازاء الاحداث المهمة مواقف مختلفة كانت نواة « الاحزاب السياسية » ورافق ذلك ظهور اراء وافكار عن تلك الحوادث او عن المبادىء العامة الواجب السير عليها في السياسة او الحياة العامة ، وتولد من ذلك تيارات سياسية وفكرية نمت على مر الايام واتخذت مسارات متعددة ، وبرز مفكرون عبروا عنها بارائهم التي امتزجت فيها السياسة بالعقائد من خوارج ومرجئة ، ومعتزلة فضلا عن التيارات التي تؤكد على تفضيل اشخاص دون اخرين في الجدارة بتولى الامور العامة •

وكانت هذه الحركات والافكار كافة تقر بسيادة العرب وتعمل على تحقيق ماتراه من مصلحة العرب الذين كان منهم قادة تلك الحركات ولمثلهم توجهت نشاطاتها ، وقد برزت هذه الحركات منذ اواخر سني خلافة عثمان بن عفان، ثم اتسعت وتنوعت فيما بعد ، وقام بعضها بنشاط عسكري هدد سيطرة الخلفاء الامويين ، ورافقه نمو في افكارها وكان للعراق النصيب الاكبر من هذه الحركات ومراكزها الكبرى هي الكوفة والبصرة •

اللغة والشعر والتاريخ :ــ

وتابع العرب اهتمامهم باللغة والاداب والشعر والانساب واخبار الامم الماضية ، ولاريب في ان تجمعهم في الامصار من مختلف ارجاء الجزيرة زاد من ثروتهم الثقافية في ذلك ، كما ولد تيارات ثقافية يرجع بعضها الى الاختلافات الفرعية في اللهجات والمفردات ، وفي جوانب الاحاسيس ، والمشاعر • غير ان الاستقرار واحتكاك الافكار دفع الى انماء هذه الدراسات كما ان نمو الحياة الحضرية بمتطلباتها المادية وانماطها في المعيشة اسهمت في النمو والتطور •

ففي اللغة ازدادت الثروة في المفردات ، ولم تعد مقصورة على مايعرفه ابناء العشيرة ، وانما امتدت الى مايعرفه كل العرب ، بالاضافة الى ما دخل ذلك من حياة الحضارة او الاقتباس من الاعاجم ، وامتدت العناية الى حصر المفردات واستيعابها ، وتمييز العربي الاصيل من الدخيل ، وتقرير قواعد النمو السليم ، وضبط اللفظ في مبناه ونموه ، اما الشعر فتأثر بالحياة المتطورة ، واخذ يستمد من احوال الامصار مادة لوصف اهلها ومشاعرهم ، وظهر نقاد للشعر اورواة للجيد منه ، كما ازداد الاهتمام الاكبر وتوجه الى العناية باخبار الحوادث التي اسهم بها اهل المصر بعد الاسلام،حتى اننا لانكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا ان التاريخ المدون للعهود الاسلامية الاولى هو تاريخ الامصار ، وخاصة ما اسهم به اهل الكوفة والبصرة .

تطور الاهتمام بالعلم :ـ

كانت الرغبة في المعرفة عامة ، ومجال الاستزادة منها واسعا ، وهي حرة مفتوحة لايقيدها الا الذوق العام الذي يمجد الطيب ، والدين الذي يضع اطارا عاما لاقرار مبادىء الاسلام الاساسية والمثل الاخلاقية التي يدعو اليها ، وكان الاقبال على المعرفة كبيرا ، فيروى ان طلبة الحديث في الكوفة كان يبلغ عددهم حوالي سنة ٨٠ هـ اربعة الاف[٥٨] . وقد يكون في هذا الرقم مبالغة ، ولكنه يدل على كثرة المعنيين به ، ولابد ان المعارف الاخرى كان عدد المعنيين بها كبيرا ايضا .

وكان العلم قبل انتشار الورق في اوائل العصر العباسي ، ينقل شفاها، ولابد ان ذلك ساعد العلماء على التبسط في اقوالهم واراءهم وعلى تيسر المجال لتعديل افكار في مادتها وصياغتها ، وربط العلماء بالمجتمع واخرجهم من « البروج العاجيه » التي تضيق الفكر وتحصره ، وجعل العلم يتأثر بالاحوال المحلية ، وحصره باماكن اقامة العلماء ، وكان للكوفة والبصرة النصيب الاوفى من ذلك غير انه عرف عن اهل البصرة الاهتمام بعلم اللغة[٥٩]، والزهد

والاعتزال[٦٠] ، وبعض جوانب علوم القرآن[٦١] وعرفت الكوفة بالاهتمام بالشعر[٦٢] والفقه ، واشتركا في دراسة الاخبار •

العلماء والمشافهة :ـ

وقد برز في كل علم عدد من الاعلام الذين ادرك الناس سعة معلوماتهم وتدقيقهم وادراكهم ، فكان لكل منهم عدد ممن يسمعون عنهم ويروون اراءهم ، غير ان هؤلاء الرواة كثيرا ما يتصرفون فيما ينقلون ، فيحورون اراء العالم بالاختصار او تبديل الالفاظ ، وكان للرواة المدققين حضوة خاصة ، ولذلك حرص الناس على اختيار الموثقين من الرواة لينقلوا عنهم علم العلماء ، الا ان نقل العلم شفاها ثبت مكانة عدد محدود من العلماء ، واضاع بالنسيان كثيرا من الحقائق • فالمعرفة ابان صدر الاسلام كانت اوسع بكثير مما وصل الينا عنها ، والمشاركون في العلم كانوا اكثر من الاعلام محدودي العدد الذين رددت اسماءهم المصادر المتأخرة •

وظل نقل المعرفة بالمشافهة يحضى بالتقدير عند الناس حتى بعد ان انتشر استعمال الكاغد والذي يسر مادة سهلة رخيصة للتدوين وتأليف الكتب ، اذ لاريب ان الكتب تحفظ العلم وتصونه وتيسر نشره بين المجتمع دون الاقتصار على الحفاظ ، او حصره في المكان الذي يقيم فيه العلماء ،فضلا عن امكان افادة الاجيال التالية من معرفة الاولين ، غير ان الكتب تجعل العلم بمتناول من يملكون المال اللازم للحصول عليها بصرف النظر عن حرصهم على التعلم ، اي تصبح اسباب العلم متوفرة لمن له مال وقد لايكون له حرص ذاتي على التعليم ، كما انه قد يضعف من نشاط الانسان وجهده لتحقيق رغبته في العلم فيقتصر على اقتناء الكتاب دون اتقان قراءته ، كما ان الكتب تضعف مكانة العلماء ، حيث يتحول قصد الناس الى اقتنائها دون الحاجة الى الاتصال بالعلماء ، بالاضافة الى ان المؤلفين يضطرون الى صرف جهود كبيرة في اتقان الخط ، وتدقيق الكتابة ، والتحوط في التعبير تحاشيا

مما قد يكون مستمسكا ماديا وحجة عليه يحاسب بموجبها ، بالاضافة الى انه يفقد مراكز اقامة العلماء اهميتها •

العرب حملة العلم :ـ

يتبين مما تقدم ان الامصار ، وخاصة مصري العراق : الكوفة والبصرة، كانت المراكز الرئيسة للحركة الفكرية التي نمت في الميادين التي عنى بها سكانها وهي اللغة والادب والشعر والفقه والحديث وعلوم القرآن • وكانت هذه الحركة واسعة نشيطة عمت بين الناس ، وبرز فيها الكثيرون ، من سكان هذه الامصار •

فالعلم الذي ازدهر عربي في اصوله ومادته ، ووضع ضمن الصورة التي وضعها العربي ، وان قراءة مدققة لاهل الحديث ورواته تظهر ان كثرتهم الكاثرة من العرب ، مثل هذا الفقه وشيوخه الاولين البارزين مالك بن انس الاصبحي ، ومحمد بن ادريس الشافعي القرشي • وابو يوسف الكندي ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، علما بان الشيوخ هؤلاء وابرزهم ابراهيم التيمي ، وابراهيم النخعي وسعيد بن المسيب القرشي ، وان نظرة عامة على كتب رجال الحديث ، ومن اوسعها تاريخ البخاري وطبقات خليفه تظهر ان الكثرة الكاثرة من رواة الحديث هم من العرب •

والاهم من ذلك هو انه عندما ظهر الاسلام وكون دولته الواسعة كانت الحركة الفكرية في بلاد الشرق الاوسط قد اصابها الركود والضمور ، حتى اعتبرها سارثون المؤرخ الحجة في تاريخ العلوم من احلك ما مر به الفكر العالمي(٦٣)• وعلى الرغم من روح التسامح التي اظهرها الاسلام، وتأمينه حرية الفكر ، وتقديره للمعرفة ، فانه لم تظهر في المدن غير العربية حركة نشيطة وظلت الامصار العربية ، وخاصة الكوفة والبصرة ، مركز النشاط الفكري الرحب ، وموئل العلماء •

الهوامش

(٢٢) انظر تفاصيل اوفى في كتابنا « خطط البصرة ومنطقتها » .
(٢٣) فتوح البلدان ٣٤٦ .
(٢٤) فتوح البلدان .
(٢٥)
(٢٦) الطبري ١/٣١٢٥ .
(٢٧) الطبري ٢/٧٩ .
(٢٨) انساب الاشراف ٤-٢/٢٩ ، وانظر عن تطور سلطة الوالي تفاصيل ذلك في كتابنا التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
(٢٩) الطبري ١/٢٤٨٠ .
(٣٠)
(٣١) الطبري ١/٢٤٨٠ .
(٣٢) الطبري ١/٢٤٩٠ .
(٣٣) الطبري ١/٢٤٨٧ — ٢٤٨٨ .
(٣٤) الطبري ١/٢٤٨٧ — ٢٤٨٨ .
(٣٥) الطبري ١/٢٤٩٠ .
(٣٦) انظر : انساب الاشراف ٤ — ٢/٢٠٦ .
(٣٧) انظر تفاصيل اوفى عن البصرة في كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » ص ٤٧ فما بعد .
(٣٨) الطبري ١/٢٤٩٦ .
(٣٩) الطبري ٢/٨١ ، فتوح البلدان ١٠٩ .
(٤٠) معجم البلدان لياقوت ١/٤٥١ ، ٤٨٧ .
(٤١) فتوح البلدان ٣٢٢ ، ٣٢٩ .
(٤٢) الطبري ١/٢٤٩٦ ، ابن سعد ٥/١٣٥ ، ٦/٦٢ ، ٧/١٣٥ الاموال لابي عبيد ٤٤ ، ٢٧١ ، وانظر تفاصيل اوفى في كتابنا : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
(٤٣) ادب الكتاب للصولي ٢١٩ ، البلدان للجاحظ ٥٠٥ ، انساب الاشراف ٤ — ١/١٨٩ ، الاحكام السلطانية للماوردي ١٦٧ .
(٤٤) فتوح البلدان ٤٥١ ، الطبري ١/١٤٠٢ ، ٢٥٦٤ ، ٢٣٠٧ ابن سعد ٣/٢١٢ فما بعد .
(٤٥) الطبري ١/٢٣٨٧ ، ٢٥٦٣ ، ٢٦٣٣ ، ابن سعد ٧ — ١/٩٢ فتوح البلدان ٣٧٣ ، التاريخ الكبير للبخاري ١ — ٢/٢٥٤ .

(٤٦) انظر تفاصيل أوفى كتابنا ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة وانظر مقال « العطاء » في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة .
(٤٧) من سورة الكهف : الاية ٤٦ .
(٤٨) انظر ما كتبه شوارزلوس عن الاسلحة عند العرب ، وما كتبناه عن تجارة البصرة في كتابنا : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
(٤٩) انظر مادة « تجارة » في دائرة المعارف الاسلامية .
(٥٠) انظر عن سوق الكوفة الطبري ٢٤٩٢/١ ، البلدان لليعقوبي ٣١١ وعن سوق البصرة كتابنا : خطط البصرة ومنطقتها ١٢٧ .
(٥١) الطبري ٤٩٠/١ ، الاموال لابي عبيد ٢٢٦ ، اخبار القضاة لوكيع ٣٣٩/١
(٥٢) ابن سعد ١٥/٦ ، الطبري ٣٢١٥/١ ، ٧١٢/٢ .
(٥٣) ابن سعد ٤١/٦ .
(٥٤) فتوح البلدان ٢٨١ ، مقاتل الطالبين ١٠١٠ ، ابن الفقيه ١٨٢ .
(٥٥) ابن سعد ٧٦/٣ ، ٧٧ ، الاشتقاق لابن دريد ٣٨٢ ، مروج الذهب ٢٤٢/٢
(٥٦) سورة الزمر : الاية ٢٨ ، وانظر ايضا سورة النحل الاية ١٠٢ .
(٥٧) سورة يوسف الاية ٢ ، وانظر : الزخرف ٤٥ ، فصلت ٣ .
(٥٨) المحدث الفاصل للرامهرمزي ٥٦ .
(٥٩) مراتب النحويين للحلبي ٧٤ ، ٩٠ ، الفهرست لابن النديم ٦٦ ، ٨١ ، المزهر للسيوطي ٢٥٦/٢ ، نزهة الالباء لابن الانباري ٧٥ .
(٦٠) حلية الاولياء لابي نعيم ٩٤/٢ .
(٦١) المحكم في نقط مصاحف الامصار .
(٦٢) لسان العرب ١٤٠/٣ ، الخصائص ٩٢/١ .

الفصل الثالث

المدن في العهود الاسلامية المزدهرة

الدكتور عبدالقادر سلمان المعاضيدي
كلية التربية ــ قسم التاريخ
جامعة بغداد

مدن الادارة

منذ ان تم تحرير العراق من السيطرة الساسانية قسمه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى منطقتين اداريتين هما ولاية البصرة وتكون مدينة البصرة مركزا لادارتها ، وولاية الكوفة وتكون مدينة الكوفة مركزا لادارتها ، وجعل كل ولاية مستقلة عن الاخرى في النواحي الادارية والمالية والقضائية ليسهل الاشراف على ادارتها وجمع مواردها ، فكان يعين للعراق اميران أحدهما على البصرة ، والآخر على الكوفة[1] وقد عهد الى أمير البصرة بالاضافة الى ادارة المناطق التي تدخل ضمن حدود ولايته في جنوب العراق، الاشراف الاداري على الأقاليم التي تم تحريرها من قبل مقاتلة البصرة في جهة الشرق وهي : الاحواز ، وفارس ، وكرمان ، ومكران ، وسجستان ، وخراسان ، وكان أمير البصرة يعين عمالا على هذه الاقاليم يكونون مسؤولين أمامه[2] . كما عهد الى أمير الكوفة الأشراف الاداري على

أواسط العراق ، وعلى الأقاليم التي تم تحريرها من قبل مقاتلة الكوفة وهي همذان ، والري ، وقزوين ، واصفهان ، واذربيجان[٣] .

وفي زمن الامويين تابع الخليفة معاوية بن ابي سفيان النظام الاداري الذي كان سائداً في العصر الراشدي وذلك بتعيين اميرين على العراق أحدهما على الكوفة والاخر على البصرة[٤] ، هذا ثم جمع الخليفة معاوية المصرين لامير البصرة زياد بن ابي سفيان في سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م وكان زياد يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة اشهر في البصرة[٥] ، وجمع اكثر الخلفاء الامويين ادارة العراق بيد امير واحد كان يقيم مرة بالبصرة ومرة بالكوفة ، ويعينون نائبا عنهم لادارة المصر الآخر[٦] .

ولما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق سنة ٧٥ هـ/٦٩٤ م رأى من الأفضل ان يتخذ مكاناً وسطاً بين هاتين المدينتين يكون مقراً لادارته فاختار موضع واسط وبنى مدينة فيه سنة ٨١ هـ/٧٠٠ م وأقام بها[٧] . وكان الأمراء الذين توالوا على حكم العراق بعد الحجاج يقيمون في واسط ايضا[٨] . وكان الامير في واسط يعين نائبا عنه على البصرة ، وآخر على الكوفة يطلق عليه اسم العامل ، ويكون كل منهما مسؤولا أمامه[٩] ، وقد ظلت واسط مركزا لادارة العراق والمشرق الاسلامي حتى نهاية الخلافة الاموية سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م[١٠] .

لقد بلغت الدولة العربية اقصى اتساعها في العصر الأموي (٤٠ — ١٣٢هـ/٦٦٠ — ٧٤٩م) وقد أدى هذا الاتساع الى عدم استطاعة الخليفة الأموي ادارة هذه الرقعة الواسعة بصورة مباشرة من عاصمة الخلافة دمشق فعمل بتطبيق نظام اللامركزية في ادارة الدولة العربية حيث قسمت الى خمس ولايات كبرى — عدا بلاد الشام — وكان على رأس ادارة

كل ولاية أمير يعينه الخليفة يحكم باسمه ويكون مسؤولا تجاهه ، وقد اصبح العراق بموجب هذا التقسيم مركزاً لادارة القسم الشرقي من الدولة العربية ، فكان امير العراق يشرف على ادارة العراق والاقاليم الشرقية من الدولة العربية وهي خراسان ، وسجستان وكرمان ، وفارس ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند[11] وكذلك أقاليم الخليج العربي[12] . ولما اصبحت واسط مقرا للامراء في العراق قام هؤلاء الامراء بتعيين العمال على تلك الاقاليم ويوكلون اليهم الاشراف الاداري فيها ويكونون مسؤولين تجاههم[13] .

وفي زمن الخلافة العباسية (١٣٢ ــ ٦٥٦ هـ/٧٤٩ ــ ١٢٥٨ م) احتفظت واسط بأهميتها الادارية حيث بقيت مركزا لادارة ولاية كانت تتبع بغداد اداريا طيلة العصر العباسي[14] ، ولعل سبب ذلك يرجع الى ان أهمية منطقة واسط الاقتصادية والعسكرية كما ان سلطات ولاة واسط المالية والعسكرية كانت محدودة لا تساعدهم على الاستقلال عن بغداد[15] .

كانت ولاية واسط في العصر العباسي مقسمة الى خمس مناطق ادارية يقال لها « أعمال » وكانت كل منطقة منها تضم مجموعة من المدن والقرى ، وهذه الاعمال هي : أعمال الصلح كان مركزها مدينة الصلح ، وأعمال واسط كان مركزها مدينة واسط ، وأعمال الصينية ، وأعمال الغراف كان مركزها مدينة الغراف وأعمال الشرطة[16] .

وبما ان مدينة واسط كانت قد احتفظت بأهميتها الادارية منذ انشائها سنة ٨١ هـ /٧٠٠ م حتى احتلال المغول بغداد ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م فسوف نتكلم عن هذه المدينة كنموذج لمدن الادارة في العراق في العصور العربية الاسلامية المزدهرة وذلك بتوضيح المؤسسات الادارية فيها منذ انشائها حتى نهاية الدولة العربية في العصر العباسي .

لقد ذكرنا انه منذ ان انشئت مدينة واسط سنة ٨١ هـ/٧٠٠ م كان امراء العراق يقيمون بها ويشرفون منها على ادارة العراق والمشرق الاسلامي، في العصر الاموي فكان الامير قائدا للجيش في العراق والمشرق ، وله امامة الصلاة والخطبة ، ومسؤولا عن الادارة العامة في العراق والمشرق ، وتتبعه عدة دوائر ادارية تساعدهم في الادارة وتطبيق النظام وتنفيذ القوانين ، وكان على رأس كل دائرة ادارية موظف يعينه الأمير يكون مسؤولا تجاهه[١٧] .

وقد اتخذ امراء واسط في العصر الاموي لهم حجابا بين هؤلاء الامراء والناس[١٨] .

أما في زمن الدولة العربية في العصر العباسي فقد كان اختيار ولاة واسط وتعيينهم يتم من قبل الخليفة وذلك في العصر العباسي الاول[١٩] ، وكان النظام الاداري في ذلك العصر نظاماً مركزياً حيث كان الخليفة العباسي يقصر عمل الوالي على القيام بحفظ الامن والنظام في ولايته[٢٠] .

ولما تسلط العسكريون الاتراك على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي عين الخلفاء ولاة منهم على واسط إلا ان هؤلاء الولاة أقاموا في العاصمة وأنابوا عنهم حكاماً كانوا يديرون شؤون واسط باسمهم[٢١] .

ولما استولى البويهيون على بغداد سنة ٣٣٤ هـ /٩٤٥ م اصبح امراء بني بويه هم الذين يعينون ولاة واسط[٢٣] وكان الوالي في هذا العصر يتولى الحرب والخراج[٢٤] . ولما استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م اتخذوا في ادارة ولاية واسط نظام الاقطاع الحربي الذي انتشر في هذا العصر كأسلوب من اساليب التنظيم الاداري والمالي . فكان السلاطين السلاجقة يقطعون ولاية واسط

لبعض الاشخاص الذين كان أغلبهم من قواد الجند[٢٥] ، ويكون « المقطع » مسؤولا عن الادارة وحفظ الأمن والنظام في الولاية وان يدفع الى خزانة السلطان مبلغاً من المال سنوياً ، وان يقدم المساعدات العسكرية الى السلطان السلجوقي وقت الحاجة[٢٦] . ولما تحرر العـراق من التسلط السلجوقي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م غدا الخليفـة العباسي هو الذي يعين ولاة واسط ، والجدير بالذكر ان الخلفاء العباسيين كانوا قد أخـذوا بنظام الاقطـاع العسكري ايضاً ، وقد أقام قسم من هؤلاء المقطعين بواسط[٢٧] . وكانوا يجمعون بين الحرب والخراج في هذه الولاية ، وكـان بعضهم يؤثرون البقاء في بغداد وينيبون عنهم حكاماً على واسط[٢٨] .

وفي أواخر العصر العباسي أوردت المصادر وظيفة الوالي بواسط باسم «الصدر»[٢٩] الذي يبدو انه كان مسؤولا عن الناحية الادارية والمالية[٣٠] .

وكان الى جانب الأمير بواسط موظف له اهمية كبيرة في الادارة هو صاحب الشرطة الذي كان على رأس جهاز الشرطة في هذه المدينة ، وقـد نشأت هذه المؤسسة الادارية في هذه المدينة منذ نشوئهـا ، كانـت مهمتهـا استتباب الأمن وحفظ النظام بواسط[٣١] . ونظراً لأهمية هذا المنصـب الاداري فقد كان الامراء بواسط يشترطون صفات معينـة فيمن يقلدونه هذا المنصب ، فكانوا يولونـه لاشخاص يتميزون بالكفاءة والمقدرة والحزم والامانة ، يقول ابن قتيبة[٣٢] ان الحجاج بن يوسف الثقفي عندما اراد ان يعين صاحب الشرطة قال : « دلوني على رجـل للشرطـة ، فقيل أي الرجـال تريد ؟ فقال : اريده دائم العبوس طويل الجلوس سمين اعجف الخيانة لا يحنو في الحق على جرة يهون عليه سبال الأشراف في الشفاعة ، فقيل له : عليك بعبدالرحمن بن عبيد التميمي ، فارسل اليه يستعمله » .

يتبين من قائمة اصحاب الشرط في هذه المدينة ان معظم هؤلاء كانوا من رجال القبائل ، ومن المرجح انهم كانوا قد اختيروا من رؤساء هـذه

القبائل زيادة في أهمية صاحب الشرطة لان مهمته تتعلق بالأمن والنظام في المدينة[٣٣] .

أما افراد الشرطة فالمرجح انهم كانوا قد اختيروا من رجال القبائل التي سكنت واسط لكي يكون كل واحد منهم مسؤولا عن حفظ الأمن والنظام في قبيلته[٣٤] .

ويظهر من المصادر التأريخية ان هناك عدة دوائر كانت مرتبطة بجهاز الشرطة في مدينة واسط ، وكانت على الدوائر واجبات مختلفة ومتعددة تتعلق باستتباب الأمن وحفظ النظام في المدينة ، فقد كان هناك حرس خاص يقوم بحماية الأمير والمحافظة على سلامته وتنفيذ أوامره[٣٥] . كما انه كان هناك حرس خاص لحراسة المدينة ليلا يطلق عليه اسم « العسس »[٣٦] .

وهناك اشارات الى موظف اخر كان على رأس دائرة مهمتها التحقيق مع المتهمين لأخذ اعترافاتهم قبل تقديمهم الى مجلس القضاء[٣٧] . كما وردت اشارة الى وظيفة « صاحب الاستخراج » بواسط ، ويتضح لدينا من اخبارها انه اودع الى صاحبها أمر التحقيق مع كبار الموظفين في موضع خاص يسمى « دار الاستخراج »[٣٨] وقد وردت اشارة الى صاحب السجن في هذه المدينة ، ولابد انه كان مسؤولا عن ادارة سجن الديماس فيها[٣٩] .

كما ان هناك اشارات الى وظيفة « صاحب المعاون »[٤٠] أو « عامل المعاون »[٤١] أو « صاحب المعونة »[٤٢] بواسط ، ويظهر من المصادر التأريخية ان هذه الدائرة كانت مرتبطة بجهاز الشرطة في مدينة واسط ، والراجح ان واجب صاحب المعاون كان قائما على مساعدة جباة الضرائب بواسط[٤٣] . ومساعدة بقية الموظفين الآخرين في اداء واجباتهم[٤٤] .

وعندما استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م استحدثوا في مدن العراق المختلفة وظيفة جديدة كان يسمى القائم بها « شحنة »[٤٥] .

ويظهر ان هذه الوظيفة كانت قد حلت محل وظيفة صاحب الشرطة بواسط ، فبينما كان لهذه المدينة صاحب للشرطة قبل عصر التسلط السلجوقي فاننا لم نعد نسمع بمثل هذه الوظيفة في هذا العصر مما يدل على الغائها[٤٦] . ولأهمية هذه الوظيفة فقد كان الحكام في بغداد يختارون شحنة واسط من البارزين الذين كانوا يتصفون بالكفاءة العسكرية والادارية[٤٧] . ويبدو ان الشحنة بواسط كان يقوم بالواجبات التي كان يقوم بها صاحب الشرطة نفسها ، فقد عهد اليه حفظ الأمن واشاعة الاستقرار ومراقبة المفسدين والقبض على الجناة[٤٨] .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذه الوظيفة ظلت بواسط بعد زوال التسلط السلجوقي واستقلال الخلافة ، وكان الخليفة هو الذي يعين الشحنة في هذه المدينة[٤٩] أما مؤسسة القضاء بواسط فقد ظهرت فيها منذ انشائها وكان الامراء بواسط في العصر الأموي هم الذين يعينون القضاة ويعزلونهم ويرتبون ارزاقهم[٥٠] . وقد تردد في المصادر ذكر عدد من الاشخاص الذين تولوا هذا المنصب في هذه المدينة في هذا العصر[٥١] .

كان عمل القاضي هو - « الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع »[٥٢] والنظر في المسائل الشرعية كالزواج والطلاق والمواريث ، وشؤون اليتامى والأرامل والمعاملات في الأسواق[٥٣] . أما مجلس القضاء فقد كان في العصر الأموي يعقد في المسجد الجامع بواسط في اغلب الأحيان[٥٤] .

وقد ورد ما يشير الى ان القاضي كان يقضي بين الخصوم في السوق[٥٥] . والبيت[٥٦] أو الطريق[٥٧] .

وكان مرجع القاضي في أحكامه القرآن الكريم والسنة النبوية والقياس والاجتهاد وأخذ رأي الفقهاء ، أي ما أجمع المسلمون عليه[٥٨] . أما تنفيذ الأحكام فقد كان من واجبات الشرطة[٥٩] .

أما في زمن الدولة العربية في العصر العباسي فقد كان الخليفة في القرون الاولى هو الذي يعين قضاة واسط ويعزلهم(٦٠) . ومنذ النصف الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تشير الاخبار الى ان تعيين قضاة واسط وعزلهم كان يتم من قبل قاضي القضاة ببغداد ، فقد ذكر ابن الجوزي ان قاضي القضاة عمر بن محمد بن يوسف قلد في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣م أبا طاهر محمد بن أحمد بن عبدالله الذهلي القضاء بواسط(٦١) ويبدو ان طريقة التعيين هذه لم تتبع طيلة العصور العباسية المتأخرة ، وانما اتبعت في معظم فتراتها(٦٢) . فقد جاء في المصادر ان قاضي القضاة كان يستأذن الوزير عند ترتيب القاضي بواسط ، فصاحب كتاب الحوادث الجامعة يذكر انه عندما قلد قاضي القضاة عبدالرحمن بن مقبل الواسطي في سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م أحمد بن عنتر الهمامي القضاء بواسط ، أمر الوزير بعزل القاضي لأن قاضي القضاة لم يستأذنه في ترتيبه ثم شفع به الى الوزير فتقدم الى قاضي القضاة باعادته فأعاده الى منصبه(٦٣) . وهذا يدل على ان سلطة تعيينهم اصبحت بيد الوزير بعد ان كانت بيد قاضي القضاة ، ومن المرجح ان طريقة التعيين هذه اقتصرت على الفترة التي أصبح فيها الوزراء أو نوابهم هم الذين يعينون قاضي القضاة(٦٤) . وتشير الأخبار ايضاً ان قاضي القضاة كان يقترح اسماء قضاة واسط ثم تقدم الى صاحب الديوان للموافقة على تعيينهم(٦٥) ، وان بعض الخلفاء في العصر العباسي الأخير قلدوا قضاة واسط(٦٦) .

لم نجد في المصادر ما يشير الى وجود اكثر من قاض واحد بواسط حتى اواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فقد ذكر ابن الجوزي ان القاضي أبا تغلب عبيد الله بن احمد بن جعفر (ت ٤١٠هـ/١٠١٩م) كان نائباً عن القاضي ابي خازم محمد بن الحسن الواسطي في الجانب الشرقي من واسط(٦٧) . ولاشك ان سبب ذلك يرجع الى اتساع رقعة المدينة وكثرة

عدد سكانها في هذه الفترة مما ادى الى تقسيم قضائها الى منطقتين ، غير اننا لا نستطيع تحديد السنة التي حدث فيها هذا التغيير في ادارة القضاء بواسط ، والراجح ان هذا الاجراء الاداري ظل قائما بواسط طيلة العصر العباسي لأن هذه المدينة ظلت محتفظة بسعة رقعتها وازدهارها الاقتصادي والاجتماعي طيلة هذه الفترة[٦٨] .

ويظهر ان عمل بعض قضاة واسط كان يشمل مدن ولاية واسط ايضاً فقد ذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م ولي ابو خازم محمد بن الحسن الواسطي القضاء بواسط واعمالها[٦٩] . وفي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ولي ابو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي القضاء بواسط واعمالها[٧٠] . ويذكر ابن الدبيثي انه في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قلد قاضي القضاة ابو الحسن علي بن أحمد الدامغاني أخاه أبا محمد الحسن بن أحمد بن علي قضاء واسط وأعمالها[٧١] . وغير هؤلاء[٧٢] .

وبما ان قاضي واسط لا يستطيع النظر في أمر جميع مدن واسط ، فلابد ان قضاة مدن واسط الذين تردد ذكرهم في المصادر[٧٣] كانوا يقومون بأعمالهم نيابة عن قاضي واسط ويكونون مسؤولين أمامه[٧٤] . إلا ان المصادر لا تذكر كيف كان يتم ترتيب هؤلاء القضاة ، هل كان بتخويل شخصي من قاضي واسط دون حاجة الى تأييد قاضي القضاة ببغداد ؟ ام ان ترتيبهم كان يتم بعد استشارة قاضي القضاة وتأييده ؟ إلا اننا نرجح الحالة الثانية نظراً لأهمية منصب القضاء آنذاك .

أما مجلس القضاء بواسط فقد كان يضم بالاضافة الى القاضي ، الأعوان ، والحاجب والكاتب ، والشهود العدول والوكلاء .

كانت مهمة الأعوان احضار الخصوم الى مجلس القضاء والمحافظة على الهدوء والنظام في اثناء المرافعات[٧٥] . وكانت مهمة الحاجب هي الحفاظ على الهدوء في مجلس القضاء ، فكان لا يسمح بالدخول الى مجلس

القضاء إلا للخصوم والوكلاء وحسب ترتيب حضورهم[٧٦] . وقد اشترط الفقهاء في الحاجب العدالة والعفة والامانة[٧٧] .

أما الكاتب فقد كان يدون أقوال الخصوم والشهود ، وقرار الحكم الذي يصدره القاضي ، واشترط الفقهاء في الكاتب ان يكون « مسلماً ورعاً لأن الكتابة من جنس القضاء فيشترط في الكاتب ما يشترط في القاضي[٧٨] وان يكون مكانه قريباً من القاضي « حيث يراه كي لا يخدع في الرشوة فيزيد في الفاظ الشهادة او ينقص »[٨٩] . أما الشهود العدول فقد كان يختارهم القاضي للشهادة في مجلس القضاء[٨٠] ، وكان يشترط بالعدل ان يكون مسلماً بالغاً عاقلا عالماً بما يشهد[٨١] . لذلك فقد كان القضاة بواسط يختارون هؤلاء العدول من بين الفقهاء[٨٢] والقراء[٨٣] . ورجال الحديث[٨٤] . وكان لا يصبح الرجل معدلا إلا بتزكية اثنين من الشهود العدول أمام القاضي[٨٥] .

أما الوكيل فهو الذي يعرف اليوم بالمحامي[٨٦] . وكان يتولى مهمة المرافعة أمام القاضي وكالة عن موكله لقاء مبلغ معين من المال[٨٧] .

أما عن ارزاق القضاة والأعوان ، والكتاب فقد ذكر وكيع ان رزق قاضي واسط ابو شيبة ابراهيم بن عثمان كان ١٥٠ درهما في الشهر ثلاثين منها لكتابه وأعوانه فزادها الخليفة المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩هـ/٧٧٤ــ٧٨٥م) فصارت (٣٠٠) درهم ، ثم زيدت فبلغت (٤٨٠) درهم[٨٨] ومما لاشك فيه فان ارزاق هؤلاء زيدت عما كانت عليه في العصر العباسي الأول .

لقد اصبحت مدينة واسط منذ ان انشئت سنة ٨١هـ/٧٠٠م مركزاً لادارة العراق والمشرق ، كما ذكرنا ، فمن المحتمل جداً ان عدداً كبيراً من

الصناع واصحاب الحرف ، والعمال ، والتجار ، ورجال الأعمال جاءوا من الكوفة والبصرة واماكن اخرى واستوطنوها منذ السنوات الاولى لتأسيسها مما أدى الى ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها(٨٩) . فلابد في هذه الحالة ان تقوم مشاكل من جراء المعاملات في السوق والصناعات والأعمال الاخرى التي تتعلق بحياة السكان المعاشية ، فلكي تمنع الدولة قيام الغش والحيل والتدليس ، والاحتكار من قبل بعض الباعة كان لابد لها ان تعالج المشكلة فأوجدت مؤسسات ادارية لمراقبتهم ومنعهم من القيام بالأعمال المضرة بمصلحة المستهلك(٩٠) . فكان المحتسب على رأس هذه المؤسسة الادارية في مدينة واسط(٩١) .

أما في زمن الدولة العربية في العصر العباسي فان المصادر المتيسرة لدينا أشارت الى عدد من الشخصيات التي تولت هذا المنصب في هذه المدينة(٩٢) مما يدل على استمرار هذه المؤسسة الادارية ، إلا ان هذه المصادر لم تمدنا بأية معلومات عن واجبات المحتسب ، ولكن يمكن القول انه ظهرت في المجتمع العربي الاسلامي كتب تناولت الحسبة بصورة مفصلة فبحثت في شروط المحتسب وواجباته واعوانه(٩٣) . والراجح ان واجبات المحتسب في المدن التي ألفت فيها هذه الكتب لا تختلف بصورة أساسية عن واجباته في مدينة واسط وذلك لان واجبات المحتسب كانت متشابهة الى حد كبير في كل جزء من اجزاء المجتمع العربي الاسلامي(٩٤) .

لقد اشارت كتب الحسبة هذه الى ان من واجبات المحتسب تفقد أحوال اهل السوق ومراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس نظراً لتعددها في الأقاليم العربية الاسلامية وذلك للتأكد من صحتها(٩٥) . ومراقبة اصحاب الحرف

والاصناف وارباب الصنائع[٩٦] والحيلولة دون وقوع الغش أو التدليس في المبيعات[٩٧] . وكان عليه مراقبة عمل الدلالين في الأسواق و « يقر منهم الامناء ويمنع الخونة »[٩٨] . ويلزم المحتسب الخبازين بنظافة أفرانهم وملاحظة اوزان الخبز ونظافته[٩٩] . ويمنع الجزارين من اخراج اللحوم خارج حوانيتهم لئلا تلاصق ثياب الناس ، ويأمرهم ألا يخلطوا لحوم الماعز بلحوم الضأن[١٠٠] . كما كان يلزم الصيادلة بعدم غش الدواء[١٠١] وكان على المحتسب ان يقوم بملاحظة سعة ونظافة الأسواق والطرق للحيلولة دون مضايقة المارة فيها[١٠٢] . ويأمر أصحاب المباني المتداعية بهدمها[١٠٣] . وملاحظة نظافة المساجد « ومنع الناس من الاجتماع فيها لغير الصلاة »[١٠٤] . ومراقبة المعلمين ومنعهم من ضرب الاطفال ضربا مبرحا[١٠٥] .

ان كثرة مسؤوليات المحتسب جعلته يتخذ من أهل كل صنعة عريفاً يكون مشهوراً بالثقة والأمانة ، خبيراً بصناعتهم ، بصيراً بغشهم وتدليسهم، يشرف على أحوال أهل صنعته ويوصل اخبارهم الى المحتسب ، وعهد اليه ايضاً ان يشرف على البضائع الواردة الى السوق ويوصل اخبارها واسعارها الى المحتسب[١٠٦] . واضافة الى هؤلاء كان المحتسب يتخذ له أعواناً يساعدونه في اداء مهمته[١٠٧] . كان يجري تهذيبهم وتعليمهم على واجباتهم تحت اشرافه[١٠٨] .

كان اختيار وتعيين المحتسب بواسط في العصر الأموي يتم من قبل الامير[١٠٩] . أما في العصر العباسي فلم أجد في المصادر ما يشير الى من كان يقوم بتعيين المحتسب في هذه المدينة ، إلا اننا نجد اشارات الى ان هذه الوظيفة كانت تعهد الى بعض القضاة بواسط ، فقد ذكر ابن الدبيثي ان القاضي أبا الازهر علي بن أحمد بن محمد بن علي الكتاني كان محتسبا بواسطة ، وان ابنه القاضي أبا طالب محمد بن علي الكتاني كان محتسب

ايضا[١١٠] . ومن المحتمل جداً ان هذه الوظيفة كانت تعهد الى القاضي في أثناء تعيينه بمنصب القضاء[١١١] .

لم نجد آية اشارة عن دائرة المحتسب بواسط ، ولكن لابد انه كانت هناك دائرة خاصة به وذلك لحفظ سجله الذي ربما كان يسجل به أصحاب الحوانيت واصحاب الحرف وغيرهم في المدينة ويضع فيها عدته كما كان عليــه الحال ببغداد[١١٢] .

وبما ان مدينة واسط كانت مركزا لادارة العراق والمشرق الاسلامي فقد كان في هذه المدينة عدد من الدواوين كانت مساهمة بمتطلبــات ادارة واسط هــي :

ديوان الخراج : كان يرأس هذا الديوان في مدينة واسط موظف يسمى (كاتب الخراج)[١١٣] . وكان يساعده في ادارة هذا الديوان عدد من الموظفين والكتّاب والمحاسبين . آما مهمته فقد كان يتولى تنظيم الخراج وجبايته[١١٤] . ويظهر ان النظام الاداري في الدولة العربية في العصر الأموي كان قد منــح الاقاليم سلطات واسعة تسهيلا لادارتها ، وكان هناك اتجاه لا مركزي قد ساد المؤسسات الادارية آنذاك ، فقد كان الأمير بواسط يدفع من أموال الخراج التي بعهدته أعطيات الجند والنفقات الاخرى ثم يرسل الباقي الــى بيت المال المركزي في دمشق ، يقول الماوردي[١١٥] : « وكان يوسف بن عمر يحصل منه (يعني الخراج) في كل سنة من ستين الف الف الى سبعين الف الف ، ويحتسب بعطاء من قبله من أهل الشام ستة عشر الف الف درهم ، وفي نفقة البريد أربعة آلاف الف درهــم ، وفي الطوارق الفي الف ، ويبقــى في بيوت الأحــداث والعواتق عشرة آلاف الف درهم » .

أما في العصر العباسي فقد كانت ضريبة الخــراج بواسط تجبى من قبل موظف يطلق عليه اسم « صاحب الخراج » كان يحمل خراج ولاية واسط الى خزانة الدولة ببغداد بعد ان يسدد نفقاتها[١١٦] . غير ان طريقة الجباية هذه

كانت قد تغيرت وخلفتها طريقة اخرى هـــي « الضمان » حيث اصبح الضامن هو الذي يتولى جباية الضرائب المفروضة على الأراضي الخراجية بولاية واسط على ان يتعهد بدفع مبلغ معين للخزينة ببغداد سنويا[١١٧] .

لقد بدأ ضمان واسط في الربـــع الأخير من القرن الثالـــث الهجري / التاسع الميلادي ، لذلك لم يعد لكلمة الخراج أو عامل الخراج بواسط ذكر في المصادر بعد هذا التاريخ[١١٨] .

وكان سبب اللجوء الى هذه الطريقة هو الازمات المالية التي كانت تمر بها الدولة العربية في العصر العباسي وحاجتها الى المال لدفع رواتب الجنــد والموظفين[١١٩] .

وعلى الرغم من ان هؤلاء الضامنين كانوا يخضعون لاشــراف الوزراء واصحاب الدواوين ببغداد[١٢٠] . إلا انهم لكي يربحوا كان عليهم ان يجبوا ما يمكنهم جبايته من الاموال ، فقد ذكر مسكويه ان ربح حـــامد بن العباس من ضمانه لواسط سنة ٣١١هـ/٩٢٣م كان اكثر مـــن الضعف[١٢١] . وكان الضامنون يتبعون طرقاً غير مشروعة في اثناء جمعهم الأموال[١٢٢] . مما أدى الى خراب الأراضي بمنطقة واسط وغلاء الأسعار[١٢٣] .

وكان مع الضامن كتّاب يساعـــدونه[١٢٤] . كما كان له وكلاء ايضـــاً يقومون بالأعمال التي يعهد بها اليهم[١٢٥] .

وفي عصر التسلط البويهي (٣٣٤ ــ ٤٤٧هـ/٩٤٥ ــ ١٠٥٥م) استحدثت بواسطة وظيفة « الناظر » الذي كان مسؤولا عن تنظيم واردات ولاية واسط ونفقاتها[١٢٦] وكان اختيار الناظر وتعيينه يتم من قبل الأمير البويهي ، فقـــد ذكر أبو شجاع انه في سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م عهد بهاء الدولة بهذا المنصب بواسط الى ابي علي بن اسماعيل[١٢٧] .

ومع ان صاحب هذه الوظيفة موظف مالي إلا انه بسبب التداخل الموجود في عمل الموظفين في الدولة العربية في العصر العباسي ، فقد كان يعهـــد الى

الناظر أحياناً إضافة الى وظيفته مهمة الاشراف على الادارة في ولاية واسط[١٢٨] . كما تولى بعضهم النظارة والاشراف[١٢٩] .

وكان للناظر نواب[١٣٠] . ومعه موظفون يسمون العمال ، وكتاب يساعدونه في أعماله[١٣١] .

ويظهر انه كانت هناك تقاليد ورسوم تتبع عند تعيين الناظر فقد ذكر ابن الساعي انه عندما عين ابو الفضل بن النمس ناظراً بواسط سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م خلع عليه في الديوان العزيز ثم توجه الى واسط[١٣٢] . ويذكر صاحب كتاب الحوادث الجامعة انه عندما عين محمد بن يحيى البصري ناظرا بواسط سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ارسلت اليه خلعة من بغداد[١٣٣] .

ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه الوظيفة ظلت قائمة بواسط حتى نهاية الدولة العربية في العصر العباسي[١٣٤] . وان الخليفة في العصر العباسي الأخير هو الذي كان يعين الناظر[١٣٥] .

اما في عصر التسلط السلجوقي (٤٤٧ ــ ٥٥٢ هـ/١٠٥٥ ــ ١١٥٧ م) فقد استحدثت بواسطة وظيفة مالية اخرى هي « المشرف » والراجح ان تعميم الاقطاع في هذا العصر هو الذي ادى الى استحداث هذه الوظيفة المالية ، وكان لهذه الوظيفة ديوان يرأسه موظف يعرف بالمشرف[١٣٦] . ومن خلال الاشارات التي وصلت الينا عن هذا الديوان يمكن القول ان رئيس هــذا الديوان كان يراقب أعمال الناظر ويشرف عليها[١٣٧] .

وهذه الوظيفة أشبه ما تكون بوظيفة المدقق او المفتش المالي في الوقت الحاضر[١٣٨] ونظراً لكون وظيفة هذا الديوان هي مكملة لوظيفة الناظر فقد جمع الديوانان أحياناً لشخص واحد[١٣٩] .

ديوان الجند : لقد انشئت مدينة واسط لتكــون مقراً لادارة العــراق والمشرق ، ومركزاً لتجمع الجيش العربي في العراق ، ومركزاً لانطلاق هــذا

الجيش الى الساحات الشرقية ، وقد ادى امراء ومقاتلة واسط دورا متميزا في حركات التحرير العربية في جبهة خراسان ، وجبهة ما وراء النهر ، وجبهة السند، حيث اصبحت هذه المدينة مقراً لادارة العمليات العسكرية في تلك الجبهات[١٤٠] . وبما ان الابواب الرئيسة لمصروفات الدولة العربية هي الانفاق على المقاتلة ، وعلى الحملات العسكرية وعلى تكاليف الادارة بواسط[١٤١] . فلابد في هذه الحالة من وجود سجلات منظمة باسماء المقاتلة واوصافهم وأنسابهم ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه . كما انه لابد من وجود مكان لحفظ هذه السجلات والاشراف عليها وذلك ما يطلق عليه اسم الديوان[١٤٢] .

والجدير بالذكر ان نفقات هذا الديوان على الجند بواسط كانت قد بلغت في عهد الأمير يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ ــ ١٢٦هـ/٧٣٧ ــ ٧٤٣م) ستة عشر مليون درهم[١٤٣] . وبلغت نفقات هذا الديوان على حركات التحرير العربية في جبهة السند في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي (٨٢ ــ ٩٥ هـ/٧٠١ ــ ٧١٣ م) ستين مليون درهم[١٤٤] .

ديوان الرسائل : كانت مهمته تحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير الى الخليفة بدمشق او الى عمال الأقاليم التي كان يشرف على ادارتها ، وتلقى الرسائل التي كانت ترد الى الأمير بواسط[١٤٤] . وكان يرأس هذا الديوان موظف يسمى « كاتب الرسائل »[١٤٥] .

ديوان البريد : كانت مهمة صاحب البريد الرئيسة هي نقل الاخبار والرسائل بين واسط ودمشق ، وبين واسط ومراكز ادارة الاقاليم التابعة لادارتها[١٤٦] . وكان لصاحب البريد النظر في احوال موظفي البريد ودوابه وامكنته ، وينبغي ان يكون عارفاً بالطرق والمسالك الى جميع نواحي الدولة بحيث يجد الأمير عنده كل المعلومات المطلوبة[١٤٧] .

لقد أولى امير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي عنايته واهتمامه بشؤون البريد اذ رأى — على ما يظهر ان هنالك ضرورة لاتصاله الدائم والمامه السريع بأخبار الجيش العربي الذي يقاتل الأعداء في الساحات الشرقية فقام بتحسين طرق المواصلات التي يسير عليها صاحب البريد ، ويدل على ذلك سرعة وصول الأخبار منه واليه ، فقد ورد في كتاب فتوح البلدان ان كتب الحجاج كانت ترد على القائد محمد بن القاسم الثقفي في بلاد السند ، وكتب القائد محمد ترد اليه كل ثلاثة ايام[١٤٨] . ولكي تنقل اخبار حركات التحرير العربية في المشرق بسرعة اتخذ الحجاج المناظر بين مدينة واسط وقزوين ، وكان « اذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا ، وان كان ليلا أشعلوا نيراناً فتجرد الخيل اليهم »[١٤٩] .

ويبدو ان الامراء الذين جاءوا بعد الحجاج كانوا قد اهتموا بالبريد ايضاً واولوه عنايتهم ، فقد ذكر الماوردي ان نفقة البريد كانت في زمن امير واسط يوسف بن عمر الثقفي أربعة ملايين درهم[١٥٠] .

لم تقتصر واجبات صاحب البريد بواسط على نقل الرسائل والاخبار وانما كلف بالقيام بواجبات أخرى ، فقد كان عيناً للامراء على عمالهم يرفعون عنهم التقارير الى الامراء[١٥١] كما استخدم البريد لنقل كبار الموظفين[١٥٢] والاشخاص الذين يطلبهم الأمير للمثول امامه[١٥٢] . ولما كان صاحب البريد عالماً بالطرق والمسالك فقد استخدم البريد لنقل الجند في اثناء حركات التحرير العربية[١٥٣] ، وقيام حركات المعارضة[١٥٤] .

لقد جائتنا كتابات عن الطرق والسكك التي كانت تربط مدينة واسط بالمدن والأقاليم الاخرى في العصر العباسي . وأعطت هذه الكتابات وصفاً دقيقاً وشاملا لطرق البريد هذه ، مع تحديد المسافات بين واسط وهذه الأقاليم بدقة . وهذه الكتابات — بلاشك — تعيننا على معرفة طرق البريد في فترة دراستنا بصورة دقيقة[١٥٥] .

والجدير بالذكر هنا ان عملية تعريب دواوين الطرق تمت في مدينة واسط بأمر من أمير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي[١٥٦] .

ونظراً لأهمية واسط الادارية والسياسية والاقتصادية فقد اتخذت مركزا لضرب الدراهم منذ انشائها حيث جمع الحجاج فيها الطباعين والصناع من المراكز الاخرى لسك النقود في العراق[١٥٧] .

وقد اصبحت هذه المدينة منذ سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م المركز الوحيد لضرب النقود في العراق والمشرق الاسلامي ، وقد أشار المقريزي الى هذه الحقيقة فقال[١٥٨] : « فلما قام هشام بن عبدالملك ، وكان جموعاً للمال ، أمر خالد بن عبدالله القسري في سنة ست ومائة من الهجرة ، ان يعيد العيار الى وزن سبعة ، وان يبطل السك في كل بلدة إلا واسطاً ، فضرب الدراهم بواسط فقط ، وكبر السكة ، فضربت الدراهم على السكة (الخالدية) حتى عزل خالد في سنة عشرين ومائة وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي ، فصغر السكة وأجراها على وزن ستة ، وضربها بواسط وحدها » . ويؤكد Jungfleisch ان مدينة واسط اصبحت المركز الوحيد لضرب الدراهم في جميع الأقاليم التابعة للدولة العربية في العصر الأموي ، باعتبار انه وجد بواسط عدد كبير من الدراهم الاموية الخاصة بافريقية والاندلس كانت قد ضربت في هذه المدينة وكانت معدة لتصديرها الى هذين الاقليمين[١٥٩] . ويوافقه في ذلك كل من Wallker [١٦٠] . و « عبدالرحمن فهمي »[١٦١] .

لقد كان امراء واسط شديدي الحرص على الاحتفاظ بسلامة النقود وجودتها ، فقد كانت النقود التي ضربت بواسط من الانواع الجيدة وقد اشار البلاذري الى ذلك بقوله[١٦٢] : « فلما ولي عمر بن هبيرة العراق ليزيد بن عبدالملك خلص الفضة أبلغ من تخليص من قبله ، وجوّد الدراهم ،

فاشتد في العيار ، ثم ولي خالد بن عبدالله البجلي ثم القسري العراق لهشام بن عبدالملك ، فاشتد في النقود اكثر من شدة ابن هبيرة ، حتى احكم أمرها أبلغ من احكامه . ثم ولي يوسف بن عمر بعده فأفرط في الشدة على الطباعين واصحاب العيار ... فكانت الهبيرية والخالدية ، واليوسفية أجود نقود بني أمية . ولم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني امية غيرها »(١٦٣) .

وفي زمن الدولة العربية في العصر العباسي استمر ضرب النقود بواسطة ايضا(١٦٤) .

الهوامـــش

(١) انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٣/٥٩٠ ، ٤/٩٥ ، ١٦٠ .
(٢) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ١/١٥٦ ، ١٥٨ ، الطبري : ٤/١٣٧ ، الكامل في التاريخ : ٣/١٠٠ .
(٣) انظر : الطبري : ٤/١٣٧ . الكامل في التاريخ : ٣/١٤٧
(٤) اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٢٠ ، الطبري : ٥/٢٣٤ .
(٥) اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٢٩ ، الطبري : ٥/٢٣٤ .
(٦) الطبري : ٥/٣٤٨ .
(٧) بحشل : تاريخ واسط : ٤٣ .
(٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٠٦ .
(٩) انظر : الطبري : ٦/٤٣٣ .
(١٠) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي: ١٦٤ وما بعدها
(١١) ابن الفقيه : البلدان : ورقة ٢٩ب . الطبري : ٦/٤٢٦ .
(١٢) تاريخ خليفة بن خياط : ١/١٣٦ ، ٢٩٩ . الطبري : ٤/٢٦٦ . الكامل في التاريخ : ٣/١٠٠ . الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٠٨ .
(١٣) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي: ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(١٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٤٧ .
(١٥) ن م : ١٤٨ .
(١٦) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٣١ – ١٤٦ .
(١٧) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ١٦١ – ٢٦٧ .
(١٨) الامامة والسياسة : ٢/٣٤ ، ٣٩ ، الطبري : ٧/١٤٨ ، ٤٥٦ ، الجهشياري : الوزراء والكتاب : ٦٣ .
(١٩) الطبري : ٧/٦٣٦ . الكامل في التاريخ : ٥/٥٦٤ .
(٢٠) الدكتور جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في المشرق : ٩٥
(٢١) انظر : الطبري : ٩/٥٣٩ ، ٥٤٠ .
(٢٢) اسقط هذا الهامش من المتن ، احذف العبارة المتعلقة به .

(٢٣) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٦ . الكامل في التاريخ : ٣٧٦/٩ .

(٢٤) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٢٦٠ . الكامل في التاريخ : ٥١٧/٩ .

(٢٥) انظر : الكامل في التاريخ : ١٠/٤٤٤ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٣٧/١١ ، ٤١ ، ٧٨ ، ٣٢٨ ، ٣٩٥ .

(٢٦) ابن الجوزي : المنتظم : ٣/١٠ . الكامل في التاريخ : ٦٣٨/١٠ .

(٢٧) ابن الجوزي : المنتظم : ١٤٨/١٠ . الكامل في التاريخ: ٢١٢/١١ ، ٣٢٨

(٢٨) الايوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١٤ ، ١١٨ ، ١٧٠ .

(٢٩) الحوادث الجامعة : ٢٤٤ .

(٣٠) ن٠م : ٢٤٤ .

(٣١) بحشل : تاريخ واسط : ٩٠. الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٧١ .

(٣٢) عيون الأخبار : ١٦/١ . انظر ايضا : انساب الاشراف: جـ١١ ورقة ١٤١

(٣٣) تاريخ خليفة بن خياط : ٣١٢/١ ، ٣٢٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦٦/٢ ، الطبري : ٤٢٦/٦ ، ٢٨/٧ .

(٣٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٧٣ .

(٣٥) الطبري : ١٤٨/٧ .

(٣٦) المحاسن والاضداد : ٣٤ ، ٣٥ . الذهبي : تاريخ الاسلام : ٣٥٣/٣ .

(٣٧) انساب الاشراف : جـ ٧ ورقة ٣٦ب ، جـ ١١ ورقة ٤١ب .

(٣٨) ن٠م : جـ ٧ ورقة ٣٦ب . الاوائل : ٢٢٧ . نشوار المحاضرة : ١٣٦/١ .

(٣٩) ن٠م : جـ ١١ ورقة ٤٠ب .

(٤٠) الصابي : الوزراء : ١٨ .

(٤١) مسكويه : تجارب الامم : ٨٤/٢ .

(٤٢) التنوخي : نشوار المحاضرة : ١٥٨/٤ .

(٤٣) انظر : الصابي : رسائل الصابي : ١٣٨/١ .

(٤٤) انظر : نشوار المحاضرة : ١٥٨/٤ .

(٤٥) انظر : البنداري : دولة آل سلجوق : ٢٢٧ .

(٤٦) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٥ .

(٤٧) انظر : الكامل في التاريخ : ١٣٢/١١ . ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب : جـ ٤ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٤٨) انظر : ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب : ٥٨٦/٥ ، ٥٨٩ (حرف الميم) .

(٤٩) ن.م : ٢٨٩/٥ (حرف الميم) .
(٥٠) بحشل : تاريخ واسط : ١٣٣ . الخطيب : تاريخ بغداد : ١٠٣/١٤ . اخبار القضاة : ٣١٥/٣ .
(٥١) انظر : اخبار القضاة : ٣٠٧/٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، بحشل : تاريخ واسط : ١٢٥ ، ١٣٧ . ٣٠٨ الخطيب : تاريخ بغداد : ٣٩٣/٢ ، ابن سعد : الطبقات ٢٦٧/٦ ، جـ ٧ ق١ ص ٥٩ .
(٥٢) ابن خلدون : المقدمة : ٢٢٠ .
(٥٣) انظر : الوقائع التي ذكرها وكيـع في كتابه « اخبار القضاة » . عيون الاخبار : ٦٠/١ وما بعدها .
(٥٤) انظر : بحشل : تاريخ واسط : ١٠٣ . اخبار القضاة : ٣١٦/٢ . عيون الاخبار : ٦٠/١ وما بعدها .
(٥٥) اخبار القضاة : ٣٣٩/١ .
(٥٦) ن.م : ٣١٦/٢ ، ٤١٢ .
(٥٧) ن.م : ٣٣٣/١ .
(٥٨) ن.م : ٧٦/١ .
(٥٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٧٢ .
(٦٠) اخبار القضاة : ٣١٣/٣ . الخطيب : تاريخ بغداد : ٣٧١/٣ .
(٦١) المنتظم : ٩٠/٧ . انظر : الخطيب : تاريخ بغداد : ٣١٣/١ .
(٦٢) المنتظم : ٣٠٠/٧ ، ١٠٣/١٠ . ابن الساعي : الجامع المختصر : ٤٥/٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ . الحوادث الجامعة : ١٥ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٢٧٦ .
(٦٣) الحوادث الجامعة : ٣٢ .
(٦٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٠ .
(٦٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب : جـ ٤ ق٢ ص ٧٢٥ ، ٧٢٦ .
(٦٦) مرآة الزمان : جـ ٨ ق٢ ص ٥٠٩ .
(٦٧) المنتظم : ٢٩٤/٧ .
(٦٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٢ .
(٦٩) المنتظم : ٢٠٨/٧ .
(٧٠) ن.م : ٦٣/٩ ، ٣٧/١٠ .
(٧١) ذيل (مخطوطة) جـ٢ ق١ ورقة ١٥٤ .
(٧٢) انظر : ن.م : جـ١ ق٢ ورقة ١٣٩ . ابن الساعي : الجامع المختصر ٢٠٤/٩ ، ٢١٨ . ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة : ٣٠٥/١ .
(٧٣) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي من ص ٤١٢ — ٤١٤ .
(٧٤) ن.م : ١٦٣ .

(٧٥) اخبار القضاة : ٣١٤/٣ .
(٧٦) السمناني : روضة القضاة : ١٢٠/١ .
(٧٧) الماوردي : ادب القاضي : ٢٠٤/١ .
(٧٨) ابن مازة : شرح ادب القاضي (مخطوطة) ورقة ٦١٤ .
(٧٩) ن.م : ورقة ٦١٤ .
(٨٠) السلفي : معجم السفر (مخطوطة) ورقة ١٦٥ب . ابن الدبيثي : ذيل (مخطوطة) جـ١ ق١ ورقة ١١٥ .
(٨١) السمناني : روضة القضاة : ٢٠٠/١ .
(٨٢) انظر : ابن الدبيثي : ذيل (مخطوطة) جـ١ ق٢ ورقة ١٥٧ ، ، جـ٢ ق١ ورقة ١٧٩ .
(٨٣) سؤالات السلفي : ٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٩٨ . ذيل (مخطوطة) جـ٢ ق٢ ورقة ٢١٤ .
(٨٤) ن.م : ٧ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٤١ . ن.م جـ١ ق٢ ورقة ٢٦٢، جـ٢ ق١ ورقة ٩٠ ، ١٢٤ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، جـ٢ ق٢ ورقة ١٢٧ .
(٨٥) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٦٦ .
(٨٦) الدكتور مصطفى جواد : المختصر المحتاج اليه : ٩/١ حاشية ٣ .
(٨٧) الدكتور عبدالرزاق الانباري : النظام القضائي في بغداد في العصر العباسي : ٢٩٢ .
(٨٨) اخبار القضاة : ٣١٠/٣ .
(٨٩) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٨٢
(٩٠) انظر : كوركيس عواد ، الحسبة في خزانة الكتب العربية : مجلة المجمع العلمي العربي م١٨ ١٩٤٣ ص ٤١٧ .
(٩١) تلخيص مجمع الآداب : جـ ٤ ق ٤ : ٨٦٠ .
(٩٢) انظر : السلفي : معجم السفر (مخطوطة) ورقة ١٤٦ب . سؤالات السلفي : ٤٧ ابن نقطة : اكمال الاكمال (مخطوطة) ورقة ٢٠٨أ . ذيل (مخطوطة) جـ ١ ق١ ورقة ٩٥ ، ٩٦ ، جـ ١ ق ٢ ورقة ٢٤١ ، جـ٢ ق١ ورقة ١٥٨ ، جـ٢ ق٢ ورقة ٢١٠ . الذهبي : العبر : ٢٣٨/٤ ، ٩٨/٥. تلخيص مجمع الآداب : جـ٤ ق٤ : ٦١ ، ٨٦٤ .
(٩٣) منها : الاحكام السلطانية ، والرتبة في طلب الحسبة للماوردي ، ومعالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوة ، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام ، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري .
(٩٤) الدكتور حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية : ٣١٦ .

(٩٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٤ . الشيزري : نهاية الرتبة : ١٥ ، ١٩ .
ابن الاخوة : معالم القربة : ٨٣ ، ٨٤ ، ٢١٩ . ابن بسام : نهاية الرتبة: ٢٧ ، ١٨٢ .
(٩٦) الماوردي : الاحكام السلطنية : ٢٥٤ ــ ٢٥٦ . الشيزري : نهاية الرتبة: ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن الاخوة : معالم القربة : ١٤١ ، ١٤٩ .
(٩٧) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٣ .
(٩٨) ن.م : ٢٥٤ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٥٧ب .
(٩٩) الشيزري : نهاية الرتبة : ٢٢ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ٢١ .
(١٠٠) الماوردي : الرتبة في طلب الحسبة (مخطوطة) ورقة ٤٦أ ، ٥٨أ ، ٥٩أ .
الشيزري : نهاية الرتبة : ٢٨ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٥١ب ، ٥٢أ ، ٥٢ب .
(١٠١) الشيزري : نهاية الرتبة : ٤١ ، ٤٣ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ٨٥ .
(١٠٢) ن.م : ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٢ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ٤٢ب . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٧ .
(١٠٣) ابن الاخوة : معالم القربة : ٧٦ ، ٩٩ . الشيزري : نهاية الرتبة : ١٤.
(١٠٤) الشيزري : نهاية الرتبة : ١٢٤ .
(١٠٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ٢٥٦ .
(١٠٦) الشيزري : نهاية الرتبة : ١٢ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٨ .
(١٠٧) ن.م : ١٠ . ابن الاخوة : معالم القربة : ٢٢٠ . ابن بسام : نهاية الرتبة : ١٥ .
(١٠٨) ابن الاخوة : معالم القربة : ١٢١ . ابن الرفعة : الرتبة في الحسبة (مخطوطة) ورقة ١١٦ب .
(١٠٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٢٨١ .
(١١٠) ذيل (مخطوطة) جـ٢ ق٢ ورقة ٢١٠ ، ورقة ١٢٣ ، ١٢٤ (كيمبرج) ، جـ١ ق١ ورقة ٩٥ ، ٩٦ . انظر : سؤالات السلفي : ٤٧ .
(١١١) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٧٢ .
(١١٢) انظر : ابن الجوزي : المنتظم : ٢٢٣/١٠ .
(١١٣) تاريخ خليفة بن خياط : ٣١٣/١ ، ٣٦٦/٢ ، ٣٨٦ ، الطبري : ٥٢٣/٦ . الوزراء والكتاب : ٣٨ ، ٣٩ .
(١١٤) انظر : الطبري : ٥٢٤/٦ .
(١١٥) الاحكام السلطانية : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(١١٦) الوزراء والكتاب : ٢٨١ .
(١١٧) الصابي : الوزراء : ١٥ ، ١٠٨ .
(١١٨) ن.م : ١٥ ، ٩٥ ، ٩٦ .
(١١٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري : ٤٣ .
(١٢٠) انظر : الصابي : الوزراء : ٤٠ . مسكويه : تجارب الامم : ٢٥/١ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٩٤ .
(١٢١) تجارب الامم : ٩٩/١ ، ١٠٠ .
(١٢٢) انظر : الصابي : الوزراء : ١٠٥ . مسكويه : تجارب الامم : ٦٢/١ . ابن الساعي : الجامع المختصر : ٤٦/٩ .
(١٢٣) المنتظم : ١٥٦/٦ . الأيوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق : ١١٨/٣ .
(١٢٤) الصابي : الوزراء : ٤٢ . الهمداني : تكملة تاريخ الطبري : ٣٣/١ ، ١٦٠ .
(١٢٥) المنتظم : ١٨٢/٦ ، ١٨٣ .
(١٢٦) انظر : ابو شجاع : ذيل كتاب تجارب الامم : ١٢٧ ، ٣٠٧ . الايوبي : مضمار الحقائق : ١١٧ . الحوادث الجامعة : ٦٣ ، ١١٧ .
(١٢٧) ذيل كتاب تجارب الامم : ٣٠٦ .
(١٢٨) ابن الساعي : الجامع المختصر : ٢١٨/٩ ، ٢١٩ .
(١٢٩) ذيل (مخطوطة) جـ٢ ق٢ ورقة ١٧٢ . ابن النجار : التاريخ المجدد لمدينة السلام : (مخطوطة) جـ١٠م٣ ورقة ١٤٦ب . ابن الساعي : الجامع المختصر : ٧٠/٩ ، ١٩٣ .
(١٣٠) ابن ابي عذيبة : انسان العيون (مخطوطة) ورقة ١٦٢ ، ١٦٣ .
(١٣١) ديوان ابن المعلم الواسطي (مخطوطة) ورقة ٩٤ ، ٩٥ .
(١٣٢) الجامع المختصر : ١٩٣/٩ .
(١٣٣) المؤلف مجهول : الحوادث الجامعة : ٢٨٩ .
(١٣٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٨ .
(١٣٥) ديوان بن المعلم الواسطي (مخطوطة) ورقة ١٠٧ ، ١٠٨ .
(١٣٦) ابن النجار: التاريخ المجدد لمدينة السلام (مخطوطة) جـ١٠م٣ ورقة١٤٦ب .
(١٣٧) الحوادث الجامعة : ١١٧ .
(١٣٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٥٨ .
(١٣٩) ذيل (مخطوطة) جـ٢ ق٢ ورقة ١٧٢ . ابن النجار : التاريخ المجدد لمدينة السلام (مخطوطة) جـ١٠ م٣ ورقة ١٤٦ب .
(١٤٠) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الأموي ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٢٧ السنة ١٩٨٦ ص ٩٩ — ١٠٩ .

(١٤١) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٣٤١ وما بعدها .
(١٤٢) ن٠م : ٢٩٣ .
(١٤٣) الماوردي : الاحكام السلطانية : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(١٤٤) البلاذري : فتوح البلدان : ٥٣٨ .
(١٤٥) تاريخ خليفة بن خياط : ٣٨٦/٢ ، ٤٣٤ .
(١٤٦) ن٠م : ٣١٣/١ ، ٣٢٣ ، ٣٨٦/٢ ، ٤٠٣ ، الوزراء والكتاب : ٤٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .
(١٤٧) الطبري : ٣٣٩/٦ ، ٤٤٩ ، ١٥/٧ . انظر : فتوح البلدان : ٥٢٣ .
(١٤٨) قدامة : الخراج : ١٨٤ ، ١٨٥ .
(١٤٩) فتوح البلدان : ٥٣٥ .
(١٥٠) معجم البلدان : ٨٨٦/٤ .
(١٥١) الاحكام السلطانية : ١٧٥ .
(١٥٢) الطبري : ١٥/٧ .
(١٥٣) ن٠م : ٦١٥/٦ ، ٦٧/٧ ، العيون والحدائق : ٧٥/٣ .
(١٥٤) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ٣٥٦/٢ .
(١٥٥) انظر : الطبري : ٣٣٩/٦ ، ١٣١/٧ . الكامل في التاريخ : ٢١٠/٥ .
(١٥٦) انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك : ٥٩ . قدامة : الخراج : ٢٢٥ وما بعدها .
(١٥٧) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي ص ٢٩٦ وما بعدها .
(١٥٨) انظر : ن٠م : ٣٧٤ .
(١٥٩) شذور العقود في ذكر النقود : ٤٤ ، ٤٥ .
(١٦٠) walker, Acatalogue of the Arab- Byzantine and post Reform Umaiyad Coims pp. Ixiii, Ixir .
(١٦١) Op. Cit., P. Ixir.
(١٦٢) فجر السكة العربية : ٦٧ ، ٦٨ .
(١٦٣) فتوح البلدان : ٥٧٥ ، ٥٧٦ . انظر : الاحكام السلطانية : ١٥٤ .
(١٦٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الأموي : ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

الفصل الرابع

دور الخلافة ومراكزها

الدكتور ظاهر مظفر العميد
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

مراكز العباسيين قبل بغداد :

عندما تم النصر للجيش العباسي في العراق عقب هزيمة ابن هبيرة ، والي الامويين وقائد جيشهم ، دخل الجيش العباسي مدينة الكوفة[1] ، ثم جاء ابو العباس ، الخليفة العباسي الاول فنزل أول الامر الكوفة[2] . وقد تمت في الكوفة بيعة الخليفة ابي العباس ، في دار الوليد بن سعد الازدي[3] ، والقى خطبته المشهورة في مسجد الكوفة ، وبعد هذه الخطبة خرج الخليفة وعسكر بحمام اعين[4] .

واقام ابو العباس في هذا المعسكر اشهرا ثم ارتحل فنزل مدينة الهاشمية في قصر الكوفة[5] ، وبهذا تكون مدينة الكوفة ومعسكر حمام اعين القريب منها ، اول مركز اتخذه الخليفة ، واول موضع يظهر فيه اسم الخليفة الجديد ، ومنها شاع اسمه الى بقية المدن والاقاليم العربية والاسلامية الاخرى . ومن هنا كانت اهمية الكوفة في صدر التأريخ العباسي .

ونزل ابو العباس بعدئذ في مدينة ابن هبيرة ثم تحول منها فبنى المدينة الهاشمية ، ثم ان المنصور ، الخليفة الثاني ، بنى بظهر الكوفة مدينة سماها

الرصافة[٦] ، ونزلها عدة مرات[٧] ، ولا يعرف موقع هذه المدينة على وجه التأكيد[٨] .

الهاشمية :

كانت تسمى قبل هذا الاسم ، قصر ابن هبيرة ، فقد روى البلاذري ان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم ، فأتاه كتاب الخليفة الاموي مروان يأمره بأجتناب مجاورة اهل الكوفة فتركها ، وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا[٩] .

وعندما ظهر امير المؤمنين ابو العباس ، نزل هذا المكان واستتم مقاصير فيها وأحدث فيها بناء وسماها الهاشمية[١٠] . ولم يمكث ابو العباس كثيرا في هذه المدينة ، اذ يظهر لنا بصراحة من رواية البلاذري ان الخليفة العباسي الاول قد ضاق ذرعا بالتسمية التي انتشرت عن القصر الذي اقامه ابن هبيرة ولم يكمله ، فأكمله هو ، وهو يظن ان الناس سوف تنسى اسم بانيه الاول ، فتطلق عليه اسم « الهاشمية » ، الا ان الناس استمروا في نسبته الى ابن هبيرة مما جعل الخليفة العباسي يقول :

« ما ارى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها » لذلك احجم عن سكناها والاقامة فيها ، « وبنى بحيالها المدينة الهاشمية »[١١] .

ونود ان نشير هنا ، ان اسم الهاشمية قد يكتنفه بعض الغموض والتشابه فالاسم يرد لمواضع وابنية وقصور متعددة ، والواضح من رواية البلاذري التي مر ذكرها ان ابا العباس اطلق اسم الهاشمية على المدينة التي بناها ابن هبيرة بالكوفة على الفرات ثم تركها بأمر من الخليفة الاموي مروان ، ثم كره ابو العباس هذه المدينة وذلك لانها لم تشتهر بين الناس بأسم الهاشمية ، وانما بقيت تسمى مدينة ابن هبيرة فهجرها لهذا السبب ، وبنى بحيالها مكانا سماه

الهاشمية وهي بالكوفة ايضـا[١٢] • وتسـمى في كتب التاريخ بهاشـمية الكوفـة[١٣] •

ويشير اليعقوبي الىأن ابا العباس عندما انتقل الى الانبار بنى علىشاطىء الفرات مدينة الهاشمية[١٤] ، وذكرها ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات بأنه بنيت لابي العباس الهاشمية الى جانب الانبار[١٥] •

ويذكر اليعقوبي بانه لما استخلف المنصور بعد وفاة اخيه بنى الهاشمية[١٦] ويشير الطبري كذلك الى ان المنصور بنى الهاشمية[١٧] • هذا بينما لا يشير البلاذري الى بناء المنصور للهاشـمية ، وانما يذكر انه « نـزل المدينـة الهاشمية بالكوفة واستتم شيئا كان بقي منها وزاد فيها بناء وهيـأها على مـا اراد[١٨]

واذا اردنا تحديد موقع هاشمية المنصور فأنها تقع وفق رواية الطبري قبالة مدينة ابن هبيرة بينهما عرض الطريق[١٩] ، وموقعها حسـب ما ذكـر اليعقوبي « بين الكوفة والحيرة »[٢٠] • ويحدد لسترانج مكانها على جانب الفرات الغربي في موقع فوق النهر الذي كان يجري في القرن العاشر الميلادي ثم يتبدد في المستنقع الكبير او البطيحة[٢١] •

ولم يمكث المنصور كثيرا في الهاشمية ، فقـد كرهها كرها شـديدا ، وخاصة بعد ثورة الراوندية • وهم حسب ما يذكر الطبري ، جماعـة مـن الناس يقولون بتناسخ الارواح ، ويزعمون ان روح آدم حلت في عثمان بن نهيك ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور • ولم يرض المنصور عن آرائهم المخالفة لمبادىء الاسلام في الوحدانية وانكر عليهم هذا التأليه المتعمد الذي ينطوي على الفوضى والتخريب ، واقتناص الفرص لقتل الخليفة والوثوب الى الحكم ، ومن المؤكد ان هذه الحركة واحدة من الحركات الباطنية والشعوبية التي تتظاهر بالاسلام ، وجوهرها تقويض سلطان العرب وتشويه دينهم • ويبدو ان المنصور كان يظن في الراوندية الاخلاص فياول

الامر ، ولكن حينما ظهرت آراؤهم جلية ، تصدى لهم ، منكرا وغاضبا ونستطيع ان ندرك اهمية تمرد الراوندية وحركتهم التي انتقلت الى قصر المنصور في الهاشمية ، ان الخليفة نفسه كان الموت يحدق به ، والسيوف مشهرة من حوله تطلب رأسه ، لذا آثر ترك الهاشمية . ولاشك في ان المنصور ادرك ببصيرته النافذة الحكيمة ، ان حركة الراوندية ، ما هي في الحقيقة الا بدء لسلسلة من الثورات هدفها تقويض الحكم العباسي وارهاقه .

وفي رأينا ان تمرد الراوندية لم تكن قضية بسيطة ، وانما كانت مسألة مهمة بالنسبة للخليفة المنصور حيث لفتت نظره الى موطن الضعف في مدينته الهاشمية ، ولقد رأى ضرورة تغييرها ، لذا عزم البحث عن موضع يصلح لان يكون دارا لخلافته وعاصمة لملكه الواسع[٢٢] .

مدينة وقصر ابن هبيرة :

ينسب المؤرخون والجغرافيون العرب هذه المدينة وهذا القصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة ، وهو القائد الاموي الذي تحصن في مدينة واسط اثناء الحرب بين الجيش الاموي والعباسيين في العراق[٢٣] . وقد ورد ذكر مدينة وقصر ابن هبيرة في رواية البلاذري التي اشرنا اليها في مطلع هذا البحث ، ونصها : « كان يزيد بن عمر بن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات ونزلها ومنها شيء يسير لم يستتم فأتاه كتاب مروان يأمره بأجتناب مجاورة اهل الكوفة فتركها وبنى القصر الذي يعرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا »[٢٤] .

يتبين لنا من النص السابق ان ابن هبيرة بنى مدينة بالكوفة على الفرات وهي غير قصر ومدينة ابن هبيرة المشهورة والتي هي على جسر سورا . ونزلها مدة قصيرة قبل ان تتم ثم تركها لاسباب ادارية[٢٥] .

واذا اردنا التعرف على موقع مدينة ابن هبيرة،فأنه كما هو موضح في رواية لبلاذري ، فانها تقع على الفرات ، اما قصر ابن هبيرة فأنه يقع « على ضفة الفرات اليسرى ــ الشرقية ــ فوق الكوفة كثيرا »(٢٦) .

والظاهر من رواية المقدسي ، عن قصر ابن هبيرة انه كان في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على حالة جيدة فقد كتب عنه يقول : « اما قصر ابن هبيرة فمدينة كبيرة جيدة الاسواق تجيئهم الماء من الفرات »(٢٧) .

والذي يبدو ان المنصور بعد شروعه ببناء المدورة ، عاد فسكن قصر ابن هبيرة ، اذ يروي اليعقوبي اثناء حديثه عن خروج محمد بن عبدالله حيث يقول : « ولم يقر ابو جعفر الا اياما حتى أتاه الخبر بخروج محمد بن عبدالله بن حسن وظهور امره فرجع الى الكوفة فأقام بقصر ابن هبيرة »(٢٨) . وعندما قضى المنصور على محمد بن عبدالله واخيه ابراهيم تحول من مدينة ابن هبيرة الى بغداد ليكمل عمارتها(٢٩) .

الانبـــــار :

ومن المراكز المهمة التي اتخذها العباسيون دارا لخلافتهم قبل بغـداد ، الانبار ، وقد بناها الخليفة العباسي الاول ، وتقع بقاياهـا اليوم علـى الضفة اليسرى (الشرقية) من نهر الفرات ، ويقول جغرافيو العرب انها على مسيرة اثني عشر فرسخا من بغداد ، الا ان ياقوت وابو الفدا يشيران بأنها تقع على بعد (١٠) فراسخ من بغداد ، وتقع اطلالها شمال غربي مدينة الفلوجة على بعد (٤) كيلو مترات منها .

والموضع الذي اقيمت عليه مدينة الانبار يقع الى شمال سواد العراق ، وهو سهل قابل للزراعة على مقربة من نهر عيسى الذي كان ينتهي الى بغداد ويصب في دجلة ، وقد كان يعرف في الفترة التي سبقت بناء المدينة المدورة بنهر رفيل ، ويأخذ مياهه من الضفة اليسرى (الشرقية) لنهر الفرات عند قنطرة

دمما[٣٠] . جنوبي مدينة الأنبار على مقربة من الفلوجة . ويعد « نهر عيسى » القناة الاولى الصالحة للملاحة من نهر الفرات الى نهر دجلة ، وموقع مدينة الانبار جعلها تسيطر على ممر مهم في الفرات[٣١] .

ورد ذكر الانبار في معارك تحرير العراق على عهد الخليفة الراشدي الاول ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، فقد ذكر البلاذري ان خالد بن الوليد سار الى الانبار ففتحها فتحصن اهلها ثم اتاه من دله على سوق بغداد الذي كان عند قرن الصراة ، فبعث خالد المثنى بن حارثه فأغار عليه ثم باتوا بالسيلحين ثم رجعوا الى الانبار وخالد محاصر اهلها وحرقوا نواحيها ، ولما رأى اهل الانبار مانزل بهم صالحوا خالدا على شيء رضي به فأقرهم[٣٢] .

وتفيد المراجع العربية ان سعد بن ابي وقاص عندما حرر المدائن واختطها لغرض سكناها[٣٣] ، أتاه امر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في عدم رغبته في سكنى العرب لهذه المدينة ، فأستجاب سعد الى رغبة الخليفة واتجه نحو الغرب مسترشدا بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه بقوله في ما كتب اليه : « ان تنزلهم منزلا غربيا »[٣٤] . وسار سعد نحو الانبار ، وبنى بها مسجدا .

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التأريخية ان سبب تحوله عنها كثرة الذباب . ويرى باحث عراقي ان هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحت ، اذ ان الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات ، وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن العاصمة المدينة المنورة ، مما يؤخر ويعرقل ارسال المدد اذا ما تجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل[٣٥] .

ويبدو ان الخليفة ابو العباس حين ترك الكوفة ، لم يكن قد اتفق على مكان بادىء ذي بدء ، لينزل فيه ، وانه نزل الحيرة فتركها من دون ان يقدم

سببا لتركها ، فسار بأتباعه مع نهر الفرات باتجاه معاكس لمجرى النهر ، واخذ يتفحص الامكنة التي يمر بها تفحصا دقيقا حتى انتهى الى موضع الانبار فأستطابه ورضي عنه ، واشترى اراضي هذا الموضع من اصحابها ، ثم قسمها خططا ووزعها على قواده وجنده واصحابه واهل بيته[٣٦] . وفي الانبار بنى الخليفة مدينة اطلق عليها الهاشمية[٣٧] .

ولا نعرف بالتأكيد تأريخ انتقال الخليفة الى الانبار ، فقد اختلف الباحثون المحدثون في ذلك ، وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان ابا العباس اتخذها مقرا له من عام ١٣٢ الى عام ١٣٦ هـ[٣٨] ، بينما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة ، ان ابا العباس حول عاصمته الى الانبار في عام ١٣٤ هجرية[٣٩] .

وقد اشار مؤلفا دليل خارطة بغداد الى عام ١٣٢ هجرية فكتبا : « اتخذها الخليفة العباسي الاول (١٣٢ هـ — ٧٥٠ م) عاصمة لمملكته »[٤٠] ،الا ان اصح الروايات هي تلك التي تشير الى انتقال الخليفة الى الانبار في عام ١٣٤ هـ[٤١] . فمن غير المعقول ان يكون قيام الدولة العباسية في عام ١٣٢ هـ ، واتخذ الخليفة عبدالله للانبار عاصمة لخلافته في نفس السنة ، اذ تشير النصوص التأريخية التي مفادها ان الخليفة ابو العباس بعد ان القى خطبته في مسجد الكوفة خرج وعسكر في حمام اعين ، الذي اقام فيه عدة اشهر ، ثم ارتحل ونزل المدينة الهاشمية في الكوفة[٤٢] . ثم تحول منها الى قصر ابن هبيرة ، واستتم مقاصير فيها واحدث فيها بناء[٤٣] .

لا نعرف شيئا عن تخطيط المباني والعمائر التي شادها الخليفة ابو العباس في الانبار ، وكذلك فأننا نجهل طبيعة الطراز الذي اختاره لمبانيه ، والمواد البنائية التي استخدمت في البناء . اذ أن المؤرخين المسلمين لم يقدموا لنا شيئا عن طبيعتها ، ومن المؤكد أن التنقيبات التي ستجري في موقع الانبار ، والنتائج

التي سنحصل عليها من عمليات الحفر والتنقيب ستميط اللثام عن طبيعة المباني والعمائر وزخرفتها في فجر الدولة العباسية .

وتشير النصوص التأريخية العربية ، أن أبا العباس عمر ما في الانبار من مبان[٤٤] ، وبنى بها قصورا[٤٥] ، واسس في موقعها مدينة[٤٦] ، ولا ندري هل اقام مسجدا جديدا أم عمر المسجد الذي كان قد بناه القائد سعد بن أبي وقاص في الأنبـــار

ومكث ابو العباس في الانبار منذ تأسيسها حتى وفاته لثلاث عشـرة من شهر ذي الحجة متأثرا بمرض الجدري[٤٧] ، وصلى عليــه عمه عيسى بن علي ودفن في الأنبار العتيقة بقصره . وبويع بالخلافة لابي جعفر المنصور بالانبار في اليوم الذي توفي فيه اخوه ، وابو جعفر يومئذ بمكة ، وكان الذي اخذ البيعة لابي جعفر عيسى بن موسى الذي كتــب الــى المنصــور يعلمــه بمــوت اخيه وبالبيعة لــه .

بغــداد ــ المدينة المدورة :

يجمع المؤرخون والجغرافيون العرب[٤٨] ، ان مؤسس بغــداد هو الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور . والباعث الرئيس الذي دفع المنصور الــى بناء بغداد ، كما يشير بعض المؤرخين ، ثورة الراوندية عليه عندما كان يقيــم بالهاشميــة[٤٩] .

وقد ظهرت بعض الابحاث الحديثة التي لاتأخذ بهذا الرأي ولا تقر به كأساس لبناء بغداد وانما ترى ان الضــرورة السياسية الانية[٥٠] ، وادارة الملك[٥١] ، وتجارب المنصور الادارية والسياسية هي التي دفعته لبناء مدينته .

والواقع فأن ثورة الراوندية قد لفتت نظر الخليفــة الى موطن الضعف في عاصمته الهاشمية ، واذا افترضنا أن المنصور كان قد فكر أثنــاء سكنــاه بالهاشمية اتخاذ عاصمة جديدة لدولته فأن هذه الثورة قد حفزتــه للاســراع في التنفيــذ[٥٢] .

وحين عزم المنصور ترك هاشمية الكوفة خرج بنفسه يبحث عن موضع ملائم(٥٣) ، كما ارسل روادا يرتادون له موضعا لينزل به(٥٤) ، ومن نتائج بحثه الشخصي،وما حمله اليه الرواد اضافة الى ما اشار عليه اصحاب القرى والاديرة تكونت للمنصور فكرة واضحة بأن المنطقة الواقعة الى غرب نهر دجلة والتي تشمل طسوج قطر بل(٥٥) هي افضل المناطق لبناء دار خلافته .

والموقع الذي اختاره المنصور لبناء مدينته ، منطقة ذات اهمية في التأريخ القديم الذي سبق تحرير العراق في العصر العربي الاسلامي ، وقد اصبحت هذه المنطقة فيما بعد جزءا من اقليم العراق الذي اهتم به العرب المسلمون المحررون في مختلف العصور ، وعلى وجه الخصوص في العصر العباسي ، حين اصبح مركز الدولة والخلافة .

تشير النصوص التأريخية المختلفة ان الخليفة المنصور اهتم اهتماما خاصا في اختيار الموقع ، ولقد اصبح معروفا عن العرب والمسلمين منذ فجر الاسلام ، انهم كانوا يتخيرون مواضع مدنهم ، ويتفحصون أمكنتها تفحصا طوبوغرافيا ، لذلك وضعوا شروطا وقواعد لبناء المدن وتخطيطها ابتداءً من المدن التي شرع العرب بتشييدها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وما بعده .

واذا تفحصنا موضع بغداد ، تفحصا دقيقا يتبين لنا أن المكان يمتاز بمزايا عديدة ، وأن الله تعالى قد منحه مكانة جعلت منه محلا ملائما للدولة العباسية الجديدة ، وموضعا ستراتيجيا طيبا،(٥٦) ، فضلا عن وقوعه على طريق قوافل التجارة، كما انه يتحلى بمزايا صحية ملموسة .

وبعد أن اطمأن المنصور الى الموضع الذي يبنى فيه مدينته ، وأعد المال اللازم لجميع المصاريف التي يحتاج اليها مشروعه الكبير ارسل الى عماله وولاته في مختلف الاقطار الاسلامية يطلب معونتهم في توجيه العمال والمهندسين والفنانين والحرفيين اليه ، ويشير اليعقوبي الى هذا بقوله : « ثم وجه في

احضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع مـن النجارين والحدادين والحفاريـن[٥٧] » .

وتحدد النصوص التأريخية والجغرافية الاقاليم والمدن التي اسـتعان المنصور بعمالها ومهندسيها وفنانيها ، فتشير بأن المنصور وجه في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة[٥٨] .

وطلب المنصور الاستعانة بالعمال والفنانين العرب من مختلف المناطق ، والاستفادة من خبراتهم نستطيع ان نطلق عليه اسم نظام «الاستدعاء» أو « أمر تكليف » ، وهذا الاستدعاء كان مألوفا لدى الخلفـاء والولاة المسلمين[٥٩] وتروي لنا كتب التأريخ امثلة يتجسد فيها هذا النظام كمثل حي للتعاون المثمر والمساعدة القيمة التي يتسابق اليها العمال والمهرة من الفنانين ورجال الهندسة لتشييد العمائر واقامة المباني . ولا ريب أن العـرب المسلمين قـد استفادوا كثيرا من هذا التعاون،وبفضله انتقلت الاساليب الفنية والطرز المعمارية في مختلف مجال الفنون العربية الاسلامية من قطر الى قطر ومن مدينة الى اخرى ، وقد ادى انتقال هذه الاساليب الفنية المختلفة الى امتزاج المدارس والانماط الفنية والتقاء فروعها بعضها مع بعض مـا كان لـه الاثر فيوحـدة الفـن العربـي الاسـلامي .

وقد قسم موضع بغداد عند بدء تخطيطها الى اربعة ارباض ، ويفهم مـن رواية اليعقوبي انه كان يشرف على كل ربع أو ربض من هذه الارباض الاربعة ثلاثة من الرجال اختارهم المنصور من المقربين اليه[٦٠] . ويبدو أن اولهم قائد وثانيهم مولى وثالثهم مهندس ، فالقادة الذين اشرفوا على الارباض الاربعة هم : « المسيب بن زهير وسليمان بن مجالد وحرب بن عبداللـه وهشـام بن عمر التغلبي » اما الموالي فهم « الربيع وواضح وغزوان وعمارة » اما المهندسـون

فهـم « عمران بن الوضاح وعبدالله بن محرز والحجاج بن يوسف وشهاب بن كثير » . وبالاضافة الى هؤلاء القادة والموالي والمهندسين كان يشرف على البناء بعض المراقبين هم الحجاج بن ارطأة وابو حنيفة النعمان بن ثابت ليشرفا على سير العمل ومحاسبة العمال اذا ما تهاونوا في العمل او تقاعسوا عنـه ، وقد اختارهما لمكانتهما اذ المعروف عنهمـا انهما مـن ذوي الفضل والعـدالة والفقه والامانة[٦١] .

ولم يبدأ المنصور البناء،حتى اقبل اليه الفعلة وأهل المهن من عمال ومساحين وحدادين ونجارين ومزوقين وغيرهم ، وقد قيل أن عدد هؤلاء قـد بلغ مائـة الف[٦٢] ويذكر الدكتور صالح احمد العلي انه ليس مـن المستبعد أن يكون هؤلاء المهندسون أو معظمهم من اهل الكوفة[٦٣] .

وأمر المنصور بضرب اللبن العظام قبل وضع الاساس ، وأمر بحفر الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الذي يأخذ مياهـه من الفـرات فأتقنت القناة واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبلّ الطين[٦٤] .

وقبل ان تحفر اسس المدينة احب المنصور أن يتبين معالم تخطيط مدينته « فأمر ان يخط بالرماد ثم اقبل يدخل من كل باب ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد ودار عليهم ينظر اليهم والى ما خط من خنادقها فلما فعل ذلك امر ان يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط، فنظر اليها والنـار تشتعل ففهمهـا وعـرف رسمهـا وأمـر بحفر اسـاس ذلك على الرسم[٦٥] » .

وبعد أن اطمأن المنصور الى تخطيط المدينة على الارض امـر ان يحفر الاساس ، ووضع الخليفة اول لبنة بيده وقال « بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال ابنوا على بركة الله[٦٦] .

وسوف نستعرض اقسام مدينة المنصور المدورة بدءا بالخندق وانتهاء بالقصر والجامع ، مراعين الايجاز دون التوسع في المناقشات التي لا يتسع لها مجال هذا البحث ، وفي وسع الباحث الذي يود الاستزادة في المعلومات الموسعة لاقسام المدينة الرجوع الى المراجع والمصادر القديمة والحديثة التي تناولت بناء وتخطيط هذه المدينة(٦٧) .

كان يحيط المدينة خندق ، اجرى المنصور فيه الماء من قناة كانت تأخذ مياهها من نهر كرخايا(٦٨) ، وكانت على الخندق في جانب السور مسناة متقنة محكمة عالية تدور حول السور من الآجر والصاروج(٦٩) .

وكانت وظيفة هذه المسناة حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق اليها ، ومن الجدير بالذكر أن وجود هذا الخندق حول المدينة كان يقصد منه زيادة تحصين المدينة .

ثم يأتي السور الخارجي ويسمى ايضا السور الاول(٧٠) ، وهو أقل سمكا وارتفاعا من السور الثاني ، وليس لدينا معلومات تأريخية اكيدة عن عرضه وارتفاعه ، غير أن الطبري يورد مقاييس لاحد الاسوار يظن انها ربما تكون ابعاد هذا السور ،فذكر بأن المنصور أمر ان يجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعا وقدر اعلاه عشرين ذراعا(٧١) . وقدم الدكتور صالح العلي مقاييس لأسوار المدورة وفصلانها وطاقاتها ويشير بأن المصادر قدمت لنا معلومات متباينة عن عدد الاسوار والرحاب وابعادها ، وذكر بأن هذه الاختلافات تدل على عدم اعتماد الرواة على القياسات الفعلية(٧٢) .

وكان لهذا السور اربعة ابواب هي : باب الكوفة ، باب البصرة ،باب خراسان ، باب الشام(٧٣) . ويحدد الخطيب اتجاه هذه الابواب بالاتجاهات الاربعة المعروفة شرقي وغربي وقبلي وشمالي(٧٤) ، وكانت المسافة بين كل باب من هذه الابواب الى الآخر خمسة آلاف ذراع(٧٥) ، بينما يذكر الخطيب رواية مصدرها رباح البناء الذي قام ببناء سور المدينة بأن المسافة بين كل باب الى

الآخر ميل[٧٦] . والواضح من روايتي اليعقوبي والخطيب أن ابواب مدينة المنصور الاربعة كانت متناظرة تقابل احداها الاخرى ، وعلى مسافة واحدة[٧٧] . وكان لكل باب من ابواب السور الاول دهليز طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا[٧٨] .

ومما يتعلق بهذه الابواب ، ظاهرة معمارية فريدة ، هي ظاهرة المدخل المنحرف (المزور أو المنكسر) ، اذ يروى الخطيب انه : « اذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا ، وطوله ثلاثون ذراعا ، المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله[٧٩] » . وكان هذا العنصر المعماري مثار المناقشات بين علماء الآثار حيث ادعى بعضهم انه كان معروفا من قبل في بعض القلاع البيزنطية في شمال افريقية ، في حين انكر بعضهم الاخر هذا الادعاء ، وواضح ان المثل البيزنطي انما يرجع تاريخه الى سنة ٨٥٩م أي بعد انشاء بغداد بما يقرب من مائة عام[٨٠] .

وقد اوضحنا في كتابنا « بغداد مدينة المنصور المدورة » أن المدخل المنحرف أو المزور أو المنكسر لم يستعمله الرومان أو البيزنطيون في شمال افريقية ولم يظهر في مصر في « حصن كوم الاحمر » أو « شونة الزبيب » وخلصنا الى ان ابواب مدينة أبي جعفر المنصور هي أقدم امثلة حقيقية للمدخل المنحرف ظهر بصورة واضحة وطيبة وتناقل اخبارها بعض المؤرخين والجغرافيين[٨١] .

وكان بين السور الاول (الخارج) والسور الثاني (الاعظم) للمدينة مسافة خالية ، اطلق عليها المؤرخون اسم « الفصيل » ، وينقسم هذا الفصيل الى اربعة ارباع بواسطة الرحبات الأربع التي تمتد بين كل باب في السور الخارج ، والباب المقابل له في سور المدينة الاعظم ، وجميع هذه الفصلان متشابهة متناظرة ، وهي على قول الخطيب « على نعت واحد وحكاية واحدة »[٨٢] .

والظاهر ان المنصور منع السكن في هذا الفصيل ، فقد اشار الخطيب انه « امر ان لا يسكن تحت السور الطويل الداخل احــد ولايبني منزلا »[٨٣] ، ووصف اليعقوبي هذا الفصيل بأنه « جليل عظيم »[٨٤]،وعرضه عند اليعقوبي مائة ذراع[٨٥] ، وعند الخطيب ستون ذراعا[٨٦] .

وبعد الفصيل يأتي السور الاعظم ، وتختلف المراجع العربية في تحديد ابعاده[٨٧] . وعلى الرغم من اختلاف الروايات في ابعاده[٨٨] ، فأن هــــذا السور يعتبر امتن اسوار المدينة المدورة ، ويسمى في بعض المراجــع العربيــة بالسور الاعظم ، وهو اكثر ارتفاعا وضخامة من السور الاول . وزيادة في تحصين المدينة فقد جعل لهذا السور ابرجة عظام عليها شرفات[٨٩] . اما عدد هذه الابراج فكان «٢٨» برجا بين كل بابين من ابواب المدينة المدورة ماعدا المسافة المحصورة بين باب البصرة والكوفة فأن بها «٢٩» برجا[٩٠] .ولا نعرف على وجه التحديد هيأة هذه الابراج ، وقد تكون على شكل حدوة الفرس كما هو الحال في مدينة الرافقة ، اذ انها بنيت على طراز مدينة المنصور[٩١] .

وكان للسور الاعظم بوابتان من حديد في كل ربع[٩٢] ، ذواتا حجم كبير وصفها الخطيب بقوله : « على كل باب من ابواب المدينة الاوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان »[٩٣] وكانت هذه الابواب من القوة والمتانة بحيث لايغلق الباب الواحد منهــا ولا يفتحــه الا جماعــة رجال[٩٤] ، وانها كانت مرتفعة بحيث يدخل الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم ولا يثني الرمح[٩٥] .

الفصيل الثاني والمنطقة السكنية والسكك :

يتبين من رواية الخطيب ان الداخل من الباب الثاني الواقع في السور الثاني للبوابة الرئيسه يجتاز رحبه مربعة طول ضلع كل جدار منهــا عشــرون ذراعا ، وعلى جانبي هذه الرحبة بابان ، احدهما على الجهة اليمنى والآخر على

الجهة اليسرى ، ويؤدي الباب الايمن في حالة وصفنا لباب خراسان الى ربع الفصيل الثاني المفضي الى باب البصرة ، واذا اجتاز الداخل هذه الرحبة وصل الى منطقة الطاقات والتي تمتد خلفها من جهتي اليمين واليسار، المنطقة السكنية، وتتضمن السكك والدور والشوارع ، وتنقسم هذه المنطقة ايضا الى اربعة اقسام (ارباع) تماما مثل الفصيل السابق ، كل قسم منها يؤلف ربع دائرة ، ويفصل هذه الاقسام الاربعة الطرق الاربعة النافذة من ابواب السور الاعظم والتي تجتاز وسط الطاقات حتى تصل الى الرحبة المربعة في سور المدينة الداخلي وهو السور الثالث ، وهو اشبه بحاجز يلتف حول المنطقة التي تضم القصر والجامع وملحقاتها ، وعليه فأن تلك المنطقة التي تحف بالطاقات من جانبيها تشمل المنطقة السكنية الوحيدة للناس في المدينة المدورة ، وتقع بين الجدار الضخم للسور الاعظم والجدار المحيط بالمنطقة المركزية(٩٦) .

وقد اشار اليعقوبي الى اسماء السكك وعددها(٩٧) اما الخطيب فيشير الى ان سكك المدينة منسوبة الى موالي ابي جعفر وقواده ويسمي بعضاً منها(٩٨)، وكان على كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة(٩٩) .

وكان الطريق الرئيس الذي يبدأ من رحبة السور الخارج وينتهي الى رحبة السور المحيط بالمنطقة المركزية يضم على جانبيه سلسلة من الطاقات وعددها اربعة وخمسون طاقا .

ويظهر من رواية الخطيب ان للمدينة المدورة نوعين من الطاقات ، طاقات كبرى وطاقات صغرى(١٠٠) . وفي كل قسم من الطاقات الاربع للمدينة حرس يتألف من الف رجل تحت امرة قائد(١٠١) . وكانت هذه الطاقات بمثابة اسواق المدينة المدورة حتى عام (١٥٧ هـ) ، وفي هذا العام امر الخليفة المنصور تحويل الاسواق من داخل المدينة الى ربض الكرخ(١٠٢) .

واذا خرج الخارج من الطاقات افضى الى رحبة ثم الى دهليز عظيم ازج معقود بالآجر والجص عليه باب حديد ثم يخرج من الباب الى الرحبة العظمى[١٠٣] .

وتقع الرحبة العظمى وسط المدينة المدورة ، ونستطيع ان نطلق عليها اسم « قلب المدينة » ، دعاها اليعقوبي بـ « الرحبة العظمى »[١٠٤] دلالة على مساحتها الواسعة ، كما انه ذكر العمائر التي فيها فقال : « وفي وسط الرحبة القصر الذي سمى بابه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، يجلس في احداهما صاحب الشرطة ، وفي الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها الناس ، وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل ، وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاختام ومطبخ العامة وديوان النفقات[١٠٥] .

ويظهر ان المنصور كان لايسمح لاحد من اتباعه او رجال حاشيته دخول الرحبة العظمى وهو راكب[١٠٦] .

قصر المنصور :

ويسمى ايضا بقصر باب الذهب[١٠٧] ، ويقع في وسط المدينة[١٠٨] ، وهو على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه اربعمائة ذراع[١٠٩] . وفي صدر هذا القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا ، وسقفه قبة عليه مجلس مثله ، فوقه القبة الخضراء ، وسمكه الى حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا[١١٠] .

ومن المعروف ان هذه القبة الخضراء كانت ترى من مسافة بعيدة من خارج اسوار المدينة المدورة[١١١] ، وقد كانت بمثابة « تاج بغداد ، وعلم البلد

ومأثرة من مآثر بني العباس »[112] . ويذكر بعض المؤرخين انه كان على رأس القبة الخضراء صنم على صورة فارس في يده رمح[113] .

كان قصر المنصور بمثابة المقر الرسمي للخلافة يمكث الخليفة في احد قاعاته متفرغا للنظر في امور الدولة ، اضافة الى انه محل سكناه الخاص وسكنى زوجاته وخدمه والقائمين على مشاغل القصر .

وقد اورد الطبري وصفا لغرفة نوم المنصور وهي « حجرة صغيرة وفيها بيت واحد ورواق بين يديه في عرض البيت وعرض الصحن على اسطوانة ساج ، قد سدل على وجه الرواق البواري كما يضع بالمساجد ... ليس فيه شيء غيره الا فراشه ومرافقه ودثاره »[114] .

ولم تذكر المصادر ان احدا من الخلفاء سكن قصر الذهب بعد ابي جعفر المنصور سوى الخليفة محمد الامين[115] ، فان ابن الجوزي يذكر انه لما وصل خبر وفاة الرشيد بغداد « كان الامين نازلا ببغداد في الخلد ، فتحول الى قصر المنصور بالمدينة »[116] .

اما هارون الرشيد فقد فضل الاقامة في قصر الخلد المشرف على نهر دجلة[117] ، وحينما آلت الخلافة الى الامين تحول من قصر الخلد الى قصر المنصور[118] ، وانه كما يروي الطبري اضاف اليه ميدانا[119] .

وفي الفترة التي هاجمت فيها جيوش المأمون المدينة المدورة بقيادة طاهر بن الحسين ، قائد جيوش المأمون ، مكث الامين في قصر باب الذهب محتميا به[119] ، الا ان المنجنيقات الكثيرة التي نصبها طاهر حول المدينة المدورة والتي رشق اسوارها وقصرها بوابل من الحجارة الكبيرة قد هدمت بعض اقسامها وهدم بعضها الآخر التخريب[120] .

وفي قصر المنصور سجن محمد الامين وامه زبيدة مدة يومين قبيل تقدم طاهر بن الحسين لحصاره[121] ، كما حبست فيه زبيدة بعد مقتل الامين بفترة ثم نقلت الى الخلد[122] .

ومما يفهم من روايات المؤرخين ان قبة مجلس المنصور الخضراء بقيت قائمة على جدرانها حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، وكان ليلتئذ مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد[١٢٣] ، ويعتقد لسترانج انه ربما اصابتها صاعقة الهبت فيها النيران[١٢٤] .

والظاهر ان آخر خبر جاءنا عن بقايا القبة الخضراء ، ورد في كتاب الحوادث الجامعة لسنة ٦٥٣ هـ « وفيها وقعت القبة الخضراء المجاورة لجامع المنصور »[١٢٥] .

ومن المؤكد ان سبب وقوع بقايا القبة الخضراء يرجع الى الغرق الذي حدث في بغداد سنة ٦٥٣ هـ الذي اشار اليه صاحب الحوادث الجامعة بقوله : « وفي هذه السنة اتفقت امور عجيبة وحوادث غريبة ... منها الغرق العام الذي ضرب بغداد ولا سيما دار الخلافة ، والدور الشطانية في الجانبين ، وتهدمت الجوامع والمساجد كجامع المنصور ... والقبة الخضراء »[١٢٦] .

مسجد المنصور :

هو أول مسجد يشيد على ارض بغداد[١٢٧] ، ومع الأسف فأن معالم هذا المسجد قد زالت عن الوجود منذ مئات السنين ، ولم يبق له أي ذكر الا بعض اشارات موجزة في المؤلفات العربية لا تتناسب ومنزلة المسجد الاول .

وقد حاول بعض علماء الآثار الاسلامية ان يكتبوا عنه ويرسموا مخططات له ، امثال هرتسفيلد[١٢٨] ، والبروفسور كريزويل[١٢٩] ، ولسترانج[١٣٠] .

وسوف نحاول ان نلم بتخطيط هذا المسجد على ضوء ما جاء في وصف الخطيب البغدادي له[١٣١] ، دون التوسع في الآراء والنظريات التي طرحها علماء الآثار .

في وسعنا أن نقسم المراحل التي مـرت بالمسجد بثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة التأسيس •

٢ ـ مرحلة التجديـد

٣ ـ مرحلـة الزيـادة

مرحلة التأسيس :

تم تنفيذ بناء المسجد في هـذه المرحلـة على يـد الخليفـة المنصور في عام ١٤٥هـ (٧٦٦م) ، وقد جعله ملاصقا لقصره[١٣٢] ، وكان شكله على هيئة مربع متساوي الاضلاع كل ضلع من اضلاعـه مائتـا ذراع • وكان للمسجد مصلى « بيت الصلاة » وفيه المحراب ، ومؤخرة ومجنبتان وفناء ومأذنة •

كان مصلى المسجد فسيحا طوله بقدر طول ضلع المسجد ، يحتوي علـى خمسة اروقة موازية لجدار القبلة ، وكل رواق له ستة عشر عمودا من الخشب أي أن الاروقة كانت تنقسم الى سبع عشرة بلاطة ، وكانت بيت الصلاة تطل على الجانب مـن الصـحن •

وكانت تحيط بالصحن من جانبيه مجنبتان لكل منهما رواقان ، وكانت المجنبتان والمؤخرة تطل على الجوانب الثلاثة من الصحن ، وتقع المؤخرة قبالة المصلى وتتألف من رواقيـن •

والمادة التي استخدمت في بنائه لهذه المرحلة هي اللبن والطين أما اعمدته فمن الخشب وقد وصف الخطيب البغدادي هذه الاعمدة بقوله:« كل اسطوانة كانت قطعتين معقبتين بالعقب[١٣٣] » • ويذكر هرتسفيلد أن الخطيب يقصد بذلك أن القطعتين متصلتان احداهما بالاخرى من طرفيهـا ، اي ان العمود الواحد (الاسطوانة) كان يتألف من قطعتين احداهما فوق الاخرى • ويضيف هرتسفيلد ان هناك امثلة هذه الاسطوانات من الاعمدة الرخامية في سامراء ، فأن كل عمود منها يتكون من ثلاث قطع[١٣٤] •

اما قبلة المسجد ، فانها كما يشير المؤرخون ، تحتاج الى ان تحرف الـى باب البصرة قليلا[١٣٥]. ويوضح ابن الاثير ذلك ، ان انحراف القبلة قد نشأمن بناء المسجد ملاصقا للقصر بعد ان تم بناء القصر اولا حيث « كان غير مستقيم علـى القبلة[١٣٦] » .

مرحلـة التجديـد :

تبدأ هذه المرحلة في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٩٢ ــ ١٩٣هـ) ، حيث هدم المسجد الاول ، وأعاد بناءه بالآجر والجص ، وقد تم تجديد المسجد على نفس المخطط السابق له ، وبنفس الابعاد ، وقد سجل الرشيد تأريخ هذا التجديد في لوحة كتابية تضمنت اسم البناء وتأريخ البناء[١٣٧]،والظاهر ان الرشيد صنع منبرا جديدا للمسجد غير المنبر القديم[١٣٨] .

مرحلـة الزيادة :

تبدأ هذه المرحلة بعد عودة الخلافة من سامراء الى بغداد ، سنة ٢٧٩هـ في عهد الخليفة المعتمد وقد قام المعتمد باقتطاع مساحة مقاربة لمساحة مسـجد المنصور من قصر باب الذهب ، وضمها الى المسجد ، وسميت بالصحن الاول، بينما سمي صحن مسجد المنصور بالصحن العتيق ، وفتحت بين جدار الصحن العتيق والصحن الاول سبعة عشر طاقا ثلاثة عشر منها الى الصحن ، واربعة منها الى الاروقة على أساس طاقين لكل رواق ، ثم حول المنبر والمحـراب والمقصورة الى قبلة المسجد الجديد المضاف من قصر باب الذهب[١٣٩] .

مكث مسجد المنصور في بغداد الغربية مكانا يؤدي فيه الناس الصلاة من سنة ١٤٥هجرية حتى سنة ٧٢٧هـ حيث زار ابن بطوطة بغداد . وكان يعد من الجوامع العظيمة التي حفلت ببعض الاحداث التأريخية[١٤٠] .

نشـأة الجانب الشرقي :

ترجع نشأة الجانب الشرقي الى ايام الخليفة المنصور وأغلب المؤرخين العرب يميلون الى ان تاريخ نشأة هـذا الجانب كانت في سـنة ١٥١هـ[١٤١] (٧٦٨م) . الا أن اليعقوبي يشـير ان البـدء في بنـاء هـذا الجانب كان في سنة ١٤٣هـ[١٤٢] . ، ويميل استاذنا صالح احمد العلي الى روايـة اليعقوبي ويذكر ان التخطيط لاستيطان الجانب الشرقي رسم منذ اوائل تأسيس المدينة المدورة وكجزء من الخطة العامة في استيطان المنطقـة وليس لغرض عسكري محدد ، وان استيطان الجانب الشرقي واتساع اعماره يرجع الى ان الجانب الغربي اكتمل اعماره في وقت مبكر ولم يعد فيه مجال للتوسع ، ويوثق رأيه في ان الجانب الشرقي استوطنه الناس قبـل سنة ١٥١هـ بجملة روايات تشير الى ان بعض الشخصيات الاسلامية البارزة دفنت في المقبرة التي صارت تسمى فيما بعد مقبرة الخيزران ، وهي في الجانب الشرقي ، فممن دفن في تلك المقبرة هشام بن عروة (توفى سنة ١٤٥) ابو حنيفة النعمان بن ثابت (توفي سـنة ١٥٠) ومحمد بن اسحق (توفي سنة ١٥٠) ولابد ان هؤلاء وغيرهم ممن لم تذكرهم المصادر ، كانوا يقيمون عند وفاتهم في الجانب الشرقي[١٤٣] .

والواقع اننا مازلنا نجهل السبب المباشر الذي دفع المنصور الى اعمـار الجانب الشرقي الذي سمى اول الامر بـ « عسكر المهدي » ، ولعل الدافـع العسكري والامني هو الذي دفعه الى التفكير في اقامة هذا المعسكر ، اذ كان المنصور يرى ضرورة جعل الجانب الشرقي مقرا لولده المهدي ، ولي عهده ، مع جنده مقابل مقر الخلافة في الجانب الغربي[١٤٤] .

وكان المهدي قد عسكر بجنده في هذا الموضع عند خروجه الـى الري ، وعند عودته منها ، اتخذ معسكره في نفس المكان[١٤٥] ، ولعل وجود معسكر على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، قبالة المدينة المدورة ، مركز الخلافـة ، بجند

كثيف، وقيادة تدين بالطاعة والولاء للخلافة من الامور التي خطط لها الخليفة المنصور وأولاها اهتمامه •

ولاشك ان وجود هذا المعسكر ، كان يعد خطا دفاعيا متقدما يحمي مدينة المنصور من اي هجوم عسكري من الشرق ، ويؤلف مع نهر دجلة وسيلة دفاعية كبيرة يصبح من العسير على اية قوة غازية ومعتدية ان تفلح في العبور وتطويق المدينة المدورة •

وكان « عسكر المهدي » يشتمل على ثكنات الجند ، ثم عرف فيهما بعد بـ « محلة الرصافة » ، واقطع المنصور اقطاعات لولده المهدي وحاشيته ومواليه(١٤٦) • ويشير استاذنا الدكتور العلي بان استيطان الجانب الشرقي بدأ في وقت مبكر وبمعرفة المنصور وتخطيطه • وكجزء مكمل للجانب الغربي ، ويتسم بنفس مظاهره من حيث ان مستوطنيه الاولين هم ابنه وحاشيته وبعض اهل بيته وجنده ممن يرتبطون بالولاء للدولة الجديدة ويعتمدون في معاشهم على عطائها ، ولا ريب في أن ابرز شخصية في الجانب الشرقي هو محمد المهدي، ابن الخليفة وولي عهده ، غير ان اسكانه في الجانب الشرقي بعيدا عن مركزه في قصر الذهب ، هو امر ينسجم مع اسلوب المنصور الذي اقطع كل اولاده اقطاعات خارج المدينة المدورة•بعيدا عن قصره ويفصله عنهم الاسوار والخندق ولم يجمع هؤلاء الاولاد في اقطاع أو قصر واحد • وحتى المهدي نفسه قدرله المنصور أن يستوطن اولا في الشرقية التي تقع في الطرف الجنوبي الشرقي خارج المدينة المدورة(١٤٧) •

وتطور اعمار الجانب الشرقي ، ولعل أول ما اقيم فيه هو جامع الرصافة الكبير ، وكان اكبر من جامع مدينة المنصور(١٤٨) ، وشيد المهدي قصره على مقربة من هذا الجامع ، واقطع لبعض رجاله وقادة جيشه اراض في الشمال الشرقي ، والجنوب الشرقي وبنوا دورهم وقصورهم فيها • ويشير اليعقوبي الى اسماء تلك القطائع ، وقد اصبحت هذه المناطق تدعى بمحلة « الشماسية »

ومحلة « المخرم » • وكان المنصور قد احاط الرصافـة بسور وخندق وميدان وبستان ، واجرى له الماء فكان الماء يجري من نهر المهدي الى الرصافة[١٤٩] •

والى الشمال من جامع الرصافة بمسافة قليلة ، وعلى مقربة من نهر دجلة تقع المقبرة المشهورة آنذاك بأسم « ترب الخلفاء »، وقد دفن فيها العديد من الخلفاء العباسـيين المتأخرين •

وكان يقع الى الشمال جامع الرصافة ايضا ، قبر الامام النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة ، وقد سميت المنطقة التي تحيط بقبره بمحلة أبي حنيفة ، وقددفن فيها عند وفاته عام ١٥٠هـ (٧٦٧م) في المقبرة التي كانت تسمى بأسم « مقبرة الخيزران » ، نسبة الى الخيزران زوجه الخليفة المهدي ، وهي نفس مقبرة الامام ابي حنيفـة •

ولم يسكن الخليفة المهدي كثيرا بقصر الرصافة ، اذ يلاحظ انه حج في سنة ١٦٠هـ[١٥٠] ، ثم سافر في سنة ١٦٣ هـ الى الموصل ثم الى بيت المقدس[١٥١] ، وعندما عاد أعمر عيساباذ فبنى قصر الطين في سنة ١٦٤ هـ ثم انتقل الى قصـر السلامة بعد ذلك ، اي انه لم يسكن في قصر الرصافة الا بعض الوقت بـين سنتي ١٦٠ ــ ١٦٤[١٥٢] • وبقى قصـر الرصافـة مسكونا بعد ان تخلـى عنه المهدي ، فقد ولد فيه الامين في سنة ١٦٩هـ[١٥٣] ، مما يدل على ان الرشيد كان يقيم فيه آنذاك • ولما عاد المامون الى بغداد في سنة ٢٠٢هـ نزل في هـذا القصر الى ان بنى له قصرا خاصا[١٥٤] •

عيسـا باذ :

لم تحدد النصوص التأريخية موقع عيسا باذ ، وقد ناقش الدكتور العلي العديد من النصوص التأريخية لمحاولة تعيين موقعها وخلص انهـا قرب قصـر المأمون[١٥٥] • ويشير البلاذرى بأن الخليفة المهدي « كان اكثر نزوله مدينة السلام بعيسا باذ في ابنية بناها هناك[١٥٦] » • والظاهر ان اهم مباني عيسا باذ

هما قصرا الطين والسلام • ولم تشر المراجع الى قصر الطين ، مما يدل على انه كان بناء مؤقتا ، ولكنها رددت ذكر قصر السلام •

ويشير الطبري أن المهدي تحول في سنة ١٦٦هـ « الى عيسا باذ فنزلهـا ، وهي قصر السلامة ، ونزل بها معه الناس ، وضرب بها الدنانير والدراهم[١٥٧] » ويظهر من هذا النص ان المهدي جعل عيساباذ مقر الدولـة ، وقد نـزل الناس مـع المهدي فتوسعت ونمت هـذه المدينة •

واقام الخليفة الهادي معظم ايام خلافته القصيرة في عيسا باذ ، ويظهر انه بقي مقيما فيها حتى توفي ودفن فيها[١٥٨] • ويبدو أن عيسا باذ هجرت بعد ذلك فلم يرد ذكر لاحد اقام فيها ، ولم تحدد الكتب مكانها ولم يرد لها ذكر في الاخبـار[١٥٩] •

قصرا المامـون والمعتصـم :

وعندما عاد المأمون الى بغداد نزل الرصافة « الى ان بنى منزله على شط دجلة عند قصره الاول في بستان موسى[١٦٠] » • وقد ذكر الخطيب قصر المأمون فقال : « واما شاطىء دجلة من الجانب الشرقي فأوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجاء بن ابي الضحاك، ثم منازل الهاشميين ، ثم قصر المعتصم،وقصر المأمون،ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين[١٦١] ، والراجح ان قصر المأمون المذكور في هـذا النص هو الذي بناه بعد توليه الخلافة •

اما المعتصم فأن المصادر لم تذكر مقامه في السنتين الاوليتين اللتين كان فيها ببغداد ، ولعله كان يقيم في قصره القديم القريب من قصر المأمون وهو مركز الخلافة في عهـد سـلفه[١٦٢] •

والمعروف ان المعتصم شيد مدينة سر من رأى (سامراء) فنقل دار الخلافة اليها .

دار الخلافة :

عندما كانت سامراء مركز الخلافة العباسية ، منذ عهد المعتصم ، ترك المستعين بالله سامراء متوجها الى بغداد في سنة ٢٥١هـ (٨٦٥م) على اثر ثورة الجند الاتراك ضده في سامراء،وعند وصوله بغداد شرع بتشييد سورين حول مدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي بغية الدفاع عنها . السور الاول ، يحيط بالجانب الشرقي الذي كان يضم ثلاث محلات هي : الشماسية والرصافة والمخرم . والسور الثاني يشتمل على المحلات والارباض التي تقع حول المدينة المدورة .

وكان القسم الشمالي من هذا السور يبدأ من نهر دجلة عند فرضة « الخندق الطاهري »(١٦٣) ، حتى باب الانبار ، ثم يميل نحو الجنوب الشرقي بأمتداد ضفة نهر عيسى حتى يلتقي بنهر دجلة على مقربة من قصر حميد الذي كان موقعه على نهر دجلة .

اما سور الجانب الشرقي ، فكان يبدأ من ضفه نهر دجلة مقابل قصر حميد، ويمر بباب سوق الثلاثاء ، وعند وصوله الى باب « أبرز » يميل الى الشمال الغربي نحو نهر دجلة ، مارا بباب « سوق الدواب » وباب « خراسان » ، ثم باب « البردان » ثم باب « الشماسية » فيلتقي بضفه نهر دجلة مقابل فرضة « الخندق الطاهري » في الجانب الغربي .

وهكذا اصبحت بغداد بجانبيها الغربي والشرقي في آواخر القرن الثالث محصنة قوية أشبه ما تكون بحلقة يدور حولها السور الذي بناه الخليفة المستعين من جميع اطرافها(١٦٤) .

وعندما عادت الخلافة العباسية الى بغداد في عهد المعتمد في سنة٢٧٩هـ (٨٩٢م) نزل الخلفاء العباسيون في الجانب الشرقي من بغداد،وقد اتخذ المعتمد مقامه في الجانب الشرقي تحت سوق الثلاثاء ، وكانت دار الخليفة أو مقر دار الخلافة تطلق على المنطقة حول داره ، وكان حريم الخلافة يتكون من ثلاثة قصور كبيرة هي (قصر الفردوس ، وقصر الحسني ، والتاجي) ، وحولها عدد من الابنية الصغرى ، ويحيط بها سور شبه دائري ، وكان الصعود الى « دار الخلافة » يتم عن طريق من شاطىء دجلة او من احد الابواب الثمانية التي كانت في سوره • والعلاقة بين هذه الابنية بعضها ببعض غير واضحة • ثم بنى قصرا رابعا هو (الثريا) على بعد ميلين (٤ كم) من دار الخلافة ، وكان يرتبط بها بازاج تسر تحت الارض[١٦٥] •

وفي الفترة التي تسلط فيها الفرس البويهيون على مقدرات الخلافة بين سنتي ٣٣٤ ــ ٤٤٧ هـ اصاب الخراب والدمار والتهديم في آوائل القرن الرابع الهجري اسوار مدينة أبي جعفر المنصور (المدورة) وبقية مبانيها ، اذ غرقت بغداد الغربية في عام ٣٣٠هـ (٩٤٢م) ، ودخلت المياه مدينة المنصور وتهدمت طاقات باب الكوفة[١٦٦] •

وشمل التهديم ايضا سور بغداد الشرقية والغربية الذي بناه الخليفة المستعين ، ولم نستطع ان نقف على رواية تفيد سبب تهديم هذا السور،ويقينا أن البويهيين الفرس انفسهم قاموا بنقض اجزاء كبيرة من هذا السور عمدا[١٦٧] •

الهوامـــــش :

١ ـ الطبري ، الجزء ٦ صفحات ٧٢ـ٧٥
ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
٣ ـ اليعقوبي ، التأريخ ، ٢/٤١٨
٤ ـ حمام اعين : وهو معسكر للجند بالكوفة على بعد ثلاثة فراسخ منها . وسمي كذلك كما يقول البلاذري في فتوح البلدان صفحة ٢٨٠ ، نسبة الى أعين مولى سعد بن ابي وقاص قائد معركة القادسية الاولى الخالدة .
٥ ـ الطبري ، الجزء ٦ صفحة ٨٧
٦ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، الطبري ٦/٢٣٤
٧ ـ الطبري ، ٦/٢٤٨
٨ ـ الدكتور صالح احمد العلي ، (منطقة الحيرة) مجلة كلية الآداب ، ١٩٦٢ صفحات ٢٥ـ٢٦
٩ ـ سورا : وهو ـ كما قال سهراب صفحة ١٢٤ ـ قسم من نهر الفرات ويمر بقرى وضياع ويتفرغ منه انهار كثيرة تسقي طوج سورا ، ثم يمر بازاء مدينة قصر ابن هبيرة وبينهما اقل من ميل ، وعلى هذا النهر جسر هو جسر سورا
١٠ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
١١ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
١٢ـ الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٠٩
١٣ـ ابو الفـدا ، تقويم البلـدان ، صفحة ٢٩٧
١٤ـ البلدان ، صفحة ٢٣٧
١٥ـ الجزء الاول ، صفحة ٤٨٦
١٦ـ البلـدان ، صفحة ٢٣٧
١٧ـ الجزء السادس ، صفحة ٢٣٤
١٨ـ فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
١٩ـ ٦/٢٣٤
٢٠ـ البلدان ، صفحة ٢٣٧
٢١ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ١٣ .
٢٢ـ الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحات ١٢٤ـ١٢٥

٢٣ـ الطبري ، ٦/١٠٤
٢٤ـ فتــوح البلــدان ، صفحة ٢٨٥ .
٢٥ـ الدكتور صالح احمد العلي ، « منطقة الحيرة » ، مجلة كلية الآداب ، لسنة ١٩٦٢ ، صفحة ٢٦
٢٦ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
٢٧ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، صفحة ١٢١ .
٢٨ـ التأريخ ، ٢/٤٥٠ـ٤٥١
٢٩ـ تأريخ ابو الفدا ، ٢/٤
٣٠ـ سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة ، صفحة ١٢٣ ، الاصطخري ، مسالك الممالك صفحة ٨٤ ، ١/١١١
٣١ـ
٣٢ـ فتوح البلدان ، صفحة ٢٤٧
٣٣ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥
٣٤ـ المرجع السابق ، صفحة ٢٧٧
٣٥ـ الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٢٥
٣٦ـ اليعقوبي ، التاريخ ٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠
٣٧ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧
٣٨ـ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الانبار ٣/٣
٣٩ـ
٤٠ـ مصطفى جواد واحمد سوسه ، صفحة ٣
٤١ـ اليعقوبي ، التاريخ ٢/٤٢٩
٤٢ـ الطبري ٦/٨٧
٤٣ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥
٤٤ـ شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، صفحة ١٨٦
٤٥ـ ياقوت ، معجم البلدان ، ١/٣٦٨
٤٦ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٥ ، اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، صفحة ٣٣٩
٤٧ـ الطبري ٧/٤٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٥/٤٦٠
٤٨ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٧ وكتابة التاريخ ٢/٤٤٩ ، الطبري ٦/٢٣٤ ، الخطيب ١/٦٦ وما بعدها ، ياقوت ١/٦٧٧
٤٩ـ ذكر الطبري ٦/٢٣٤ ، بانه لما ثارت الراوندية بأبي جعفر في مدينته التي تسمى بالهاشمية ، والتي هي بحيال مدينة ابن هبيرة سحره سكناها لاضطراب من اضطراب امره عليه من الراوندية مع قرب جواره من الكوفة ولم يأمن اهلها على نفسه فاراد ان يبعد من جوارهم .

٥٠ـ ريجاردكوك ، بغداد مدينة السلام ١/٢٣
٥١ـ علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، صفحات ٥ـ٦
٥٢ـ الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة صفحة ١٢٤ .
٥٣ـ الطبري ٦/٢٣٤
٥٤ـ الطبري ٦/٢٣٤ ـ ٢٣٥
٥٥ـ منطقة غربي دجلة كانت تشمل عند تاسيس بغداد طسوجين ، يفصل بينهما نهر الصراة ، فالذي يقع شماله يسمى (طسوج قطر بل والذي كان جنوبه يسمى طسوج بادوريا ، وعلى هذا الاساس فان مباني مدينة المنصور المدورة اقيمت على هذا الطسوج .
٥٦ـ الطبري ٦/٢٣٤ـ٢٣٥
٥٧ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨
٥٨ـ الطبري ٦/٢٣٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ١/٦٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٥/١٥
٥٩ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٨٥ .
٦٠ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠ ، د. صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، ص ١٣٧ .
٦١ـ الطبري ٣/٢٧٦ ، الدكتور صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي ، المجلد الاول ، صفحة ٢٢٨ .
٦٢ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ ، بينما يشير الخطب ١/٦٧ ، ان عددهم بلغ الوفاً كثيرة .
٦٣ـ صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي صفحة ٢٣٠ .
٦٤ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ .
٦٥ـ الطبري ٦/٢٣٧
٦٦ـ الطبري ٦/٢٣٥
٦٧ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحات ٢٨٣ـ٢٩٧ ،
اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٣ وما بعدها ،
الطبري ، ج ٦ صفحة ٢٣٤ وما بعدها ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٦ صفحة ١٧١ ، الخطيب ، تاريخ بغداد ج ١ صفحة ٦٧ وما بعدها ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ صفحة ٤٥٧ وما بعدها ، لسترانج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، كريزويل ، العمارة الاسلامية الاولى ، الجزء الثاني ، باللغة الانكليزية ، الدكتور ظاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، ١٩٦٧ ، الدكتور صالح احمد العلي بغداد مدينة السلام ، الجانب الغربي ١٩٨٥ ، الدكتور يعقوب ليسنر ، ترجمة الدكتور احمد العلي ، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى ، ١٩٨٤ .

٦٨ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩
٦٩ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩ . هذا بينما يشير ابن رستة في الاعلاق النفسية صفحة ١٠٨ بان حافتي الخندق قد بنيتا بالجص والآجر اي انه كان للخنــدق مسنتان .
٧٠ـ الخطيب ٧٤/١
٧١ـ الطبــري ٢٣٨/٦
٧٢ـ الدكتور صالح احمد العلي ، بغداد مدينة السلام صفحة ٣٠٨ .
٧٣ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ ، ابن رسته .
٧٤ـ الخطيب ٧٤/١
٧٥ـ اليعقوبي ، البلدان صفحة ٢٣٨
٧٦ـ الخطيب ٧١/١ ، ياقوت ٦٨٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص ٩ .
٧٧ـ للاستزادة عن ابواب المدينة المدورة ، يراجع بغداد مدينة المنصور المدورة ، للدكتور طاهر مظفر العميد، صفحات ٢١٨ـ٢٢٠، وبغداد مدينة السلام، الجانب الغربي للدكتور صالح احمد العلي ، صفحات ٣١١ـ٣١٥ .
٧٨ـ الخطيب ٧٤/١ ، هذا بينما يروى اليعقوبي ان المنصور جعل لابواب المدينة اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها طول كل دهليز ثمانون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص ، فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبــة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم .
٧٩ـ الخطيب ٣٤/١ . وكذلك يشير ياقوت في معجمه ٩٥٤/٢ الى هذه الظاهرة فيقول : « وقيل انما سميت بالزوراء وذلك لان المنصور حين عمرها جعل الابواب الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة اي ليستعلى سمتها » .
٨٠ـ للاستزادة من معرفة هذه الظاهرة المعمارية وما اثير حولها من مناقشات، تراجع . كتاب كريزويل « العمارة الاسلامية الاولى » الجزء الثاني ، صفحات ٢٤ـ٢٦ . وكتاب « المختصر » صفحات ١٧٥ـ١٧٩ . وكتاب « بغداد ـ مدينة المنصور المدورة » « للدكتور طاهر العميد ، صفحات ٢٢٠ـ٢٣٢ . وكتاب « المدخل » للدكتور احمد فكري ، صفحة ٣٤ .
٨١ـ الدكتور طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، ص ٢٣٢ .
٨٢ـ تاريخ بغداد ٧٤/١ .
٨٣ـ تاريخ بغداد ٧٣/١ .
٨٤ـ البلــدان ، صفحة ٢٣٩ .
٨٥ـ البلدان ، صفحة ٢٣٩ .
٨٦ـ تاريخ بغداد ، ٧٤/١ .

٨٧- اشار اليعقوبي في كتابه «البلدان» صفحة ٢٣٩، بان اساس السور تسعين ذراعا مع الشرفات ، اما الخطيب في « تاريخ بغداد » ٧٤/١ فيروى بان ارتفاع هذا السور خمسة وثلاثون ذراعا وعرضه من اسفله نحو عشرين ذراعا .
٨٨- يراجع عن السور الاعظم كتاب « بغداد مدينة المنصور المدورة » للدكتور طاهر مظفر العميد ، وكتاب « بغداد مدينة السلام » للدكتور صالح احمد العلي ، صفحة ٣٠٨ .
٨٩- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩ .
٩٠- الخطيب ٧٢/١ .
٩١- البلاذري ، صفحة ١٨٤ ، الهمداني ، البلدان ، صفحة ١٣٢ .
٩٢- الطبري ٢٦٥/٦ ، الخطيب ٧٥/١ ، ياقوت ٦٨٤/١
٩٣- الخطيب ٧٥/١
٩٤- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٩
٩٥- المصدر السابق صفحة ٢٣٩
٩٦- الخطيب ٧٦/١ ، الدكتور طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ٧٤ .
٩٧- البلدان ، صفحة ٢٣٠-٢٣١
٩٨- الخطيب ٨٩/١
٩٩- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤١ . للاستزادة من المعلومات عن السكك يراجع كتاب « بغداد - مدينة المنصور المدورة » للدكتور طاهر العميد ، صفحات ٢٤٨-٢٤٩ . وكتاب « بغداد مدينة السلام » للدكتور صالح احمد العلي صفحات ٢٦٠-٢٨٣ ، وقد قدم استاذنا الدكتور العلي معلومات دقيقة وواسعة عن سكك المدينة المدورة واهليها .
١٠٠- الخطيب ٧٦/١
١٠١- المصدر السابق ٧٧/١ . عن الطاقات تراجع الكتب التالية : لسترانج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ٣٣ وما بعدها كريزويل ، « العمارة الاسلامية الاولى » الجزء الثاني ، صفحة ١٦ .

طاهر العميد - بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحات ٢٥٠ - ٢٥٥ .
صالح العلي ، بغداد مدينة السلام ، صفحات ٢٨٤-٢٨٩ .

١٠٢- يتفق الطبري ٢٦٦/٦، والخطيب ٧٨/١ في ان سبب نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة الى ربض الكرخ كان للدواعي الامنية .
١٠٣- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠ ، الخطيب ٧٦/١
١٠٤- اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٤٠
١٠٥- المصدر السابق ، صفحة ٢٤٠ .
١٠٦- الطبري ٢٦٦/٦ ، الخطيب ٧٨/١ .

١٠٧ــ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٠ .
١٠٨ــ تؤكد الروايات التاريخية وقوع قصر المنصور وسط الرحبة العظمى ، انظر : البلدان ، اليعقوبي صفحة ٢٣٠ ، الاعلاق النفيسة : ابن رستة ، صفحة ١٠٨ ، الكامل ، ابن الاثير ٢١/٥ .
١٠٩ــ الخطيب ١٠٧/١
١١٠ــ الخطيب ٧٣/١ ، اما ياقوت في المعجم ٦٣٨/١ فيقول : « وبنى القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوها ثمانين ذراعا » .
١١١ــ يذكر ابن الفوطي في الحوادث الجامعة صفحة ٣٠٢ بانها كانت عالية ينظر الجالس فيها من يخرج من الانبار .
١١٢ــ ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١٢ ، ياقوت ٦٨٤/١ .
١١٣ــ الخطيب ٧٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١١ .
١١٤ــ الطبري ٤١٥/٣ ، الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر المجلد (٣٢) سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٦٨ .
١١٥ــ الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر المجلد (٣٢) سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٦٨ .
١١٦ــ المنتظم حوادث سنة ١٩٣ .
١١٧ــ الطبري ٥٤٤/٦
١١٨ــ المصدر السابق ، ٦ صفحات ٥٤٤ و ٥٥١
١١٩ــ يذكر الطبري تفاصيل حصار طاهر بن الحسن لبغداد . الجزء السابع صفحات ٥٠ــ٧٣
١٢٠ــ الدكتور طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة .
١٢١ــ الطبري ٨٤٦/٣ ، ٨٥٢
١٢٢ــ الطبري ٩٣٤/٣ ، الدكتور صالح احمد العلي ، نفس المصدر ، صفحة ١٦٨ .
١٢٣ــ اليعقوبي ، التاريخ ٤٥٠/٢ ، الخطيب ٧٣/١ ، ياقوت ٦٨٣/١ ، ابن الجوزي ، مناقب ، صفحة ١١ .
١٢٤ــ بغداد في عهد الخلافة العباسية ، صفحة ٣٩ .
١٢٥ــ ابن الفوطي ، صفحات ٣٠٢ــ٣٠٣ .
١٢٦ــ المصدر السابق ، صفحة ٣٠٣ .
١٢٧ــ ابن الفوطي ، صفحة ٣٠٣
١٢٨ــ
١٢٩ــ
١٣٠ــ بغداد في عهد الخلافة العباسية ، مترجم الى العربية ، الصفحات ٣٩ــ٤١
١٣١ــ تاريخ بغداد ، ١٠٧/١ــ١٠٨
١٣٢ــ اليعقوبي صفحة ٢٤٠ ، الخطيب ١٠٧/١

١٣٣ـ العقب ، ومعناها كما ورد في معجم متن اللغة ١٥٥/٤ ، جمعها اعقاب من كل شيء اخره وخاتمته .
١٣٤ـ
١٣٥ـ الخطيب ١٠٧/١ ، المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم صفحة ١٢١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٧٩/١٠ .
الطبري ٣٢٢/٣ .
١٣٦ـ الكامل في التاريخ ٣٩/٥ ، ابن الجوزي ، مناقب صفحة ٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٩٧/١٠ .
١٣٧ـ الخطيب ١٠٨/١
١٣٨ـ الخطيب ١١٠/١
١٣٩ـ الخطيب ١٠٨/١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٤٣/٥ .
١٤٠ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، حوادث سنة ٤٥٠ ، رحلة بنيامين التطيلي ، صفحة ١٣٣ .
١٤١ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٠٣ ، الطبري ٣٧/٨ ، الخطيب ٨٢/١ .
١٤٢ـ اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٥٢ .
١٤٣ـ د . صالح احمد العلي /ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى ، سومر (١٩٧٧) صفحة ١٣٣ .
المصدر السابق . صفحة ١٣٣ .
١٤٤ـ د . طاهر مظفر العميد ، العمارة العسكرية ، حضارة العراق ، الجزء التاسع ، صفحة ١٩٨ .
١٤٥ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٠٣ .
١٤٦ـ للاستزادة عن قطائع الجانب الشرقي يراجع بحث الدكتور صالح احمد العلي ، « ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى » ، سومر (١٩٧٧) صفحات ١٣٣ـ١٣٤ .
١٤٧ـ سومر « ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى . سنة (١٩٧٧) ، صفحة ١٣٤ .
١٤٨ـ ياقوت ٧٨٢/٢ .
١٤٩ـ الخطيب ١ /٨٢
١٥٠ـ الطبري ٤٨٢/٣
١٥١ـ المصدر السابق ٤٩٤/٣
١٥٢ـ الدكتور صالح احمد العلي ، « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر ، المجلد ٣٢ سنة ١٩٧٦ ، صفحات ١٨١ـ١٨٢ .
١٥٣ـ الطبري ٤٩٤/٣ .
١٥٤ـ الطبري ٩٣٨/٣

١٥٥ـ الدكتور صالح احمد العلي « منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد » سومر ، المجلد ٣٢ سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٨٥ـ١٨٦ .

١٥٦ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ١٩٦ .

١٥٧ـ الطبري ٣/٥٠٢

١٥٨ـ الطبري ٣/٥٦٩ ، الخطيب ١/٦٨

١٥٩ـ الدكتور صالح احمد العلي ، نفس المصدر ، صفحة ١٨٤ .

١٦٠ـ الطبري ٣/١٠٣٨ .

١٦١ـ الخطيب ١/٩٨

١٦٢ـ اسقط من المتن .

١٦٣ ـ المصدر السابق ، صفحة ١٨٧ .

١٦٤ـ وصف سهراب خندق طاهر بكتابه صفحات ١٣١ـ١٣٢ ، ونقل عنه الخطيب في كتابه « تاريخ بغداد » ١/١١٢ ، وابن الجوزي في كتابه « مناقب بغداد » صفحات ١٨ـ١٩ .

١٦٥ـ حضارة العراق ، الفصل الرابع ، العمارة العسكرية بحث للدكتور طاهر مظفر العميد ، صفحة ٢٠٠ .

١٦٦ـ انظر سهراب صفحة ١٢٩ ، ابن سرابيون ، صفحات ٢١ـ٢٢ ، ياقوت ٢/٢٥٤ـ٢٥٥ ، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى ـ يعقوب ليسنر ، ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ، تعليقات على الفصل السابع رقم (١) . صفحة ١٨٢ .

١٦٧ـ حضارة العراق ، الفصل الرابع ، العمارة العسكرية ، بحث للدكتور طاهر مظفر العميد ، صفحات ٢٠٠ـ٢٠١ .

١٦٨ـ المصدر السابق

الفصل الخامس

مدن القلاع الجبلية

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

بدايات تكوين المعسكرات والثغور الجبلية :

ترجع صلة عرب الجزيرة بعرب العراق والشام الى ماقبل الاسلام بقرون كثيرة حيث ان حركتها تجاوزت حدود الجزيرة وكانت ترمي قصد العـــراق والشام وشمال شرق افريقيا تمارس حياتها في الائتلاف فيما بينها تتأثر وتؤثر فيها وتكون بنتيجة ذلك صلة مابين الجزيرة العربية وخارجها لان المجتمع العربي قبل الاسلام بوجه عام لم يكن مجتمعا انطوائيا ولا منغلقا على نفسه .

وكان لهذا التمازج انعكاس في الحياة اللغوية والادبية فقد كان لـــه اثاره العميقة في القريب مابين لهجاتها وفي تشـــذيب الخلافات التي كانت بينهـــا .

فقد استطاع الاسلام ان يثبت اسس الوحدة العربية داخل الجزيرة في ظل عقيدة واحدة بتطبيق مبدأ المؤاخاة وانكار الدعوة الى العصبية القبلية وتصفية احقادها واقامة مجتمع اساسه العقيدة لا الدم ووحدة الكلمة مكان

التشتت والفرقة والمشاركة في البذل والتضحية من اجل هذه المثل والمبادىء[١] .

وهذا يقودنا الى ابراز حقيقة تاريخية هي ان حركة التحرير التي قادها العرب كانت تهدف الى وحدة الامة والارض وتحرير الانسان من العبودية والضلال بما حمله العرب من رسالة الاسلام ، ونتج عن ذلك مزج وصهر بين الطوابع القديمة الموجودة خارج الجزيرة والتي حملها اهل الجزيرة فاستطاعت ان تؤلف وحدة اجتماعية تتعاون وتتزاوج وتختلط وتكون لها روحها وعقيدتها فهذه الظاهرة الواضحة في الحياة العربية تشكل الامة وصورتها[٢] .

ولم تكد تمضي سنوات قليلة على ظهور الاسلام في قلب الجزيرة العربية حتى حرر العرب حصن بصرى العربي (البتراء) الذي كان خاضعا للبيزنطيين وكان تحرير ذلك الحصن كما يقول كيبون (حادثا تافها لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى)[٣] وكانت انتصارات العرب الحربية تبعث على الدهشة ففي سنة ١٤ هـ /٦٣٥ م سقطت دمشق وفي سنة ١٥ هـ/٦٣٧ م سلمت بيت المقدس وعادت فلسطين ولاية عربية وفي الوقت ذاته انتهت الدولة الساسانية وحرر العراق وفتحت بلاد فارس وفي سنة ٢٠ هـ/٦٤١ م حرر العرب الاسكندرية وبعد ذلك بسنوات قلائل تقدم العرب على سواحل الوطن العربي في شمال افريقيا ولم تحل سنة ٢٩ هـ/٦٥٠ م حتى كانت بلاد الشام والقسم الشرقي من اسيا الصغرى والعراق وفلسطين ومصر وجزء من الولايات في المغرب العربي قد تحررت نهائيا ، وعند نهاية القرن السابع الميلادي حرر العرب شمال افريقيا كله وبدأوا عند مطلع القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي فتحهم لشبه جزيرة ايبريا[٤] . واسسوا دولة العرب في الاندلس .

لقد كانت حركة تحرير الشعوب الخاضعة للنفوذ الساساني والبيزنطي حدثا خطيرا في مجرى التاريخ فقد قضت حركة التحرير العربي على الدولة

الساسانية وهزت القوة البيزنطية وحسرت نفوذها وبقيت على التخوم العربية تشكل العدو اللدود للعرب وللاسلام .

ان تأمين حدود الوطن العربي الشمالية المجاورة للدولة البيزنطية استدعى السيطرة على تخومها من الشمال والشمال الشرقي وفي ظل هذه الستراتيجية اقتضى الموقف العسكري ان تؤمن الشام والجزيرة ومصر فقام الخليفة عمر بن الخطاب وقواده بتأسيس قواعد عسكرية في مناطق الحدود واعادوا بناء المدن المهجورة والخربة وبناء مدن جديدة وتحصينها وقد تحولت هذه المعسكرات والقلاع والحصون الى مراكز حضرية واقتصادية هامة بالاضافة الى مركزها العسكري .

ولقد أدى الوضع الجغرافي للوطن العربي دورا اساسيا في توزيع المعسكرات العربية المجاورة للحدود البيزنطية ، فيؤكد ابن رسته ان عمر بن الخطاب جند الشام الى اربعة اجناد وعين عليها قادته ، وزاد عليها يزيد بن معاوية قنسرين وكانت من ارض الجزيرة[٥] .

ان الثغور والعواصم والمعسكرات والقلاع التي اوجدتها الجيوش العربية الاسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كانت طلائع المدن العربية الاسلامية التي وجدت في العراق وفي غيره من اجزاء الوطن العربي ، حيث اسس العرب في خلافة امير المؤمنين عمر بن الخطاب ستة امصار[٦] ثلاثة منها في العراق وهي البصرة والكوفة والموصل ، وفي تونس (القيروان) ، وفي العصر الاموي اسست واسط وفي العصر العباسي اسست سامراء . كما انشأت الثغور والعواصم على حدود الدولة العربية الاسلامية واصبحت هذه الامصار والثغور والعواصم قواعد عسكرية وظائفها الاساسية هي ايواء المجاهدين وعوائلهم ومراكز ادارية للمناطق التي تم فتحها وتحررها ، وحلقة وصل بين المدينة المنورة العاصمة والمناطق المفتوحة والمحررة لارسال الاوامر العسكرية والنجدات واتخاذها خطا مفتوحا يؤمن رجعتهم في حالة تعرضهم

للخطر ، كما اتخذت مراكز تموينيه للجيوش العربية الاسلامية التي تحارب في جبهات القتال مع الاعداء(٧) .

لقد سكن العرب الثغور ومنهم الاراميون وكثروا هناك قبل الاسلام بقرون عدة وغدت هذه المناطق ديارا لهم عرفت بآسم قبائلهم التي استقرت فيها مثل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر كما وجدت فيها عناصر من السكان المجاورين ، وكانت تلك الثغور تعرف بأسم (المسالح) ومنها المسلحة وهم (القوم الذين يحفظون الثغور من العدو وسموا مسلحة لانهم يكونون ذوي سلاح أو لانهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر)(٨) .

وكان يسكن تلك المسالح جماعة من العرب واجبهم مراقبة تحركات الاعداء ضد بلاد العرب وتنبيه اخوانهم الذين فيها عن تقدم العدو الى داخل الاراضي العربية ويسمى المرقب فيقول ابن منظور (والمرقب تكون فيه اقوام يرقبون العدو لئلا يطوقهم على غفلة فأذا رأوه اعلموا اصحابهم ليتأهبوا ....)(٩) .

وقد نمت اغلب هذه المعسكرات والثغور والعواصم وتوسع عمرانها فأصبحت مدنها مأهولة بالسكان الى يومنا هذا . وتحولت الى مراكز حضارية بالاضافة الى مراكزها السياسية والعسكرية .

والذي يهمنا من بحثنا ، بحث الثغور والعواصم (المدن الجبلية الحدودية) والتي اصبحت فيما بعد مدنا عامرة بالسكان ومظاهر الحضارة ،فالثغور كما يقول ياقوت(١٠) : كل موضع قريب من ارض العدو في بطن واد او فرجة جبل .. ويسمى من يسكنها ويلازمها من الناس بالمرابطين .. وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم (واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)(١١) . ووزد في الحديث الشريف (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)(١٢) . وقد حث الفقهاء على حماية الثغور والمرابطة فيها فيذكر الماوردي : أن من واجبات الامام (تحصين الثغور

بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء بقوة ينتهكون فيها محرما ويسفكون فيها لمسلم او معاهد دما)[١٣] .

وهناك خطان رئيسان من الثغور العربية الاسلامية .

الاول : الثغور الجزرية وتشمل المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من الدولة العربية الاسلامية تحمي منطقة الجزيرة وتشمل ملطية وزبطرة وحصن منصور وبهسنا والحدث ومرعش والهارونية والكنية السوداء وعين زربة .

والثاني : الثغور الشامية وهي جنوبية غربية تحمي الشام ومنها المصيصة وادنة وطرطوس .

اما الحصون الحدودية فأطلقوا عليها في عهد عمر وعثمان بالعواصم الواقعة بين انطاكية ومانبيدي[١٤] . ويذكر ابن خرواذبة في معرض حديثه عن العواصم فيقول : انما سمي واحد منها عاصما لانه يعصم الثغر ويمـده في اوقات النفير ثم ينفر اليه من اهل المدن المجاورة والقريبة[١٥] .

والعواصم انشأت لتكون الخط الثاني للثغور الملاصقة للروم بقصد ان يعتصم بها المسلمون من العدو اذا خرجوا من الثغر ويجتمع فيه المتطوعة قبل الانطلاق للقتال[١٦] .

وقد تعرضت هذه الثغور قبل الاسلام الى غزو الروم والفرس ولم يكن لها كيان مستقل وجاءت حركة التحرر العربي للعراق والجزيرة والشام الى تنحية الجيوش البيزنطية عن مواقعها في هذه الثغور وقد تهيأ للثغور الجزرية بحكم موقعها الجغرافي المتوسط وكونها معبرا بين العراق والشام والدولة البيزنطية وارمينيا واذربيجان ان تكون ذات اهمية خاصة بين اقاليم الدولـة العربية الاسلامية[١٧] .

فقد اتبع معاوية بن ابي سفيان في ولايته وخلافته للشام اسلوب اسكان القبائل الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن والمعرضة للغزو البيزنطي ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون وخصص لها حاميات دائمـة[18] .

فقد لقيت هذه الثغور والحصون والقلاع عناية فائقة من الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكتب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بن الجراح يقول (ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين اهل ثبات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء ، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره ان يلزمها قوما وان يقطع القطائع وشحنها بالمقاتلة واسكنها قوما من العرب)[19] .

وأهتم الخلفاء الامويون والعباسيون ببناء الثغور والعواصم والحصون والقلاع فقد بنى عبدالله بن عبدالملك المصيصة سنة ٨٤ هـ ، وبنى هشام بن عبدالملك المربط وحصن المثقب وقطر عاش ويونا وبفراس ، وعمر العباس بن الوليد مرغش وحصنها ونقل اليها الناس ، وبنى مروان بن محمد الحصون في الاطراف الشمالية والشرقية للدولة الاموية[20] .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالثغور انهم كانوا يولونها الى ابنائهم واخوتهم واقرب المقربين اليهم ، ففي خلافة ابي العباس ولى اخاه المنصور الجزيـرة والموصل وارمينيا واذربيجان[21] .

وتابع المنصور والمهدي تحصين المصيصة واعاد بناء سورها سنة ١٤٠ هـ وسماها المعمورة واعاد المهـدي بناء وتحصـين طرطوس والحدث سـنة ١٦٣ هـ[22] .

وفي خلافة الرشيد أمر هرثمة بن اعين بناء طرطوس سنة ١٧١ هـ وبنى فوقها الابراج العظيمة ، وبنى الرشـيد عين زربة سنة ١٨٠ هـ ، كمـا بنى الهارونية سنة ١٨٢ هـ وبنى حصن الكنية السوداء وشحنها جميعا بالمقاتلة

والمتطوعة[٢٣] . وكان الخلفاء الامويون والعباسيون يزودون اهل الثغور بما يحتاجون اليـه من النفقات والكسوة ويرتب لهم الاطباء والجراحين ومـا يحتاجون اليه من الادوية والاشربة والذخائر[٢٤] .

وكانوا يزيدون في عطاء الجند اضافة الى اعتماد مرتبات الجند بالاضافة الى ماكانوا يقطعون للجند من المزارع لتشجيع المرابطين على ما يواجهونه من مخاطر[٢٥] .

واتخذت هذه الثغور والقلاع على الحدود بوجه عام كمراكز للدفاع عن الدولة وقد تكون قواعد ينطلق منها الهجوم اذا لزم الامر وهذه الحدود قد تكون حدودا طبيعية بحرا او جبلا او صحراء او قد تكون حدودا صناعية بأقامة حواجز او اسوار او حوائط او قلاع وحصون ، ولسـلامة الحدود يقتضي وضع حاميات منظمة مستقرة عليها وانشاء نقاط او مراكز عسكرية تقوم بمهمة الحماية والتنبيه والمراقبة ، وهـذه النقاط غالبا ماتكون على شكل قـلاع وحصون او مدن حربية حدودية .

وفي احيان كثيرة استخدمت هـذه المراكز الحدودية العسكرية لاعداد الحملات التأديبية ضد القبائل في المناطق الجبلية والوعرة لحماية المدن القريبة من غزواتهم ونهبهم لها .

ويبدو أن القلاع والحصون والتي اصبحت فيما بعد مدنا آهلة بالسكان كانت تستخدم بشكل اوسع في حماية الحدود من الغزوات الاجنبية ولضرب حركات القبائل الخارجة على سلطة الدولة كانت قلعة العمادية مثالا لهذه القلاع والمدن الجبلية التي قامت بهذين الدورين .

وقامت المدن والقلاع الحدودية بدور حضاري وثقافي مهم ولاسيما في مجال تبادل الافكار والاراء والمعارف ، وفي مجال الحياة الاجتماعية من قيم وتقاليد وعادات ومثل اجتماعية بالاضافة الى دورها في الحياة الدينية واللغوية

والادبية ، كما اصبحت هذه الثغور مراكز للمتطوعين من الزهاد والصوفية واستقروا فيهـــا حبّاً في الاستشهاد في سبيل الله ، فأقاموا الرباطات للنساء والرجال وهي اماكن للعبادة حيث يرابط فيها[٢٦] ، وكانت الربط مأوى يلجأ اليها الرحالون وطلاب العلم[٢٧] .

كانت اغلب الثغور قلاعا جبليـــة والتي كانت تقع على حافات الممرات الطبيعية الممتدة من الفتحات والثغرات التي تتخلل مناطق الهضاب وقد تقع على تقاطع الطرق القديمة مما اصبح اغلبها مدنا عامرة بالعمران والحضارة .

وقامت بعض مدن القلاع بدور مهم في الحياة السياسية بفضل موقعها وحصانتها وقد اتخذ قسم منها معاقل للثائرين والمتمردين على الدولة خاصة في العصـــر العباسي لاسيما في فترة ضعف الخلافة وتسلط العناصـــر الاجنبية والطامعة على مقاليد المؤسسات الادارية والعسكرية في الدولة من سلاجقة واتابكة وغيرهم .

فقد شهدت الموصل والجزيرة والشام عددا كبيرا من المدن والقـــلاع الجبلية المتفرقة التي استأثر بحكـــم كل منها امير شبه مستقل والتي كانت تتميز عن الامارات المحلية بكون صاحبها لم يكن يملك الا حكم المدينة وحدها وما يحيط بها احيانا من اراض محدودة ، وكان حكام هذه المـــدن عرضة للتبديل والتغيير بين حين واخر بمجرد ظهور أمير طامع قوي تتيح له امكاناته العسكرية اكتساح اولئك الحكام[٢٨] .

وكنتيجة للاضطرابات التي حلت بالدولة العباسية والخطر الصليبي على بلاد الشام والجزيرة وظهور أمراء طامعين في بعض مدن وقلاع الثغور ولموقف عمادالدين الزنكي المشرف من الخليفة عندما كان يتولى شحنكية بغداد ولما له من خدمات للخلافة العباسية فقـــد ولاه الخليفة ولاية الموصل ســـنة ٥٢١ هـ ـــ ١١٢٧ م ، وبدأ زنكي بتنظيم ادارة الموصل خاصة وانه وجد البلاد مقسمة بين امراء الاطراف ورؤساء العشائر ، وكل واحد منهم قد استأثر

بولايته ولا يهمه من امر البلاد سوى جمع مايقدر على جمعه ومن أي طريق كان(٢٩) .

وقد حاول زنكي توحيد المنطقة بضم هذه المدن والقلاع الجبلية لضعفها وتفرقها وضيق مساحتها ، كما بنى بعض الحصون والقلاع في شمال الموصل لاتخاذها حصونا في مواجهة حركات العشائر المعادية في الشمال(٣٠) .

فبدأ بأمراء الاطراف وأخذ يصانع بعضهم ويستولي على قلاع وحصون بعضهم الاخر حتى استولى على مدن كثيرة فاستولى على جزيرة ابن عمر ، ونصيبين وسنجار وحران ثم سيّر جيشا الى الشمال والشرق من الموصل فاستولى سنة ٥٢٨ هـ على قلاع الاكراد الحميدية (العقر وشوش) كما استولى على قلاع الاكراد الهكارية في نفس السنة ونازل الروم وأخذ منهم قلعة بارين سنة ٥٣٤ هـ وكسر شوكة الصليبيين(٣١) .

حيث كانت المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية ذات اهمية بالغة بالنسبة لولاية الموصل ولضمان أمنها وازدهارها وامكاناتها الاقتصادية فضلا عن الاخطار التي يمكن ان تنشأ عن عدم سيطرة زنكي على القبائل القوية المنتشرة في تلك المناطق ، الامر الذي حتم عليه مد نفوذه اليها كي يضمن لولاية الموصل خطوطا دفاعية طبيعية تحمي ظهره في حالة انهماكه بحروبه ومشاكله بعيدا في الشام أو الجزيرة(٣٢) . فبنى مدينة جبلية في المنطقة اتخذها حصنا ومركزا دفاعيا لمواجهة الحركات المناوئة له . فأنشأ مدينة العمادية بعد ان استولى على قلعة (آشب) والتي تعد من اكبر حصون الاكراد الهكارية واكثرها مناعة وتقع ضمن منطقة العمادية حيث كانت تنتشر عدة قرى زراعية ، وقد استطاع زنكي الاستيلاء عليها وعلى الحصون والقلاع الحميدية المجاورة وعلى قلاع عشائر الهيكارية لانها تهدد أمن الموصل العسكري اذ كانوا قد انتشروا وكثر فسادهم وازدادت قلاعهم وافتقد الامن عبر طرق المواصلات(٣٣) .

فقام عمادالدين زنكي بتخريب قلعت آشب لكي لاتكون مركزا دفاعيا قد يستغل في المستقبل ضد مصالحه في المنطقة[٣٤] .

ثم مالبث زنكي ان اصدر اوامره ببناء قلعة العمادية على اطلال حصن قديم مخرب وذلك سنة ٥٣٧ هـ ـ ١١٤٢ م . ويذكر ياقوت في معرض حديثه عن نشأة العمادية فيقول : وكانت حصنا للاكراد فلكبره خربوه فأعاده زنكي وسماه بأسمه وكان اسم الحصن الاول (آشب)[٣٥] ويظن بعض من الباحثين ان العمادية لم تقم على انقاض قلعة (آشب) لان خرائبها لاتزال باقية للعيان ويسميها اهل تلك الجهات بـ (آشورا) وهي في سلسلة جبال كارا قريبة من العمادية[٣٦] .

وكان عمادالدين زنكي قد فتحها وخربها سنة ٥٣٧ هـ[٣٧] . وقد اخطأ القزويني حين قال ان مجدد العمادية عماد الدولة الديلمي (ت ٣٣٨ هـ) لانفراده بالرواية ولمخالفته ما رواه البلدانيون والمؤرخون العرب الذين اكدوا ان مجدد العمادية كان عماد الدين زنكي[٣٨] .

وللعمادية تاريخ طويل حافل بالاحداث التاريخية الهامة لانها تمثل اهم مدن القلاع الجبلية فقد ورد ذكرها بأسم (آمات) في المخطوطات الاشورية ، ولعل اقدم ذكر لها في سجلات اخبار الملك الاشوري (شمش أدد الخامس) ٨٢٣ ـ ٨٢٠ ق.م الذي خلف اباه شلمنصر الثالث ، وقد ذكرها من جملة المدن التي فتحها اخوه (اشور ـ داتن ـ آيلي) في حياة ابيه ، اما محل ورودها فأنه في مسلة (شمش أدد) التي وجدت في القصر الجنوبي الغربي في النمرود ، وذكرها الملك الاشوري (اد د نراري الثالث) ٨٠٥ ـ ٧٨٢ ق.م ابن شمش أدد الخامس في مسلته الموجودة حاليا في متحف اسطنبول وبقيت (آمات) مدينة حتى العصر البابلي الحديث (الكلداني)[٣٩] .

ومن المرجح ان تكون آمات أو (آمادى ـ آمالتي هو) الحصن الذي بنيت العمادية على اطلاله استنادا الى الدلائل الاثارية حيث يوجد في العمادية

حاليا بابان قديمان احدهما شرقي ويسمى (ده ركهي زيباري) والاخر غربي ويسمى (ده ركهي سه قافا) وتوجد عليه صورة حارسين مسلمين بينهما حيوان لايوجد له شبيه حي وغيرها من نقوش غير اسلامية ، كما توجد بالقرب منه صورة رجل منحوتة في الصخرة التي بنيت القلعة عليها مما يشير الى ان اطلال البناية تعود الى ماقبل الاسلام[٤٠] •

وقد اخطأ بعض الباحثين المحدثين في محاولة لايجاد علاقة لغوية بين كلمتي (آمات) و (العمادية) والقول بأن العمادية ليست سوى تعريب لكلمة (آمات)[٤١] ، حتى ان احدهم ذهب الى التأكيد بأن عمادالدين زنكي لم يقم ببناء العمادية اساسا وان اسم القلعة الحالي (العمادية) ليست سوى تعريب آمات القديمة[٤٢] ، في حين لم تذكرها المصادر الاسلامية •

وتاريخ العمادية يرجع الى عهود قديمة جدا فيروي صاحب الاخبار[٤٣] الطوال (ان سفينة نوح « ع » استقرت على رأس جبل الجودي الواقع في منطقة حكاري) •

كما عثر فيها على كهف شاندر الذي وجد فيه بقايا انسان النياندرتال الذي عاش قبل اكثر من خمسين ألف عام[٤٤] ، وعثر فيها ايضا على (مسلة كيله شين) في جبال برادوست وعليها كتابة بالخط المسماري وباللغة الاشورية يعود تاريخها الى القرن الثامن قبل الميلاد[٤٥] •

ولدى المتحف العراقي منحوتة تمثل مشاهد ثلاثة بالنحت البارز في موضع (كندك) احدها داخل الكهف واثنان خارجه ، ويرى الباحثون انها تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد[٤٦]•

وقد تعاقب على المنطقة الكوتيون ، الكاشيون ، الخلديون ، الميديون ، الاشوريون ، الفرس ، اليونان ، الارمن ، الرومان ، الاشكانيون ، البابكيون، واخيرا المسلمون[٤٧] •

ومن الاثار التي عثر عليها في العمادية تمثال صخري يمثل محاربا من العصر الفرثي يعود تاريخه الى حدود القرن الاول للميلاد على طول الدرج المؤدي الى باب العمادية المسمى (باب الموصل) ، وكذلك المعبد القديم الواقع في الجهة الجنوبية فوق القلعة ويعتقد انه من آثار الفرثيين أو الساسانيين[٤٨] .

واصبحت منطقة العمادية ضمن الدولة العربية الاسلامية فقد فتحها قائد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عياض بن غنم سنة ١٨ هـ عندما وجهه لفتح الجزيرة وديار مضر وبكر ومدنها (حران والرها وراس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وجبال هكاري وادياين)[٤٩] (منطقة العمادية) .

لم تحدد المصادر الغرض السياسي الذي استهدفه زنكي في اقامة قلعة العمادية واغلب الظن انه اعتزم اتخاذها قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد تقوم بها القبائل ضد ممتلكاته هناك ، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة[٥٠] ولادخال الرعب في قلوب اصحاب القلاع الاخرى في المناطق المجاورة . وقد تمكن بذلك من تأمين احدى الجهات الهامة لامارته ، بعد ان كانت تشكل نقاط خطر عليه ، وجعلها تستند الى خطوط دفاعية يصعب اختراقها تحقيقا لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه .

وفي سنة ٦١٥ هـ ـ ١٢١٨ م حاصر بدر لؤلؤ قلعة العمادية وكان فيها عمادالدين زنكي فارتد عنها خائبا لمناعتها ولكثرة الثلوج في تلك البقاع[٥١]، واعاد بدرالدين لؤلؤ محاولته للسيطرة على العمادية فأصبحت من املاكه عام ٦٢٢ هـ ـ ١٢٢٥ م وانقطعت اخبارها منذ هذا التاريخ[٥٢] حتى عام ٧٤٠ هـ ـ ١٣٣٩ م حين ظهور الملك خليل العباسي مؤسس الامارة البهدينانية[٥٣] .

وكانت امارة بهدينان مقصورة في اول عهدها على (العمادية) واطرافها غير انها اتسعت شيئا فشيئا حتى شملت المنطقة بين آسيا الصغرى شمالا والى الموصل جنوبا وبين (كيله شين) على الحدود الايرانية شرقا حتى منطقة زاخو والسند وشيروان غربا(٥٤) .

بقيت العمادية احدى الحصون والقلاع الاسلامية حتى احتلال المغول لبغداد سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٤٥٨ م حيث دخلت في حكم دويلات مختلفة الى سنة ٧٠٤ هـ ــ ١٣٣٩ م عندما عاد الحكم العباسي ثانية حين خضعت لحكم احد احفاد الخليفة الاخير المستعصم العباسي ودام حكمهم فيها اكثر من خمسة قرون حتى سنة ١٢٥٨ هـ ــ ١٨٤٢ م حين سقطت امارتهم على عهد اخر الامراء العباسيين اسماعيل باشا العباسي وكانت تسمى آنذاك بأمارة البهدينانيين العباسيين المنحدرين من جدهم الاكبر العباس(٥٥) عم النبي (ص)، فبعد احتلال هولاكو بغداد وقتل اخر خليفة عباسي تفرق العباسيون واولادهم في البلاد فلجأ بعضهم الى مصر وهناك اعلنت لهم الخلافة الاسلامية بكنف مماليك الاتراك بمصر بعد ان انقطعت مدة ثلاث سنين ونصف ، ومنهم انتقلت الخلافة الى بني عثمان سنة ٩٢٢ هـ ــ ١٥١٦ م حين انتزعها منهم السلطان سليم الاول العثماني(٥٦) .

ومن اولاد العباسيين التجأ الى المناطق الجبلية المنيعة في شمال العراق نخص بالذكر (جولمرك) و (العمادية) و (نهري) وقد كون العباسيون في شمال العراق ثلاث امارات عباسية وهي :ــ

١ ــ الهكارية ومركزها جولمرك

٢ ــ الشمدينانية ومركزها نهري

٣ ــ البهدينانية ومركزها العمادية اسسها احفاد المبارك بن المستعصم العباسي(٥٧) .

وتوالى العديد من الامراء على حكم العمادية واستطاع الامير حسن في توسيع حدود امارته فأضـاف اليهـا دهوك والشيخان والسليفاني وزاخو والسندي ولما وقعت المعركة بين السلطان سـليم العثماني والشاه واسماعيل الصفوي في جالديران سنة ٩٢٠ هـ ــ ١٥١٤ م ، وقف السلطان حسن موقف الحياد حتى تأكد ان الغلبة للسلطان العثماني فأنضم الى جانبه فمنحه لقب السلطان وجعله رئيسا عاما لامراء الاكراد(٥٨) .

وتوالى على حكم امارة العمادية العديد من الامراء من احفاد الاسرة العباسية ابرزهم الملك خليل بن عزالدين بن محمد بن مبارك بن المستعصـم بالله العباسي ، وبهاء الدين بن خليل وتابعـه اخوته زين الدين وعزالدين واحفادهم ، وفي ولاية الامير حسن استولى على عقر شوش ووسع بذلك حدود امارته كما اشتهر بحبه للعلم والعلماء وأسس المدارس والمساجـد وخصص لها الاوقاف(٥٩) . وفي عهده حاول امراء (الاق قوينلو) الخروف الاسود في سنة ٨٧٥ هـ ــ ١٤٧٠ م ، احتلال العمادية واخضاعها لامرائهـم وحاصروها مدة ثلاثة اشهر الا ان هــذه القوات هوجمت من قبل عشائر الزيبارية والبروارية فقتل من قتل وانسحب الباقون ، واستطاع الامير حسن من استئصال شأفة امراء الاق قويونلو(٦٠) . وبعدها اخذ يوسـع نفوذه فاستولى على عدة مناطق منها داسن ، دهوك ، الشيخان ، السليفاني ، زاخو ، ليفي والسندي(٦١) .

توفي الامير حسن سنة ٩٤٠ هـ ــ ١٥٣٤ م عن سبعة بنين وكان اولهم ابرزهم واكفأ اخوته الامير حسين فكان عالما فقيها وسياسيا بارزا نال المكانة اللائقة لدى الباب العالي ، وقام بسلسلة اصـلاحات في العماديـة من بناء المدارس والمساجد وتعبيد الطرق وبناء الخانات(٦٢) .

وفي سنة ٩٦٠ هـ ــ ١٥٥٣ م حارب مع العثمانيين ضد الايرانيين واحتل تبريز واذربيجان(٦٣) ، ووزع اخوته حكاما على زاخو ودهوك والعقر وشيخو

ويزوة[٦٤] . وبعد وفاة الامير حسين سنة ٩٨٤ هـ ــ ١٥٧٦ م تعاقب اولاده الخمسة واحفادهم على امارة العمادية .

وقد تميزت الفترة الواقعة بين ٩٨٤ هـ ــ ١٢٨٢ هـ ــ ١٥٧٦ ــ ١٨٦٥ م بالصراعات الطويلة بين القبائل في المنطقة ، ومحاولة امراء العمادية استتباب الامن بالقضاء على اطماع رؤساء العشائر المجاورة ، هذا في السياسة الداخلية اما السياسة الخارجية فقد حرص الامراء المتأخرون على تحسين وتمتين علاقاتهم بالسلطان العثماني عدا بعض الفترات التي كانت الدولة العثمانية لا ترضى عن بعض حكامها فتوعز الى والي الموصل او بغداد للقضاء عليه وتنصيب بديل عنه احد افراد الاسرة او الى عقد الصلح بينهم وتقديم الاتاوة للسلطان العثماني واستمر الحال حتى سنة ١٢٥٨ هـ التي دخلت فيها الجيوش العثمانية الى العمادية والحقت العمادية والعقر بولاية الموصل[٦٥].

وبالاضافة الى ما امتازت به مدن القلاع الجبلية وخاصة العمادية من مراكز حصينة اتخذت كقلاع وثغور لحماية حدود الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي من غارات البيزنطيين ، ولضرب حركات القبائل المناوئة للدولة في شمال الموصل ، فقد نشأت في العمادية وما يجاورها من المدن والقرى التكايا والمدارس الدينية والتي استقر فيها العلماء ومشايخ الصوفية واصحاب الطرق يمارسون فيها الزهد والعبادة وتعليم العلوم الدينية ومن ابرز التكايا التي ظهرت في العمادية تكية ديرش انشأت في القرن الخامس الهجري انشأها شيخ الاسلام ابو الحسن علي بن احمد بن عرفه الحكاري وهو من ولد عتبة بن ابي سفيان سنة ٤٠٩ هـ ــ ١٠١٩ م ، وتكية العمادية اسسها الملك خليل العباسي حوالي العقد الثالث من القرن الثامن للهجرة ، وتكية الشيخ جانكير البهدينان وغيرها من التكايا[٦٦] .

وكان لامراء العمادية اهتمام كبير بأنشاء المدارس الدينية وتشجيع العلم وتقريب العلماء والصوفية والادباء ، واخذ طلاب العلم يتلقون العلوم

الدينية خاصة في التكايا والجوامع والمدارس ، ومن اهم المدارس مدرسة سيدي خان اسستها الاميرة زاهدة العباسي (ت ٧٢٩ هـ ــ ١٣٢٨ م) وجعلت فيها خزانة كتب[٦٧] . ومدرسة الامام قاسم في العمادية انشأها الامير غياث الدين قاسم سنة ٧٨٤ هـ ــ ١٣٨٢ م وجعل فيها خزانة كتب[٦٨] . ومدرسة قبهان (قباد) يرجع تاريخها الى ماقبل القرن التاسع الهجري جددها السلطان حسين ولي وسماها بأسم ولده قباد واصبحت من الوقف القادري[٦٩] .

وكانت هذه التكايا والمدارس تدرس العلوم الدينية وظهرت طرائق الصوفيـة لـدى علمـاء الدين واهمها القادرية والرفاعيـة والاحمديـة والبرهامية[٧٠] . مما كان لهم دورهـم الكبير في ازدهار الحركة العلميـة والاداب والفنون وساعد ذلك على تأليف الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية . وقد ظهر هؤلاء العلماء والمشايخ بمكانة رفيعة لدى امراء الاسرة العباسية والناس في العمادية لمنزلتهم الدينية والعلميـة وبالاخص مشايخ الطريقتين القادرية والنقشبندية الذين احرزوا نفوذا كبيرا في هذه المنطقة مما اصبح لهم بمرور الزمن السلطتان الروحية والزمنية وبلغ احترام الناس لهؤلاء الشيوخ والعلماء درجة الخضوع المطلق[٧١] .

ان تمسك اهل العمادية وما حولها من المدن والقرى بالحكـم العربي العباسي يأتي من حبهم الكبير لاهل بيت الرسول (ص) المنبثق عن تمسكهم الشديد بالدين الاسلامي وقوة ايمانهم جعلهم يفضلون حكم الاسرة العباسية على رؤسائهم ويفرضون طاعة هذه الاسرة على انفسهم ويفدونها بالارواح والمال ارضاء لله ورسوله[٧٢] .

وبقيت امارة العماديـة جزءا من الوطن العربي الذي خضع للدولـة العثمانية قرابة خمسة قرون حتى قيام الحكم الوطني في العراق حيث قضي على نفوذ الامراء فيها واصبحت احد اقضية العراق المهمة في الدولة العراقية .

الهوامش

(١) شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري ، ص ٢٨ وما بعدها ، دار العلم — بيروت — ١٩٧٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٥ .
(٣)
(٤) نورما بيتز : الامبراطورية البيزنطينية ص ٣٦١ .
(٥) ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ص ١٠٥ .
(٦) ناجي معروف : عروبة المدن الاسلامية ، ص ٧ .
(٧) الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
(٨) ابن منظور : لسان العرب (مادة مسلح) .
(٩) نفس المصدر السابق .
(١٠) ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ١٦ ، ابن منظور : لسان العرب جـ٥ ، ص ١٧١ .
(١١) سورة الانفال ، آية ٦ .
(١٢) البخاري : صحيح البخاري جـ ٤ ، ص ٤٣ .
(١٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٣ .
(١٤) دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم) ، جـ ١ ، ص ٧٦١ .
(١٥) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٢٥٣ .
(١٦) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول ، ص ١٧٥ .
(١٧) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .
(١٨) العدوي : الامويون والبيزنطيون ، ص ١٠٣ .
(١٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٤ و ص ١٥٦ .
(٢٠) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ .
(٢١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ٣ ، ص ٨٠ ، دار الفكر — بيروت ١٩٥٦ .
(٢٢) اليعقوبي : تاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٠٨ .

(٢٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٢٤) الحسن بن عبدالله : اثار الاول في ترتيب الدول ، ص ١٦٦ .
(٢٥) شعيرة : المرابطون في الثغور العربية الرومية (بحث في كتابة الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) .
(٢٦) ديموبين : النظم الاسلامية ، ص ١٥٩ .
(٢٧) عبدالله عبدالدائم : التربية عبر التاريخ ، ص ١٦١ .
(٢٨) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، ص ٦٩ .
(٢٩) سعيد ديوه‌جي : الاتابكة ـ ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٣٠) عماد الدين زنكي ـ ص ٦٩ .
(٣١) سعيد الديوه‌جي : الاتابكة ـ ص ٢٣ .
(٣٢) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ـ ص ١٠١ .
(٣٣) المصدر السابق ـ ص ١٠٦ .
(٣٤) ابن الاثير الباهر ـ ص ٦٤ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص ١٩٠ .
(٣٥) يـ قوت : معجم البلدان ـ جـ ٦ ـ ص ٢١٤ .
(٣٦) العمري : منية الادباء ـ ص ٢١٨ .
(٣٧) ابن واصل : فرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٦ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٥ .
(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ـ جـ ٦ ـ ص ٢١٤ .
(٣٩) طه باقر : العراق في القرن السابع عشر ـ ص ١٦٦ .
(٤٠) انور المائي : الاكراد في بهديناني ـ ص ٥ .
(٤١) محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ـ ص ١٥٤ .
(٤٢) انور المائي : الاكراد في بهدينان ـ ص ٥ ـ ٧ .
(٤٣) الدنيوري : الاخبار الطوال ـ ص ٢ .
(٤٤) مجلة سومر ، المجلد ٨ ـ سنة ١٩٥٢ .
(٤٥) نفس المصدر السابق .
(٤٦) لابارد : نينوى ، بابل ـ ص ٣٦٩ .
(٤٧) الطبري : تاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .
(٤٨) محفوظ : امارة البهدينانية ص ٢٤
(٤٩) ابو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٥ ـ باريس ـ ١٩٨٤م .
(٥٠) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ـ ص ١١٠ .
(٥١) ابن الاثير : الكامل ـ جـ ١٢ ـ ص ١٢٩ .
(٥٢) محفوظ : امارة بهدينان العباسية ـ ص ١٧ .

(٥٣) البهدينانية : سميت العمادية بأسم البهدينانية اشتقاقا من اسم امراء (البهائديتيين الذين حكموها بضعة عصور وهم ينتمون الى جدهم بهاء الدين من نسل العباسيين) ــ محفوظ : امارة بهدينان العباسية ــ ص٩ .
(٥٤) محفوظ : امارة بهدينان ــ ص ١٠ .
(٥٥) العمري : منهل الاولياء ــ ص ١١ــ١٣ ــ دائرة المعارف الاسلامية جـ١ ــ ص ٣٢٨ ، السهروردي : الايناس في تراجم احفاد العباس ــ جـ١ ــ ص ١١٦ .
(٥٦) امارة بهدينان ــ ص ٢٧ .
(٥٧) محفوظ : امارة بهدينان ــ ص٢٧ ــ نقلا عن المخطوطة الميوكية للباليسالي .
(٥٨) محفوظ : امارة بهدينان ــ ص ١٦ .
(٥٩) محفوظ : امارة البهدينانية ــ ص ٥٠ .
(٦٠) محمد امين زكي : خلاصة الكرد وكردستان ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .
(٦١) البدليسي : الشرفنامة ، ص ١٤٠ .
(٦٢) البدليسي : الشرفنامة ، ص ١٤١ .
(٦٣) المصدر السابق ، حاشية ص ١٤٢ .
(٦٤) المائي : الاكراد في بهدينان ، ص ١٣٠ .
(٦٥) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ، جـ ١ ، ص ٣١٠ ، العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ .
(٦٦) محفوظ : امارة بهدينان العباسية ، ص ١٤١ .
(٦٧) ابن بطوطة : الرحلة ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .
(٦٨) داود الجلبي : مخطوطات الموصل ، ص ٢٥٠ .
(٦٩) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
(٧٠) علي باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ١٢٩ .
(٧١) محفوظ : الامارة العباسية ، ص ١٩٦ .
(٧٢) المصدر السابق : ص ١٢٢ .

المصـــادر والمراجـــع

— **ابن الاثير : عز الدين**

١ ــ الكامل في التاريخ
دار الطباعة ــ القاهرة ١٢٩٠هـ

٢ ــ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية
دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ١٩٦٣م

— **ابن بطوطة : محمد بن عبدالله (ت ٧٧٧هـ)**

٣ ــ رحلة بن بطوطة
القاهرة ــ ١٩٣٨م

— **ابن الجوزي : سـبط**

٤ ــ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
دائرة المعارف العثمانية ــ حيدر آباد الدكن ــ الهند ــ ١٣٧٠هـ

— **ابن خرداذبة : ابي القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ)**

٥ ــ المسالك والممالك
طبعة بريل ــ ١٨٨٩م

— **ابن رسته :**

٦ ــ الاعلاق النفسية
طبع ليدن

— **ابن منظور :**

٧ ــ لسان العرب
بأعتناء مرجليوث

— **ابن واصل : جمال الدين محمد**

٨ ــ مفرج الكروب في اخبار بني ايوب
طبع جامعة فؤاد الاول ــ القاهرة ١٢٩٠هـ

— **البخاري :**

٩ ـ صحيح البخاري
القاهرة ، ١٣١٣هـ

— **البدليسي : الامير شرفخان**

١٠ـ الشرفنامة
بغداد ـ ١٣٧٢هـ
عرب عن الفارسية ملا جميل بندي

— **البلاذري : احمد بن يحيى بن جاسم (ت ٤٧٩هـ)**

١١ـ فتوح البلدان
نشر صلاح المنجد ومكتبة النهضة العربية

— **بينز : نورمـــان**

١٢ـ الامبراطورية البيزنطيـــة
الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة

— **خليل : عماد الدين**

١٣ـ عماد الدين زنكي
الدار العلمية ـ بيروت ١٩٧١م

١٤ـ دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم)

— **الدينوري : عبدالله بن مسلم بن قتيبة**

١٥ـ الاخبار الطوال
طبع مصر ـ ١٣٣٠هـ

— **ديموبين : موريس غود فورا**

١٦ـ النظم الاسلامية
مطبعة الزهراء ـ بغداد ـ ١٩٥٢م

— **الديوه‌جي : سعيد**

١٧ـ الموصل في العهد الاتابكي
مطبعة شفيق ـ بغداد ـ ١٩٥٨م

— **زكي : محمد امين**

١٨ـ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان بغداد ١٩٤٥م

— شعيرة : عبدالهادي

١٩ــ المرابطون في الثغور الرومية
(بحث في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)

— الصائغ : سليمان الموصلي

٢٠ــ تاريخ الموصل
القاهرة ــ ١٩٢٣م

— الطبري : ابن جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

٢١ــ تاريخ الامم والملوك
طبع دار المعارف ــ مصر ١٩٦٠م

— العباسي : محفوظ محمد عمر
مطبعة الجمهورية ــ الموصل ١٩٦٩م

٢٢ــ امارة بهدينان العباسية

— عبدالدائم : عبدالله

٢٣ــ التربية عبر التاريخ
دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٥م

— عثمان : فتحــي

٢٤ــ الحدود الاسلامية البيزنطية
طبع دار الكتاب العربي ــ القاهرة ١٩٧٧م

— العــدوي : ابراهيــم

٢٥ ــ الامويون والبيزنطيون
مطبعة الانجلو المصرية

— العزاوي : عباس

٢٦ــ العراق بين احتلالــين
بغداد ــ ١٩٣٥م

— العمري : ياسين بن خير الله الخطيب

٢٧ــ منية الادباء
طبع الموصل ــ ١٩٥٥م

— فيصــل : شــكري

٢٨ــ المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري
دار العلم ــ بيروت ــ ١٩٧٣م

ـــ **المائــي : انــور**
٢٩ــ الاكراد في بهدينان
الموصل ــ ١٩٦٠م
ـــ **ماجد : عبدالمنعــم**
٣٠ــ العصر العباسي الاول
نشر مكتبة الانجلو المصرية ــ ١٩٧٣م
ـــ **الماوردي : ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠)**
٣١ــ الاحكام السلطانية
مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ١٩٦٠م
ـــ **معروف : ناجي**
٣٢ــ عروبة المدن الاسلامية
ـــ **الموسوي : مصطفى عباس**
٣٣ــ العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية
دار الرشيد للنشر ــ بغداد ــ ١٩٨٢م
ـــ **ياقوت : شهاب الدين ابي عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)**
٣٤ــ معجم البلدان
طبع ليبزك ــ ١٨٦٦
ـــ **اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري (ت ٢٨٤هـ)**
٣٥ــ تاريخ اليعقوبي
دار الفكر ــ بيروت ــ ١٩٥٦م

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن

في عهد الازدهار الاسلامي

الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي
كلية الاداب ــ جامعة بغداد

١ ـ الاجراءات التي من شانها تنشيط الحياة الاقتصادية :

ان استقرار عدد كبير من الناس في مدن معينة ينمي بينهم علاقات خاصة، ويؤدي الى ظهور مؤسسات اقتصادية وسياسية واجتماعية وادارية تنظم الحياة العامة فيها ، وتحقق الأمن والطمأنينة ، وتنشط النمو الاقتصادي ، وتؤدي الى الازدهار الحضاري •

ونشأت المدن في العراق منذ عهد سحيق، وبعيد تحرير العراق من قبل الجيوش العربية الاسلامية ، انشئت مدن جديدة لتؤدي جملة وظائف ، سياسية ، وعسكرية ، وادارية ، واقتصادية • وكانت تمتلك مقومات مميزة ومتكاملة ومتجانسة ، عضويا وتخطيطا •

فمنذ عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رض) ، ثم تأسيس البصرة والكوفة ،ومن ثم واسط وبغداد وسامراء • فهذه الحواضر استطاعت

أن تحتضن مركز السلطة فاستقر فيها أمير الاقليم (في البصـرة والكوفـة وواسط) ، أو الخليفة ، فيما يخص بغداد وسامراء • وكان لابد والحالـة هذه أن يستقر في هذه المدن المقاتلة وعوائلهم ، فأصبحت قواعـد للادارة ولتحرك الجيوش العربية ، فيسرت فيها الحياة المدنية ، واستتب فيها الامن والاستقرار ، فسرعان ما نمت فيها الحياة الاقتصادية والمالية واتسعت •

والملاحظ أن المدن التي مصرت في العراق ابان تحريره اشـتركت في سمات عامة • لان تأسيسها سار على وفق قواعد ومقاييس وعناصر اقتضتها اعتبارات دينية ، وادارية ، واقتصادية محددة ، املتها ظروف الدولة الجديدة وايديولوجيتها المميزة• وأن هذه السلسلة لم تأت عفويا، وانما جاءت على وفق تخطيط مسبق • اذ نلمس في المدينة العراقية ما يمكن اعتباره تنظيما وظيفيا• فهناك مناطق خاصة للسكن ، واخرى للادارة ، وثالثة تمركز فيها النشـاط الاقتصادي والمالي • ففي المنطقة المركزية الرئيسة المسجد الجامـع ، ودار الامارة والدواوين والسوق ، الذي هو محور الحياة الاقتصادية وعمودها الفقري • ولكن في الوقت نفسه نلمس أن العلاقة بين هذه المناطق علاقـة عضـوية •

والمراكز الاقتصادية ، المتمثلة بالأسواق تحتل عادة أهم شوارع المدينة واكثرها جذبا للسكان في ذهابهم وأيابهم • وهي تأخذ النمط الطولي المتشعب احيانا ، الذي يبدأ من مركز المدينة ــ عند المسجد الجامع ــ ويمتـد مـع المحاور الرئيسة التي تتجه نحو مداخل ، أو مخارج المدينة •

الا أن تعدد مظاهر التشابه بين المدن التي مصرت بالعراق ، لم تصل حد التطابق ، وانما وجدت بينها اختلافات محددة ، ما لبثت أن اتسعت من جراء تطور الاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية في كل منها عبر الحقب

التاريخية المتعاقبة • وان هذه التطورات لم تسر على وفق وتيرة واحدة، وانما تحكمت فيها متطلبات ادارية ، ومؤثرات اقتصادية ومالية وبيئية • وبلا ريب، فأن استقرار اناس في هذه الامصار جعلهم أوسع اطلاعا ، واكثر ممارسة في حياة التحضر ، فأسهموا في نمو النشاط الاقتصادي ضمن حدود العراق ، ومع الاقاليم الاخرى ، وبخاصة مدينة البصرة التي اصبحت ثغر العراق الذي يمر عبره النشاط التجاري مع جنوب وشرقي آسيا ، وجنوب وشرقي افريقية • ومن المؤكد أن هذا النشاط كان له أثره في نمو الحياة الاقتصادية ، وتبلور النظم المالية في العراق •

وخلال العصر الأموي ، اصبح والي العراق مسؤولاً عن ادارة الاقاليم الشرقية ، كما انه تولى الاشراف على حركة الفتوح في الشرق ، وتجهيز الجيوش التي اوكلت اليها هذه المهمة • وبلا شك ، فأن هذه الحالة مكنت مدن العراق من الاحتفاظ بمكانتها الادارية والاقتصادية حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ /٧٤٨ م • وحينئذ أصبح العراق مركز الخلافة • وما أن استقرت الامور حتى اقدم الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور على انشاء بغداد ، واتخاذها عاصمة له ، وعندئذ اقبل الناس عليها من كل مكان ، وتكاتفت فيها مساعي رجال المال والاعمال مع الدولة على انماء المؤسسات الاقتصادية والمالية ، حيث اقيمت الاسواق والمنشآت التجارية ، كما تضافرت الجهود والأيدي لتوسيع هذه المنشآت وزيادة عددها عندما نشطت حركة الاسواق التجارية• (اليعقوبي ، البلدان، ص ٢٣٣ و ٢٥٢)•

ايقن المسؤولون أن قوة الدولة وازدهار الحياة الاقتصادية في المدن ، تتوقف على سعادة ورفاهية المواطنين • لذا حرص كثير منهم الا يرهق الناس بالضرائب • فتؤكد الروايات التاريخية على أن الخليفة المنصور لم يضع على الأسواق غلة • وهكذا ظلت الاسواق معفاة من هذه الضريبة اكثر من عشر سنوات ، وبذلك استطاعت خلال هذه الفترة أن تنتعش وتنشط قبل أن

تثقل بهذه الضريبة المحدثة التي وضعها الخليفة محمد المهدي على الاسواق عام ١٦٧ هـ/٧٨٣ م ٠الا أنه سرعان ما الغيت ، وكان من جراء ذلك أن اثرت كثير من مدن العراق ، وأخذ الناس يشعرون بالرخاء ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ٠

وبلا ريب ، فأن الفئة الغنية لديها قدرة شرائية كبيرة ٠ وهي والحالة هذه سوف تمتص اكثر ما كان يعرض في اسواق المدن من سلع وحاجيات ٠ ذلك ان حاجاتها المعاشية وزيادة دخلها ، ومتطلباتها الاجتماعية ، خلقت قوة دافعة للنشاط الاقتصادي في اسواق المدن ٠ وفي الوقت نفسه حملت التجار على ان يضربوا في الامصار لأرضاء تلك الاحتياجات المتنوعة المتزايدة ٠

ولم تكن مثل هذه المظاهر الاجتماعية مقتصرة على الفئة الموسرة في المجتمع ، اذ أن عامة الناس نشطت في مجالات العمل المتعددة فحصلت على موارد مالية جيدة ، فانعكس ذلك على النشاط الاقتصادي في المدن ، لاندفاع الناس في اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة ٠ هذا فضلا عن التطور الحضاري الذي طرأ على حياة المجتمع في المدن الذي يمكن ربطه بالحياة الاقتصادية ٠ وأن ما طرأ على حياة الناس في المدن من تغيير في نمط الحياة الاجتماعية والعلمية والفنية ، ليس الا نتيجة طبيعية لما طرأ عليهم من تغير اقتصادي ٠ كما أن للموروث الحضاري أثره في هذا المجال ٠ وندرك ذلك جليا من النظرة الفاحصة في موضوع الاشتغال بالتجارة ، وما يدر من كسب عن طريقها ٠ ثم ان توسع المدن العراقية ، وتعدد دور الضرب ، ومهارة الذميين في التبادل النقدي ، وظهور نظام المصارف ، كل ذلك ادى الى تنشيط الحركة التجارية في المدن العراقية ٠

وحتى البسة الناس تعددت وتنوعت ٠ فكان للخلفاء لباس خاص ، وكذلك حال الوزراء ، والامراء ، والقضاة ، وعامة الناس ٠ فضلا عما في الملابس من اختلاف بين الصيف والشتاء ، وفي المناسبات العامة والدينية ٠

والخلاصة ، ان التغير السياسي الذي شهده المجتمع صحبه تطور حضاري سريع أدى الى نقلة المجتمع من حالة الى حالة اخرى جديدة تطلبت حياتها اليومية كثيرا من السلع التي باتت ضرورية لهذا اللون من الحياة . ومن المؤكد أن النشاط التجاري بأسواق المدن ، له صلة قوية بالرخاء الاقتصادي الذي يعيشه المجتمع .

وبلا شك ، فأن نشاط وازدهار الحياة الاقتصادية في مدن العراق ، كان متناسبا مع درجة تقدم الدولة التي اتخذت من هذا القطر مركزا للخلافة . ذلك أن الدولة اتخذت بعض الاجراءات التي كان من شأنها تنشيط الحياة الاقتصادية في المدن ، فقد الغى الخليفة أبو جعفر المنصور ضريبة الحنطة والشعير التي كانت تدفع نقدا وادخل نظام المقاسمة . وكان هذا من العوامل المنشطة للانتاج الزراعي وخطى الخليفة محمد المهدي خطوة اخرى ، اذ أنه رأى الجباة يبتزون اموال الفلاحين فمنعهم من الاشتطاط أثناء عملهم ، آخذا بنظر الاعتبار طريقة سقي الغلال الزراعية ، ومقدار الجهد المبذول ، والنفقات التي تتطلبها عملية الانتاج مستهدفا مصلحة المواطنين .

وفي سنة ٢٠٤ هـ /٨١٩ م خفض المأمون ضريبة الخراج فأصبح يجبي الخمسين بدلا من النصف ، وضرب بشدة على أيدي من تسببوا في احراق سوق العطارين والصيارفة والصفارين والفرائين في سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م ، وترك الخليفة الواثق جباية اعشار سفن البحر عام ٢٣١ هـ/٨٤٥ م . وكان الخليفة المعتضد بالله قد اسقط ضريبة المكس . ولم يتوان بعض المسؤولين عن القيام بكل عمل من شأنه تنشيط الحياة الاقتصادية في المدن ، اذ أمر الخليفة المقتدر بالله عام ٢٩٥ هـ/ ٩٠٧ م بهدم المنشآت التي بناها سلفه الخليفة المكتفي بالله في رحبة باب الطاق ببغداد الشرقية (الرصافة) ، لأنها كانت تلحق ضررا بصغار الباعة الذين كانوا يقعدون فيها لتجارتهم بلا أجر .

٢ ـ الأســـواق واهميتهـــا :

لقد وجدت الأسواق في مدن العراق منذ عهد بعيد • وفي الأسواق ، حيث التجار والصناع ، برزت كثير من النظم والأعراف الاقتصادية والمالية ، وأن هذه الاسواق قامت في مجتمعات متحضرة كانت تتعاطى البيع والشراء• وقد تكون الاسواق مستقرة في محلات معينة على طول أيام السنة ، يرتادها من يريد أن يتزود بالسلع والمواد التي يحتاج اليها • وقد تقوم اسواق اخرى في مناطق معينة ومواسم خاصة تتفق مع طبيعة تلك المنطقة مـــن الناحيـــة المناخية والدينية والاجتماعية والاقتصادية • وهذه الاسواق تدعى « الاسواق الموسمية » التي لها موسم محدد تقوم وتنشط فيها ، يؤمها الناس للبيـــع والشـــراء •

وبعد أن تم تحرير العراق وأصبح جزءاً من الدولة العربية الاسلامية ، ألف الناس حياة الطمأنينة والاستقرار ، فنشطت عندئذ الحياة الاقتصاديـــة في الاسواق ، لاسيما في المدن التي مصرت حديثا • فالمراكز الاساسية للحياة العامة في المدينة العراقية الجديدة هي المسجد الجامـــع ، ودار الامـــارة ، والسوق • وهو مركز الحياة الاقتصادية ونظمها • ويظهر هذا التماثل واضحا في المدن الجديدة كافة • وأن الأسواق تستعمل عادة معيارا ودليلا على حجم وأهمية المدن ؛ أو أهمية اقسامها وللمدينة اسواقها المركزيـــة ، وللمحلات اسواقها الخاصة من مرتبة ادنى • ويربط بين هذه المراتب شوارع قد يتحول قســـم منهـــا الى اســـواق ايضا •

ويرى (الدكتور العلي ، خطط البصرة ص ١٢٧) أن في البصرة سوقا رئيسة واحدة في بداية تأسيسها ، وانه لاتوجد محـــلات معينة للبائعـــين وبقيت هذه السوق دون تسقيف حتى ولاية زياد بن ابيه الذي تولى ذلك • وأن وجود السوق قرب المسجد الجامع أمر طبيعي لأهميته العامة وموقعه في مركز المدينة • وانه لم يقتصر على بيع سلعة مفردة ، وانما كانت تباع فيـــه

مختلف انواع السلع . الا أن السوق الرئيسة في البصرة انتقلت عند نهر بلال بن ابي بردة ابان ولاية خالد بن عبدالله القسري ، ذلك ان الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك اولى اهتماما خاصا في الأسواق والعناية بها . ويدل بناء الحوانيت في الاسواق على احتمال فرض ضرائب عليها بأعتبارها (غلة) أو اجارة لهذه الحوانيت التي شيدتها الدولة . وأن عدة اسواق قد شيدت خلال الحقب التاريخية ، اختص بعضها ببيع انواع معينة من السلع . وفي مقدمة هذه الاسواق سوق المربد الذي احتل موقعا واسعا في الطرف الغربي من مدينة البصرة ، وأن القبائل المجاورة اتخذت من المربد سوقا لتصريف البضائع الفائضة ، وللحصول على حاجاتها الاخرى . وخلال القرن الهجري اشار (المقدسي ص ١١٧) الى وجود ثلاثة اسواق كبيرة فيالبصرة .

وعند تشييد الكوفة جعلت الاسواق في ساحة واسعة احتلت وسط المدينة قرب دار الامارة والمسجد الجامع . ولم يسمح لأحد البناء فيها . وبمرور الزمن امتد السوق من دار الامارة الى دار الوليد بن عقبة . وكان سقف هذه السوق في بادىء الأمر مغطاة بالحصر . وظلت كذلك حتى زمن والي العراق خالد بن عبدالله القسري ، حيث عقدت بالحجارة . وقد اثنى (المقدسي) على اسواق الكوفة لسعتها وتنظيمها ونشاط الحركة التجارية فيها، ولأنها ملتقى القوافل التجارية القادمة منشبه الجزيرة العربية حينذاك .

وعند تخطيط مدينة واسط أعطى الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي عناية خاصة للاسواق ، اذ انشأ السوق الرئيسة على مقربة من المسجد الجامع ودار الامارة . وكانت سوقاً واسعة امتدت من دار الامارة ، التي تقع في وسط المدينة ،حتى شاطىء نهر دجلة شرقا . وبمرور الزمن تكونت اسواق فرعية داخل السوق الكبير ، اذ ذكر (بخشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٤) أن أصحاب كل تجارة كانوا يكونون سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير .

فكانت اسواق الطعام ، والبزازين ، والصيارفة ، والعطارين ، والبقالين ، وأصحاب الفاكهة ، وغيرها من الاسواق •

ومنذ الشروع في بناء المدينة المدورة بدأ اهتمام الخليفة المنصور بالاسواق ، ذلك انه اراد أن تتخذ المنشآت التجارية في مدينته الجديدة مكانها المناسب لأنه ادرك بثاقب بصره أن المدينة الفتية (بغداد) ستتشق طريقها الطويل متخطية حدود الزمان والمكان الى مجال أرحب ، لتبني مجدا اثيلا ، تتفيأ بظلاله مظاهر الحضارة العربية الاسلامية • فيروي (اليعقوبي ، البلدان ص ٢٤٢) ان الخليفة « وقّع الى كل اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من اصحابه ، وما قدره للحوانيت والاسواق في كل ربض ، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت في كل ربض سوقا جامعة تجمع التجارات » •

ومما يؤكد اهمية الاسواق عند تخطيط بغداد ، أن هذه المنشآت التجارية اعتبرت من المؤسسات الاساسية التي تولت الدولة الانفاق على انشائها • ولم تذكر المصادر أن الدولة اخذت أو تقاضت مبلغا من المال من التجار والباعة لقاء اشغالهم الاسواق في المدينة المدورة • ولكن الخليفة المنصور « وضع عليهم الغلة على قدر الذرع » لما انتقلوا الى اسواق الكرخ التي انشئت لهم فيما بعد •

ومهما يكن ، فقد انشيء في داخل المدينة المدورة أربعة أسواق رئيسة في الطاقات المتحدة في الطرق الاربعة الواقعة بين السور الثاني والثالث • وهي ثلاث وخمسون طاقا متناظرة ، يتوسطها طريق عرضه حوالي ثمانية أمتار • ولهذه الطاقات نوافذ وضعت بحيث تسمح بدخول اشعة الشمس ، وفي الوقت نفسه تمنع تساقط المطر في داخلها • وذكر (اليعقوبي ، البلدان ص ٢٣٩) أن الطاقات التي شغلتها أسواق بغداد كانت مقببة بالطابوق

المفخور والجص ، وأن الزخارف التي كانت تزين جدران وسقوف هذه المنشآت كانت مصنوعة من الآجر .

وظلت الأسواق داخل المدينة المدورة تحتل الطاقات الممتدة على جانبي الطرق الاربعة الرئيسة ، مابين السور الثاني والثالث ، ولم تزل على هذه الحال حتى أمر الخليفة المنصور بتحويلها الى ربض الكرخ . اذ أخذت الحياة العامة في داخل المدينة المدورة تتطور بسرعة مدهشة . وأن هذه المدينة صارت تنمو وتتسع بشكل غير متوقع ، فما أن اصبحت بغداد حاضرة الخلافة حتى « .. انتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وآثرها جميع أهل الآفاق على اوطانهم ، فليس من اهل بلد الا لهم فيها محل ومتجر »، وحينئذ باتت اسواقها وشوارعها تغص بالمارة ، وتضيق بالمشترين والباعة .

وأزاء هذا الوضع بات أمر التفكير في نقل الاسواق الى خارج اسوار المدينة المدورة أمرا واردا ، لا بل ضرورة ملحة فرضها واقع المدينة الناشئة . لذا أمر الخليفة المنصور بنقل الاسواق الى الكرخ لتكون مركزا للنشاط الاقتصادي ، على أن تبنى من اموال الدولة . وجعل عرض السوق اربعين ذراعا ، وطولها فرسخين . وفي الوقت نفسه خصص لكل حرفة سوقا خاصة، وأكد على ضرورة جعل سوق القصابين في آخر الاسواق .

والمتتبع لخطط اسواق الكرخ يلاحظ ظاهرة جديدة هي ، تجمعها حول مجاري الانهار المنسابة في هذا الجانب من بغداد . وفي الوقت نفسه يلمس أن الحياة الاقتصادية طغت على ما حولها بحيث استطاعت أن تؤثر في اسماء الانهار وتصبغها بصبغتها الخاصة ، فدعيت الانهار بأسم نوع البضاعة المباعة عندها ، وصرنا نسمع ، نهر البزازين ، ونهر القلائين ، ونهر الدجاج وغيرها .

ولم يقتصر وجود الاسواق على الجانب الغربي من بغداد ، وانما امتد الى الجانب الشرقي • ذلك أن التفكير في بناء الرصافة وأسواقها أملته ضرورات اقتصادية ودوافع سياسية وعسكرية • وعندئذ بات من المؤكد أن تنشأ أسواق عديدة ونشيطة في جانب الرصافة لتواكب الوضع الجديد ، ولتفي بحاجات التوسع الهائل الذي شهده هذا الجانب من بغداد •

وتشير الروايات التاريخية بوضوح الى أن السوق الرئيس في الجانب الشرقي من بغداد كان معقودا بالآجر والجص ، وله باب مقوس عرف بباب الطاق • قال اليعقوبي : (البلدان ص ٢٥٣) « وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات على رأس الجسر ، مارا من رأس الجسر ، مشرعا ذات اليمين وذات الشمال • ومن اصناف التجارات والصناعات » • ومن هذا السوق تتفرع أسواق فرعية اقل اهمية ، مثل سوق الطيب والعطور ، والأساكفة ، والصيارفة ، والطعام ، والصاغة ، والوراقين ، والقصابين ، وسوق الغنم ، وسوق السلاح وغيرها •

وعلى الرغم من التشابه الواضح في اسواق جانبي بغداد ، الا أنه يبدو أن اسواق الرصافة كانت اكثر تنسيقا من اسواق الكرخ • وقد يكون لعامل الزمان أثره في عملية تخطيط اسواق الرصافة • ذلك أن المسؤولين عنه قد حاولوا تجنب كل نقص وقع به من سبقهم •

ا ـ تخصص الاسواق :

لقد وجدت ظاهرة التخصص في اسواق مدن العراق قبل عمليات التحرير ، اذ تشير النصوص الى وجود سوق التمّارين ، وسوق الصيارفة ، وسوق الطعام في مدينة الحيرة قبل ظهور الاسلام • أما بعد أن اصبح العراق ضمن حضيرة الدولة العربية الاسلامية ، فقد صرنا نشهد بوضوح أسواق متخصصة ببيع نوع محدد من البضائع • ففي البصرة كان اصحاب كل مهنة

يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير، منها سوق العطارين ، وسوق الطعام ، وسوق الغنم ، وسوق القصابين ، وسوق القداحين ، وسوق الصرافين .

ولدينا اشارة (ابن سعد ٢/٣٠) الى وجود اسواق متخصصة في البصرة منذ السنوات الاولى من بنائها . اذ ورد ذكر سوق العطارين التي كانت فيها دار لعون بن خلف .

واشار (البلاذري ، الانساب ٢/٢٠٧) الى وجود سوق للطعام، كما ذكر وجود سوق متخصص ببيع الغنم ، وآخر فيه باعة النبيذ ، وسوق الزيادى الذي تباع فيها الغلال ، وسوق للقداحين . ووجدت في سوق المربد بيوعات كبيرة، ولاسيما منتوجات المناطق الصحراوية، مثل الابل والاغنام ومنتوجاتها كالصوف والوبر والجلود والدهون .

ومنذ أن انشئت الكوفة ظهرت فيها الاسواق المتخصصة . الا انها في فترة ولاية خالد بن عبدالله القسري برزت بشكل اوضح . ذلك أن هذا الوالي كان قد صنف الاسواق في الكوفة حسب عروض التجار التي تعرض فيها : « وجعل لكل باعة دارا وطاقا » (اليعقوبي ، البلدان ص ٧١) . وفي واسط كان اصحاب كل تجارة يكونون سوقا فرعية صغيرة ، فظهرت اسواق لأصحاب الطعام ، والبزازين ، والصيارفة ، والعطارين ، والبقالين والفاكهة وغيرها .

وفي داخل المدينة المدورة لم ترد الا اشارة عابرة تشير الى وجود سوق خاصة يباع فيها نوع معين من السلع هي سوق دار البطيخ التي اختصت ببيع الفواكه ، والتي ابقاها الخليفة المنصور داخل اسوار المدينة المدورة ، ولم يأمر بنقلها كما فعل مع بقية الاسواق . وعندما توسعت مدينة السلام ، وتطورت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطلب الامر الانتقال الى الكرخ ، وبنيت الرصافة، عندئذ اصبحت الاسواق منظمة بشكل جعل لكل تاجر وتجارة شارعا

معلوما ، لا يختلط قوم بقوم ، ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف من السلع مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهن بغيرهم « وكل سوق مفردة ، وكل اهل تجارة منفردون بتجارتهم » ، وعند ذلك اصبح من المحتم أن تبرز ظاهرة تخصص الأسواق بشكل واضح ، فأقيم سوق للبزازين ، وسوق للزيت ، وآخر للدقاقين ، والدباغين ، والقصابين ، وسوق السلاح ، والقلائين وغيرها وحصل مثل ذلك في مدن العراق الرئيسة الاخرى •

ومن المؤكد ان الاشراف الحكومي على الاسواق ساعد في بروز ظاهرة التخصص ، اذ كان من واجبات المحتسب أن يجعل « لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه » ، كما أن مصلحة التجار وأصحاب الحرف انفسهم ، حملت اصحاب كل مهنة ، أو معظمهم ، على التجمع في سوق واحدة • ولغرض المحافظة على ما في السوق من بضائع ، وجدت في بعض هذه الاسواق أبواب خاصة بها ، تغلق وقت الغروب ، عندما يتوقف البيع والشراء في مثل هذه الاسواق •

وكان لنظام تخصص الاسواق مزاياه الحسنة ، اذ سهل مهمة الاشراف الحكومي عليها • كما أن التاجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سعر سلعته خشية من جيرانه المنافسين له في السلعة نفسها • وفي هذه الحالة يقل احتمال حدوث الاحتكار ، أو أي ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع • ثم أن المشتري يستطيع أن ينتقي أجود ما يحتاج اليه من هذا الصنف من السلع في وقت قصير لتقارب الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة •

ب ـ الاسواق الجامعة :

نستطيع القول ، انه في كل مدن العراق الرئيسة وجدت أسواق جامعة ، تباع فيها مختلف البضائع • فمثلا وجد في البصرة سوق كبير تباع فيه انواع السلع • وكذلك الحال في سوق المربد الذي يعتبر من الاسواق

الجامعة . وفي الكوفة وجد سوق رئيس تجمع فيه عدد كبير من التجار الذين كانت تجاراتهم متنوعة . وفي واسط شيدت سوق جامعة ، كانت تمتد من دار الامارة التي تقع في وسط المدينة حتى شاطىء نهر دجلة شرقا . اما في بغداد فقد وجدت عدة اسواق جامعة في داخل المدينة المدورة . وكذلك الحال في كل من الكرخ والرصافة ، وفي مدينة سامراء والموصل وبقية مدن العراق الكبيرة .

٣ ـ الصناعة والتنظيم الحرفي :

امتهن العراقيون ، منذ عهد بعيد ، كثيرا من المهن والحرف الصناعية وبرعوا في اتقانها . وبعد أن تم تحرير العراق ، فتحت الدولة العربية الاسلامية المجال واسعا أمام جميع فئات المجتمع في ممارسة العمل واختيار المهن التي يرغبون في مزاولتها . وفي القرآن الكريم وردت آيات عديدة تحث على الاخلاص في العمل . قال تعالى في سورة الكهف : « انا لا نضيع أجر من احسن عملا » . وقال في سورة الشعراء : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » . وأشير الى العمل وأهميته في الحديث النبوي الشريف حيث قال الرسول (ص) : « ان الله يحب احدكم اذا عمل عملا أتقنه » . وقال : « ان الله يحب المؤمن المحترف » .

وفي المدن والقرى العراقية وجد نوعان من الصناع ، الصناع المأجورون الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء اجر محدد يتقاضونه ، اما النوع الثاني من الصناع فهم الذين يمارسون عملهم في بيوتهم ، أو حوانيتهم لحسابهم الخاص . وهؤلاء ، في الأعم الأغلب ، من ذوي الحرف الذين ورثوها عن آبائهم . وهم على العموم أحسن مكانة ، وأكثر موردا من الصنف الاول ، فهم يمتلكون وسائل الانتاج والادوات البسيطة ، ورأس مال محدود . ويمتلكون حرية التصرف

في علسهم ، كما يشاؤون بعيداً عن التسلط • ومع ذلك فأن بأمكان الصنفين أن ينعموا بثمار اتعابهم ، ويزيدوا دخلهم بمهارتهم في الصناعة ، وزيادة انتاجهم ، وحماسهم في العمل •

ومن المؤكد أن أجور أهل الصنايع اختلفت تبعا لنوع العمل الذي يؤدونه • ولابد أن تكون أجور الصناع الماهرين اعلى من غير المهرة • ولدينا روايات تاريخية تشير الى أن أجرة العامل اليومية الذي يشتغل في خراطة الزجاج في أواخر القرن الثالث الهجري ، درهما ونصف درهم ، وأجرة عامل الحفر ثلاثة دراهم في اليوم ، وأجرة الحداد خمسة دراهم • وهي أجرة مجزية حينذاك ، حيث انها كانت تساوي قيمة عشرة ارطال من لحم الغنم ، أو خمسة عشر رطلا من لحم البقر •

أ ــ اهم المنتوجات الصناعية :

لقد أسدت الدولة الى المنشآ الصناعي يدا طولى • فقد عملت على صيانة جميع انواع الصناعات المحلية وتحسينها وتطويرها • وعملت على استخراج الثروة المعدنية التي حفلت بها أرض العراق ، وعملت على نقلها الى المراكز الصناعية بسهولة ويسر من أجل استثمارها • وكان ذلك من أهم أسباب الانطلاق الصناعي الكبير الذي تحقق خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، فضلا عن قيام الدولة بتيسير نقل المنتجات الصناعية بين المدن والاقاليم بسهولة ويسر ، بسبب السبل الآمنة التي اولتها الدولة عناية خاصة • كل ذلك ادى الى رواج المنتوجات الصناعية •

ويعتبر النسيج من اعرق الصناعات التي راجت في مدن العراق وقراه ، اذ توفرت المادة الاولية التي كانت تعتمد عليها هذه الصناعة • كما أن النسيج يعد من المتطلبات الاساسية التي يحتاج اليها الناس • فظهرت أنسجة صوفية، وقطنية ، وكتانية ، وحريرية فاخرة • وابدع الصباغون في استخراج الوان

جميلة وجذابة من الاقمشة ، تناسب أذواق الناس وميولهم • كما صنعت أنواع متعددة من البسط والسجاد الثمين، على وفق مقاسات معينة، واستعمل الصناع خيوط الحرير والصوف في نسجها ، وكانت تزين قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والموسرين ، كما زينت البيوت من الداخل بالستائر الجميلة الزاهية الالوان • وعرف العراقيون صناعة الخيام التي كانوا ينسجونها من شعر الماعز ، أو صوف الاغنام ، أو وبر الابل •

ومنذ العهد الاموي اشتهرت بعض مدن العراق بصناعة الطراز • وهو نسيج يصنع من خيوط الحرير والابريسم والديباج المحلى بسطور من الكتابة على حافة القماش مطرز عليها اسماء الخلفاء أو الولاة، وبعض عبارات الدعاء • وأن دور الطراز عادة تكون مملوكة من الدولة ، وأن صناعها يشتغلون بأجر عند الحكومة التي انشأت لهذه الصناعة ديوانا خاصا سمي « ديوان الطراز » ، يديره موظف خاص دعي (صاحب الطراز) ، كانت مهمته الاشراف الدقيق على المصانع التي تنسج الملابس الرسمية والشارات والأعلام •

وهناك صناعات اعتمدت على الاخشاب وسيقان الاشجار ، مثل الرماح ، والنبال ، والاقواس ، والسهام وبعض ادوات الحصار ، والادوات المنزلية المتعددة الاخرى ، وصناعة السفن والمراكب والقوارب • ثم صناعة العطور والصابون والشموع ، وصناعة الورق التي ظهرت في العراق في وأاخر القرن الثاني الهجري • وصناعة الحديد ، والصناعات القائمة على المنتوجات الحيوانية ، فضلا عن صناعة الزجاج ومواد البناء ، والخزف ذات الألوان الزاهية • ان هذه الصناعات وغيرها كانت تلاقي اهتماما ودعما من الدولة ، الأمر الذي جعلها تبلغ درجة عالية من الجودة والاتقان • وأن قسما من هذه الصناعات كانت تكفي لسد حاجة السوق الداخلية ، في حين كان قسم منها يفيض عن ذلك فيصدر الى بعض اقاليم الدولة •

ب ـ تكتل اهل الحرف :

وبلا ريب فأن تطور المجتمع ، واتساع المدن ، وازدياد العناية بالمهن والحرف ، وزيادة رقابة الدولة على الحياة الاقتصادية ، كل ذلك ادى الى ظهور مهن وحرف متعددة • كما أوجد شعورا بضرورة تماسك أصحاب الحرف ، لاسيما ، في الازمات السياسية والاقتصادية التي كانت تحصل بين الحين والآخر •

ويشار الى اهل الحرف بـ « الاصناف » أو « أهل المهن » أو « أهل الصنايع » •• وبمرور الزمن قويت الرابطة بين هؤلاء ، وصار كل صنف يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صنعته • وصار من اقوالهم المأثورة : « الصناعة نسب » • فأنتشر الانتساب الى المهنة بجوار الانتساب الى المدينة أو القبيلة ، فصرنا نسمع لقب الزجاج ، والزيات ، والجراح ، والحلاج ، والفراء ، والثعالبي وغيرهم •

وبلغ من تماسك اصحاب الحرف وتكتلهم أن (القاضي الماوردي ص ٢٣١) أصبح يرى في العرف الجاري بين أهل الصنايع اساسا يستطيع المحتسب الرجوع اليه حين ممارسة مهمته في مراقبة الاسواق ، وفض المنازعات بين أهل المهن •

ثم ان التطورات الداخلية اسهمت من جانبها في تنظيم أهل الحرف ، واكسبتها اطارها • فأصبح لكل حرفة (رئيس) من اصحابها ، تعينه الحكومة عادة ، أو تعترف به • ويرى (اليعقوبي البلدان ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦) أن كل فئة من اصحاب الحرف تجمعت في اسواق معينة وسميت بها • ويبرز التنظيم الحرفي من خلال تحديد مراحل التدرج المهني • فيكون العامل (مبتدئا) ، ثم يصبح (صانعا) ، وينتهي الى مرحلة (الاستاذية) • وهو في كل مرحلة يمارس شكلا من العمل ، ويتقاضى أجرا معينا •

٤ـ النشـــاط التجـاري :

شهدت مدن العراق نشاطا تجاريا منذ عهد بعيد • وتشير الروايـات التأريخية الى أن سكان مدينة الانبار ، وسكان مدينـة الحيرة ، مارسـوا التجارة في أسواق شبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام • كما اقيمـت أسواق دائمية ، وأسواق موسمية في المدن والقرى العراقية ، مثل سـوق الحيرة في غربي نهر الفرات ، وسوق بغداد غربي نهر دجلة ، وسوق الثلاثاء في شرقي دجلـة وغيرهـا •

وبعد أن حررت جميع مدن العراق وأراضيه ، واصبح يستظل بظـل الدولة العربية الاسلامية ، نشطت التجارة فيه • لاسيما وأن الدولة اتاحت للتجار فرصا واسعة للتجارة والربح الحلال • فلم تضـع قيودا امام نقـل السلع بين المدن والاقاليم ، ولم تحتكر الحكومة تجـارة أيـة بضاعة ، أو تمنع مبادلتها ، مادام تعاطيها لا يتعارض مع شعائر الدين الحنيف •

وعمل ولاة العراق خلال عهد الراشدين والأمويين على تنشيط الحركة التجارية ، فشيدوا الاسواق والمنشآت التجارية ، وأقاموا الجسور ، وشقوا الطرق • ولم تكن الضرائب المفروضة على التجار خلال العصـر الامـوي باهظة • وقد اعفي صغار التجار من بعض الضرائب تخفيفا من اعبائهـم ، ووضع حد أدنى لقيمة السلع التجارية التي فرضت عليها الضرائب •

وتميزت مواقع مدن العراق الرئيسة بوجود طرق تجارية تربطها بعضها ببعض ، وطرق اخرى تربطها وتسهل اتصالها مـع الاقاليم المجاورة • وان هذه الحالة يسرت انتقال البضائع بين المدن العراقية المتعددة بسهولة ويسر ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح في المدن التي مصرت بعد عمليات التحرير • اذ وضع المسؤولون في تقديرهم اهمية موقع المدينة الجديـد التي يرومون انشاءها ، بحيث يرتفق الناس به ، ولا تغلو عليهم الاسعار ، ولا تشتد فيه المؤونة (الطبري ٧/٦١٥) • وفي هذه الحالة لا يلاقي التجار صعوبة كبيرة

في نقل البضائع من مدينة الى اخرى لوقوع كثير من مدن العراق الرئيسة على ملتقى الطرق التجارية وثمة ظاهرة اخرى في ان بعض المدن العراقية كانت تقع على ضفاف الانهار ، (دجلة والفرات وشط العرب ، ونهر عيسى) مما يسر تزويد أسواقها بالسلع التجارية التي كانت تصل اليها عبر هذه الانهار • فضلا عما كان يرد الى أسواق المدن من بضائع بالطرق البرية التى تسير بها القوافل القادمة من الموصل وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب ومصر ، أو من الاقاليم الشرقية • ولدينا نصوص تشير الى أن الطرق المائية كانت آنشط من الطرق البرية في هذا المجال • وان كثرة السفن التجارية المصعدة والمنحدرة بين مدينة البصرة ومدن عراقية اخرى قد تطلب الامر قيام مرافيء خاصة عند ضفاف المدن الرئيسة ، ترسو فيها السفن المحملة بالبضائع المنقولة بين هذه المدن • وان نشاط هذه المرافيء تطلب قيام أسواق بجوارها هي الاخرى نشطة • ونشاطها هذا يدعونا لان نؤكد من خلاله ضخامة التبادل التجاري بين مدن العراق •

ويذكر (ابن الاثير ٥/١٤) أنه كانت تصل بغداد ، ومدن عراقية أخرى في (نهر عيسى) محصولات الاقاليم الغربية والمؤن المجلوبة من أراضي الفرات الاعلى مثل الحبوب التي تأتي بها القوافل عن بلاد الشام ومصر ، فتنقل عبر نهر الفرات ، ومنه الى نهر عيسى ، ثم تفرغ حمولتها على ارصفة عند الفرضة السفلى في الكرخ •

وتوجد محطات (مآصر) على الطرق النهرية الهامة ، يديرها موظفون ، ويحرسها حراس ، وتجبى فيها الضرائب • وان سلطة هؤلاء الموظفين كانت مرتبطة بمدى قوة السلطة المركزية في الدولة أو ضعفها •

واهتمت الدولة العربية الاسلامية بانشاء الطرق البرية وصيانتها وحمايتها وفي الفترات التي كانت الحكومة حازمة ، كانت الطرق آمنة ،

وبذلك تصل البضائع الى اسواق المدن سالمة • وكانت الجمال اهم وسائل النقل في مثل هذه الطرق •

آ ـ التبادل التجاري بين مدن العراق :

امتهن كثير من العراقيين التجارة ، وحذقوا في ممارستها • وكانت حرفة التجارة تدر على محترفيها ارباحا كبيرة ، الامر الذي جعلها تجذب عددا كبيرا من الناس • ولم تكن قلة رأس المال عائقا امام بعضهم ، اذ وجد هؤلاء من يبيعهم سلعا تجارية بدفع مؤجل ولو بسعر أعلى قليلا من سعر السوق • ومع ذلك فقد حصل هذا النوع من التجار على ارباح جيدة •

وراجت بين مدن العراق تجارة المواد الغذائية لاسيما الحبوب ، والتمور والخضراوات والفاكهة ، وفي مدينة البصرة تأتي التمور في مقدمة السلع التي كانت تصدرها الى اسواق كثيرة من مدن العراق وقراه اذ كان سوق التمارين من الاسواق النشيطة في مدينة البصرة• وكان لتجار البصرة وكلاء في بعض مدن العراق الرئيسة يبيعون لهم تجارتهم • ومما جعل مدينة البصرة تؤدي دورا نشيطا في الميدان التجاري ، انها كانت تتصل بمدن العراق الرئيسة بطرق برية ومائية • فعبر هذه الطرق صدرت منتجات البصرة ، وعبرها ايضا جلبت الغلال من مدن عراقية اخرى • كما ان الموقع الجغرافي الخاص لمدينة البصرة جعلها محطة لنزول القوافل العربية المتجهة في طريقها الى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية • وبمرور الزمن اصبحت البصرة ثغرا تجاريا هاما ، وبخاصة في مجال التجارة الخارجية مع الهند والشرق •

وعن طريق مرسى البصرة والأبلة وردت سلع تجارية متنوعة من منطقة الخليج العربي والهند وجنوب شرق آسيا والصين ، وجنوب شرق افريقية • وكان كثير من تجار المدن يقصدون البصرة والأبلة لجلب انواع السلع ليتجروا بها في بلدانهم •

وكان التمر ايضا عنصرا اساسيا في تجارة مدينة الكوفة ، اذ كان للتمارين سوق خاص في هذه المدينة . وصدرت الكوفة الى سائر مدن العراق الوشي والخز والفاكهة والزيوت المستخرجة من بذور القطن والكتان والسمسم . وكان للزياتين سوق كبير قرب قصر امارة الكوفة . كما زودت الكوفة مدنا عراقية اخرى ، وبخاصة بغداد بكميات كبيرة من مواد الطعام . ففي سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م صدرت الكوفة نحو خمسمائة كر من الحبوب (الكر : مكيال بابلي الاصل ، كان يساوي في العراق ستين قفيزا)

واشتهرت مدينة الحيرة بتجارة الفواكه والرياحين . في حين راجت في ميسان تجارة الانماط والوسائد . كما اشتهرت مدينة واسط بتجارة البسط والستائر والاقمشة الثمينة التي صدرتها الى عدة مدن عراقية . وانتجت واسط ايضا كثير من الغلال الزراعية مثل الشعير والرز والسمسم ، فصدرت قسما منها الى مدن عراقية اخرى . كما انتجت مدينة كسكر كميات كبيرة من القمح فزودت به بعض أسواق مدن العراق .

واعتمدت مدن عراقية كثيرة على ما كانت تنتجه منطقة الموصل من مواد غذائية مثل القمح والدقيق والشعير وغيرها . فلدينا اشارات الى ان سفنا وزوارق تجارية محملة بالقمح والشعير والدقيق والثياب ، والعسل والشحم ، والستائر والقير والسكاكين ، والسلاسل ، وثياب الصوف ، والفواكه المقددة ، والموازين ، صدرت من مدينة الموصل الى سامراء وبغداد ومدن عراقية اخرى كما صدرت مدينة الموصل الاخشاب وانواع من الاقمشة الى كثير من مدن العراق . وصدرت مدن الجزيرة الفراتية الصابون والزيت والموازين والعسل والسمن والخيل الجياد والزبيب .

وخرجت من مدينة بغداد قوافل تجارية محملة بالبضائع المتعددة الى بعض مدن العراق . وربما صدر قسم من هذه البضائع الى اقاليم الدولة

الاخرى ، أو ربما صدرت الى دول اخرى • واشتملت السلع التي صدرت من بغداد على المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية التي راجت في عاصمة الخلافة العباسية ، كصناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة ، والاقمشة القطنية والصوفية ، والعمائم الرقيقة ، والازر والمناديل بأنواعها ، والثياب العتابية المشهورة التي كانت تحاك من خيوط القطن والحرير • والصابون والدهون والمعاجين والادوية والعطور وماء الزعفران ، وماء السوس ، وشراب العنب، والورق الذي انشىء له مصنع خاص في بغداد منذ عهد الخليفة هارون الرشيد • كما صدرت بغداد القاشاني الى بعض اقاليم الدولة لأستعماله في بناء المساجد ، والادوات الزجاجية • وقد شاهد الرحالون العرب في الكعبة قناديل من الزجاج العراقي تزينها نقوش جميلة •

وتشير الروايات التاريخية الى أن عددا من تجار بغداد خرجوا بتجاراتهم الى مدينة واسط والكوفة والبصرة وغيرها من المدن• كما خرجوا الى الاقاليم الشرقية من الدولة ، حيث وصل تجار بغداد بتجارتهم الى المدن المطلة على سواحل بحر قزوين • ومما فتح المجال امام التجار العراقيين بأن يتوسعوا في تجارتهم ، وجود جاليات عراقية في بعض اقاليم الدولة • مثل مدينة سمرقند ، وبلاد ماوراء النهر ، والهند ، والصين ، والقسطنطينية • وبلا ريب ، فأن هذه الجاليات كانت تمد يد العون والمساعدة للتجار العراقيين الذين يفدون الى تلك المناطق • وتشير النصوص الى وجود تجار عراقيين كانوا يقيمون في مصر ، وكان بعضهم وكلاء لتجار بغداد •

ب ـ اسلوب التعامل في الاسواق :

الدرهم والدينار ، هما النقدان الاساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل والتقدير في جميع اسواق المدن العراقية ، وعلى اساسهما حددت اقيام السلع المعروضة في الاسواق • وان الدولة ضربت من هذين النقدين الكميات اللازمة لتنشيط التعامل التجاري في الاسواق لكن

الملاحظ ان التعامل بالدينار الذهبي بأسواق المدن كان انشط من التعامل بالدرهم الفضي ، كما ان الدولة كانت تفضل ان ترد اليها الاموال بالدينار ، في حين كانت ترغب ان يكون ما يخرج من بيت المال من اعطيات بالدراهم الفضية . وبناء على ذلك اصبحت رغبة التجار منصبة على قبول العملة الذهبية .

ومن المؤكد ان التعامل كان يجري في اسواق مدن العراق بجميع انواع النقود التي ضربت في اقاليم الدولة العربية الاسلامية ، لاسيما بعد ان اصبح العراق مركز هذه الدولة ابان العصر العباسي ذلك ان وحدات هذه النقود كان يرد منها الى حاضرة الخلافة سنويا كميات كبيرة عن طريق الضرائب المختلفة كالخراج ، والاعشار ، والمكوس ، والزكاة ، والضمانات ، وما ينقله التجار والمسافرين ، وما الى ذلك . فعن هذه الطرق وغيرها كانت تصب النقود في اسواق العاصمة . ومنها الى بقية المدن ، ويجري التعامل بها ، بفئاتها المختلفة . ولدينا كثير من الروايات التاريخية التي تشير الى ان نقودا ضربت في عواصم الاقاليم التي كانت تتكون منها الدولة ، وأن هذه النقود كانت مقبولة لدى تجار مدن العراق ، مادامت محتفظة بالوزن الشرعي .

وشهد نظام التعامل بأسواق مدن العراق ظاهرة اخرى ، هي انه اذا كانت نقود التعامل غير كاملة الوزن الشرعي ، سواء كانت دنانير او دراهم ولا تتمشى مع حساب الوزن الشرعي فانها لا تقبل الا وزنا لذا صرنا نعثر احيانا على نصوص تشير الى معاملات تجارية كانت تجري على اساس مقدار وزن النقود .

ولتسهيل التعامل التجاري بالنقود من جهة ضربت قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار والدرهم منذ العصر الاموي ، واستمرت هذه الحال خلال العصر العباسي .

والى جانب التعامل بالنقود في اسواق مدن العراق ، جرى التعامل بأنواع اخرى من البيوع ، مثل البيع المطلق ، وهو بيع العين بالثمن ولعل هذا

النوع من البيوع هو اكثر انواع البيوع شيوعا في مدن العراق . وهذا لا يعني ان بيع المقايضة لم يكن سائدا ، لاسيما عند سكان الارياف . كما وجد « بيع المستدين » اي شراء سلعة ما من صاحبها ، سبق له ان اشتراها قبل قليل من الدائن بسعر اعلى لكن لأجل . ثم بيع « السلم » ، اي بيع الدين بالعين . و « الصرف » وهو يعني بيع الثمن بالثمن ثم بيع (المرابحة)، الذي يعني البيع بالثمن مع زيادة يتفق عليها كل من البائع والمشتري . واخيرا البيع « بالوضيعة » ، اي البيع بالنقصان عن القيمة الاصلية . ان كل هذه الانواع من البيوع جرى التعامل بها في اسواق مدن العراق وقراه ، ولكن ليس بالضرورة انها كانت سائرة على وتيرة واحدة في جميع المدن كبيرها وصغيرها .

وتشير الروايات التاريخية الموثقة الى توافر الثقة بين الباعة في اسواق المدن العراقية وبين زبائنهم . وان نظام التعامل بينهم كان يتم دون أخذ مستندات مالية مكتوبة في اغلب الاحيان ، الامر الذي سهل عملية التبادل التجاري بينهم . وفي بعض الاحيان كان البائع يكتفي بأخذ رهن يفي بمقدار الدين ، او يزيد عليه قليلا ، ويحفظه عنده لحين استرداد المبلغ المستلف .

واستكمالا لدراسة نظم التعامل في الاسواق ، لابد من القاء نظرة سريعة على وحدات الوزن والكيل المستعملة فيها . وقد تنوعت وحدات الكيل في اسواق مدن العراق . ولعل ابرزها « الصاع » الذي يرى « البخاري ٢/٢٣ » انه يساوي ثمانية ارطال بغدادية . ثم الجريب الذي يمكن تحديده بـ (٢٩٫٥ لتر) ، ثم « الكيلجة » التي كانت خمسة ارطال ، ثم « الكر » ، وهو مكيال بابلي الاصل ، كان يساوي في بغداد والكوفة ستين قفيزا ، اي حوالي (١٤٤٠ كيلجة) أو (١٥٠٠ رطل) (الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٧٦) . اما القفيز فقد استعمل في الاسواق كوحدة كيل ايضا ، وهو يساوي (٢٤ كيلجة) ، اي حوالي ٤٥ كغم

(الماوردي ص ١٥٠) . كما استعمل « المكوك » كمكيال في اسواق العراق، وهو صاع ونصف وان متوسط سعة المكوك (٧ر٥ لتر) .

وعلى نطاق واسع استعمل « المد » كمكيال عند أهل العراق ، ومقداره رطلان ، أو ملء كفي الانسان المعتدل اذا ملأهما ومد يده بهما . وبه سمي مدا . كما استعمل في اسواق العراق الرطل الذي كان يساوي (١٢ أوقية). وخلال قيام الدولة العباسية شاع استعمال « الرطل البغدادي » ، وهو الرطل الشرعي حينذاك ، وكان يساوي حوالي (٢٥ر٤٦ غراما) ، ثم استعمل « القنطار » الذي كان يساوي من الاساس (١٠٠ رطل) كما شاع في الاسواق استعمال « القيراط » الذي كان يساوي ١/٢٠ من المثقال ، وهو شرعا يساوي خمس حبات . ثم استعمل « المن » الذي كان يساوي رطلين . وتعامل اهل العراق بـ « الكارة » ، وكانت تساوي قفيزين أو ١٦ مكوكا . ثم الاوقية التي كان وزنها يساوي ١/١٢ من الرطل . واخيرا الحبة ، ووزنها بقدر وزن حبة الشعير العربية . وبمقتضى السنة الشرعية تساوي الحبة ١/ ١٠٠ من المثقال .

وتأتي الذراع في مقدمة وحدات قياس الطول التي استعملت في مدن العراق . وترد في الروايات التاريخية سبعة انواع من الاذرع . وتأتي في مقدمتها الذراع « العمرية » ، نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، وهي التي مسح بها ارض السواد ، وتساوي (٨ر٧٢ سم) . اما اكثر الاذرع شيوعا في اسواق مدن العراق فهي الذراع « السوداء » . وأول من وضعها الخليفة هارون الرشيد ، قدرها بذراع خادم اسود كان يقف عادة على رأس الخليفة ، وهي التي تعامل بها الناس في ذرع البز والتجارة ثم الذراع « القاضية » التي تقل عن الذراع السوداء باصبع وثلثي الاصبع . واول من وضعها (ابن ابي ليلى القاضي) . ثم الذراع « اليوسفية » نسبة الى واضعها القاضي ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم . ويقدر طولها بحوالي (٥٥ر٥٢ سم) ثم الذراع « الهاشمية الصغرى » ، وهي البلالية ، وسميت

بهذا الاسم نسبة الى بلال بن ابي بردة قاضي البصرة • وكانت تزيد على الذراع السوداء باصبعين وثلثي اصبع ثم « الهاشمية الكبرى » ، وهي الزيادية ، وسميت كذلك لان زياد بن ابيه مسح بها ارض السواد، واستعملها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور ، وهي اطول من السوداء بخمسة اصابع وثلثي اصبع • واخيرا الذراع التي استعملها الخليفة المأمون والتي سميت « الميزانية » ، وكانت تساوى بالذراع السوداء ذراعين وثلثي اصبع (الماوردي ص ١٤٧) •

٥ ـ النظـام النقـدي :

أ ـ الدرهـم والدينـار :

ارتكز النظام النقدي في المدن العراقية ابان قيام الدولة العربية الاسلامية على الدرهم والدينار • وهما النقدان الاساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل وتقدير قيم السلع في جميع اسواق مدن العراق ، وعلى اساسهما حددت بعض الواجبات الشرعية •

ومنذ أن تم تحرير العراق ، ابقت الدولة النقود القديمة التي كانت رائجة في الاسواق ، الا أن الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رض) رأى ان الدراهم المتداولة مختلفة الاوزان ، فلما احتيج في الاسلام الى تقدير الزكاة اخذ الوسط ، فجعل وزن الدرهم الشرعي ستة دوانيق ، أي اربعة عشر قيراطا ، وكل عشرة دراهم تساوى سبعة مثاقيل • ونقش على بعضها « الحمد لله » ، وعلى الآخر « محمد رسول الله » ، وفي بعضها « لا اله لا الله وحده » • ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله اكبر » ، وكذلك فعل الامام علي بن ابي طالب • ونقل عن معاوية بن ابي سفيان انه سك في خلافته دراهم ودنانير • ومن المرجح ان هذه الانواع من النقود قد تداولت في مدن العراق •

وابان قيام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب اخوه مصعب ابن الزبير دراهم بالعراق سنة ٧٠ هـ / ٦٩٠ م وعليها لفظة « بركة » في جانب ، ولفظ الجلالة « الله » في الجانب الآخر . وظل التعامل بها جاريا حتى ابطله الحجاج عند اصلاح تعريب النقود ، وقيل ان مصعب ضرب مع الدراهم دنانير ايضا .

ب ـ عملية تعريب النقود :

وبعد أن استقر الامر للامويين الذين وقعوا تحت تأثيرات قومية ، ودوافع دينية ضاغطة ، عندئذ رأوا ضرورة سك عملة جديدة ، فضية وذهبية، خالية من الشارات الاجنبية . وتتفق اغلب الروايات وأوثقها على ان الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان (٦٥ ـــ ٨٦ هـ) هو الذي ضرب الدنانير العربية بشكلها المتميز تماما عن النقود الاجنبية . اما الدراهم فقد تولى عملية تعريبها والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٥هـ / ٦٩٤ م ، ثم أمر بضربها في بعض اقاليم المشرق سنة ست وسبعين للهجرة ، فعد عمله هذا اصلاحا جذريا حاسما ، اذ حدد عيارا ثابتا للدراهم ، جاعلا حق اصدارها مقصورا على دور الضرب الحكومية المعتمدة ، وأن كان « أذن للتجار وغيرهم ان يضربوا بها النقود لحسابهم » نظير اجرة قدرت بواحد في المائة . وساد اعتقاد مفاده ان الدراهم الجياد هي التي كانت تضرب في دور الضرب الحكومية ، اذ هي مستوفية الشروط اللازمة اكثر من غيرها . وسحب الحجاج الدراهم القديمة التي كان يجرى التعامل بها ودفعها الى دور الضرب لاعادة سكها من جديد طبقا لمواصفات الشكل العربي الاسلامي الجديد .

ونستطيع ان نجزم ان والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، هو اول من أوجد الدرهم العربي الاسلامي بخصائصه المميزة ، وكتب لعمله هذا الاستمرار والبقاء ، وكان لهذا العمل شأن في ارضاء الشعور الديني والقومي.

وينقل (الماوردي ص ١٥٤) روايــة يحيى بن النعمان الغفــاري التي تؤكد ان الحجاج ضرب الدراهم وكتب في جانــب منها « بســم الله » ، وفي جانب آخر « الحجاج » • وبذلك يكون الحجاج اول وال في الدولة العربية الاسلامية يكتب اسمه على الدراهم • وقد بقيت الدراهم التي ضربها الحجاج بالعراق معمولا بها حتى نهاية خلافة عمر بن عبدالعزيز ، ذلــك ان الدراهم الجديدة غطت حاجة المعاملات الجارية في الاسواق من قبل المتعاملين في قطاع التبادل النقدي الذي توسع على حساب المقايضة العينية •

ولما تقلد عمر بن هبيرة ولاية العراق في ايام يزيد بن عبدالملك ، ضرب الدارهم اجود مما كانــت عليــه ، فخلص الفضــة أبلــغ تخليص ، وجوّد الدراهم ، واشتد في العيــار ، وسميت النقود باسمه • ثم ولي بعــده خالد ابن عبدالله القسري، فشدد في تجويدها ، وضرب بعده يوسف بن عمر الثقفي، فأفرط في التشديد فيهــا ، « فكانت الهبيرية ، والخالدية ، واليوسفية ، اجود نقــود بني اميــة ، ولــم يكن ـ الخليفة العباســي ـ المنصــور ، يقبل في الخراج من نقود بني امية غيرها » • وكان ولاة العراق هؤلاء ، قــد وضعوا اسماءهم على الدراهم التي سكوهــا • ومن هنا نلمس ان هؤلاء الــولاة تمتعوا بهذا الحق ، وأن نقودهم جرى التعامل بها في اقاليم اخرى من الدولة

ومن هنا يمكننا ان ندرك ابعاد خطوة ولاة العــراق هــذه ، وعندئذ يتضح امامنا عمق الاصالة المبدعة التي تمت في العراق في هذا المجال • ذلك ان هذا الانجاز الكبير جدير بالاعجاب ، لاسيما اذا ادركنا الظروف الزمانية التي انبثق عنها •

واستهل العباسيون حكمهم بأن نقلوا دار ضــرب النقود الى الانبار ، وأصبح يضرب في مــدن العراق الدنانير بجانــب الدراهــم • وأن الخليفة العباسي الاول انقص وزن الدرهم المتداول في الاسواق حبة ، ثم ما لبث ان انقصه حبة اخرى • ويبدو ان وراء اجراء الخليفة هــذا اعتبارات اقتصادية

املتها ظروف الدولة الجديدة على الخليفة الاول . ولا بد أن يكون الخليفة قد استهدف من اجراءاته هذه التخفيف عن كاهل الشعب ، وأن يستن سنة صالحة ، بدليل ان الخليفة الثاني ابا جعفر المنصور ، هو الآخر أقدم على انقاص وزن الدرهم حبة اخرى .

لم يطرأ تعديل جوهري على الدينار العربي الاسلامي ، خاصة في عهد الخليفة ابي العباس . الا أن العباسيين نقشوا آية جديدة على الدينار تشير الى حقهم في الخلافة وقرابتهم من الرسول (ص) ، وكان الهدف من وراء ذلك حقوق العباسيين التي كانوا يطالبون بها ، اذ وضعوا « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » .

وظلت العملة المتداولة في اسواق مدن العراق على هذه الحال حتى تقلد المهدي الخلافة فضرب سكة مدورة فيها نقطة . والخليفة المهدي هو اول خليفة عباسي ظهر اسمه على الدراهم . في حين كان الامين اول خليفة عباسي ذكر اسمه على العملة الذهبية .

ونستطيع ان نتلمس اهتمام الدولة بالنظام النقدي من ان الخلفاء انفسهم كانوا يشرفون بصورة مباشرة على دور الضرب لكي يتحققوا من ضبط وزن النقود ، وليبعدوا عنها احتمالات الغش والتزييف . لكن الخليفة هارون الرشيد صير هذه المهمة الخطيرة الى من كان يثق به . ولم تفصح المصادر عن دوافع هذا التطور الجذري في نظام ضرب النقود . الا انني ارجح ان مشاغل الخليفة الرشيد الكثيرة وطبيعة الظروف التي كانت تحتم عليه قضاء فترة طويلة خارج العاصمة ، حالت دون اشرافه بنفسه على السكة، فنهج نهجا لا مركزيا في الحكم ، واعطى الولاة مزيدا من السلطة .

وظهرت في اسواق مدن العراق دراهم ودنانير تقدر بأكثر من قيمة نظائرها من النقود العادية المتبادلة في الاسواق . وربما لم يكن الغرض الاساس من ضربها استعمالها في البيع والشراء ، وانما ضربت لمناسبات خاصة

فسميت نقود الصلات • (مسكويه ١/٤٢) • ففي عهد الرشيد ضربت دنانير زنة كل دينار منها مئة مثقال ، كانت تسمى « دنانير الصلة » • أو «دنانير الخريطة » ، مكتوب على كل دينار من : « ضرب الحسنى لخريطة امير المؤمنين » • وهذه الدنانير هي التي ينعم منها الخليفة على بعض المقربين • وكان (قدامة بن جعفر ص ٦٠) قد اثنى على الدنانير المضروبة في ايام الخليفة هارون الرشيد والمأمون والواثق بالله ، حيث اتخذت فيما بعد معيارا لدور الضرب في تحديد نسبة نقاوة المعدن الثمين فيها •

وكانت « قبيحة » أم المعتز (٢٥١ ـ ٢٥٥ هـ) قد تقدمت بضرب دراهم مكتوب عليها « بركة من الله لا عذار أبي عبدالله المعتز بالله » ، فضرب منها مليون درهم لتنثر بمناسبة ختان ابنها • وفي سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥م ضربت دراهم ذات فئة خاصة لأجل أن تهديها قطر الندى الى زوجها المعتضد بالله ، وكل درهم من هذه الدراهم يساوي ثلاثة دراهم عادية • وبلا ريب ، فأن هذه الدراهم والدنانير كان يجرى التعامل بها في الاسواق ، وفي هذه الحال كان البائع والمشتري يلجآن الى الصرافين لتبديلها بنقود عادية ، أو استعمال الوزن في حالة التعامل بها •

ولما اصبح الحسن بن عبدالله الحمداني أمير الامراء ولقب ناصر الدولة عام ٣٣٠ هـ /٩٤١ م صار معنياً بأمور النقود ، وجرت بينه وبين الصيارفة بمدينة السلام خطوب كثيرة ، فأمر بتصفية الذهب والفضة لكي يصنع منهما الدنانير والدراهم الخالصة من الشوائب والمكتملة الوزن ، وسميت دنانيره بـ « الابريزية » ، وكان هذا الاجراء أجل منقبة لآل حمدان تفرد بها ناصر الدولة •

وبعد أن تغلب احمد بن بويه على بغداد عام ٣٣٤ هـ /٩٤٥ م ، كان يشعر بالاهمية الكبرى التي تأتيه من جراء وجود لقبه على الدنانير والدراهم، لان ذلك قد يسبغ على مركزه شرعية كان بأمس الحاجة اليها •

ومعلوم ان اسواق المدن العراقية كانت تتعامل بنظام نقدي مزدوج ، فهي تتعامل بالدينار والدراهم معا • ويمكن ان يحول احدهما الى النوع الآخر بحسب سعر الصرف السائد في السوق الذي تحدده الاحوال التجارية، دون تدخل الحكومة • وتدل قوائم الخراج الرسمية على ان الدولة كانت تقبل مبالغ الخراج بأي من النقدين • وكان بأستطاعة المواطنين ان يبيعوا دراهم للصرافين بدنانير جديدة حسان •

غير أن هذا لا يعني أن سعر الصرف كان ثابتا ، وانما كان يتعرض لتقلبات السوق • وهذا شيء طبيعي فالدينار بعد ان كان مساويا لعشرة دراهم في اسواق مدن العراق في صدر الاسلام ، صار في النصف الثاني من القرن الاول الهجري يساوي اثني عشر درهما • وفي العصر العباسي وصل الى ثلاثة عشر درهما ، ثم الى اربعة عشر درهما او اكثر • وقد اعترف الشرع بجباية الزكاة بالنقدين •

الا انه من الملاحظ ان الاقبال على التعامل بالدينار الذهبي بأسواق المدن كان انشط من التعامل بالدرهم الفضي ، لأن رغبة التجار منصبة على قبول العملة الذهبية ، لأن طبيعة هذا المعدن الثمين تتحمل الخزن اكثر من نظيره الفضة •

ومن القراءات المتأنية للنصوص ، تتلمس روايات تشير الى ان نقودا ضربت في عواصم الاقاليم التي تتكون منها الدولة العباسية ، ومع ذلك جرى التعامل بها في اسواق العراق ، لأنها كانت محتفظة بالوزن الشرعي ، اذ نقلها التجار والمسافرون ، او وردت الى بيت مال العامة الموجود في العراق حينذاك كضرائب •

وشهد النظام النقدي ، دراهم « بهرجة » ، وهي التي تكثر فيها نسبة المعدن الرخيص لانها لم تضرب بدار الضرب الحكومية • فهي والحالة هذه لا تلقي اقبالا كبيرا في تعامل الناس بها •

والحق ان النقود الذهبية التي ضربت من قبل الخليفة ، أو سكها قواد وأمراء الاقاليم ، لم تختلف في طرازها العام عن النقود الحكومية • كما ان الخليفة كان يعمد الى ابطال التعامل بالنقود التي ضربت دون موافقته •

ولتسهيل التعامل التجاري من جهة ، وللوفاء بالالتزامات الضرائبية من جهة اخرى ، اقتضى النظام النقدي ضرب قطع نقدية تمثل اجزاء الدينار والدراهم منذ العصر الاموي ، واستمرت على هذه الحال خلال العصر العباسي •

وشهد النظام النقدي ظاهرة اخرى ، هي انه اذا كانت نقود التعامل غير كاملة الوزن ، سواء كانت دنانير او دراهم ، ولا تتمشى مع حساب الوزن الشرعي ، فأنها لا تقبل الا وزنا • وبذلك صرنا نعثر احيانا على معاملات تجارية كانت تجري على اساس مقدار وزن النقود •

جـ ـ دور ضرب النقود :

لقد اهتمت الدولة العربية الاسلامية بأقامة دور الضرب في المدن الكبرى والأمصار ، ومنها العراق • واصبحت دور الضرب هذه تؤدي خدمات جليلة لا تقل شأنا عما تؤديه مصارف الاصدار في الوقت الحاضر • فهي التي كانت تضرب الكميات اللازمة من النقود الجارية في التعامل حينذاك ، واللازمة لتنشيط التجارة ، وهي التي تزيد في نتاجها او تقلل منه حسب حاجة السوق المحلية •

ونظرا لأهمية دور الضرب هذه اصبحت ادارتها من الوظائف الدينية الشرعية التي تندرج تحت لواء الخلافة • وافردت الدولة ديوانا خاصا للنقد ودور الضرب • وخصص لهذه الدور عامل مهمته النظر في أمر النقود التي يتعامل بها الناس ، وحفظها مما قد يداخلها من الغش والتزييف •

وكانت دور الضرب تشكل موردا هاما من موارد بيت المال ، لأنهــا تقوم بسك ما يقدمه الافراد اليها من سبائك طبقا للوزن المقرر نظير تقاضي رسوم معينة • وبلغت واردات الدولة من دور الضرب بمدينــة الســلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة فقط (٦٠٣٧٠ دينارا) كما جاء في الميزانية التي اعدها علي بن عيسى سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م •

وكانت اعمال الادارة في دار الضرب موكلة الى شخص يسمى « متولي دار الضرب » • وكان الاشراف الرسمي للقاضي • ولعل السبب في ذلــك ضمان شرعية النقود التي تصدر عن دار السكة ، سواء من حيث جــواز العيار ، أو الوزن • اما متولي دار الضرب فكانت له السلطة المباشرة علــى العمال في الدار ، وهو والحالة هذه لم يكن وجوده يتعارض مــع اشــراف القاضي من الوجهة الادارية •

وهناك ايضا (المشارف) ، الموكل اليه حفظ جميع المحتويات من فضة وذهب ، وسكك ، وآلات ، ومنهــا الصبنج والعيار وختم الاقداح ، وتحرير وزن عيار الذهب والفضة • وكذلك (الشــاهد) الــذي يشــهد علــى جميــع ما حوت الــدار •

اما المقدم فهو أهم شخصية فنية بدار الضرب موكول اليه حفظ عيــار الذهب وسبائكه التي ترد الى دار الضرب • ويوجد (النقاش) ، ومهمتــه نقش السكة ،اي حفر الكتابات المزمع ابرازها على النقود • ويحضر السباك وزن المعدن قبل طرحه في البودقة في حالة السبك • ويتولى الضــرب على الســبيكة ، والختم علــى الســكة •

٦ ـ النظــــام المصــــرفي :

الصيرفة ، من الانظمة المالية التي واكبت نشأة المدن العراقية وتوسعها، كما واكبت النشاط الاقتصادي والتجاري والمالي في اسواق المدن •

ومعروف أن النقود ضربت من المعادن الثمينة ، الفضة والذهب • وتتيجة لندرة هذين المعدنين ، ومحدودية مناجمهما في العالم ، وتزايد الاقبال العالمي على اقتنائهما ، نجد أن النقود التي ضربت منهما قد تعرضت الى انواع شتى من الغش ، والتدليس ، والتزييف سواء في وزنها ، أو في نسبة نقاوة المعدن الجيد المضروبة منه • ازاء هذا الامر يقوم الصيرفي بمهمة اجراء التفاضل بينها لتحديد درجة جودتها وزنا ونقاوة •

وتشير الروايات التاريخية الى وجود صرافين في اسواق مدينة الحيرة قبيل تحرير العراق من قبل الجيوش العربية الاسلامية • وبعد أن مصرت البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامراء ، كان للصرافين في اسواقها دكاكين معينة ، مارسوا فيها عملهم المصرفي •

ا ـ بيت المـال ودوره في عمليـات الاقتراض :

ومنذ قيام الدولة العربية الاسلامية ، نشطت الحركة التجارية ، ومارسها عدد كبير من الناس في المدن العراقية • وقسم من هؤلاء كان ذا ثراء كبير وواضح ، فأستطاع أن يسير أعماله التجارية بما يملكه من اموال كافية • وقد وجد بجانب هذا الفريق الثري ، عدد قليل ممن لايمتلكون رؤوس اموال كافية لممارسة النشاط التجاري الذي أخذ يدر على اصحابه موارد مالية مجزية •

اتجه المقرضون الى وجهتين ، الاولى : الى الاغنياء أو الموسرين الذين كانت لديهم اموال طائلة لا يستطيعون استثمارها جميعا بأنفسهم ، فأقرضوا من شاء الاقتراض ومزجوا الاقتراض بالتجارة ، فاشتركوا مع المقترضين بتجارتهم ، وبذلك ضمنوا نصيبا من الربح عن اموالهم الموظفة دون أن يكونوا قد خالفوا النصوص الشرعية • في حين اتجه القسم الآخر الى الاقتراض من بيت المال الذي يمكن ان نعده بمثابة « بنك الدولة » الذي يقوم بتسلم الواردات التي تأتيه من جبايات الضرائب ، ودفع النفقات

التي تتطلبها مرافق الدولة ، مع الاحتفاظ بمبلغ احتياطي لمجابهة الاحوال الطارئة . فعلى سبيل المثال كان مقدار الاحتياطي في بيت مال البصرة ابان واقعة الجمل ستمائة الف درهم (الطبري ١ / ٣٢٢٧) ثم ارتفع في نهاية خلافة الامام علي بن أبي طالب (رض) الى ثمانية ملايين درهم (اليعقوبي ٢٤٣/٢) . في حين كان الاحتياطي في بيت مال الكوفة عند قيام حركة المختار الثقفي حوالي ثمانية ملايين درهم .

وبيت المال سواء كان في البصرة والكوفة ، أو واسط ، او بغداد ، فيما كانت له موارد غزيرة تصب فيه ، تأتي في مقدمتها الاموال التي كانت تجبى من اراضي الخراج التي شكلت نسبة عالية من موارد بيت المال . ذلك ان (الماوردي ص١٧٥) ذكر ان وارد سواد العراق فقط في زمن الخليفة عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم ، وجبى والي العراق عبيدالله بن زياد مائة ألف ألف وخمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وكان وارده خلال ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف . في حين كانت جباية سواد العراق في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف . كما شكلت موارد الجزية موردا آخر لبيت المال في مدن العراق . ففي رواية (لابي يوسف ص١٢٨) ، انه كان بالعراق خمسمائة ألف ممن يدفعون الجزية التي قدرت بثمانية وأربعين درهما على الاغنياء والموسرين ، واربعة وعشرين درهما على متوسطي الحال ، واثني عشر درهما على مادون ذلك . كما شكلت عشور التجارة ، وعشور الزرع موردا آخر من موارد بيت المال . هذا فضلا عن زكاة الاموال من الفضة والذهب والاغنام والأبل وبقية الحيوانات . كل هذه المواد كانت تصب في بيت المال في المدن العراقية الرئيسة . وأن قسما منها تخرج في وجوه الانفاق المتعددة . ومع ذلك يبقى خزين في بيت المال يمكن الاستفاد منه في مجالات استثمارية اخرى .

والنظام المالي اباح لأمير الاقليم الاستفادة من بعض الخزين في بيت المال لأغراضه الخاصة ، ولتمشية اعماله التجارية والمالية ، كما فعل عبيد ابن عامر ، وزياد بن ابي سفيان •

وكان عبدالله بن مسعود مسؤول بيت مال الكوفة اقرض أحد المواطنين مالا من بيت المال ، كما قام بيت المال بعمليات التحويل التجاري للذين يتاجرون بين اقاليم الدولة ، فسهل معاملاتهم التجارية والمالية • فلدينا اشارة الى ان عبيدالله بن عمر قد اقترض مبلغا من بيت مال البصرة ايام الوالي ابي موسى الاشعري ، اشترى به بضاعة اخذها الى الحجاز للمتاجرة ، وبعد ان صرفها في السوق هناك دفع المبلغ الذي اقترضه الى بيت مال الحجاز • كما قام بيت المال بوظيفة اخرى هي التعامل بالنقد ، فقد كان يبيع النقود الزائفة والممسوحة •

وقام بيت مال مدينة واسط في زمن الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي بدور بنك التسليف الزراعي ، فاقرض الفلاحين هناك مليوني درهم لتخفيف الضائقة المالية التي كانوا يعانونها • وأشار (ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٢٠) الى المساعدات المالية التي قدمت لمزارعي العراق في خلافة عمر بن عبدالعزيز الذي كان يدعو الى تقديمها بأستمرار لانها تقوي من قدرة وقابلية الفلاح في استثمار أرضه ، وتحقيق الاستمرارية في زيادة انتاجية الارض ، حيث كتب الى عامله في العراق : « ان انظر من كانت عليه جزية فضعف عن ارضه فأسلفه ما يتقوى به على عمل ارضه ، فأنا لا نريدهم لعام ولا لعامين » •

ومن اجل المحافظة على استمرارية انتاجية الارض ، قدم الخليفة المتوكل على الله قرضا مقداره عشرة آلاف دينار الى مزارعي منطقة (باسورين) في الموصل • وقدمت عشرة آلاف اخرى في خلافة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ) لفلاحي (الصلح والمبارك) في المنطقة الممتدة بين واسط والبصرة • وقد اعطت هذه القروض مردودات ايجابية ، حيث عملت على

ورفع معنوية الفلاحين ، وضاعفت من عنايتهم بأراضيهم . اذ كانت هـذه الاموال تعينهم على توفير المستلزمات الزراعية الضرورية ، كالبذور ومتطلبات الحراثـة والسـقي وغيرهـا .

وأشار (الصابي ، الوزراء ص ٣٦٤) الى سياسة الدعم التي سـار عليها وزير الخليفة المقتدر باللـه (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) علي بن عيسى التـي ابتغى من ورائها اعتماد سياسة زراعية تؤدي الى زيادة الانتـاج ، دعمـا لأقتصاد الدولة ، وتحقيقا لمبدأ العدالة اذ كتب الى عامله في الصلح والمبارك بتقديم الاموال لاصحاب الحاجة من المزارعين كي يستطيعوا شراء البذور ولوازمهم الاخرى . وليست لدينا اية اشارة الى ان بيت مال الاقاليم ، أو المركزي أخذ فائدة من هؤلاء المقترضين . والراجح انه كان يكتفي بتسلـم المبلغ نفسه الذي سبق أن دفعه الى المقترض .

ولم يكن الاقتراض مقصوراً على رجال الدولة والتجار والمزارعـين فقط ، اذ قد يلجأ اليه افراد من عامة الناس ، او من الجند من اهل العطاء، خاصة عندما لا يدفع لهم العطاء في الوقت المحدد . واحيانا عندما لا يكفيهم هـذا العطـاء لسـد حاجاتهم المعاشـية .

وتعاملت بيوت الاموال في مدن العراق الرئيسة مع متقبلي الضرائب (الدهاقين) الذين كانوا يجمعونها من مزارعي المقاطعات ، ويدفعونها الـى مسؤول بيت المال بثلاثة اقساط . اذ كان على كل واحد من هؤلاء المتقبلين أن يدفع لبيت مال المصر ثلث وارد المصر كل اربعة اشهر بصورة منتظمة .

ومعلوم أن امصار العراق الرئيسة كانت تدفع سنويا مبلغا يتراوح بين مائتين وخمسين الف الى عشرة ملايين درهم (قدامة ، الخراج ، ص ٢٣٧)، وعندئذ يتحتم على كل واحد من هؤلاء المتقبلين ان يكون تحت تصرفه مبالغ كافية لسد هذه الاقساط في مواعيدها المحددة . ومـن المحتمل أن بعض المتقبلين لم يمتلك ما يكفيه للايفاء بهذه المتطلبات ، وحينئذ يضـطر الـى

الاقتراض ، أو يكون مع غيره شركة كي يستطيع سداد ما سبق أن تعهد به من التزامات مالية . ومن جانب آخر قد لا تتوافر لدى دافعي الضرائب المبالغ اللازمة التي يتحتم عليهم دفعها ، فينبري هؤلاء المتقبلون لاقراضهم النقود لكي يمكنوهم من دفع مابذمتهم من ضرائب . ومن المحتمل أن المتقبلين يجنون من ذلك ارباحا طيبة ، وان لم تكن دائما شرعية . ولعل خطوة والي واسط والخليفة المتوكل على الله في اقراض المزارعين من بيت المال كانت قد فوتت على هؤلاء المتقبلين فرصة في جني الارباح . وابان ولاية الحجاج على واسط ايضا اصبح بيت المال مسؤولا عن سك النقود الخاصة بالدولة ، كما أذن لمن لديه سبائك فضة بضرب نقود في دور الضرب الحكومية مقابل واحد في المائة ، الامر الذي زاد من اعمال بيت المال ، وجلب له ارباحا جمة .

ب ـ البنوك الخاصة :

وبجانب بيت المال ظهرت في المدن بنوك خاصة يمتلكها اصحاب الاموال الذين كانوا يوظفون اموالهم ، كلها او بعضها ، في الاعمال المالية والاقراض ، وكان نشاط هذه البنوك وسعة تعاملها يتوقفان الى حد كبير على ثروة صاحبها . وأن كان هؤلاء يقبلون احيانا الودائع التي يأخذونها من بعض الاغنياء ، كالقواد ، وكبار موظفي الدولة ، ممن لا خبرة لهم في الشؤون المالية وتنميتها . ومن الصعب تقدير رؤوس هذه البنوك وودائعها وديونها لأن المصادر لا تشير الى ثروات هؤلاء بدقة .

ومهما يكن فقد تولت هذه البنوك خلق الاعتماد واقراض النقود . ولما كان الربا محرما في الاسلام ، فأن كثيرا من المصادر اغفلت ذكر مقدار الفائدة أو تحديدها . وفي مجال آخر اضطر الاتقياء من اصحاب هذا النوع من البنوك الى مزج اعمالها بالتجارة ، فيبيعون المدينين بضاعة بسعر اعلى من سعر السوق السائد ، على أن يكون الدفع مؤجلا . والفرق بين سعر

السوق وسعر البيع هو في الحقيقة الفائدة على ثمن البضاعة عن المدة التي يؤخر فيها الدفع ، عن ثمن الشراء . ولكن بأمكان اهل الذمة الاقتراض بفائدة . ولدينا روايات تاريخية تشير الى نشـاط عمليـات الاقتـراض في البصرة والكوفة وغيرهما (ابن حنبل ٤/٢٠) ، كما لدينا معلومات عن بعض القروض ، فقد أورد (السكري ، المحبر ص ٣٤٢) أن (ابا دكين مولى مراد) اقرض عشيرته سبعمائة الف درهم .

نستطيع أن ندرك مدى ثراء البنوك الخاصة اذا ما علمنا أن طلحة بن عبيدالله كان يغل كل يوم من العراق ألف درهم . وكان لفيروز بـن الحصين مليونا درهم موظفة في البصرة (الطبري ٢/١٢٠) .

وقد يكتفي المقرض بثقته في المقترض ضمانا له ، وبذلك يتم الاقتراض دون أخذ مستندات مالية مكتوبة . وفي بعض الاحيان كان على المقتـرض أن يقدم كفيلا يكفله برد الدين في حالة امتناع ، أو عجـز ، المقترض عـن الدفع . وفي احيان اخرى يكتفي المقترض بأخذ رهن يفي بمقـدار القرض أو يزيد ، وله الحق في الانتفاع من هذا الرهن لمصالحه الخاصة . وهـذه المنفعة التي يجنيها المقرض من الرهن يمكن اعتبارها فائدة على القـرض المدفوع . واذا لم يستطع المقترض دفع القرض في الوقت المحدد ، فأن الدفع قد يمدد أجله ، أو قد يطلب من الكفيل أن يدفع عنه ، أو يلجـأ المقتـرض الى الحكومة لتحصيل قرضـه .

وقامت البنوع الخاصة ايضا باستعمال الصـكوك والحـوالات أو السفاتج التي بدورها نشطت الحياة الاقتصادية ، وسهلت الامـور الماليـة بين مدن العراق وبقية اقاليم الدولة الاخرى ، وكانت تجنى من ذلك فوائد ماليـة جيـدة .

وكان لبعض البنوك الخاصة في الاقاليم فروع في العراق ، حيث اورد (ابن سعد ٣/٧٦) أن بنك الزبير بن العوام الذي كان مركزه المدينة ، لـه

فروع في الكوفة والبصرة ، وانه كان يشغل بناية ضخمة ، قدر المسعودي (٤ / ٢٥٣) قيمتها في عهد معاوية بن ابي سفيان بمائة الف درهم . وذكر (السرخسي ١٤ / ٣٧) أن لعبدالله بن عباس فروع بنوك في الكوفة والبصرة ايضا .

وبلا ريب ، فأن البنوك اسهمت في تنشيط الحياة الاقتصادية ، لاسيما في مجال التبادل التجاري مع اقاليم الدولة . كما أن مدينة البصرة والموصل نشطت فيهما الاعمال المصرفية بحكم تعامل أهلهما مع تجار اجانب يمتلكون نقودا اجنبية ، والتي كان الصيارفة يتولون تقدير قيمها حسب قيمة ما فيها من معدن ، بصرف النظر عن السعر الرسمي لتلك النقود .

وقام الصرافون بدور الوسيط بين الشعب ودار الضرب الحكومية ، فكان عليهم أن يقدموا لدور الضرب السبائك التي يشترونها من الناس لضربها .

وقد تنعكس الحالة ، اذا قصرت واردات بيت المال عن سد النفقات ، فعندئذ تضطر الدولة الى الاستعانة بالمبالغ الاحتياطية المخزونة في بيت المال . فاذا لم تكف هذه ، فأنها اما أن تخفض النفقات ، أو تلجأ الى الاقتراض . فخلال تمرد الخوارج انخفضت واردات بيت مال البصرة ، فقدم التجار والموسرون قروضا للدولة من اجل تعزيز مركزها حتى يتسنى لها أن تخمد هذا التمرد . وقد استطاعت الدولة رد المبالغ التي اقترضتها حالما اخمد هذا التمرد . واصيب بيت مال واسط بعجز مالي موقت في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي من جراء حركة عبدالرحمن بن الاشعث ، وحرق الديوان ، فأنخفضت واردات بيت المال . ولكن في هذه الحالة لم يلجأ أمير واسط الى الاقتراض ، بل اقدم على خطوة اخرى عالج من خلالها العجز المالي ، اذ قرر انقاص عيار العملة .

وعالج الخليفة العباسي الاول (ابو العباس عبدالله بن محمد) ظاهرة الازمة المالية التي تعرضت لها الدولة ابان قيام الخلافة العباسية ، اذا لجأ

الى الصراف (ابن ابي مقرن الصيرفي) فأقترض منه ألف الف درهم. ويبدو أنه كان وراء هذه الخطوة دوافع اقتصادية أملتها ظروف الدولة الجديدة على الخليفة العباسي الاول ، فوقع تحت تأثيرهم ، مما اضطره الى الاقدام على خطوة اخرى ، اذا امر بانقاص وزن الدرهم حبة واحدة ولما اشتدت عليه الظروف اضطر الى انقاص وزن الدرهم مرة اخرى حبتين خلال عهده القصير (١٣٢ ــ ١٣٦ هـ) . ويبدو أن هذه الازمة المالية امتدت الى بداية عهد الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور الذي اقدم هو الآخر على انقاص وزن الدرهم حبة اخرى .

وفي اواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين ، برزت ظاهرة العجز المالي من جديد ، وصرنا نشهد أن البنوك الخاصة اخذت تقرض الدولة عندما كانت تتعرض احيانا لازمة مالية شديدة الوطأة.ففي سنة٢٩٦هـ/٩٠٨م استعان الوزير علي بن الفرات بصرافين يهود لتمشية امور الدولة المالية . كما أن الوزير الجديد علي بن عيسى شعر بحاجته الماسة الى هذين الصرافين عندما تلمس بوادر الازمة المالية ، واتفق معهما على ان يقرضاه في مستهل كل شهر مائة وخمسين الف درهم ، على ان يرتجعاها من وارد أحد الاقاليم فيما بعد. وكان هذان الصرافان يأخذان ربح دانق ونصف فضة في كل دينار .

وهكذا كلما حدثت ازمة مالية التجأ المسؤولون الى الاقتراض ممن تتوافر لديهم الاموال لقاء فائدة مقررة يتفق عليها في حينه . فقد حدث ان اقترض الوزير عبيدالله بن محمد الكلوذاني عام ٣١٨ هـ /٩٣٠ م من الثري (ابن ابي بكر قرابة) قرابة مائتي الف دينار بربح درهم في كل دينار . واقرض (بن ابي بكر بن قرابة) اموالا اخرى بربح درهم في كل دينار للحسين بن القاسم ، عندما تولى الاخير منصب الوزارة (مسكويه ٢١٣/١ و ٢٢٠) . ان حصول هذه الظواهر المالية دفع بعضهم الى التفكير بضرورة تثبيت النظام المالي في المدن على اسس متينة وثابتة ، فأسس في بغداد أول مصرف رسمي عرفته الدولة العربية الاسلامية ، وبهذا الاجراء

تحسن الوضع المالي نسبيا ، وحصل نوع من التوافق في موازنة الدخل والخرج .

كما أن التجار كانوا يضطرون احيانا الى التعامل مع الصرافين ، نظرا الى ان الاقاليم الشرقية من الدولة كانت تتعامل بالدراهم في الاغلب ، في حين كانت الاقاليم الغربية تتعامل ، في الاكثر ، بالدنانير الذهبية ، وفي هذه الحالة اصبح لابد من وجود الصرافين لتغيير العملة التي كانت قيمتها عرضة للصعود والهبوط ، تبعا لتقلبات قيمة المعدن المكونة منه .

وبذلك تعد نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي نقطة تحول فاصلة في تاريخ (النظام المصرفي) في العراق ، حيث اتسمت هذه الفترة بتبلور تنظيماتها ومؤثراتها ، اذ اقدم قسم منها على تأسيس فروع لها في بعض اقاليم الدولة العربية الاسلامية ، مثل مصر ، وأصفهان ، وتستر . وتم التنسيق بين مركزها الرئيس في بغداد ، وفروعه الكائنة في هذه الاقاليم .

وكان اوسع المصارف العراقية قوة وفعالية ذلك المصرف الذي تأسس في بغداد سنة ٣٠١ هـ /٩١٣ م . والذي وضع خدماته تحت تصرف الدولة بالمرتبة الاولى ، ثم لأرباب الاموال من القطاعات الاخرى . وكان عمله الرئيس فتح الاعتمادات المالية لخزينة الدولة المركزية . فقد تم الاتفاق بين علي بن عيسى مؤسس هذا المصرف ، على ضرورة تقديم اعتمادات مالية سنوية تقدر بنحو مليون وثمنمائة الف درهم سنويا . على ان يحال امر تسديدها الى جبايات الاقاليم (التنوخي ، نشوار ٤١/٨ — ٤٢) وفضلا عن ذلك اخذ هذا المصرف بقبول الودائع، وقد بلغت احداها ثمانية ملايين دينار ، ثم مد القروض وتنظيم المعاملات والوثائق المالية ، وعقد الصفقات التجارية. وكان معظم عملائه من التجار وكبار رجال الدولة .

واسهم في تأسيس هذه الانواع من المصارف عدد من الموسرين من ذوى الخبرة والاختصاص في الاعمال المصرفية ، واحوال العملة وتجارتها .

والى جانب هذه المصارف ، هناك عدد من الصيارفة ، مارسوا الفعاليات المصرفية المختلفة ، معظمهم من التجار وأصحاب المهن الذين مزجوا بين التجارة والصيرفة ، وانتشروا في اسواق المدن ، حيث افردت لهم اسواق خاصة في عدد من المدن الرئيسة اذ اشارت المصادر الى اسواقهم في كل من الحيرة ، والبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، والموصل وسامراء .

وقدم (ماسونيون P. 8-9) تفصيلات وافية عن ارتباط وعلاقة الحجاز والشام ومصر واسبانيا بالمؤسسات المصرفية العراقية . فقد ارجع الامر الى العلاقات السياسية التي كانت قائمة آنذاك بين هذه الاقاليم . اذ أن المنافسة الكائنة بين العباسيين في العراق ، والفاطميين في شمال افريقيا ومصر ، لعبت دورا ايجابيا فيها . حيث عمل الفاطميون على تشجيع انتقال اصحاب رؤوس الاموال والاعمال الى مصر ، وكان بينهم عدد من الصيارفة العراقيين . والذي سهل لها هذا الامر أن عددا من المصارف العراقية كان لها فروع في مصر .

لقد مارست المصارف في مدن العراق انواعا متعددة من الاعمال المالية . اذ بحكم تعلق اختصاص الصيارفة بالنظام النقدي ، فقد بذلوا جهودا فاعلة في تسهيل أمر تبادل النقود في الاسواق ، اما نقدا ، أو بموجب وثائق مالية قابلة للصرف . وبلا ريب ، فأن عملية تبادل النقود مهمة اساسية يتطلبها النشاط الاقتصادي والمالي في المدن ، بفعل ارتياد التجار الاجانب الذين يحملون معهم نقودا قد تختلف عن النقود المتداولة في المدن العراقية . وحينئذ يبرز دور الصرافين فيها من خلال التعرف على جنسيات التجار الوافدين على العراق . وكان الصيارفة هم الجهة الوحيدة التي تتولى أمر تقويم جودتها ، وتحديد وزنها ، والتثبت من قيمتها النقدية ، ازاء النقود المتداولة في مدن وأسواق العراق .

وبخصوص التجار الاجانب الوافدين على مدن العراق ، فأنه يكفي الاشارة هنا الى ماذكره (اليعقوبي البلدان ص ٢٣٣ ــ ٢٥٤) عن مدينة

بغداد والنشاط الاقتصادي والمالي في اسوافها ، والتسهيلات التي قدمها الصيارفة للتجار الاجانب القادمين اليها من انحاء شتى • ومن المؤكد ان هؤلاء التجار تأثروا ، ومارسوا النظم المالية في هذه المدينة • والراجح أن بعضهم نقل بعض هذه النظم الى بلدانهم حيث مورست هناك •

واشارت المصادر الجغرافية الى نشاط بعض التجار العراقيين الذين جابوا مناطق عديدة من العالم ، وأسسوا الوكالات والمراكز التجارية في بعض منها ، فقد استوطن في مدينة صيمور الهندية عدد من تجار البصرة وبغداد ، وقام المسعودي عام ٣٠٤ هـ /٩١٦ م بزيارة مركزهم التجاري ، وتفقد اسواقهم ، واطلع على نشاطاتهم (٢٣٣/١) • واشاد (ابن حوقل ص ٦٥) بالمركز التجاري العراقي في مدينة سلجماسة المغربية الذي ضم عددا من تجار البصرة والكوفة وبغداد •

ج ـ استخدام الصك والسفتجة :

لقد تطورت النظم المالية ووسائل التعامل التجاري بأسواق المدن العراقية ، تبعا للتطور الذي شهدته الحياة الاقتصادية في عموم الدولة • فالى جانب التعامل بالعملة النقدية ، من الدنانير والدراهم ، صرنا نشهد استعمال الصكوك في ميادين متعددة ، على مستوى القطاعين الرسمي والشعبي اذ استخدم الصك كوسيلة لدفع الاموال ، وهو أمر خطي يدفع بواسطته مقدار من النقود الى الشخص المسمى فيه •

والصك وسيلة لأيفاء ما يقع على الحكومة من التزامات خاصة بالصرف، كالرواتب ، والاوراق ، والاعانات ، والمنح ، ووجوه النفقات المختلفة ، مهما كانت مبالغها •

ويجري تحرير الصك بدقة متناهية ، ويدرج فيه اسم صاحبه ، ومقدار المبلغ الواجب الدفع (رقما وكتابة) ، وموعد الاستيفاء • وقد يؤرخ ويختم بخاتم خاص ، ويصدق عليه •

ويتم دفع المنح المالية التي كان يهبها المسؤولون الى المقربين منهم في بعض الأحيان بالصكوك • ومن المؤكد أن مثل هذه الصكوك كانت تصرف اما عند الصيارفة ، أو في بيت المال (بنك الدولة) • ويبدو أن الصكوك عندما تعطى الى شخص ما كانت تثبت في سجل خاص في الدواوين بأعتبارها من النفقـات التي صرفت من بيت المـال •

وكان والي العراق يزيد بن المهلب يشتري متاعا ويصك الصكاك بـه الى صالح بن عبدالرحمن المسؤول عن الامور المالية في الولاية كي ينفذها • ولكن صالحا،احيانا لا يروج هذه الصكاك الا بجهد ومطل،وقد يرد اكثرها •

وأن صرف الصك من قبل الصيرفي كان يقتضي أخـذ عمولة عليه • فياقوت (ارشاد الاريب ، ٢/٢٧٢) اشار الى ان الوزير الحسن بن مخلـد منح الشاعر « جحظة » خمسمائة دينار وأعطاه صكا بها على صيرفي ببغداد ، فتوجه اليه جحظـة ، فافهمـه الصيرفي ، ان الرسـم يقضـي أن ينقـص في كـل دينـار درهمـا •

ويبدو أن النظام المصرفي الذي ترعرع في العراق ، ومورس على نطاق واسع ، مورس ايضا في مدن عربية اخرى • اذ روى (ابن حوقل ص ٦٥) انه شاهد في مدينة (اوغست) المغربية صك ائتمان حرر بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار بين تاجر عراقي وآخر مغربي •

كما أن الدولة كانت تسترد ديونها من المدينين عن طريق صكوك خاصة، أو توفي ديونها بأستعمال الصكوك • وجرى التعامـل بالصكوك حتى في بعض حـالات الصـادرات •

ونظرا لما تقوم به الصكوك من تسهيل قضايا البيع والشراء في الوقت الذي لا تتوافر فيه الاموال نقدا من جهة ، ولكونها وثيقة ائتمان مضمونة لتقرير الديون واستيفائها ، فقد تطور استعمالها في مدن العراق الرئيسة بعد

القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، بشكل مثير للانتباه ، وحل محل التعامل النقدي ، وجعل هذا الامر محط اعجاب غير العراقيين •

وخلال القرن الرابع الهجري ، شهدت اسواق مدينة البصرة ارقى صور التعامل المالي والتجاري ، اذ أورد تفصيلاتها الرحالة (ناصر خسرو ص١٤٥) في رحلته ، حيث اطلع خلالها على النشاطات التجارية والمصرفية القائمة في اسواق البصرة الرئيسة ، مثل سوق خزاعة ، وسوق عثمان ، وسوق القداحين ، حيث لاحظ أن بأمكان التجار الوافدين الى مدينة البصرة أن يعطي كل واحد منهم ماعنده من مال لأحد الصرافين ، ويأخذ منه صكا ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن الى الصراف الذي تعامل معه • ويستشف من هذا الاجراء مبلغ الرقي والتطور الذي بلغه النظام المصرفي في مدينة البصرة ، والذي شمل تبادل العملات ، وحفظ الايداعات وتنظيم المعاملات ، واحالة صرفها • كما أن هذا النظام أوضح في الوقت نفسه ان الصكوك اضحت هي المعول عليها في تنظيم المعاملات بين التجار والصيارفة ، بحيث اصبح المشتري لا يستخدم شيئا غير صك الصراف طالما هو مقيم في المدينة •

ومن النظم المالية التي شهدتها مدن العراق استعمال السفتجة • فالى جانب التعامل بالعملة النقدية ، من الدنانير والدراهم ، واستخدام الصكوك، صرنا نشهد استعمال الحوالات أو السفاتج ، التي تعني أن تعطي مالا لرجل له مال في بلد تريد أن تسافر اليه فتأخذ منه خطا « سفتجة » لمن عنده المال في ذلك البلد ، أن يعطيك مثل مالك الذي سبق أن دفعته قبل سفرك •

والحق ان نظام السفتجة ، أو الحوالات ، قد ظهر استعماله في مدن العراق منذ وقت مبكر من قيام الدولة العربية الاسلامية ، ذلك ان الزبير بن العوام كان يأخذ الورق من التجار فيكتب لهم سفاتج الى البصرة والكوفة ، فيأخذون أجود من ورقهم • وعن عبدالله بن عباس انه اكان يأخذ أجود من

ورقهم • وعن عبدالله بن عباس انه كان يأخذ الورق بسكة من التجار والمسافرين على ان يكتب لهم الى الكوفة ليأخذوا مثل ورقهم •

وبعد أن اصبح العراق مركز الدولة العربية الاسلامية . واضحت بغداد حاضرة الخلافة العباسية تبلور نظام السفتجة . وتحددت أطره . واستخدم في مؤسسات الدولة الرسمية • اذ كانت ايرادات الاقاليم . احيانا . تصل الى بيت المال المركزي ببغداد بواسطة سفاتج تحرر لهذا الغرض . ويحال أمر صرفها الى التجار ، أو الصيارفة . ممن لهم تعامل خاص مع الجهات الرسمية ، ليتم تصفية الحسابات الخاصة بشأنها • وفي هذا الصدد يشير (مسكويه ١/٤٢ ــ ٤٣ و ١٤٦) الى ورود سفاتج الى بغداد من بلاد الشام ومصر . والاحواز وفارس . وكرمان ونواحي المشرق • وفضلا عن هذه ، وردت في المصادر سفاتج اخرى حررت لاغراض سياسية مختلفة • منها السفتجة التي تم تبادلها بين بغداد ومدينة (ميافارقين) عام ٣٣٢ هـ • ويرى (الصابي ص ٩٣) ان عمال الاقاليم كانوا يرسلون الاموال من اقاليمهم الى بغداد ، اما « مع رسل ، أو سفاتج تجار الى تجار » •

وخلال القرن الثالث ، وبداية القرن الرابع الهجريين العاشر الميلادي ، اصبح التعامل في اسواق المدن ، أو دفع الديون ، ليس بالنقود فقط ، وانما بالسفتجة ايضا ، وأن الهدف من استعمال السفتجة في المعاملات المالية ، كان الغرض منه نقل النقود من مكان الى آخر دون تعرضها لمخاطر الطريق • فهي والحالة هذه كانت وسيلة للحيلولة دون اجراء الدفع بالعملات المعدنية في الاماكن البعيدة • اذ في حالة التعامل بالسفاتج يكون وصول الاموال اضمن ، وبعيدا عن عاديات الطريق ومخاطره •

ونشط نظام السفتجة بين المدن العراقية • ذلك ان هذا النظام توافرت فيه الثقة والسرعة والامان ، كما استبعد مخاطر فقد النقود المراد نقلها من مدينة الى اخرى • ويرى (ابو شجاع ص ١٩٨) ان سفتجة بألف دينار

صرفت عام ٣٨١ هـ /٩٩١ م تم تحويلها الى مدينة واسط • وسفتجة اخرى حررت في الكوفة بمبلغ ثلاثين الف دينار صرفت في مدينة البصرة لشراء ضيعة • واشار (التنوخي ، نشوار ٣/٣٨١) الى ان احد العراقيين المقيمين في مصر حرر سفتجة بمبلغ مائة دينار أرسلها الى زوجته في بغداد • :

وأتاح نظام السفتجة تحويل الدين من شخص الى آخر وتصفية الحساب بينهما • كما اصبح من الممكن تصفية الحساب بين مدن واقاليم مختلفة دون الحاجة الى نقل النقود والبضائع • فلدينا اشارة الى أن مائة وخمسين دينار مغربية اودعت عند احد الصيارفة ببغداد لاتخاذ الترتيبات الخاصة القاضية بأمر تحويلها الى احد المصارف في القاهرة • وكان بمقدور التاجر أن يقترض سفاتج من بيت المال ليشتري بها بضائع من ذلك الاقليم ، ثم يدفع ما اقترضه الى بيت مال اقليم آخر •

واحيانا يحدد أجل صرف السفتجة حسب اتفاق الاطراف المعنية • اذ اوردت المصادر سفتجة حدد اجلها بأربعين يوما من تاريخ تنظيمها • اما طريقة صرفها في الموعد المحدد ، فيجوز ان يكون بدفعة واحدة ، أو على شكل دفعات • وقد اورد (التنوخي ، نشوار ٢٢/٨) سفتجة ارتأى صاحبها ان يأخذها متفرقة على دفعات • الا انه من الممكن اذا شاء تسلمها دفعة واحدة ، على وفق شروط يتفق عليها مسبقا •

ووصل نظام التعامل بالسفاتج الى آفاق اقتصادية ومالية جديدة ، بدخولها ميدان الاحتكار والمنافسة ، والتأثير على التعامل في اسواق النقد في المدن العراقية • فبهذا الخصوص اشارت رواياتنا التاريخية الى ان السفاتج المتبادلة بين بغداد والشام ومصر وتونس ، حيث كان بعض صيارفتها يعملون بشكل هيئة مصرفية موحدة ، تقوم بتبادل المعلومات بشأن اسعار تحويل العملات ، ونوعية النقود التي ارتفع سعرها ، والاخرى التي اصابها الانخفاض ، ومقارنتها بالاسعار السائدة في سوق النقد الخاص بكل مدينة ،

ليتسنى لهم ازاءها تحويل العملات ، واعداد السفاتج لها • واصبح لـدى المعنيين بنظام السفتجة أن تأخير صرفها ، أو حجبها . سيكون له مردودات ايجابية في ارتفاع اسعار بعض العملات وفقا لقانون العرض والطلب • وقد تحسس (مسكويه ١/٢٣) لهذا الامر ، وأتهم الوزير محمد بـن عبيدالله الخاقاني ، واعتبره ضعيفا في ادارته المالية لأنه كان يهمل كتبا فيها سـفاتج قادمة من الأمصار • وربما كان الوزير متعمدا في اهماله السفتجات حتـى يضمن للصرافين فائدة اكبر • ونستطيع ان نقدر مقدار الخسارة التي لحقت بيت المال اذا ما علمنا أن الوزير علي بن عيسى كان يستلف من التجار على سفاتج وردت من الاقاليم لم تحل عشرة الاف دينار بربح دانق ونصف في كل دينار ، وكان يلزمه في كل شهر الفين وخمسمائة دينار أرباحا •

وبلا ريب ، فأن النشاط الاقتصادي ، وبخاصة التجاري ، كان القوة الفاعلة الرئيسة في رواج واتساع نظام السفتجة . وشيوع استخدامها بين مدن العراق وأقاليـم الدولـة •

وفي أول الامر ، اثار نظام السفتجة تساؤلات شرعية لدى الفقهـاء ، وبخاصة اذا ماترتب على صرف السفاتج في الاسواق عمولات مصرفية . كما هي الحال في صرف الصكوك • غير أن الفقهاء أباحوا استعمال السفاتج التي تتعامل بها الناس على انها اقتراض بغير شروط ولا أرباح •

د ـ نظـام الرقابـة الماليـة :

وخلال عهد الخليفة العباسـي محمد المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) تـم استحداث نظام مالي جديد في بغداد ، عبر عن تطـور المؤسسات الماليـة ودقتها • كما انه انبثق من سياسة الحرص والتدبير التي ارتـأت الدولـة العربية الاسلامية اتخاذها • ففي سنة ١٦٢ هـ /٧٧٨ م أوعز الخليفة المهدي بتأسيس دواوين خاصة تتولى مراقبة وتدقيق الاعمال والحسابات الجاريـة في الدواوين العامة ، منها ديوان الازمة ، والآخر زمام الأزمة •

ويستشف مما اورده (الجهشياري ص ١٤٦ و ١٦٨) عن الكيفية التي كان يسير بها نظام الرقابة المالية الذي استحدث في العراق اول مرة • فقد اتخذت في كل مؤسسة ادارية هيئة فرعية خاصة سميت بالازمة ، اذ أوكلت اليها مهمة تدقيق ومراقبة الاعمال المالية الجارية فيها • اما زمام الازمة ، فهو هيئة مركزية عليا للرقابة ، اختصت بالاشراف على اعمال الهيئات الفرعية المذكورة •

وحددت اعمال هذه الهيئات في المؤسسات الاقتصادية والمالية ذات العلاقة ببيت المال ، أو خزينة الدولة المسؤولة عن استحصال الايرادات ، وتولي النفقات وأوجه الصرف المختلفة ، مثل ديوان الخراج • وديوان النفقات ، وديوان الجيش • وهنا يتضح أن نظام الرقابة المالية كان يسير بأتساق دقيق ، وبسلسل وظيفي ، وعلى هيئة هرم •

ونظام الرقابة المالية هذا كان قد عهد بادارته الى كادر من ذوي الخبرة والاختصاص بالقضايا الحسابية والمالية ، وأمر النقود وطرق تقويمها • وكان (التنوخي ، الفرج بعد الشدة ٣/٣١٧) قد بين زخم المعاملات والتنسيق الجاري بين كتاب الدواوين والمحاسبين •

لقد تطورت مهمة الرقابة المالية الموكلة لديوان الرقابة المالية ، شأنها في ذلك شأن التطورات الحاصلة في المؤسسات المالية والادارية الاخرى في مدن العراق • ونستطيع أن تتلمس ذلك بعد عام ٣١٥ هـ /٩٢٧ م ، حيث اضحى اعلى هيئة للرقابة في العراق مرتبطة بالوزير مباشرة ، اذ أوكل لصاحبه أمر مراقبة وتدقيق اعمال بيت المال المركزي ، الفروع والاصول ، ومراجعة التقارير بشأنها •

نستطيع ـ اذا ـ ان نؤكد ان نظام الرقابة المالية الذي نشأ في العراق ، قد امتاز بالقدرة والكفاءة ، على وفق الاهداف المتوخاة التي ارتأى المسؤولون تحقيقها • ومن هذا المنطلق ، اختيرت عناصره من بين المتميزين في الامور

الكتابية والحسابية • وتشير المصادر ضمن احداث القرن السادس الهجري وما بعدها ، الى وظائف مالية للتفتيش والرقابة والتدقيق . فضلا عن هيئات الرقابة المعروفة بالزمام • ومن هذه الوظائف ، الناظر الذي يشارك الوزير في مراقبة الامور المالية الموكلة الى الدواوين •

٧ ـ نظام الحسبة والمحتسب :

تأتي اهمية نظام الحسبة على اسواق المدن من عدة جوانب : فهي تعكس جملة قضايا اقتصادية ، ومالية ، ودينية ، واجتماعية ذات صلة وثيقة بحياة المجتمع •

وعلى الرغم من أن قواعد الشرع واضحة ومعروفة لدى غالبية المتعاملين بالامور الاقتصادية والمالية . لكن حب المال ، ونشاط الحركة التجارية في المدن ، اديا دورا سيئا في سلوك بعض اهل السوق • فكان لزاما ان تنظم الامور الاقتصادية والمالية في اسواق المدن . بأنظمة وقوانين ضابطة . ولم يترك التعامل بها على وفق هوى النفس، ومصالح التجار ، واهل السوق • بل نظمت تحت رقابة الدولة ، أو ولاة الاقاليم ، واشرف عليها موظف مختص هو المحتسب ، يختار على وفق مواصفات معينة •

وقد اكدت آيات قرآنية شريفة على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل . وعلى الامانة في الكيل والوزن : حفظا لمصالح المشترين من عامة الناس • قال تعالى : « ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، الا يظن اولئك انهم مبعوثون » • وقال في سورة آل عمران : « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك . ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما » • وقال « والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » • وقال : «واوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين» •

ومادامت الآيات القرآنية اكدت ذلك فقد انبرى العلماء والفقهاء لوضع ادق الشروط التي تفي بتلك المتطلبات • وكان ائمة الصدر الاول يباشرون بأنفسهم مراقبة الاسواق لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها • ومنذ تلك الفترة المبكرة وضعت القواعد الاساسية لما ينبغي ان يكون عليه نظام الحسبة •

ويبدو أن الدولة الاموية كانت تشدد رقابتها على اسواق المدن منذ البداية ، وتتابع سير التعامل التجاري فيها • فالمدن التي مصرت بالعراق كالبصرة والكوفة ، وواسط ، اصبحت مركزا لأدارة العراق والاقاليم الشرقية من الدولة • ومن المؤكد ان عددا كبيرا من التجار ورجال الاعمال والصيارفة والصناع واصحاب الحرف وفدوا من مناطق متعددة الى هذه المدن واستوطنوها منذ السنوات الاولى لتأسيسها ، مما ادى الى ازدهار الحياة الاقتصادية والمالية في كل منها •

وفي مثل هذه الحالة ، من المحتمل ان تقوم مشاكل وملابسات اثناء سير المعاملات التجارية والصناعية التي تتعلق بحياة ابناء الشعب المعاشية • فلكي تمنع الدولة حصول الغش ، والتدليس ، والتزييف والتطفيف ، والاحتكار من قبل بعض الباعة ، كان لابد لها ان تعالج هذه الظواهر ، فأوجدت نظام الحسبة لمراقبة هؤلاء ومنعهم من القيام بالاعمال المضرة بمصلحة الجماعة •

وقد أشار (وكيع ، اخبار القضاة ٢/١٩٦) الى ان الامام علي بن ابي طالب كان قد تفقد أسواق الكوفة ابان خلافته ، وحث التجار على الا يظلموا الناس ولا يغشوهم ، ولا يدلسوا عليهم • وذكر المدائني ان الجعد النمري كان على سوق البصرة ابان ولاية زياد بن ابيه عليها ، وان لديه معاونين واعوانا يساعدونه في مهمته هذه • ولدينا روايات تاريخية تشير الى ان المهدي بن عبدالرحمن كان محتسبا في مدينة واسط خلال ولاية عمر بن هبيرة الفزاري • وخلفه في هذه الوظيفة اياس بن معاوية الذي كان يتولى الكتابة

بين يديه (ابان بن الوليد بن عبيدالله) . وأن الاخير كان لديه سجل خاص يسجل فيه اسماء اصحاب الحرف والاصناف . وان كلا منهما كان مسؤولا عن مراقبة الاوزان والمكاييل والمقاييس ، والصيارفة ، والقصابين واهل الحرف ، ليحول دون وقوع الغش او التدليس في المبيعات .

وخلال العصر العباسي ، شددت الدولة رقابتها على اسواق المدن ، وتابعت سير التعامل التجاري والمالي فيها . فقد كان للخليفة المنصور موظفون يزودونه بكل ما كان يجري في اسواق المدن عامة ، واسواق العاصمة خاصة . فأورد (الطبري ٦٥٣/٧ والخطيب البغدادي ٧٩/١) الى انه في سنة ١٥٧ هـ/٧٧٣ م كان ابو زكريا يحيى بن عبدالله محتسبا على اسواق بغداد . وكان الخليفة يختار لهذه المهمة من اتصف بالورع والتقوى ، والعلم والمعرفة ، على ان يكون رجلا مسلما ، بالغا ، قادرا ، حرا ، عدلا ، ذا رأي وصرامة وعلم بالمنكرات الظاهرة ، عفيفا ورعا فطنا ، لا يميل ولا يرتشي ، مواظبا على سنة الله ورسوله (ص) ومن شيمته الرفق ولين القول .

ويجب على المحتسب معرفة وحدات الوزن والكيل والاذرع المستعملة في الاسواق ، ويتحقق من صحتها . واذا استراب بموازين أهل السوق ومكاييلهم يجوز له ان يختبرها ويعايرها . وله أن يأمر اصحاب الموازين بمسحها وتنظيفها من الادهان والاوساخ بين الفينة والاخرى .

وكان نظام الحسبة قد تبلور بشكل واضح منذ زمن الخليفة محمد المهدي ، حينما انتظمت احوال مدن العراق ، وماترتب على ذلك من توسع الاسواق وتخصصها ، وازدهار التجارة ، وظهور النقود الزائفة . وعندئذ برز صاحب السوق وصار يتقاضى راتبا معينا من المال . وصرنا نعثر على نصوص فيما بعد ، تبين مقدار عناية المحتسب ومعاونيه بمراقبة اهل السوق مراقبة دقيقة ، ومد يد العون لكل من يطلبها من عامة الناس .

ومن اجل ضبط نظام الحسبة كان الخليفة هارون الرشيد لا يكتفي بما يعهد به الى المحتسب والاعوان التابعين له ، بل راقب اسواق بغداد بنفسه ليطمئن على ان الامور تسير على وفق المصلحة العامة • وفي مثل هذه الحالة كان الخليفة يتزيا بزي التجار ليتفقد اسواق العاصمة ، كما اكد على محتسب بغداد بضرورة مراقبة الاسواق والاشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة اثمان الحاجيات ، منعا للغش ، أو ابتزاز اموال الناس • ويروي (الماوردي ص ٢٤١) ، ان الحكومة كانت تضع على الاسواق حراسا في الليل منعا للسرقات • وكان الخليفة المعتضد بالله قد اطلق يد محتسب بغداد وقال له : « اذهب فقد اطلقت يدك ، غير ما احببت ان تغيره من المنكر » • ولما رأى الخليفة ان المحتسب وأعوانه لا يؤدون واجباتهم بصورة مرضية انبهم لتقاعسهم هذا •

وكانت الدولة تعير اهتماما كبيرا لنظام الحسبة ، باعتباره يمثل واجهة من واجهات الحكومة التي هي على اتصال مباشر بالناس • وموظفو هذا النظام مسؤولون عن اقرار الحق ، ومكافحة الجشع والتطفيف والتدليس • لذا اعدت الحكومة لهذا النظام جهازا كبيرا بلغت نفقاته اربعمائة وثلاثين الفا وأربعمائة وتسعة وثلاثين دينار • وأن متولي الحسبة صار يتقاضى مائتي دينار شهريا •

ولم تقتصر مهمات نظام الحسبة على مراقبة المقاييس والأوزان ، بل امتدت الى مراقبة المعاملات المالية المتداولة في الاسواق • ذلك أن المسؤولين كانوا قد حذروا الصيارفة من مغبة التمادي في اخذ الربا الفاحش ، وكانوا يلزمونهم على ان يخففوا من غلوائهم في هذا المجال •

ا ــ تطور وظيفة المحتسب :

بمرور الزمن تبلور نظام الحسبة ، وحينئذ برزت وظيفة المشرف على الاسواق تدريجيا ، حتى صار يدعي المحتسب ، ووظيفته سميت « الحسبة » •

وهي لم تكن منصبا قضائيا بالمعنى الدقيق لنظر المظالم أو القضاء العادي ، وانما منصب ديني خلقي اساسه « الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر اذا ظهر فعله » . حيث ورد في (سورة آل عمران ، آية ١٠٤) « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله » ولأجل ان تضمن الدولة هذا الغرض ، كانت تعهد بوظيفة الحسبة الى اناس اقوياء من سراة القوم . ففي سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ولي هارون بن ابراهيم الهاشمي الحسبة ، فأمر أهل بغداد أن يتعاملوا بنوع معين من الفلوس فامتثلوا لأمره .

وصار منصب المحتسب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من المناصب المهمة في الدولة العباسية . وكان محتسب بغداد من جملة اصحاب المخاطبات المعروفة ، وتعددت اختصاصاته حتى شملت الاشراف على دار ضرب النقود وأثبات اسم الخليفة على ما يضرب من الدنانير والدراهم . ورأى المحتسب ان من واجبه مراقبة موظفي الدولة المتقاعسين عن اداء عملهم . وفي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م استفتى الخليفة القاهر بالله محتسب بغداد في أمر الصابئة .

وتعدت مهمات نظام الحسبة المعنى الديني والخلقي في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الى واجبات عملية مادية تتفق مع مصالح سكان المدن . وبذا امتدت مهمات هذا النظام الى الامور الاجتماعية والاقتصادية لسكان المدن . وتركزت هذه المهمات في الاسواق خاصة . وصار المسؤولون عن هذا النظام يتفقدون احوال اهل السوق وحرفهم ومتاجرهم ، ومجتمع اسواقهم ومعاملاتهم ، فيعيرون موازينهم ومكاييلهم ليتأكدوا من صحتها . وبموجب نظام الحسبة الزم الباعة أن يتخذوا الارطال والأواقي من الحديد ، وأن تختم بختم الدولة ، ويجدد النظر فيها بعد كل حين . ومنع اتخاذ العيارات من الحجارة لانها اذا قرع بعضها ببعض نقصت . ومن هنا يتبين

ان نظام الحسبة استهدف منع الغش في الصناعة والانتاج ، ومنع الحيلة والتدليس والبخس في الكيل والمعاملات ، كما اصبح المحتسب مسؤولا عن تنظيم جلوس الباعة في اسواقهم ودكاكينهم بحيث جعل لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم • واصبح من حقه ان يرى في العرف الجاري بين اهل السوق اساسا يستطيع الرجوع اليه • فيروي (وكيع ٢/٣٥١ و ٢/٣٧٢) أن قوما من الغزاليين في الكوفة اختصموا الى شريح ، فقالوا سنتنا بيننا كذا وكذا •• فأفتى بينهم على وفق العرف السائد بينهم في اسواقهم •

وليس لدينا ما يشير الى وجود اضطهاد مباشر لأرباب الحرف ، أو التدخل في اسعار منتجاتهم ، أو تحديد مقدار انتاجهم •

وأجاز (الماوردي ص ٢٤١) للمحتسب أن يسعر على الناس المواد الاساسية التي تشكل قوت الشعب ، وباستطاعته أن يمنع بيع الحنطة الى تاجر محتكر ، لأن في ذلك ضررا للمسلمين • وله ان يدون في دفتره اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فأن الحاجة تدعو الى معرفتهم • وله ان يراقب الجزارين ، والرواسين ، والطباخين ، والشوائين ، والصاغة ، والصباغين ، والحاكة والخياطين ، والصيارفة ، فأن كان هناك من رابى أو خالف الشريعة فيما يخص امور الصرف عزره وطرده من السوق • وله الحق في مراقبة الصيادلة الذين قد يلحق بالناس منهم ضرر بليغ • ومن حقه ان يمتحن الطبيب البيطري ليجيز له ممارسة مهنته • وعليه أن يأخذ على اطباء الأبدان عهدا الا يعطوا احدا دواء مضرا ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الاجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وله ان يمتحنهم ايضا •

واعطت الدولة للمحتسب سلطة تنفيذية ، فأصبح باستطاعته ايقاع عقوبة « التعزير » بالمتلاعبين من الباعة والكيالين • وله ان يستعين في تنفيذه بالاعوان • فمنه الردع ، والتوبيخ بالقول ، أو الضرب بالسوط • واجاز

نظام الحسبة للمحتسب ان يرى في العرف الجاري بين اهل السوق اساسا يستطيع الرجوع اليه ، ذلك أن من صفات المحتسب ان يكون : « من اهل الاجتهاد العرفي دون الشرعي » .

ب ـ تعيين عرفاء على الاسواق :

لما توسعت المدن ، وتعددت اسواقها ، ونشطت التجارة فيها ، اصبح من الصعوبة ان يحيط المحتسب بأعمال اهل السوق . وعندئذ جاز له ان يستعين بأناس يساعدونه في اداء مهمته . فجعل على كل صنعة عريفا من صالح اهلها ، خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والامانة ، يكون مشرفا على احوالهم وتعاملهم مع زبائنهم ، ويطالع المحتسب باخبارهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على كل صنعة بصالح من اهلها » .

اهـم المصادر والمراجع

١ ــ القــرآن الكريــم

٢ ــ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٧ .

٣ ــ ابن الاخوة ــ معالم القربة في احكام الحسبة ، كمبرج ١٩٣٧ .

٤ ــ ابن تيمية ــ الحسبة في الاسلام ، دمشق ١٣١٨ هـ .

٥ ــ ابن الجوزي ــ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ .

٦ ــ ابن حوقل ــ صورة الارض ، لندن ١٩٣٩ .

٧ ــ ابن خردا ذبة ــ المسالك والممالك ، بغداد (بلا) .

٨ ــ ابن خلدون ــ المقدمة ، القاهرة ١٩٦٥ .

٩ ــ ابن سعد ــ الطبقات الكبير ، لندن ١٣٢٢هـ .

١٠ــ ابو شجاع ــ ذيل تجارب الامم ، مصر ١٩١٦ .

١١ــ ابو يوسف ــ الخراج ، بيروت ١٩٧٩ .

١٢ــ البخاري ــ الجامع الصحيح ، ليدن ١٨٦٤ .

١٣ــ بخشل ــ تاريخ واسط ، بغداد ١٩٦٧ .

١٤ــ البلاذري ــ فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٥ــ التنوخي ــ الفرج بعد الشدة ، مصر ١٩٠٣ .

ــ نشوار المحاضرة ، بيروت ١٩٧٢ .

١٦ــ الجاحظ ــ البخلاء ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٧ــ الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .

١٨ــ الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، القاهرة ١٩٣١ .

١٩ــ السرخسي ــ كتاب المبسوط ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٠ــ الشيزري ــ نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢١ـ الصابي ـ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ .
ـ رسوم دار الخلافة ١٩٦٤ .
٢٢ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٦ .
٢٣ـ العلي ـ خطط البصرة ومنطقتها ، بغداد ١٩٨٦ .
٢٤ـ الغزالي ـ احياء علوم الدين ، مصر ١٣٠٩ هـ .
٢٥ـ قدامة ـ الخراج وصناعة الكتابة ، بغداد ١٩٨١ .
٢٦ـ الماوردي ـ الاحكام السلطانية ، بيروت ١٩٧٨ .
٢٧ـ المسعودي ـ التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ .
٢٩ـ مسلم ـ الجامع الصحيح ، مصر ١٣٣٢ هـ .
٣٠ـ وكيع ـ اخبار القضاة ، القاهرة ١٩٥٠ .

الفصل السابع

الحيـــاة اليومية في المدينة العراقية

الدكتور بدري محمد فهد
كلية الاداب / جامعة بغداد

الحياة اليومية في المـدن :

كانت المدن العراقية تموج بالحركة فكل يسعى الى رزقه وعمله منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس يتخلل اوقات الاستراحة والصلاة خلال النهار ، اما اذا غابت الشمس وعاد كل انسان الى داره هناك يخلد الانسان الى الراحة ، فأن كان له هــوى معين في امر من الامور انصــرف اليه مثل القراءة او الغناء او سماع وعظ ، او حضور ذكر او غيرها من المناســبات الحاصلة مفرحة كانت او محزنة كالولائم والاعراس والمآتم .

اما في اوقات العطل والاعياد المختلفة فكان الناس ينصرفون فيها الــى مشاغلهم ليلا او نهارا ويمارسون وسائل تسليتهم المختلفة . وكانت تلــك الوسائل التي تملأ فراغهم تنحصر فيما يلي :

ا ـ المجالس الخاصة :

وهي مجالس الاحاديث التي تجري بين الاصدقاء والاهل والاقــران واهل المهنة الواحدة ، وتكون مادة حديثهم اما عن امور عامة مما يشــغل الناس او خاصة تعود الى مهنهم فيتكلمون في همومها ومشاكلها فكان العامة يتكلمون عن صنائعهم فالحائك عن الثياب التي قطعها ونوعيتها ، وشكلها وما سيقوم به في غده ، والحجام عن الذين حجمهم ومقدار ما كسب منهم ثم يصف من كان بخيلا من زبائنه ، ومن كان كريما . والمكاري يتكلم عــن الكراء ومثلهم الخياط والدلال وكذلك الامر بالنسبة لذوي المهن الاخرى كالعطارين والصرافين والبزازين وغيرهم(١) .

وكانت لفئات المجتمع الاخرى كالادباء والعلماء همومها ومشاكلها ومن ثم احاديثها الخاصة بها التي ملأت بطون الكتب من مذكرات ومفاخرات ومناظرات دونها الادباء واوردها المؤرخون في التراجم او غيرها .

وكانت تلك المناظرات تحدث في الدور والمساجد ، وفي قصور الخلفاء والامراء ، وتدور حول الموضوعات المختلفة كالادب والفقه والنحو والصرف والتي تؤدي الى افادة المستمع لما يجري فيها من عرض البراهين والادلة وايراد الامثال . وكان المنشط لامثال تلك المناظرات ازدهار الشغف العلمي . وحب الظهور والتفوق على الخصوم بين ذوي الاختصاص الواحد وطمعا في نيل جوائز الخلفاء والامراء . ورغبة في الوصول الى الحق . وفي مثل هذه المناظرات ظهر الخلاف الشديد في المذاهب الفقهية بين انصار الرأي وانصار الحديث .

وقد حكت لنا كتب الفقه وطبقات الفقهاء مناظرات كثيرة بين اصحاب مالك واصحاب ابي حنيفة وبين الفقهاء والمحدثين . وبين الشافعي ومحمد بن الحسن الى كثير من امثال ذلك .

كما حكت لنا كتب النحو مناظرات بين العلماء في النحو والصرف واللغة كالفصل الذي عقده السيوطيون في كتاب الاشباه والنظائر في (المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات) . وقد استغرق الجزء الثالث كله[٢] . وكالكتاب الخاص في مجالس العلماء لكاتب ابن حنزابة[٣] .

اما مجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة التي يحضرها العلماء والادباء فهي شبيهة بمجالس الادباء والعلماء من حيث المناظرات وسماع الروايات والاخبار الغريبة والشاذة وانشاد الشعر . ولعل اشهر خليفة كانت مجالسه عامرة بالمناظرات هو الخليفة المأمون الذي كان واسع الثقافة ويجيد المناظرة في جميع العلوم .

ولقد حذى الولاة والامراء حذو الخلفاء والوزراء في جذب اهل الادب والفن الى مجالسهم واغراق الاموال عليهم ليملأوا عليهم فراغهم وليشيدوا باسمائهم ويخلدوها في بطون الكتب والدواوين • فقد ورد عن والي الموصل مالك بن طوق انه يكرم الشعراء الذين يحضرون مجالسه ، وممن حضر تلك المجالس من الشعراء مخلد بن بكار الموصلي وله في والي الموصل هذا قصيدة مدح(٤) ومن الشعراء المشهورين دعبل الخزاعي(٥) •

اما مجالس الحمدانيين في الموصل فأمرها مشهور معروف في كتب الادب والتاريخ •

اما في الحلة بعد ان استقرت الامارة المزيدية ، فقد كان لاميرها مجلس عامر قصده الشعراء المشهورين مثل مهيار الديلمي ، وابن الهبارية صاحب كتاب (الصادح والباغم) وهو ارجوزة الفها للامير صدقة المزيدي • ومنهم الشاعر الابيوردي الذي خصهم بقصائد مدح وغير هؤلاء الذين نالوا جوائز من الامير المزيدي هذا فضلا عن شعراء الحلة نفسها ، الذين ساهموا في تنشيط مجالس هؤلاء الامراء •

ومن المرجح ان يكون للقصص الشعبي مكان في هذه المجالس وانها كانت منتشرة في المجتمع البغدادي منذ عهد مبكر حيث كان الكتاب العرب قد الفوا الكتب في الاسمار والقصص واخبار المندرين والمضحكين وما ترجموه من القصص من اللغات الاجنبية •

ب ـ مجالس الغناء :

وهذه المجالس وجدت منذ تأسيس الامصار ، واشتهر جملة من المغنين والمغنيات في الكوفة والبصرة ثم في بغداد بعد ذلك •

فقد وفد الى الكوفة منذ تأسيسها حنين الحيري من الحيرة وكان يحضر مجالس الوالي بشر بن مروان(٦) •

وكان في الكوفة منزل ابن رامين وكان له جوار مغنيات اشتهرت منهن سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وممن الم بداره لسماع الغناء يحيى بن زياد الحارثي ، ومحمد بن الاشعث الزهري المغني ، ومطيع بن اياس . وكانوا يغدقون المال وينشدون اشعار الغزل . فمما قاله محمد بن الاشعث في احدى الجواري وهي سلامة الزرقاء ما يأتي :

أمسي لسلامة الزرقاء في كبدي صدع مقيم طوال الدهر والابد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه وكيف يشعب صدع الحب في كبد

وفي جواري ابن رامين قال الشاعر اسماعيل بن عمار :

هل من شفاء لقلب لج محزوني صبا وحب الى رئم ابن رامين
الى ربيحة ان الله فضلها بحسنها وسماع ذي افانين

ومنها[٧] :

يا رب ان ابن رامين له بقر تحينا وليس لنا غير البراذين

وكذلك كانت دار بربر في الكوفة تحوي قيانا وكن يختلفن الى دار الشاعر مطيع بن اياس ورفقته[٨] .

اما في البصرة فلم تختلف عن الكوفة فقد استقر العرب بها وقصدها الغرباء للتجارة والسكن وطلب العمل فظهر منها الغناء واشتهر جملة من المغنين والجواري المغنيات ، فقد كان لابي النظير عمر بن عبدالملك جوار يغنين ويخرجن الى اهل البصرة[٩] .

وممن سكن البصرة من المغنين مالك بن ابي السمح الذي قدم على الوالي العباسي سليمان بن علي فاحسن الوالي وفادته[١٠] . ثم انقطع لسليمان بن علي . ومن المرجح ان يكون مالك هذا هو مؤسس المدرسة البصرية في الغناء التي اشتهر اصحابها اوائل العصر العباسي . ولم نجد فيهم سوى مغن واحد يسمى عجاجة[١١]. ولكن الشهرة تجمعت حول

المغنيات امثال عاتكة بنت شهدة التي عملت المغني العروف مخارق[١٢] • وسلامة الزرقاء[١٣] التي اشتراها جعفر ابن سليمان بـ ٨٠,٠٠٠ درهم • اما بقية المغنيات الهجينات فكن يتلقين العلم في البصرة قبل ارسالهن الى بغداد• وكان تعليمهن يشمل الخط والنحو والشعر والغناء مما يكسب القيان جاذبية تجذب بها قلوب الرجال •

كان الوسط العقلي في البصرة خير معين على تكوين هؤلاء القيان اللواتي اجبرن على اجادة الغناء فضلا عن بعض المعرفة في النحو واللغة تعصمهن من اللحن والرطانة • ففي البصرة ربيت بذل مغنية جعفر بن موسى الهادي والامين[١٤] • وفيها نشأت عريب[١٥] التي امتد مجدها من خلافة المأمون حتى خلافة المتوكل • وفيها نشأت ميثم الهاشمية التي نضمت الشعر الغزلي وناقشت شعراء الديوان[١٦] •

ولم تخلُ مدينة واسط من مجالس الطرب • فقد سكنت المدينة عناصر اعجمية ، وزاد المال لدى بعضهم فكانت هناك مجالس شراب ولهو ومجون[١٧] •

كما كان الولاة والامراء يجلبون الى واسط من يرغبون في سماعهم كما فعل امير الامراء ابو الحسين بحكم اذ طلب ثلاث جوار مغنيات احداهما فرحة البيضاء ، واخرى يقال لها رباب صفراء وثالثة كانت لام الخليفة الراضي ، فحلين له • ثم أن هذا الامير اشترى جارية اخرى كانت لبنت ابن حمدو النديم بثلاثة الاف دينار[١٨] •

اما بغداد فانها جذبت اليها ارباب الصنايع والمهن واهل الفن حيث اصبحت عاصمة الدولة العباسية وقلبها النابض بالحياة والمال والجاه ، وهكذا تحول اليها الغناء واتاها المغنون من كل صوب ولم يكن الخلفاء يبخلون عليهم بل هالوا عليهم المال كالمهدي والهادي والرشيد والمأمون •

والى الرشيد يرجع الفضل في ظهور كتاب الاغاني لابي الفرج حيث كان الرشيد قد طلب ان يختار له احسن الاصوات (اي احسن الابيات المغناة) فتألفت لجنة من ابراهيم بن اسحاق الموصلي ، واسماعيل بن جامع ، وفليح بن ابي العوراء فاختاروا له ما اراد ، وقد جمع ابو الفرج تلك الاصوات وشرحها واتسع في اخبار شعرائها ومغنيها ومن غنيت له فكان كتاب الاغاني المشهور .

وممن احب الغناء الامين ، والمأمون وكان الاخير قد اشترى الشاعرة المغنية عريب بـ ١٠٠٠٠٠ درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته . وكان الواثق اشد كلفا بالغناء لانه يعرف الضرب على الاته[١٩] .

ولما بنيت سامراء واتخذها الخلفاء مقرا لحكمهم ، اصبحت قصورهم وقصور وزرائهم ، وقادتهم تحوي مجالس الندماء واهل الفن ، فكانت تحفل بالمغنين امثال اسحاق الموصلي ، ومخارق . وجملة من الجواري وقد اشتهر بعض الخلفاء بميلهم الى سماع الشعر والغناء ، او الاجادة على عزف بعض الالات الموسيقية .

فكان الواثق اديبا يجيد تلحين الغناء ، والمتوكل يحرص على مجالس الشعراء والمغنين[٢٠] . وكان المنتصر قبل استخلافه يحسن الغناء ، ويقول الشعر[٢١] . اما المعتز فكان شغوفا بالطرب والغناء[٢٢] . وكذلك كان المعتمد على الله[٢٣] .

وكانت للغناء اصول استقرت منذ العصر العباسي الاول ، واصبح للموسيقى بشكلها الرياضي النظري او بشكلها النغمي التطبيقي وكتبوا اخبار المغنين والمغنيات .

واصبح من مشهوري المغنين في العصر العباسي ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، وابن جامع ، وابراهيم بن المهدي ، ويحيى المكي ومنصور

الخرشي ، ومحمد بن الحارث بن بسخفر ، ومخارق ، وعلوية ومن المغنيات سارية ، وريق ، وصدوف[٢٤] .

ولم ينقطع الغناء في العصور التالية انما لـم يقيض لـه مؤرخ او اديب كابي الفرج يجمع اخبار الغناء والمغنين . فقد ورد في اوائل القرن الرابع الهجري سنة ٣٠٦ هـ/٨١٩ م انه حصيت المغنيات فبلغن ٤٦٠ مغنية من الجواري في جانبي بغداد ، و ١٠ من الحرائر و٧٥ من الصبيان وكان هـذا الاحصاء لمن اشتهر بالغناء ، اما من كان يغني خفية فلم يعرف عدده . فضلا عمن كان يغني في المدن الاخرى[٢٥] .

ج ـ مجالس القصـاص :

يبدو ان اسم القاص اختلط باسم الواعظ في اوائـل العصر الاسلامي ثم حصل التمايز في العهود التالية ، فقد اورد الجاحظ اسـماء قصـاص ؛ كانوا يعظون في المساجد مثل صالح المـري العابد[٢٦] ، وموسـى بن سيار الاسواري الذي وصفه بانه كان من اعاجيب الدنيا[٢٧] . وابي كعب الـذي كان يقص في مسجد عتاب[٢٨] . والذي يعنينا هو القـاص الشعبي الـذي يسرد على مسامع الناس القصص لغرض التسلية وملء الفراغ .

وكان القاص يجلس في الطرقات ، وفي المقابر والجوامع والاسـواق يذكر للناس شيئا من الايات والاحاديث واخبار السلف ثم يعرج على ذكـر الحكايات . كان كل ما يذكره من حفظه سواء كان واقفا او جالسا علـى كرسي ، والقاص يختلف عن الواعظ في كونه يهتم بسرد القصص الماضـية وتقديم الشروح لها بينما كان هم الواعظ شرح الاعتقاد الاسـلامي الصحيح وتخويف الناس عاقبة الابتعاد عن تعاليم الله ، وجذب الناس الى الايمـان وشرح ما يهم الناس في حياتهم كما اسلفنا .

ان مجالس القصص كانت تراثا شعبيا عريقا ورثـه العراقيون عـن اسلافهم عرب الجزيرة ، ونتيجة اقبال الجمهـور على القصص وحضـور مجالسه دفع ذلك الوراقين ابتداء من القرن الثالث الى كتابة القصص فاشتهر منهم ابن دلان (احمد بن محمد) واخر عرف بابن العطار فضـلا عما كتبه الادباء والاخبـاريون من كتب الخرافات والاسمار والاحاديـث واخـبار العشاق والفرسان كما مرت الاشارة الى حصول الترجمة عن الامم الاخرى •

لم يكن حضور مجالس القصص مقصورا على الرجال فقط بل قـد حضرت النساء ايضا وكان الحضور يجلسون للسماع طويلا اما الطرق التي كان يستعملها القصاص لجلب انتباه المستمعين فكانت متنوعة منها انشادهم الاشعار الغزلية في العشق او اظهارهم التواجد والتخاشع او اتيانهم حركات تنسجم وقراءتهم الملحنة التي تشبه الغناء وقد يصفقون بايديهم او يعملون ايقاعهم بارجلهم • وقد ينشدون اشعار النواح على الموتى وما يجري لهم من البلاء او يذكرون الغربة ومن مات غريبا ولما كانت النساء ارق عاطفة من الرجال لذلك كن اسرع تأثيرا بهذه الطرق البارعة فيشرعن في البكاء والعويل وعند ذلك يستبشر القصاص خيرا بهذه البادرة لانهـا تجلب انتباه الناس اليهم وتزيد في عدد مستمعيهم لذا كان وجود القصاص رغم كون مجالسهم ملهاة للجمهور خطرا على الدين والثقافة بصورة عامة وذلك لان مستواهم الثقافي لم يكن جيدا فهو لا يرقى الى مستوى الوعاظ الفقهاء او المحدثين لذا وردت عنهم احاديث مكذوبة وتفسيرات مضحكة لايات القرآن او الحديث النبوي لهذا كانت الحكومة والعلماء ينظرون اليهم نظرة تغاير نظرة العامة • ففي سنة ٢٧٩هـ نرى انه لا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاص ولا منجـم ولا زاجـر •

واستحلف الوراقون ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة لان تلك الكتب اعتبرت مثيرة للفتن(٢٩) • وقد تكرر هـذا المنع سنة ٢٨٤ هـ(٣٠)

وفي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م منع القصاص من الكلام ايضا اذ اعتبرهم مثيرين للفتن ايضا(٣١) ، اما موقف العلماء من القصاص فقد كان فيه انكار لاقوالهم واعمالهم وادى ذلك الى الاحتكاك بهم وكانت العامة تقف الى جانب القصاص في امثال تلك المواقف وذلك لان العوام جهال يرون في كلام القاص وضوحا يجري على حسب ميولهم وغرائزهم ويرضي طموحهم باسلوب بسيط يكون هزله اكثر من جده .

ومن الذين حاربوا القصاص الدار قطني علي بن عمر (ت٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) واحمد بن المظفر (ت ٤٤١ هـ/١٠٢٩ م) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣ هـ) واحمد ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) من حفظة الحديث والمتصوف المكي كما نظر اليهم بعض المؤرخين نظرة غير محترمة فوصفهم المسعودي (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) بانهم يروون الاكاذيب ووصفهم المقدسي (ت ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م) بانهم يروون الاعاجيب والترهات والاباطيل وان قصصهم ما هي الا تزاوير . وقال عنهم البيروتي (ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) بانهم لا يرجعون الى تحصيل . واما الخطيب البغدادي ، والمؤرخ ابن الجوزي (٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م) فانه كان واقفا لهم بالمرصاد يرد عليهم ويفند اقوالهم ويفضح اكاذيبهم . وقد صرح بذلك في عدة مواضيع من كتبه كما في (الموضوعات) وفي (تلبيس ابليس) و اخبار و (اخبار الحمقى) ثم يكتف بذلك فخصص للحديث عنهم كتاب (القصاص والمذكرين)(٣٢).

مجالس الوعظ :

كانت مجالس الوعظ مدارس شعبية اخذت على عاتقها تثقيف الناس خلال العصور الاسلامية ، وكانت هذه المجالس تعكس حرية التدريس فقد كان مسموحا لاي فرد أن يحضر مجالس الوعظ ، وأن يسأل عما يجول بخاطره من الاسئلة التي تتعلق بالدين او المسائل اليومية التي لها مساس بالشرع .

وكانت الحكومة تراقب الوعاظ فاذا ما عرفت عن بعضهم انه يسيء القول او يشتط في احكامه مما يؤدي الى حدوث فتنة مذهبية ارسلت اليه ثم احضرت الفقهاء ليناقشوه في اقواله ونتيجة لهذه المناقشة قد يحكم الخليفة على ذلك الواعظ بمنعه من الوعظ او طرده من العراق اذا كان وافدا عليه .

ان مجالس الوعظ لابد انها قد افادت كثيرا في حفظ بعض التراث العربي الاسلامي من مثل وقيم خلقية نتيجة لتكرار سردها والتأكيد عليها باشكال مختلفة .

ان هذه المجالس كانت تعقد في المساجد والمدارس الا انها عقدت ايضا في المقابر كمقبرة احمد بن حنبل في مواسم معينة في السنة . او في مقبرة معروف الكرخي او في المحال . وكذلك عقدت في رباطات الصوفية[٣٣] .

وسائل التسلية :

وهي ممارسه امور تملي فراغ الانسان وتشغله في حياته مثل تربية الحمام، والديكة ، والخيل ، وكانت هذه الهوايات موجودة منذ صدر الاسلام ، ولم تكن النظرة اليها من قبل الفقهاء محترمة لانهم يشعرون ان فيها اضاعة وقت في غير جدوى . الا ان تلك الانشطة لم تنقطع واستمرت ممارستها طوال عصور الخلافة . فتربية الحمام لشكله الجميل ، وقوة طيرانه هواية مارسها الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية ، مارسها الصغار والكبار ، الاشراف والصعاليك .

وفي ذلك يقول الجاحظ (وهي شيء يتخذه ما بين الحجام الى الملك الهمام) .

وكان للحمام سوق في الجانب الشرقي من بغداد يتردد اليه اهل هذه الهواية للبيع والشراء ويبدو انهم من الكثرة بحيث وصفوا ذات يوم انهم قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضا .

ويبدو ان مدن العراق الاخرى لم تكن تخلو من هذه الهواية. فالجاحظ قدم لنا معلومات عن اختلاف اهل البصرة عن اهل بغداد في تفضيل جنس على جنس او نوع على الاخر[٣٤] .

اما الفروسية وتربية الخيل والاعتناء بها فكانت هواية عربية قديمة. وكانت تستهوي الخلفاء والامراء والوزراء والقادة كما استهوت الشباب لما فيها من الوان الشجاعة . فكان الفارس يتدرب على السلاح كالضرب بالسيف والرمح او الرمي عن القسي بالنبل او البندق .

وفضلا عن استعمالهم السلاح فانهم كانوا يخرجون الى الصيد واسلحتهم في ذلك متنوعة بحسب الحيوانات التي يريدون صيدها وقد افاضت كتب التاريخ والادب ولا سيما دواوين الشعر بوصف حلبات الخيل التي يجري السباق فيها . او الخروج الى الصيد واصطحاب الفهود او الكلاب لذلك .

ان براعة الشباب في استعمال السلاح ادت الى جعلهم مستعدين دائما للدفاع عن ثغور البلاد العربية الاسلامية . وعن بغداد في اوقات الازمات السياسية كما حدث عام ١٩٧ هـ/٨١٢ م عند محاصرة جيش المأمون لبغداد ، وعام ٢٥١ هـ/٨٦٥ م عند حصار بغداد لاجبار الخليفة المستعين على الاعتزال ، وعام ٤٥٠ هـ عند حدوث عصيان البساسيري للخليفة القائم بامر الله ، وعام ٥٢٠ هـ/١١٢٣ م ، و٥٤٣ هـ/١١٤٨ م ، و٥٢٢هـ/ ١١٥٧م في نضالهم لجيش السلاجقة وابعادهم عن العراق[٣٥] .

والى جانب ما تقدم كانت هناك هوايات اخرى اولع بها بعض الناس. ولقد اطلق على فئات من الشباب ساهمت في الدفاع عن بغداد في تلك الازمات باسم العيارين والشطار والذين استمر وجودهم حتى استخلف الناصر لدين الله (٥٧٥ــ٦٢٢ هـ/١١٧٩ــ١٢٢٥ م) وعند ذلك نظمهم

تحت اسم الفتوة وجعل لها طقوسا خاصة ومراسيم لابد من ادائها لمن اراد الدخول في فتوته . مثل مهارشة الديكة ، والسمان (او السماني) والكباش والقبج ، وتربية الصقور والشواهين للصيد[٣٦] .

وكان للصبيان في كل عهود الدولة العباسية لعبهم التي تملا فراغهم وتشعرهم بالتسلية مثل اللعب بالجوز[٣٧]

الاوقاف (الاحباس) والخدمات المجانية

الاوقـاف :

أن الخدمات الحكومية لم تكن لها او لبعضها صفة الدوام في كثير من الاحيان مما اضطر المدينة الى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها . ومن هنا ظهر لها مورد مالي اخر ادى دورا هاما في اقتصادها الا وهو نظام الوقف او الحبوس ، وهو نظام اسلامي مازال حيا ، وهو الاراضي او المؤسسات التي تكون ملكا لشخص حر التصرف في ماله ثم يتنازل عن حقه في عائدها او دخلها ويجعل هذا الدخل وقفا محبسا وبصفة دائمة على جهات البر والاحسان وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية كالمساجد والخوانك (الخانقاه) والطواحين والحمامات ، والبيمارستانات[٣٨] .وريع تلك الاموال الموقوفة (المحبسة) صدقة جارية فانها من هذا المنطلق نهضت برسالة ضخمة في رعاية المؤسسات الاجتماعية والخيرية وادامة عملها فكان عمل الاوقاف تأمين الرعاية الاجتماعية في المدن[٣٩] . لاطعام المعدمين ورعاية المرضى في البيمارستانات ، ولقد اوكلت الاوقاف الى الثقات المشهورين بعدالتهم وحسن سلوكهم الاجتماعي كما عهدت الى القضاة .

الصـدقات :

وكانت الصدقات على نوعين بعضها توزع بشكل دائم واخرى بشكل مؤقت مما يقدمه الخلفاء والسلاطين في الدولة الاسلامية الى الفقراء والمحتاجين من مال او كساء او طعام وخاصة في اوقات الازمات الاقتصادية .

لقد كان الكرم وقرى الضيف من شيم العرب منذ اقدم عصورهم وقد اكدها الاسلام ـ إلاّ اذا كان فيها اسراف من قبيل المباهاة ـ لهذا التفت ولاة الامور في الدولة الى أمر الصدقات للفقراء او الغرباء منذ بداية الاسلام حتى اصبحت اقامة الدعوات والمآدب عادة معروفة لبعض الولاة التي حفلت بالوان الطعام فمن هؤلاء زياد بن ابيه حيث كان يطعم السابلة والفقراء وذوي الحاجات فكان يغذي ويعشي عامة الناس كل يوم عدا الجمعة فكان يعشي ولا يغذي وكان لا يرد عن طعامه احد(٤٠) .

اما ابنه عبيدالله بن زياد فكان يقدم طعامه لخاصته وحرسه ولم يكن له طعام للعامة(٤١) .

وكان الحجاج يطعم في كل يوم الف رجل على مائدته وعلى كل واحدة منها ثريد وجداء مشوية ، وسمك . وكان يجلس الى كل مائدة منها عشرة رجال وكان له ساقيان يطوفان بين الموائد احدهما يسقي الماء والعسل والاخر يسقي اللبن(٤٢) .

وقد سار بعض سراة الكوفة على نهج ولاتهم في اطعام الناس فظهرت جماعة يتبارون في عمل الولائم فكان منهم من ارسل الجفان ملأى بالطعام في احياء القبائل وعلى افواه السكك والدروب لاطعام الناس وكانت هذه الولائم تكثر في شهر رمضان(٤٣) .

وجاء عن احد ولاة الموصل في عام ١٤٤ هـ انه كان يقدم الغداء مجانا في وقت معلوم فيدخل داره من يريد الطعام . وكان ممن دخل في زمرة الداخلين واكل دون أن يعرفه احد (ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن علي بن ابي طالب) هاربا من ابي جعفر المنصور(٤٤) .

اما الولائم واخراج الطعام للفقراء والغرباء في المناسبات فكان يتم في المناسبات الدينية كحلول شهر رمضان ، وشهر رجب والعيدين

لقدورد ان الخليفة المهدي قدم الموصل وكان معه ابنه الرشيد ونزل في قصر أخيه جعفر الذي بناه في الموصل فاتته البشارة ان ولده موسى قد رزق بولد وهو (جعفر بن موسى) فأمر الخليفة المهدي بعض اخواله من حمير ان يخرج الى الناس ويبشرهم ويقدم اليهم الاخصبة (وهي طعام من تمر وسمن)[٤٥] .

وجاء في اخبار سنة ١٦٧ هـ ان الخليفة المهدي امر بتوسيع جامع الموصل وذلك عند زيارته لها ، ومن اجل تنفيذ هذا الامر هدم موضع المطابخ التي كان للناس فيها في شهر رمضان[٤٦] .

استمرت الصدقات خلال العهد العباسي تخرج من دار الخلافة وتعطى للفقراء ، جاء في اخبار سنة ٦٤٠ هـ ان الخليفة المستنصر امر باخراج ٦٠٠٠ر٦ دينار لتوزع على ارباب الحاجات[٤٧] .

اما الصدقات المستديمة مثل صدقات شهر رجب فكانت توزع عند حلول هذا الشهر من كل عام[٤٨] . ولم تكن هذه الصدقات توزع داخل بغداد العاصمة فقط بل كانت ترسل الى اماكن اخرى من العراق[٤٩] . كما ارسلت احيانا الى المجاورين في الحرمين . فقد جاء عن الخليفة الناصر لدين الله انه كان يرسل في كل سنة ٠٠٠ر٤ دينار للصدقة ، و ٢٥٠٠ ذراع قماش من القطن لتكفين من يموت من الفقراء ، فضلا عما كان يرسله لترميم المساجد والابنية والمرافق ذات النفع العام وشراء ما تحتاج اليه المرافق من قناديل وسيرج[٥٠] ومشمع ، وند[٥١] ، وغالية [٥٢] ، وعود لاجل التبخير ، ولاسيما في المسجد النبوي الشريف[٥٣] .

وقد تخرج الصدقات من مخزن دار الخلافة عند وفاة احد كبار رجال الدولة كما حدث عند وفاة الوزير نصير الدين احمد بن محمد الناقد البغدادي ، حيث اخرج ٩٠ راسا من البقر و ٠٠٠ر١٥ رطلا من الخبز و ١٥٠ قوصرة من التمر[٥٤] وذلك سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[٥٥]

وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة في اثناء زيارته لبغداد ما كان يخرج من طعام للفقراء من مشهد ابي حنيفة(٥٦) .

دور الضيافة :

انتبه الولاة منذ تأسيس الامصار الى ضرورة ايجاد محل للغرباء او المسافرين المارين بالعراق او بعض مدنه ، فاوجدوا دور الضيافة فمن ذلك ما حصل في خلافة عمر بن الخطاب حيث اتخذت دار عبدالملك بن عمير بالملطاط في موضع ما بين الكوفة والحيرة للضيفان ، ينزلها من يرد من الافاق(٥٧) .

ولم ينس خلفاء بني العباس امر دور الضيافة ، لذلك انشأوا (ديوان الطبق) اواخر الدولة العباسية ليعنى بامر ضياع موقوفة على ضيافة الدولة العباسية للفقراء في ايام الحج وشهر رمضان(٥٨) .

اما كيف اشتق اسم هذا الديوان فيوضحه الخفاجي عند شرحه لكلمة (الطبق)(٥٩) ، اذ يقول (اهل بغداد يسمون السماط طبقا) ثم استشهد ببيت للشاعر الحيص بيص (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٨ م)(٦٠) .

في كل بيت خوان من مكارمه   يميرهم وهو يدعوهم الى الطبق

اما هذه الضياع الموقوفة فقد كانت محيطة بنهر دجلة الذي كان موجودا منذ صدر الاسلام وانه يتفرع من ضفة دجلة اليمنى وقد ازدهرت على ضفافه عدة مدن وقرى مثل دجيل ، مسكن ، حزي ، العلث ، الحضيرة ، عكبرا الا ان تحول مجرى دجلة الى جهة الشرق تاركا هذه القرى والمدن الى غربه على مسافة بعيدة عنه . دفع الخليفة المستنصر بالله الى تحويل صدر نهر دجيل (اي بدايته) شمالا وتوسيعه وفتح عدة فروع من ضفته اليسرى لارواء الاراضي والقرى التي تركها دجلة من دون ارواء لذلك يسمى (دجيل المستنصري) واوقفه على دور الضيافة وما زالت القنطرة

التي كانت عليه قائمة تحمل تاريخ بنائها وهو سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م ، وتسمى قنطرة دجيل ، ويقع دجيل المستنصري في شمال بغداد على بعد عشرة فراسخ[٦١] .

فكانت مهمة ديوان الطبق الاشراف على دور الضيافة الموجودة في جانبي بغداد والتي توزع فيها الاطعمة على الفقراء في المناسبتين المذكورتين ، وان هذه الدور كانت تزاد حسب رغبة الخليفة فقد زيدت داران عام ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م احداهما بدار الخلافة لاولاد الخلفاء المقيمين في دار الشجرة ، والاخرى بجرية ابن جردة للفقراء الهاشميين[٦٢] .

وممن وردنا اسمه انه تولى النظر في هذا الديوان اسماعيل بن علي بن الحسين ابو محمد الفقيه غلام ابن المنى وقد ذمت سيرته فعزل وحبس ثم خمل ذكره حتى مات سنة ٦١٠ هـ/١٢١٣م[٦٣] وجاء في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م انه صرف ابن محمد بن غزالة من نظارة الطبق ورتب عوضه مجد الدين علي بن امسينا الذي وصف بمعرفته الكتابة والحساب وانه عندما رتب مشرفا بديوان الطبق خلع عليه بدار الوزير مؤيد الدين[٦٤] وهذا يظهر انه رتب ناظرا ثم جعل مشرفا بعد ذلك ، ثم عزل في جمادي الاولى من سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م ورتب بعده عزالدين محمد بن الحسين البادرائي المتوفى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م [٦٥] . وفي سنة ٦٤٤ هـ /١٢٤٦ م رد النظر على ديوان الطبق الى صدر الديوان ابي المظفر علي بن النيار وهذا يظهر انه كان متوليا النظر من قبل ، الا انه لم يرد في أي فترة كان ذلك ، وجاء في تتمة الخبر عنه انه رد اليه النظر لكي يحل محله متوليه نجم الدين محمد بن طراح الذي لم تذكر سنة ولايته . وجاء عن ابن النيار ايضا انه بعد ان استقر في ديوانه عزل مشرفه ولم يذكر السبب ان كان من قبيل الثقة بابن النيار كناظر لهذا الديوان وانه ليس هناك حاجة لوجود مشرف عليه ، ام لسبب اخر ما زال مجهولا ؟ والمهم انه اكتفى بوجود كاتب ونائبي

النظر والاشراف فضلا عن ناظر هذا الديوان • وفي هذا الخبر يتضح لنا عدد موظفي هذا الديوان فأن له ناظرا للديوان وهو رئيسه ثم مساعدين ينوبان عنه احدهما للنظر والاخر للاشراف ، ثم كاتبا • ومع هذا فما زال الغموض يحيط بعمل هؤلاء واختصاص كل منهم ثم العلاقة ما بينهم وبين الرئيس • وجاء عن ابن النيار هذا انه استطاع ان يعمر ضياع هذا الديوان ويزيد في حاصله بعد ان اضطرب حال عقاره وضياعه وقل حاصله •

ان واردات هذا الديوان لم تكن تخرج طعاما من دور الضيافة فقط بل كانت تخرج بشكل نقود عينية تعطى للمحتاجين ، جاء في سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م انه برز امر من الخليفة بان يعطي من مال الطبق ثمانية الاف دينار فتسلم الى الوزير وتفرق كالاتي : الف دينار لفقراء العباسيين ، والف دينار للفقراء المقيمين على تربة الامام احمد بن حنبل وقبر الشيخ معروف الكرخي ، والف دينار لفقراء الطالبيين ، والف دينار لفقراء مشهد الحسين ، والف دينار للشرفاء المقيمين بدار الشجرة في ضمن دار الخلافة والفان للفقراء المجاورين في مشهد علي بن ابي طالب من العلويين ، والف دينار لفقراء الجانب الغربي[٦٦] •

وقد استمرت دور الضيافة تؤدي عملها حتى اخر العهد العباسي فقد جاء في سنة ٦٤٥ هـ ان دور الضيافة فتحت في جانبي بغداد واعطيت الاطعمة لافطار الفقراء ، وفرق الدقيق والغنم والنقود على جميع المدارس والربط ، والمشاهد والزوايا[٦٧] • وفي عزة غرة شهر رمضان سنة ٦٤٨ هـ فتحت دور الضيافة على العادة في جانبي بغداد وفرقت الوظيفة الرمضانية من الغنم

والدقيق والنقود على المـدارس والربط(٦٨) • ثـم في سنة ٦٥٢ هـ فرقت الوظيفة الرمضانية وفتحت دور الضيافة على هذه العادة الجارية(٦٩) •

البيمارستانات (المستشفيات) :

بنيت البيمارستانات في العصر العباسي لتأوي المرضى وتقـدم لهـم العلاج المجاني وتتعاطف مع العجزة والمجانين • وكان اول بيمارستان بني في بغداد هو الذي بناه الرشيد والذي تولى رئاسته الطبيب ماسويه وجعـل الاشراف عليه لطبيب الخليفة الخاص جبرائيل بن بختيشوع وبقيت بغداد ليس فيها الا هذا البيمارستان حتى حكم الخليفة المعتضد المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م حين اسس مولاه وقائد جيش بدر الحمامي بيمارستانا باسمه في محلة المخرم • وتوالى ظهور البيمارستانات بعد القرن الثالث الهجري/التاسـع الميلادي وقبل ان ينتهي القرن الرابع الهجري وصل عدد البيمارسـتانات ببغـداد ما يزيد على الستة بيمارستانات كما وصل عدد الاطباء ما يزيـد على ٨٦٠ طبيبا ممن يشتغل في البيمارستانات او خارجه • ولم يكن لهذا العـدد مـن البيمارستانات او الاطباء نظير في اية مدينة في العالم قبـل حلول القـرن التاسع عشر الميلادي(٧٠) •

وقد انتشر بناء البيمارستانات في المدن العراقية الاخرى فكان هناك بيمارستان في واسط(٧١) وفي اربل (٧٢) ولكي يطلع الخلفاء على اعمال الاطباء وصلتهم بالمرضى ، واخلاصهم للصنعة وصدق ممارستهم فيها نصبوا عليهم (رئيسا) هو في الغالب من اطباء الخليفة المتقدمين في المهنة وممن يحسـن

ممارستها • ورئاسة الاطباء تنظيم انضباطي مهني كان معمــولا به عنــد اليونانيين حتى العهود البيزنطية •

كما نصب الخلفاء العباسيون محتسبا على الاطباء ويبدو ان هــذه الوظيفة كانت تخص الجانب الانساني والديني من صناعة الطب •

اما وظيفة رئاسة الاطباء فهي امتحان الاطباء ، وليس المحتسب لمعرفــة معلوماتهم الطبية ، ليمنع من يفشل في هذا الامتحان من ممارسة المهنة(٧٣) •

حفلات اصحاب الدور وسكان المدن : ـ

كان للناس خلال العصر العباسي ما يشغل اوقات فراغهم من حفــلات تبهج نفوسهم • وكانت تلك الحفلات على نوعين ، نوع مما يقام في البيوت ويكون خاصا بعائلة من العوائل منها حفلات الاعراس التي يشتغل بهــا اهــل واهل العريس وتزين الداران، وتعد الاطعمة والاشربة ، والنثار ؛ وهو ما ينثر على الرؤوس من حلوى او قطع نقود معدنية(٧٤) •

وحفلات الختان مما يشغل الاهل ويكون فيها طعام وشــراب ونثار وقد يصاحب ذلك الموسيقى •

والختمة حيث كانوا يحتفلون بختمة الاحــداث للقــرآن المجيد ، فيلبسون احسن ثيابهم ويزينون دورهم ، ويضعون فيها مجامــر الفضة ، ويوقدون فيها القناديل او الشموع ، ويدعون اليها بعض علمــاء الديــن لحضور امثال هــذه الحفلات ، كما يدعون اهل المحــلة مــن نســـاء ورجــال(٧٥) •

والى جانب الاحتفال بختمات الاحداث كانــوا يحتفلون بســماع الاحداث للحديث النبوي الشريف واحتفالهم بذلك كاحتفالهم بالختمات او يدعو والد الحدث اصدقاءه الى وليمة يعملها لهذه الغاية(٧٦) •

اما حفلات المدن فكانت متنوعة بتنوع المناسبات والاحداث المفرحة التي يساهم فيها اوسع عدد ممكن من الناس وهي على انواع منها ما هـو من قبيل النزهة كالخروج الى المتنزهات خـارج المدن مـن المروج والبساتين حيث الخضرة والمياه الجارية والزهور البرية • وقد حفلت كتـب الادبـاء باخبار امثال هذه المتنزهات مثل كتاب الديـارات للشـابشتي ، ودواوين الشـعراء •

ومن المناسبات العامة التي احتفل بها ، المناسبات الدينية مثل الاحتفال بليلة المولد النبوي في شهر ربيع الثاني كالذي كان يجري في مدينة اربـل (اربيل) • حيث يستمتع فيه الناس بكل انواع الاستمتاع الدنيوي البريء من مأكل ومشرب وملبس وترويح عن النفس بالاسـتماع الى الموسـيقى والاغاني ومشاهدة الصور المتحركة (خيال الظل) الى جانب الاسـتمتاع الديني حيث تعقد حلقات للاستماع الى سيرة النبي(ص) وحلقات القراء يرتلون أي الذكر الحكيم وحلقات الوعظ ، وحلقات الذكر حيث يقوم الذاكـرون بطريقتهم الصوفية في حلقات يذكرون الله مع انشاد المنشدين ، والحـان الزامرين وضاربي الدفوف •

وقد انتشرت اخبار عظمة احتفال اربـل في البـلاد المجاورة فكـان المسلمون يفدون اليهـا للاستمتـاع بهـذا الاحتفـال كالفقـراء والادبـاء والشعراء والتجـار •

وكان حاكم المدينة مظفر الدين كوكبوري يشترك مع الناس في جميع مظاهر الاحتفال الدنيوية والدينية في بساطة ودون تكلف •

ولقد قدم لنا ابن خلكان وصفا للاحتفال بالمولـد يتبين منه روعـة الاحتفال وعظمته قال ابن خلكان (ان الاستعداد للاحتفال يبدأ من شـهر المحرم في كل سنة حيث يصدر مظفر الدين امره بالبدء بنصب قبته الخاصة ،

ثم يأخذ الامراء والاعيان في اقامة قبابهم على نفقته تمتد على طول الطريق من باب قلعة المدينة حتى باب الخانقاه المجاورة للميدان) .

وتصنع القباب من الخشب ، وهي قباب ضخمة عالية ، حيث تحتوي كل قبة على اربع او خمس طبقات ويستمر نصبها حتى اوائل شهر صفر حتى اذا انتهوا من نصبها يبدأون بتزيينها بالاقمشة الناخرة ذات الالوان الجميلة المختلفة حتى اذا انتهوا من ذلك تبدأ فرق الملاهي تحتل اماكنها في القباب ، فتتخذ كل فرقة مجلسها في طبقة من طبقات القبة ، فتشغل فرقة المغنين احدى الطبقات وتشغل طبقة اخرى فرقة اصحاب (خيال الظل) ، وتشغل طبقة ثالثة فرقة الموسيقيين ، وتشغل رابعة فرقة اللاعبين أي ان كل طبقة من طبقات القبة تشغل فرقة تختلف عن غيرها حتى تشمل القبة كل انواع الملاهي فيكون للناس فرص كثيرة لمشاهدة اكثر من فرقة لنوع واحد من الملاهي في كل قبة .

وما ان تستقر كل فرقة في طبقتها من القبة حتى يبدأ الناس بالاستمتاع بالاحتفال ، فيغص المكان بالمتفرجين من اهل اربل وغيرها ممن وفد من البلاد المجاورة لها .

وكان مظفرالدين يشارك الناس افراحهم ويختلط بهم ، فكان ينزل كل يوم بعد صلاة العصر الى مكان الاحتفال وينتقل بين القباب ويقف عند كل قبة ، فيسمع الغناء والموسيقى ، ويشاهد ارباب الخيال وما يعرضون من الصور والمشاهد ، ويظل يتنقل من قبة الى اخرى حتى يأتي عليها كلها ، وذلك ارضاء للامراء والاعيان اصحاب القباب وترضية لمن فيها من ارباب الملاهي ... فاذا انتهى من القباب اتجه الى الخانقاه حيث يكون المتصوفة مستعدون لاقامة الذكر فيشترك معهم في حلقاتهم ويتواجد ويرقص ويتمايل معهم . ويظل في الخانقاه حتى يؤدي صلاة الصبح ، ثم يخرج الى ما قبل

الظهر ثم يعود الى القلعة . وكان يسير على هذا البرنامج كل يوم الى ان تحين ليلة المولد .

ويستمر الناس في الفرحة والاستمتاع بالاحتفال منذ شهر صفر الى ما قبل ليلة المولد بيومين ، وعندئذ تجمع الابل والابقار والاغنام المعدة للذبح لاطعام الناس ، وهي اعداد ضخمة ثم تخرج من حظائرها الى الميدان لذبحها في استعراض كبير حيث تزفها الطبول والموسيقى والاغاني ويستمر الذبح والطهو طيلة اليومين حتى اذا كانت ليلة المولد صلى مظفر الدين صلاة المغرب في القلعة ثم نزل في موكب كبير الى الخانقاه يحيط به حملة الشموع من امام ومن وراء ، ويتوسط حملة الشموع بغلان او اربعة بغال على ظهر كل بغل شمعة ضخمة من شموع المواكب مربوطة على ظهر البغل ومن ورائها رجل يسندها حتى يصل الموكب فيمكث فيها ليشترك في حلقات الذكر ، ثم يعود بعد ذلك الى القلعة .

فاذا كان صبيحة يوم المولد انزلت الخلع (هدايا من الملابس) على ايدي رجال الصوفية يسيرون في صف طويل حتى يصلوا الى الخانقاه ، حيث يكون الاعيان والرؤساء مجتمعين وحيث يكون قد هيىء موضع لمظفر الدين وكرسي للواعظ .

ويستعرض الجيش على نغمات الموسيقى طوال النهار واثناء الاستعراض يوزع مظفر الدين هداياه على الاعيان ، وذوي المكانة من الضيوف وعلى الفقهاء والمحدثين والادباء والوعاظ والقراء . وفي هذه الاثناء يعد سماطان احدهما لاهل اربل والوافدين اليها . واخر في الخانقاه لمن عند مظفر الدين من ذوي المكانة .

ويستمر الامر كذلك الى ما بعد صلاة العصر ثم يبقى مظفرالدين في الخانقاه حيث تقام حلقات الذكر حتى الصباح وبشروق الشمس تنتهي الاحتفالات .

ومممن زار اربل في موسم الاحتفال بليلة المولد النبوي الرحالة المغربي ابن رطية فألف كتاب (التنوير في المولد السراج المنير)[٧٧]

أما حلول شهر رمضان فكان الاحتفال به يجري على الصعيدين الرسمي والشعبي فكانت الحكومة عند حلوله تبادر الى توزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وتعنى باضاءة المساجد ليلا بالمصابيح ، ويحيي الناس لياليه بصلاة التراويح ، او بعقد المجالس الخاصة للسمر والحديث ، فاذا قارب الشهر من الانتهاء اخرجت الانعام من دار الخلافة الى الفقراء ، واستعداد الناس لاستقبال عيد الفطر[٧٨] .

اما عيد الفطر فيكون في اليوم الاول من شهر شوال ، وتبدأ رسوم هذا العيد بمراقبة هلال شوال ، ثم الشهادة لدى القضاة عند رؤيته ومن ثم يتم ايصال الخبر الى الخليفة الذي يصدر امره بأذان العيد[٧٩]

وفي صبيحة اليوم الاول للعيد يخرج الناس بملابسهم الجديدة الى المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ، وكان الخلفاء يخرجون في مواكبهم المهيبة . وكان الناس يقفون على جانبي الشارع للفرجة .

وكانت العادة ان يخرج استعراض عسكري في بغداد اليوم الاول من العيد ، وفي هذا الاستعراض يظهر الجند بملابسهم الفاخرة ، وقد ركبوا اجود الخيول ويكون الناس واقفين على جانبي الطريق للفرجة ، وكانت بغداد تزين بالاقمشة الحريرية ذات الالوان الزاهية يصاحب ذلك الضرب بالابواق والطبول[٨٠] .

واذا اهل شهر ذي القعدة بدأت احتفالات جديدة بحلول موسم الحج وذلك ان الحجاج يتوافدون في هذا الشهر في واسط والبصرة والكوفة وفي المناطق التي تقع شرق العراق فيجتمعون في الجانب الغربي من بغداد ويضربون الخيم هناك . وتقيم لهم الحكومة مواضع خاصة لشرب

الماء كما انها تقدم لهم الاطعمة وقد يبلغ عدد الحجاج المجتمعين ببغداد عدة الاف قبل سفرهم الى الديار المقدسة . وقد قدر عددهم ابن الجوزي في سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بـ ٢٠,٠٠٠ حاج[٨١] .

وفي خلال هذه الفترة والى ان يحين موعد رحيلهم ترى الشوارع زاخرة بالعامة على اختلاف اعمارهم ، واجناسهم خارجين من دورهم للتفرج على مواكب الحجاج القادمة من بقاع مختلفة وقد لبسوا ازياء مختلفة الالوان والاشكال فيكون في هذا الموسم منظر يدعو الى الانشراح والبهجة[٨٢] .

وكانت الحكومة العباسية تنظم مسيرة الحاج بموكب رسمي له رئيس (امير الحج) ويتقدمه حامل العلم ، وبعده ضارب الطبل ثم جند السفر وعندما يخرج الموكب يكون في توديعه كبار رجال الدولة ومن خلفهم سكان بغداد[٨٣] .

وعند حلول شهر ذي الحجة احتفلوا في اليوم العاشر منه بعيد الاضحى وخرج الناس مبكرين الى المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ثم يخرجون بعدها لينشغلوا بنحر الاضاحي ، وكان الصناع ينشطون في هذه المناسبة لصنع اللعب على اشكال مختلفة لبيعها على[٨٤] .

اما الاحتفالات غير الدينية التي كانت تعم فيها الفرحة فكانت مختلفة كثيرة العدد منها حدوث امور سياسية تتعلق بالخليفة كعودة القائم بامر الله من مدينة الحديثة عام ٤٥١ هـ/١٥٠٩ م الى مقر حكمة ببغداد بعد أن قضى على البساسيري احد العصاة الذين شقوا عصا الطاعة . فلما وصل الخليفة كان وصوله مناسبة مفرحة ، حيث احتفلت الحكومة بذلك فضربت الطبول والبوقات وحملت المشاعل ليلا فخرج الناس رجالا ونساء للفرحة وكان بعضهم يرقص وبعضهم يغني وآخرون يضربون بالدفوف[٨٥] .

وقد يعلن الاحتفال عند شفاء الخليفة او ولي عهده من مرض ألم باحدهما كما حصل عام ٤٥٨هـ/١٠٥٩ م ، وفي عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م[٨٦] .

وكانت الانتصارات العسكرية على البيزنطيين كما حدث عام ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م عند حصول معركة ملازكرات المشهورة مناسبة احتفل بها رسميا وشعبيا[٨٧] وكما حصل في انتصار عام ٤٧٩ هـ ١٠٦٨ م[٨٨] .

اما الانتصارات التي حققها الخليفة ضد تحدي السلاجقة فكانت بمثابة انتصارات وطنية اثارت مشاعر الحماس لدى الناس فاحتفل بتلك المناسبات كما حصل عام ٥٤٧ هـ / ١٥٥٢م[٨٩] وعام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م التي كان الاحتفال بها عظيما حيث اظهر العامة انواع اللعب والمضحكات فمن جملة من برز في هذا الاحتفال جماعة وصفوا بالعظامية فضلا عن القرع والصبيان وكانوا قد اتخذوا زرديات من بعض الغنم وسلاحا من القصب واخرجوا طبلا وبوقا ونصبوا خشبا وصلوا جماعة تحت اباطهم وهم يلعبون ويضحكون[٩٠] .

وتجديد بناء الاسوار حول بغداد او بعض اجزاء سورها كما حصل عام ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م عندما بني سور حول حريم دار الخلافة في الجانب الشرقي ففي هذه المناسبة خرجت العامة لتساهم في بناء هذا السور وهي تحمل الاعلام والابواق وتضرب الطبول ومعهم انواع الملاهي من الحكايات والخيالات وهي الادوات المستعملة في التمثيل والاضحاك . وفي غمرة هذه المناسبة عمل اهل محلة باب المراتب فيلا من البواري المقيرة وتحته قوم يسيرون به ، ثم عملوا زرافة ايضا . وضع اهل محلة قصر عيسى سميرية (سفينة) كبيرة وقد جلس فيها الملاحون يجذفون ، وهي تسير والعوام يشيعونها بالاهازيج الشعبية وعمل اهل محلة سوق يحيى ناعورا ساروا به خلال الشوارع وهو يدور بشكل يشبه الناعور المستعمل في ارواء المزارع . وعمل اهل محلة سوق المدرسة قلعة من الخشب تسير على عجل ، وفيها

غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم يثرا على عجل وفيها حائك ينسج وكذلك عمل السقلاطونيون (صانعو نسيج من الحرير والذهب) .

اما الخبازون فقد جاءوا بتنور يسحبونه وهو يسير خلفهم وكانوا خلال سيرهم يخبزون ويرمون خبزهم للناس المتفرجين على جانبي الطريق[٩١] .

ثم جدد بناء السور في عام ٥١٧ هـ/١١٢٣ م فأذن للناس في الخروج للفرجة والمشاركة في البناء فخرجوا على تلك القاعدة وكان اهل المحال يتناوبون فيما بينهم لبناء السور فكل محلة تعمل فيه لمدة اسبوع ، وفي خلال ذلك كان النفخ بالابواق والعزف بالجنك مستمرا[٩٢]

وكان زواج الخليفة من المناسبات المهمة ففيها يكثر النثار وتكثر الولائم حتى تعم عددا واسعا من الناس فمن امثلة ذلك زواج الخليفة المأمون عام ٢٠٩ هـ فقد نثر في هذا الزواج من المال ما لم ينثره ملك في زواجه قبل الاسلام او بعده ، حيث اصاب النثار مختلف فئات المجتمع كالهاشميين والقواد والكتاب ، وكان النثار على شكل بنادق (كرات صغيرة) مسك فيها رقاع باسماء ضياع وجوار واسماء ديار ودواب وغير ذلك . فاذا وقعت البندقية بيد الرجل فتحها فيجدها على قدر حظه وسعده . ثم نثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج (اوعية) المسك على عامة الناس وبذلك انفق على المأمون ما يحتاج لعرسه ، وانفق على جميع قواده ، حتى على المكاريين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق (اي جندي نظامي) وغيره فلم يكن احد من الناس يشتري شيئا من عسكر المأمون مما يطعم ولا مما يعتلفه البهائم .

واورد المبرد انه كان عدد (الملاحين الذين تصرفوا في هذا العرس ينيفون على السبعين الف ، وكانت جراية السلطان عليهم)[٩٣] .

ولما اراد المأمون البناء بزوجته (أي الدخول) في مدينة فم الصلح جنوب بغداد ، وهو المكان الذي اعد لعرسه ، فرشت له حصير منسوج بالذهب لم يمسه احد من قبل ونثر عليه در ، فلما قدم المأمون الى الموضع ورأى ما اعد له وتفرج عليه ، امر ان يلتقطه من حضر من بنات العائلة العباسية (فمدت كل واحدة منهن يدها فاخذت درة وبقي باقي الدر يلوح على الحصير) فقال المأمون قاتل الله الشاعر الذي شبه الخمر والحبات الذي فوقها بقوله :

كأن صغرى وكبرى من أفاوقها   حصباء در على ارض من الذهب

فكيف لو رأى هذا معاينة .

قيل بلغ ما نثر في هذا العرس الف حبة جوهر ، واشعل بين يدي المأمون شمعة عنبر وزنها مائة رطل[٩٤] .

وممن انفق المال بهذه المناسبة في نساء بني العباس حمدونة بنت غضيض وهي ابنة الرشيد التي انفقت ٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم بينما انفقت ام جعفر زبيدة (أم الامين) مابين ٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠ الى ٣٧ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم[٩٥]. وهذه المبالغ تظهر كثرة ما نفقت من مال رغم ما يشوب الارقام من مبالغات. ولاشك ان تسرب هذه الاموال الى فئات المجتمع العراقي المختلفة يشيع الفرح في النفوس ويجعل خبر هذا العرس مادة لاحاديث الناس لاجيال متعاقبة .

ومن هذا النوع من الزواج الذائع الصيت زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه حاكم مصر الطولوني عام ٢٨١ هـ ، وقد اصدقها الخليفة مبلغا قدره ١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . اما والد العروس فقد جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف . ومن المحتمل ان يكون للخيال دور في هذا التضخيم اذ قيل انه دخل في جملة جهازها الف هارون من ذهب ودكة اربع

قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهرة لا يعرف لها قيمة وعلى طول الطريق من مصر الى بغداد بنى لها قصرا مفروشا به جميع ما تحتاج اليه على رأس كل منزلة تنزل فيها حتى لا تشعر بالوحشة خلال الطريق من مصر الى بغـداد ولكي يلازمهـا شعورها أنها في قصر ابيها ٠

وقد ادى هذا الزواج الى الوفاق المرجو ٠ وكانت مناسبته اشـاعة الفرحة وأتاحة الفرصة للناس للفرجة طوال الطريق الممتد من القطائع عاصمة مصر الطولونية حتى بغداد[٩٦] ٠

ومن هذا الزواج ايضا زواج الخليفة العباسي الطائع لله من (شاه زنان) بنت عز الدولة عام ٣٦٤ هـ على صـداق مقـداره ١٠٠ر٠٠٠ دينـار[٩٧] ٠ وزواج الخليفة نفسه من ابنة عضد الدولة عام ٣٧٠ هـ ، وفي كلا الزواجين حملت الاموال والثياب والاواني والفرش الكثير[٩٨] ، ولا شك ان موكب الجهاز كان عظيما يتناسب ومكانة العريس ٠

وكذلك الامر بالنسبة لزواج القادر بالله من سكينة بنت بهاء الدولة على صداق مبلغه ١٠٠ر٠٠٠ دينار[٩٩] ٠ وزواج القائم بأمر الله من خديجة بنت اخي السلطان السلجوقي طغرلبك على صداق قدره ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، وقد حضر الاملاك من المشهورين قاضي القضـاة ابي عبدالله الدامغاني ، واقضى القضاة ابي الحسن الماوردي ، رئيس الرؤسـاء ابي القاسـم ابن المسلمة وهو الذي تولى خطبة النكاح ٠ وتولى عن الخليفة جلب العروس الى دار الخلافة ، فاكرمها الخليفة اذ طرح عليها مزجية (جبة) منظومـة بالذهب ، وتاجا مرصعا بالجوهر ، واعطاها من غد مائة ثوب ديباج وقضبا ذهبا ، وطاسة من ذهب قد ثبت فيها الياقوت والفيروزج وافـرد لها مـن اقطاع دجلة ١٢ر٠٠٠ دينار[١٠٠] ٠

وزواج الخليفة المقتدي سنة ٤٨٠ هـ من خاتون ابنة السـلطان ملك شاه ، ومما ورد عن الجهاز انه نقل على ١٣٠ جملا وقد سار امامها من يضرب

بالابواق والطبول ونحو ثلاثة الاف فارس • وكان اهل بغداد ينثرون على الجهاز عند مروره بشوارعها • ثم نقل بقية الجهاز على ٧٤ بغلا ، وكان على ستة منها الخزانة ، وهي اثنا عشر صندوقا من فضة ، وبين يديهـا ثلاثـة وثلاثون فرسا ، والخدم والامراء بين يدي ذلك • ثم بعد ايام ركب الوزير ابو شجاع الى زوجة السلطان (ام العروس) طالبا (باداء الوديعة الى الدار العزيزة) اي دار الخلافة فحملت العروس في محفة مرصعة بالجواهر وقـد احاط بمحفتها مئتا جارية من خواصها بالمراكب العجيبة فوصلت الى الخليفة فقدمت اليه تلك الليلة • فأولم الخليفة بهذه المناسبة للعسكر في بغـداد ، وليمة استعمل فيها ٤٠,٠٠٠ من سكر[١٠١] ، وكانت بغداد قد علقت الزينة على الجدران • فكانت مناسبة لا شك قد ادخلت الفرحة والبهجة في عاصمة الخلافة • فكيف بباقي الاطعمة ؟؟•

وزواج الخليفة المستظهر سنة ٥٠٤ هـ من خاتون ابنة السلطان ملـك شاه لا يقل عظمة وهيبة عن زواج من تقدمه من الخلفاء فقد نقل الجهـاز على ١٦٢ جملا و٢٧ بغلا تحف بها الخيل • وزينت بغداد وغلقت الاسـواق ونصبت القباب فشاغل الناس بالفرح[١٠٢] •

ومن هذه المناسبات التي احتفل بها ختان اولاد الخليفة كما حصـل عام ٥١٧ هـ/١١٢٣ م حيث ختن اولاده ، واولاد اخته فكانوا اثنى عشـر ولدا ، فعلقت الزينة ونصبت انواع مـن القباب وعليها الجواهـر والثياب والديباج وقد كتب عليها اسم الخليفة ، وقـد لبس الناس احتفاء بهـذه المناسبة اغلى ثيابهم وتجملوا بالحلى والجواهر طوال ايـام الاحتفال التي استمرت سبعة ايام[١٠٣] •

كانت دوافع هذه الاحتفالات مختلفة بعضها شعور بالفرح ومشاركة وجدانية لبقية افراد المجتمع ، وبعضها شعور وطني تمثل بانتصارات الدولة العباسية ضد خصومها ، وشـعور اسـلامي عند الانتصـار على البيزنطيين اعداء الدولة الاسلامية التقليديين •

الهوامش

(١) بدري محمد فهد : العامة : ٢١٦ .
(٢) السيوطي : الاشباه والنظائر ٣ : ١٥ فما بعدها .
(٣) انظر احمد امين : ضحى الاسلام ٢ : ٥٥ .
(٤) الازدي : ٨٤ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٧٥ ، ٤٢٣ .
(٥) ن٠م : ٣٩٧ .
(٦) الاصفهاني : الاغاني ٢ : ٣٤٩ ط دار الكتب .
(٧) ن٠م ١١ : ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ط دار الكتب .
(٨) الاصفهاني ١٣ : ٣١١ ط دار الكتب .
(٩) ن٠م ٢٠ : ٧٤ ط ساسي .
(١٠) ن٠م ٤ : ١٦٨ ـ ١٧٥ .
(١١) ن٠م ٤ : ١٧٤ .
(١٢) ن٠م ٦ : ٥٦ ـ ٥٨ .
(١٣) ن٠م ٢٠ : ٢٢٠ ـ ٣٤٩ .
(١٤) ن٠م ١٧ : ٣٢ .
(١٥) ن٠م ١٥ : ١٤٤ ـ ١٤٦ .
(١٦) شارل بلات : الجاحظ : ٣٥ ـ ٣٥٣ .
(١٧) المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ١٨٣ .
(١٨) بان الزبير : الذخائر والتحف : ١٨٩ ـ ١٩١ .
(١٩) الاصفهاني ١٣ : ٣٥ ط دار الكتب ، ج ١٨ : ١٨٢ ط ساسي وانظر شوقي ضيف : ٦٠ .
(٢٠) النويري : نهاية الارب ٤ : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣٠٢ .
(٢١) النويري ٤ : ٢٠٣ .
(٢٢) النويري ٤ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٢٣) المسعودي : المروج ٤ : ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢٤) بدري محمد فهد : الخليفة المغني : ٣٦ ، ٣٧ .
(٢٥) بدري محمد فهد : العامة ببغداد من القرن الخامس الهجري .
(٢٦) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٩٣ ، ١١٩ .
(٢٧) ن٠م ١ : ٣٦٨ .
(٢٨) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٢٥ .
(٢٩) ابن الجوزي ج ٥ ق ٢ ص ١٢٢ .
(٣٠) ن٠م : ١٧١٧ .
(٣١) ابن الجوزي ج ٧ : ٨٧ .
(٣٢) بدري محمد فهد : العامة : ٢٣٦ .
(٣٣) بدري محمد فهد ، العامة : ٢٢٣ .

(٣٤) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٢٢٣ .
(٣٥) بدري محمد فهد : العامة : ٢٤٢ فما بعدها .
(٣٦) الجاحظ : الحيوان ١ : ١١٨ ، ٢ : ١٦٣ ، ٣٦٦ ، ٥ : ٤٥٨ .
(٣٧) الجاحظ : الحيوان ٢ : ٢٩٢ .
(٣٨) العبادي : من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ـ عالم الفكر ص ١٣١ .
(٣٩) عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ـ عالم الفكر ص ١٠٩ .
(٤٠) البلاذري : انساب ج ٤ ق ٢ ص ٨٦ .
(٤١) ن.م : ج ٤ ق ٢ ص ٨٦ .
(٤٢) المبــرد : الكامل في اللغة والادب ١ : ٣٢٦ .
(٤٣) الجاحظ : البيان ٣ : ٢٢١ ، المبرد : الكامل ١ : ٢٦٤ ، الزبيدي : ٦٥ .
(٤٤) الازدي : ١٨٠ .
(٤٥) الازدي : ٢٤٣ .
(٤٦) ن.م : ٢٤٨ .
(٤٧) الاشرف الرسولي : ٥٠٦ .
(٤٨) ن.م : ٥٣٦ .
(٤٩) ابن البخار : التاريخ المجدد : ورقة ١٠ أ .
(٥٠) الشيرج : اصلــه السيرج : وهو دهــن السمسم ، الخفاجي : شــفاء الغليل : ١٥٠ .
(٥١) الند : العود المطري بالمسك والعنبر والبان ـ الخفاجي : ٢٦٦ .
(٥٢) الغالية : نوع من العطور استعملها العرب منذ الفترة السابقة للاسلام ـ الخفــاجي : ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٥٣) القلقشندي : صبح الاعشى ٤ : ٣٠٤ .
(٥٤) القوصرة : وعاء من خوص النخيل لحفظ التمر ونقله بها ـ الجوهري : الصحاح ٢ : ٧٩٣ .
(٥٥) الاشرف الرسولي : ٥٢٨ .
(٥٦) ابن بطوطة : الرحلة : ٢٢٣ .
(٥٧) البلاذري : فتوح : ٢٧٧ .
(٥٨) الذهبي : المختصــر المحتاج اليه : هامــش ج١ ص ٢٤٤ ، ابن بطوطة : ج ٤ ق ١ ص ٣٠٦ .
(٥٩) الخفاجي : شفاء الغليل : ١٧٧ .
(٦٠) الامير شهاب الدين ابو الفوارس سعد بن محمد التميمي الشاعر المشهور انظر ترجمته عند العماد الكاتب في الجريدة : القسم العراقي ج١ ص٢ ٢٠ ـ ٣٦٦ .

(٦١) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع : ٩٥٣ ، احمد سوسة : ري سامراء ١ : ٢٢١ ـ ٢٢٤ ، ٢ : ٤٩٢ فما بعدها .
(٦٢) مجهول : الحوادث : ٤٤ .
(٦٣) ابن الفوطي : ج ١ ق ١ ص ٣٠٦ ، الذهبي : المختصر ١ : ٢٤٤ ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ٢ : ٦٦ .
(٦٤) ابن الفوطي : ج ٤ ق ١ ص ٣٠٦ .
(٦٥) ن.م : ج ٥ كتاب الميم : ١٩٢ .
(٦٦) الاشرف الرسولي : ٤٧٠ .
(٦٧) ن.م : ٥٥٤ .
(٦٨) الاشرف الرسولي : ٥٧٨ .
(٦٩) ن.م : ٦٠٣ .
(٧٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ١ : ٢٢٢ ، القفطي : اخبار الحكماء : ١٩١ .
(٧١) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
(٧٢) ابن المتوفي : تاريخ اربل ١ : ٢٤١ .
(٧٣) د . كمال السامرائي : ١ : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(٧٤) بدري محمد فهد : العامة : ٢٥٧ .
(٧٥) ابن الجوزي : تلبيس : ١١٠ ، ٣٨٢ .
(٧٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١١ : ٣٠٢ ، ج ١٤ : ٢٩٢ .
(٧٧) ابن خلكان ٤ : ١١٧ ـ ١١٩ ، وانظر عبدالقادر احمد طليمات : ٢٠٣ .
(٧٨) الكازروني : مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية : ٢٥ دا .
(٧٩) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ١٧١ .
(٨٠) بدري محمد فهد : العامة : ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٨١) ابن الجوزي ٧ : ٢٧٦ .
(٨٢) الكازروني : ٢٤ .
(٨٣) بدري محمد فهد : العامة : ١٩٥ .
(٨٤) الغزالي : احياء ٢ : ٦٧ .
(٨٥) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢١١ .
(٨٦) ابن الجوزي ٨ : ٢٤٠ ، وابن الاثير ١١ : ١٠٢ .
(٨٧) ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢٦٤ .
(٨٨) ن.م ٩ : ٢٨ .
(٨٩) ن.م ١٠ : ١٤٨ .
(٩٠) ن.م ٨ : ١٤٠ .
(٩١) ابن الجوزي : ٩ : ٨٥ ، مناقب بغداد : ١٧ .
(٩٢) ابن الجوزي ٩ : ٢٤٥ ، مناقب بغداد : ١٧ .

(٩٣) المبرد : الكامل ١ : ٣٠٩ .
(٩٤) المسعودي : مروج ٣ : ٤٤٣ ، الشوبشي : شرح المقامات ٤ : ٣٤ ، ٣٤١ .
(٩٥) طيفور : بغداد : ١١٣ ــ ١١٦ ، الطبري : تاريخه ٨ : ٦٠٧ ــ ٦٠٨ .
(٩٦) ابن تغري بدوي : النجوم الزاهرة ٣ : ٥٢ ، ٥٣ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى : ١٠٤ .
(٩٧) ابن الجوزي ٧ : ٧٦ .
(٩٨) ن٠م : ١٠٥ .
(٩٩) ن٠م : ١٧٢ .
(١٠٠) ن٠م ٨ : ١٦٩ .
(١٠١) ابن الجوزي ٩ : ٣٦ ، ٣٧ .
(١٠٢) ن٠م .
(١٠٣) ن٠م .

المصادر القديمة والمراجع الحديثة

ابن الاثير : عزالدين ابو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري (٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م) .
١ ـ الكامل في التاريخ ـ دار صادر ، دار بيروت (١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م) .
د . احمد سوسة
٢ ـ ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ـ مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨ .
احمد امين
٣ ـ ضحى الاسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ .
آدم متز (ت ١٣٣٦ هـ/١٩١٧ م) .
٤ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة د . محمد عبدالهادي ، ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م .
الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد (ت ١٣٣٤ هـ/١٩٤٥ م) .
٥ ـ تاريخ الموصل ـ تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
الاشرف الرسولي : الملك الغساني (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) .
٦ ـ المسجد المسبوك ـ تحقيق شاكر محمود عبدالمنعم ـ دار البيان بغداد (١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م) .
ابن ابي اصيبعه : موفق الدين احمد بن قاسم الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م) .
٧ ـ عيون الابناء في طبقات الاطباء
الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسين الاموري (ت ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) .
٨ ـ الاغاني ـ ط دار الكتب ، وط ساسي .
بحشل : اسلم بن سهل الرزاز الواسطي (٢٩٢ هـ/٩٠٥ م) .
٩ ـ تاريخ واسط ـ تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد : (١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) .
بدري محمد فهد
١٠ـ تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ـ مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٢ م .
١١ـ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ـ مطبعة الارشاد ، بغداد (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) .
١٢ـ الخليفة المغني ابراهيم بن المهدي ـ مطبعة الارشاد ، بغداد (١٣٨٦هـ/١٩٦٧م) .
ابن بطوطة : ابو عبدالله محمد بن محمد الطبخي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) .
١٣ـ الرحلة (او تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) ـ بيروت ،
البكري : ابو عبير عبدالله بن عبدالعزيز الاندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .

١٤ـ معجم ما استعجم ـ تحقيق مصطفى السقا ، القــاهرة (١٣٦٤ هـ / ١٣٦٨ م) .
البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) .
١٥ـ انساب الاشراف ـ مطبعة الجامعة ١٩٣٨ .
١٦ـ فتوح البلدان ـ باعتناء رضوان محمد رضوان ، القاهرة (١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م) .
بلبع : الدكتور محمد توفيق .
١٧ـ المسجد والحياة الدينية الاسلامية ـ مجلة عالم الفكـــر ـ مج ١١ / العـــدد الاول ١٩٨٠ .
ابن تغلدي بروي : جمال‌الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) .
١٨ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ دار الكتـــب ، القاهـــرة (١٣٤٨ / ١٣٧٥ هـ) .
الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد النيســـابوري (ت ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م) .
١٩ـ يتيمة الدهر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميـــد ـ القاهـــرة (١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ م) .
الجاحظ : ابو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) .
٢٠ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعـــة لجنة التاليف (١٩٦٠ ـ ١٩٦١ م) .
٢١ـ الحيوان ـ تحقيق عبدالســلام هـــارون ـ مطبعـــة مصطفـى البابـي (١٣٧٨ هـ/١٩٥٨ م) .
ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسي (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) .
٢٢ـ رحلة ابن جبير ـ دار التراث ، بيروت (١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م) .
الجواليقي : ابو منصور موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م) .
٢٣ـ المعرب من الكلام الاعجمي ـ تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهـــــرة ١٣٦١ هـ .
٢٤ـ تلبيس ابليس ـ صححه محمد منير الدمشقي ، القاهرة .
٢٥ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ـ حيدر اباد الدكن (١٣٥٧ هـ/١٣٥٩ هـ) .
٢٦ـ مناقب بغداد (وهو مشكوك بنسبته لابن الجوزي) ـ تحقيق محمـــد بهجة الاثري ـ مطبعة دار السلام ـ بغداد ١٣٤٢ هـ .
الحسيني : مجد ابو الفيض المتوفى .
٢٧ـ جمهرة الاولياء واعلام اهل التصرف ـ مؤسسة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧ .
ابن حوقل : محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م) .

٢٨ــ صورة الارض ــ مطبعة فؤاد بيان ــ بيروت .
ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م) .
٢٩ــ المسالك والممالك ــ باعتناء ام.جي.ديغويه ــ ليدن ١٠٣٩ هـ.
الخطيب البغدادي : احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) .
٣٠ــ تاريخ بغداد او مدينة السلام ــ تصحيح محمد حامد الفقي ، القاهرة (١٣٤٩ هـ/١٩٣١ م) .
الخفاجي : احمد بن محمد المصري (ت ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م) .
٣١ــ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ــ مطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٥ هـ .
ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ ــ ١٤٠٦ م) .
تاريخه : ط بيروت
ابن خلكان : احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م) .
٣٣ــ وفيات الاعيان ــ تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر .
ابن الدبيثي : محمد بن سعيد (ت ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م) .
٣٤ــ ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ــ ج١ تحقيق د . بشار عواد ، بغداد ١٩٧٤ .
ابن دريد : محمد بن الحسن الازدي البصري (ت ٣٢١ هـ/٩٣٣ م) .
٣٥ــ الاشتقاق ــ تحقيق عبدالسلام هارون ــ مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ .
الذهبي : شمس‌الدين محمد بن احمد (ت ٤٧٨ هـ/١١٤٧ م) .
٣٦ــ المختصر المحتاج اليه ــ تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، ج١ سنة ١٩٥١ ، ج٢ سنة ١٩٦٣ .
ابن الزبير : القاضي الرشيد احمد بن الرشيد (القرن الخامس الهجري).
٣٧ــ الذخائر والتحف ــ تحقيق الدكتور محمد حيدرالله ــ الكويت ١٩٥٩ .
الزبيدي : الدكتور
٣٨ــ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ــ المطبعة العالمية ١٩٧٠ .
ابن الساعي : تاج الدين علي بن انجب البغدادي (ت ٦٧٤/هـ ١٢٧٥ ــ ١٢٧٦ م) .
٣٩ــ المختصر في اخبار الخلفاء (منسوب لابن الساعي) .
السامرائي : الدكتور يونس احمد .
٤٠ــ سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ــ مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٨
السامرائي : الدكتور كمال
٤١ــ مختصر تاريخ الطب العربي ــ وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٨٤ .
ابن الساعي : محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٥ م) .
٤٢ــ الطبقات الكبيرة ــ باعتناء ادوارد سخو ، برلين ١٣١٢ ــ ١٣٤٧ هـ/ ١٩١٧ ــ ١٩٤٠ م .
سهراب (ابن سرابيون) .

٤٣ـ عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ـ باعتناء هان فون مزيك (١٣٤٧ هـ/١٩٢٩ م) .
الدكتور سعد زغلول عبدالحميد .
٤٤ـ الحياة الدينية في المدينة العربية ـ مجلة عالم الفكر ، العدد الاول ، مجلد ١١ سنة ١٩٨٠ م .
الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور .
٤٥ـ الحياة الاجتماعية في المدن الاسلامية ـ مجلة عالم الفكر ، مجلد ١١ العدد الاول سنة ١٩٨٠ م .
سليمان صايغ
٤٦ـ مصر في العصور الوسطى (بالاشتراك مع عبدالرحمن الرافعي) القاهرة/ ١٩٧٠ م .
٤٧ـ تاريخ الموصل ـ ج١ المطبعة السلفية ١٩٢٣ ، ج٢ المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٨ ، ج٣ مطبعة الكريم ١٩٥٦ م .
السهروردي : عمر بن محمد التميمي (ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م) .
٤٨ـ عوارف المعارف ـ دار الكتاب ـ بيروت ١٩٦٦م .
السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م).
٤٩ـ الاشباه والنظائر ـ
شارل بلات
٥٠ـ الجاحظ ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني ، دار اليقظة العربية للتاليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م .
الشريشي : ابو العباس احمد بن عبدالمؤمن (ت ٦٢٠ هـ/١٢٢٢ م) .
٥١ـ شرح المقامات ـ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ـ مطبعة المدني ١٩٧٣ م .
الدكتور شكري فيصل
٥٢ـ المجتمعات الاسلامية الاولى ـ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ م .
الدكتور شوقي ضيف
٥٣ـ تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول ـ دار المعارف بمصر .
الدكتور طاهر مظفر العميد
٥٤ـ العمارة العباسية في سامراء ـ منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٦ .
الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣ م) .
٥٥ـ تاريخ ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩ م .
طيفور : ابو الفضل احمد بن طاهر الكاتب (ت ١٢٨٠ هـ/١٨٩٣ م) .
٥٦ـ بغداد ـ صححه محمد زاهد الكوثري (١٣٦٨هـ/١٩٦٨م) .
العبادي : الدكتور احمد مختار

٥٧ـ من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدرسة الاسلامية ـ مجلة عالم الفكر مجلد ١ ، العدد الاول سنة ١٩٨٠ .
ابن عبدالبر : يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) .
٥٨ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ مطبعة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م .
عبدالجبار ناجي
٥٩ـ الامارة المزيدية ـ دار الطباعة المدنية ، بغداد ١٩٧٠ .
ابن عبدالحق : صفي الدين (ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٨ م) .
٦٠ـ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ـ تحقيق البجاوي ، القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ م .
عماد الدين عبدالسلام
٦١ـ مدارس بغداد في العصر العباسي ـ مطبعة دار البصري ـ بغداد ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م .
المعبود : الدكتور عبدالكريم
٦٢ـ الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة الى سقوط بغداد .
العماد الكاتب : محمد بن محمد الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٠٢١م) .
٦٣ـ الخريدة ـ تحقيق محمد بهجة الاثري ـ ١٩٥٥ ـ ١٩٧٣ م .
العمري : ياسين بن خيرالله (ت ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م) .
منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ـ تحقيق سعيد الديرهجي ـ الموصل ١٣٧٤ هـ .
الغزالي : ابو حامد محمد بن محمد (٥٠٥هـ/ ١١١١ م) .
احياء علوم الدين ـ مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م .
ابن الفوطي : ابو الفضل عبدالرزاق بن احمد (ت ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م).
٦٦ـ تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ـ ج٤ تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
ابن الفقيه الهمذاني : احمد بن محمد (ت ٢٨٩ هـ/١٩٠٢ م) .
٦٧ـ بغداد مدينة السلام ـ تحقيق الدكتور صالح احمد العلي ـ وزارة الاعلام ١٩٧٧ م .
مختصر كتاب البلدان ـ باعتناء ام جي ديغويه ، مطبعة ربريل ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .
القرغولي : جهادية
٦٩ـ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في سامراء ـ مطبعة دار البصري بغداد ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م .
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م) .

٧٠- اثار البلاد واخبار العباد - دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٠ هـ/١٩٦١ م.
القفطي : جمال الدين علي بن يوسف الشيباني (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م).
٧١- تاريخ الحكماء - باعتناء جوليس ليبرت ، ليبزك ١٩٠٣ م .
القلقشندي : ابو العباس احمد (٨٢١ هـ/١٤١٨ م) .
صبح الاعشى في صناعة الانشا - المطبعة الاميرية ، القاهـــرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م .
الكازروني : ظهير الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧).
٧٣- مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عـــواد وميخائيل عواد ١٩٦٢ م .
المبــرد : ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م) .
٧٤- الكامل - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم والسيد شحاته - مطبعـة نهضة مصر مجهول (ينسب لابن قتيبة) .
٧٥- الامامة والسياسة - مكتبة ومطبعة البابي الحلبي (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م) .
مجهول : (ينسب خطأ لابن الفوطي) .
٧٦- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة - تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١ هـ .
محمد بلو : ابن عثمان بن فودي
اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور - القاهرة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤ م .
محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م) .
الشيخ عبدالقادر الجيلاني - دائرة المعارف للبستاني .
ابن المستوفي : المبارك بن احمد الاربلي (ت ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م) .
٧٩- تاريخ اربل - تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار - منشورات وزارة الاعـلام - ١٩٨٠ م .
المسعودي : علي ابن ابي الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) .
٨٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ - دار الاندلس ١٩٦٥-١٩٦٦م.
المعاضيدي : الدكتور عبدالقادر
٨١- واسط في العصر الاموي - دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٦ م .
٨٢- واسط في العصر العباسي - منشورات وزارة الاعلام ١٩٨٣ .
ابن المعتز : عبدالله بن محمد المعتز (ت ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م) .
٨٣- شعر ابن المعتز - تحقيق الدكتور يونس احمد الســـامرائي ١٩٧٧ - ١٩٧٨ م .
المقدسي : مظهر بن طاهر (ت بعد ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) .

٨٤ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ باعتناء أم جي ديغويه ـ ليدن ١٩٠٦ .
المقدسي : مظهر بن طاهر (ت بعد عام ٣٥٥ هـ/٩٦٦ م) .
٨٥ـ البدء والتاريخ ـ طبعة مكتبة المثنى المصورة عن طبعة برطرند في مدينة شالون ١٨٩٩ ـ ١٩١٦ م .
ناجي معروف
٨٦ـ علماء النظاميات ومدارس المشرق ـ مطبعة الارشاد ، بغداد ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م .
ابن النجار : محب الدين محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .
٨٧ـ التاريخ المجدد لمدينة السلام ـ مخطوطة مصورة برقم ٥٧٥ مكتبة الدراسات العليا ونسخة اخرى مصورة برقم ١٢٧ في مكتبة المجمع العلمي .
نصر بن مزاحم : المنقري (ت ٢١٢ هـ/٨٢٧ م) .
٨٨ـ وقعة صفين ـ تحقيق عبدالسلام هارون ، مطبعة المدني ١٣٨٢ هـ .
ابو نؤاس : الحسن بن هانيء (ت ١٩٨ هـ/٨١٤ م) .
٨٩ـ ديوانه : ط بتحقيق بهجة عبدالغفور ، بغداد ، وط اخرى .
النويري : شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) .
٩٠ـ نهاية الارب في فنون الادب ـ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٩ ـ ١٣٦٩ هـ/١٩٢٩ـ١٩٤٩ م .
وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ/٩١٨ م) .
٩١ـ اخبار القضاة ـ صححة عبدالعزيز مصطفى المراغي ـ القاهرة ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م .
ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) .
٩٢ـ معجم البلدان ـ ط اوربا .
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ/٨٧٩ م) .
٩٣ـ البلدان ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م .
٩٤ـ تاريخه ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م .

الفصل الثامن

مــــدن القـــلاع

الدكتور علاء موسى كاظم نورس
استاذ مساعد في تاريخ العرب
الحديــث

شهد العراق عبر حقب التاريخ ، تطورات سياسية عديدة كان لها تأثيرها في تحديد جوانب مهمة من نشاطاته وبخاصة في مجال العمارة العسكرية التي ازداد الاهتمام بها بازدياد احتياج العراق لمستلزمات الدفاع عنه ولعل القلاع القائمة فيه تمثل جانبا مهما من تلك العمارة •

ولقد اسهمت تلك القلاع في نشأة العديد من المــدن حيث اتســعت وظائفها سياسيا واقتصاديا وغدت تمثل مراكز حضارية مهمة •

وخلال العصور المتأخرة اتســمت المدينة العــراقية بكثرة تحصيناتها وأسوارها ويمكن ملاحظة ما كتبه بهذا الخصوص الرحالة الاجانب الذيــن زاروا العراق في فترات مختلفة من العصر العثماني وظل احتدام حدة الصراع مع الدولة الصفوية والاسر التي تعاقبت على السلطة في ايران (الافشــارية والزندية والقاجارية) حتى تحول العراق الى ميدان صــراع بين العثمانيين والفرس ، قد برز الوظيفة العسكرية التي كانت عليها المدينة العراقية •

وفي بحثنا هذا سنتناول بعضا من مدن القلاع في شمالي العراق حيث انفردت المنطقة المذكورة الى حد كبير بنشوء قلاع غدت بعد حين مدنا كبيرة ٠

ومن بين أبرز تلك المدن ، مدينة أربيل التي اشتهرت بكونها واحدة من مدن القلاع العراقية القديمة ، وقد تميزت عبر حقب التأريخ باهمية سوقية كبيرة بحكم خصائصها العسكرية والتي تعزى الى كونها قلعة حصينة شيدت بالدرجة الأولى لاغراض دفاعية ، اضافة الى عقد المواصلات التي تتفرع منها وتشكل هي نقطة الارتكاز فيها ٠ ولذا حرصت الدول التي تأسست في العراق على ان تتخذ منها مركزا رئيسا لنشاطها الحربي والاقتصادي معا ٠

ولقد جاء ذكر مدينة أربيل في الكتابات المسمارية لاول مرة من زمن الملك السومري شولكي (٢٠٩٥ ــ ٢٠٤٨ ق٠م) ، ثاني ملوك سلالة اور الثالثة حيث ارخت احدى سنوات حكمه بحملة عسكرية جهزها ضد هذه المدينة التي كتب اسمها بهيئة « اوربيلم » ٠

وفي زمن الاشوريين عرفت المدينة باسم « أربلا » واكتسبت أهمية خاصة لسببين : الاول كونها قلعة عسكرية حصينة ونقطة انطلاق عبر ممر رايات الذي كان يؤدي الى جنوب بحيرة اورمية واقليم اذربيجان ٠

والسبب الثاني هو لكونها مركزا دينيا مهما لعبادة الهة عشتار ، حيث كان معبدها المعروف باسم (أي ــ كشان ــ كلاما) ومعناه « بيت سيدة البلاد » ، يضم مجموعة من الكهنة والكاهنات الذين وصلت الينا منهم مجموعة من الاقوال الالهية التي أوحت بها اليهم آلهة الحرب عشتار، وتظهر من خلالها المكانة السامية التي كانت تحتلها هذه الالهة في أربيل ، والدور الذي كانت تمارسه في تحقيق النصر للاشوريين على الاعداء ٠ وكان معبد هذه الالهة أيضا مركزا لاستطلاع الفال عن طريق فحص اكباد الضحايا من الاغنام

والماشية • هذا وقد ابتدع الكتبة الاشوريون طريقة جديدة في كتابة أسم مدينة اربيل عندما شطر اسمها الى مقطعين هما : أربا وايلوا ، فصارت تكتب بهيئة « أربا ــ ايلو » ــ ذات الالهة الاربعة •

لقد كانت اربيل بحكم ما اشرنا اليه ، من المراكز الاشورية المهمة ، وتعد قاعدتهم السوقية الرئيسة ، وفي عهود الممالك الاشورية ، اتخذت عاصمة الملك الحاكم ، وحظيت باهتمام خاص من قبل معظم ملوك الدولة الاشورية وقد انشأ فيها سنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق•م) مشروع ري خاص، ووجدت بعض الاثار في قلعتها منها لوح مكتوب لاشور بانيبال ، وتمثال برنزي مكتوب يذكر الالهة عشتار والملك الاشوري اشور دان الثالث (٧٧٢ ــ ٧٥٤ ق•م) •

وتعاقبت على أربيل ، القوى الغازية التي شهدها العراق عبر حقب التأريخ ، واتخذت منها مرتكزا رئيسا للامتداد في شمالي العراق ، وهذا ما حفلت به العصور القديمة ايام الكوتيين والميتانيين والاخمينيين والفرثيين والرومان والساسانيين ، كما شهدته عصور الغزاة المتأخرة •

ولقد غدت اربيل في تلك العصور ، ميدان صراع لا يهدأ بين قوى طامعة عديدة ، ودارت فيها الكثير من المعارك الفاصلة • ولعل من ابرزها في التاريخ القديم ، تلك الموقعة التي قررت مصير الدولة الاخمينية ودارت بين اخر ملوك الفرس الاخمينيين دارا الثالث وبين الاسكندر المقدوني في عام ٣٣١ ق•م وسميت بمعركة اربيلا •

وخلال فترة الاحتلال الفرثي للعراق (١٤١ ق•م ــ ٢٢٤ م) غدت اربيل مركزا لامارة مستقلة عرفت بامارة (حدياب) ضمن الدولة الفرثية ، أمتد نفوذها في بعض الاوقات الى الفرات غربا ونصيبين شمالا •

واستمرت اربيل تعاني من الغزاة حتى شهدت ازدهارا كبيرا في العهود العربية الاسلامية ، ثم توالت عليها الاقوام الغازية مرة أخرى منذ الغزو

المغولي للعراق وطوال العصور المتأخرة . وكانت خلال فترة السيطرة العثمانية تحكم مباشرة من قبل والي بغداد الذي يعين لها حاكما ، وان كان حكمها يتأرجح باستمرار بين البابانيين والعثمانيين .

ان اشارات عديدة قد وردت في كتب البلدانيين العرب والرحالة الاجانب عن وصف اربيل كاحدى مدن القلاع في العراق ، حيث يذكر ياقوت الحموي أنها (قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الارض وبقلعتها خندق عميق وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة). ويقول صاحب مراصد الاطلاع « انها مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة » . وفي سنة ١٧٦٦ زارها الرحالة الالماني كارستن نيبور فكتب يقول : « بلغنا أربيل وهذه المدينة هي اربيلا بلا شك ، التي اشتهرت في المعركة التاريخية الحاسمة التي وقعت بين الاسكندر الكبير ودارا . وقد كانت امارة اسلامية عاشت سنين كثيرة ، وكان امراؤها الذين حكموا بالوراثة يتصفون ببأس شديد ، فوسعوا رقعة امارتهم وجعلوها تشمل مناطق واسعة امتدت الى داخل بلاد فارس حتى مدينة تبريز . وكانت المدينة آنذاك كبيرة جدا ولها قلعة مشيدة على تل مرتفع . اما اليوم فلم يبق منها شيء ما عدا القلعة ولكن حتى هذه ليست مسورة وانما اقيمت عليها البيوت ولاسيما حول حافة التل بصورة متماسكة فلا يستطيع أحد أن ينفذ خلالها الى داخل المدينة الا من داخل باب المدينة الحالي » ثم يقول : « أما في التل الواقع في اسفل القلعة حيث كانت تقع عليه مدينة أربيل الكبيرة فتوجد بضعة بيوت فقيرة . هذا وليس في اربيل آثار شاخصة ما خلا بقايا جامع كبير يقع بعيدا عن القلعة وسط الحقول وهو من آثار السلطان المظفر[1] .. » كما زار اربيل الرحالة الانكليزي جيمس بكنغهام وذلك سنة ١٨١٦ وقد وصفها قائلا : « كانت هذه اكبر مدينة شهدناها منذ غادرنا الموصل ، وقد ذكر لنا أن عدد نفوسها يتجاوز العشرة الاف والمنظر الرئيس هو وجود القلعة الكبيرة فيها والتي تقع على

ربوة في الوسط ، وتبدو من بعيد أشبه بقلعتي ميسا وحلب في سوريا ، وهي توازي كل منهما في الضخامة • والتل الذي تقوم عليه القلعة مربع الشكل يرتفع على سفح منحدر وهو وان كان واسعا الا انه بلا شك من صنع البشر أو ان سطحه الخارجي على الاقل ، قد رصف بالحجر ولو ان القاعدة الداخلية من البناء قد تكون تلا طبيعيا ، وفي داخل سور القلعة المبنية بالآجر يوجد الكثير من منازل السكن ولو ان الجزء الاعظم من المدينة ينتشر حول القلعة » • وقدم وصفا لمدينة اربيل وقلعتها القنصل البريطاني كلوديوس جيمس ريج الذي زارها سنة ١٨٢٠ ، حيث يقول : « وكانت بقايا السور والخندق ظاهرة ، ويبدو ان المدينة كانت فيما مضى جد واسعة وربما كانت بسعة بغداد الحالية • وتقع (اربيل) عند سفح الطنف الاصطناعي ، وعلى الجانب الجنوبي منه خاصة • ويقع قسم من المدينة فوق الطنف ويسمى هذا بالقلعة •• كان تخميني لارتفاع الطنف الاصطناعي الذي تعلوه قلعة (اربيل) ، مائة وخمسين قدما ، وقطره اربعمائة ياردة ، ولا أشك انه كان فيما مضى اكثر ارتفاعا ويحتمل ان قاراقلا (Caracalla) (الامبراطور الروماني الذي غزا أربيل بعد عودته من حملته على طيسفون في عام ٢١٦ م) قد هدم ذروته » •

ولقد كانت القلعة مسورة في العصور العربية الاسلامية حيث كانت مركزا للسكنى وحصنا للدفاع عن المدينة التي بنيت فوق التل وعليها الابراج • وبقيت طيلة الحقب اللاحقة تمارس دورها كحصن قوي للدفاع ، واخر ذكر لها كان عند احتلال نادر شاه لاربيل سنة ١٧٣٢ بعد مقاومة باسلة ، وكذلك عند غزوته الثانية لها سنة ١٧٤٣ حيث حاصرها مدة ستين يوما • وحين زارها نيبور سنة ١٧٦٦ لم ير شيئا من استحكامات القلعة ولا حتى سور المدينة •

وتشير الدراسات الاثارية الى ان قلعة اربيل التي تعد اثرا طوبوغرافيا بارزا في المدينة ، ترتفع الى علو ٢٥ مترا وتشغل مساحة قدرها ١١٠ الاف متر مربع ، وانه ما يزال لوجودها تأثير على شكل ونمو المدينة نفسها التي تحيط بهذا الاثر القائم في قلبها •

ومن مدن القلاع الاخرى ، مدينة كركوك التي تشير بعض المصادر الى انشائها من قبل الاشوريين وانها كانت أحد مراكزهم المهمة • وخلال السيطرة السلوقية على العراق ، نالت اهتماما خاصا حيث أقام لها سلوقس سورا فخما جعل له ٦٥ برجا وبابين • ويرد ذكرها في المصادر الارامية بصورة « كرخا ــ د ــ بيت سلوخ » اي مدينة السلوقيين وبصورة « كرخ سلوخ » بالمعنى نفسه • كما ان البلدانيين والمؤرخين العرب لم يذكروا أسم كركوك ولا كرخ سلوخ ، وانما اشاروا اليها باسم (كرخيني وكرخيتي) ، حيث يذكر ياقوت الحموي الذي رآها في القرن السابع للهجرة ، وسماها في معجمه (كرخيني) بكسر الخاء المعجمة ثم ياء ساكنة ونون وياء ممالة : هي قلعة في وطاء من الارض ، حسنة حصينة بين داقوق واربيل رأيتها ، وهي على تل عال ولها ربض صغير • كما وردت بصورة (كرخيتي) في الحوادث الجامعة لابن الفوطي •

ولقد كانت مدينة كركوك محصورة في القلعة تقريبا الى مطلع القرن الثامن عشر للميلاد ، حيث بدأ السكان من بعد ذلك يشيدون البيوت في السهل خارج بدن القلعة • وفي سنة ١٧٦٦ زارها الرحالة كارستن نيبور فكتب عنها يقول : « تقع كركوك في سهل جميل كثير الخيرات ولكنه قليل العمران • ولم يبق الا الشيء القليل من المدينة الاصلية الواقعة على سفح التل ذي الانحدار الشديد ، أما التل نفسه فانه مزدحم بالسكنى ويحيط به من الاعلى سور من الطين وفيه حامية من الينيجرية ويدعى القلعة •• وبيوت هذه القلعة بلا استثناء في منتهى الرداءة ، وفي القلعة ثلاثة مساجد ولها

منائر . وان كركوك مقر باشوية من درجة طوغيتن ولكن الباشا لا يقيم في المدينة وانما قبالتها في الجانب الثاني من النهر ومنطقة نفوذه صغيرة جدا » .

ويذكر الرحالة بكنغهام الذي زارها سنة ١٨١٦ ، ان مدينة كركوك « تتألف من ثلاثة اقسام متميزة كل قسم منها له مساحة كبيرة وفي القسم الرئيس من هذه الاقسام يقوم تل مرتفع فوق سفح منحدر أشبه بتل أربيل الذي سبق وصفه وعلى هذا التل تقوم مدينة محصنة اكثر منها قلعة تضم داخل اسوارها عددا كبيرا من المنازل ومنائر ثلاثة مساجد ترى اعلى ارتفاعا من بقية المباني الاخرى وان عدد سكان هذا القسم يتراوح بين خمسة الاف وستة الاف نسمة والقسم الثاني من المدينة، لاهميته كموقع للدفاع ـ فانه اوسع واكثر سكانا من بقية الاقسام . يمتد في السهل المحيط ـ بالقلعة ـ كما يسمون ذلك التل المرتفع ـ وتوجد فيه الخانات الرئيسة ، والمقاهي ، والاسواق وما سواها ويبلغ سكان هذا القسم حوالي عشرة الاف نسمة . اما القسم الثالث فيقع على مسافة نصف ميل من القسمين السابقين . وهذا القسم اصغر الاقسام في المدينة وبيوته متناثرة ولذلك لا يزيد عدد سكانه عن الف نسمة وبهذا يصبح مجموع سكان كركوك لا يزيد عن خمسة عشر الف . ان الاقسام الثلاثة كبيرة الى درجة تدعو الى الاعتقاد بانها ربما كانت احدى الحواضر في العصور المتأخرة ، وان اسمها قد أطلق في العصور القديمة على المنطقة كلها . وان كركوك ما تزال تعد اكبر مدينة في السهول الواقعة شرقي دجلة في حين نرى من الناحية الاخرى ان مظهر قلعتها الواقعة على تل مرتفع يحملنا على الاعتقاد بانها كانت على الدوام مقرا عسكريا للرومان اثناء حكمهم هنا . وتخضع المدينة لسلطة باشا بغداد ، وحاكمها من اتباعه المباشرين ويرتبط به عدد من الجند الذين يؤلفون الحرس الخاص لحمايته » .

وتذكر الدراسات الاثارية على ان مدينة كركوك القديمة والمعروفة باسم القلعة ، تقوم فوق مستوطن اثري قديم ورد اسمه في الالواح

المستخرجة منه باسم « ارابخا » الذي حرف حديثا الى عرافة • وكان عدد هذه الالواح المكتشفة في تل القلعة (٥١) لوحا ويرتقي تاريخها الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد • وقد عثر عليها في سفح التل سنة ١٩٢٣ ، ولعل اقدم ذكر لاسم ارابخا يرتقي الى عهد حمورابي ، وجاء في المصادر الاشورية أنها مركز لعبادة الالهة « ادد » • والمعروف ان كركوك تقع في اقليم قديم نشأت فيه عدة مراكز من عهود حضارة وادي الرافدين •

ومن مدن القلاع الاخرى ، مدينة العمادية التي تعد من القلاع المهمة في العراق ، ويرتقي تاريخها كما تشير الدراسات الاثارية الى العصور القديمة ، حيث ورد ذكرها باسم « آمات » اي العمادية في الكتابات الاشورية ، واقدم اشارة لها كانت في سجلات اخبار الملك الاشوري شمش ادد الخامس (٨٢٣ ــ ٨١٠ ق•م) ، وذلك كاحدى المدن التي خضعت لحكم اسرته • كما يتردد ذكرها في كتابات الملك الاشوري ادد نيراري الثالث (٨٠٥ــ٧٨٢ ق•م) وكتابات العصر البابلي الحديث • وفي المدينة بقايا اثرية مهمة تعود الى عصور مختلفة ، وتبرز القلعة التي غدت مدينة فاعلة في مسار الاحداث منذ نشأتها ، كأحد المراكز المهمة في شمالي العراق • وحرص الكثير من الحكام على ان تكون جزءا من ممتلكاتهم لما لها من خصائص دفاعية تجعلها ذات قيمة سوقية عالية •

وقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه قائلا : « العمادية قلعة حصينة مكينة عظيمة في شمال الموصل ومن أعمالها •• » ، كما جاء عنها في المصادر البلدانية الاخرى ، انها قائمة فوق مرتفع منيع ، وهي محكمة ووضعها يساعد على المراقبة والاعتصام • وقد جددها في سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) عمادالدين زنكي مؤسس الدولة الاتابكية في الموصل ، واتخذ منها قاعدة لعملياته العسكرية في المنطقة •

وغدت منذ سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) عاصمة للامارة البهدينانية حتى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) ، حيث انتهى استقلال الامارة على اثر الاحتلال العثماني لجميع المناطق التي تشكل حدود ممتلكاتها ، وصارت تابعة الى ولاية الموصل وكانت الدولة العثمانية تسعى على الدوام للتخلص من الامارات المستقلة وفرض حكمها المباشر .

وكان الرحالة كارستن نيبور قد زار العمادية سنة ١٧٦٦ ، ووصفها بانها « قلعة حصينة تقع على جبل شديد الانحدار ، صعب المسالك لا يمكن الاستيلاء عليها . تبعد عن الموصل مسيرة ثماني عشر ساعة . ويدعى الرجل الذي يحكمها اليوم بهرام[٢] وهو من اسرة بلديناو[٣] التي تحكمها منذ زمن خلفاء بني العباس. والمفروض في هذا الحاكم ان يكون مستقلا في منطقته ولكنه يدفع الجزية ويقدم الهدايا للباشوات المجاورين له ليحافظ بها على قراه الواقعة في السهل من التخريب والدمار » .

وتصف الدراسات الاثارية قلعة العمادية وابوابها ، فتذكر انه ما يزال باقيا من ابوابها : بابان احدهما الباب الغربي ويعرف باسم باب الموصل وقد تهدم معظمه ولم يبق منه الا كتابة على احدى احجاره . وباب الزيبار وهو الباب الشرقي الذي يطل على الوادي وينتهي بقبة متداعية تتصل بمنحدر جبلي على هيئة سلم مرصوف بالحصى ويرقى تاريخه الى زمن قلعة العمادية، ويشاهد عند الباب على جانب هذا المنحدر اربعة صور منحوتة تمثل اشخاصا اصغر من الحجم الطبيعي لعلها تمثل بعض الملوك الفرثيين الذين كانوا قد احتلوا هذه المنطقة عند غزوهم للعراق (١٤١ ق.م — ٢٢٤ م) .

والى جانب ما اشرنا اليه من مدن القلاع الرئيسة ، فأن في العراق مدن قلاع أخرى عديدة ما تزال بعض اثارها شاخصة ، وهي في انتشارها تعد احدى الظواهر التي تميزت بها حقب التاريخ المتعاقبة .

الهوامش

(١) المرادبه هو مظفر الدين كوكبرى الاتابكي
(٢) بهرام باشا الكبير تولى الحكم سنة ١٧١٤ ولغاية ١٧٦٨ .
(٣) المراد « بهدينان » .

مصادر الفصل

— اسماعيل ، زهير بلال ، اربيل في ادوارها التاريخية ، النجف ١٩٧١ .
— باقر ، طه وفواد سفر ، المرشد الى مواطن الاثار والحضارة ، الرحلة منشور في المجلد الثالث ، العدد الاول من مجلة المجمع العلمي الكردي ، بغدد ١٩٧٥ .
— باقر ، طه وفواد سفر ، المرشد الى مواطن الاثار والحضارة ، لرحلة الثالثة والرابعة والخامسة ، بغداد ١٩٦٥ و ١٩٦٦ .
— بكنغهام ، جمس ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي ، جـ١ ، بغداد ١٩٦٨ .
— الحسني ، عبدالرزاق ، العراق قديما وحديثا ، صيدا ١٩٥٨ .
— الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .
— ريج ، كلوديوس جيمس ، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، ج١ ، نقلها الى العربية بها الدين نوري ، بغداد ١٩٥١ .
— زكي محمد امين ، تاريخ السليمانية وانحائها ، ترجمه عن الكردية محمد جميل بندى الروزبياني ، بغداد ١٩٥١ .
— زكي محمد امين ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، بغداد ١٩٦١ .
— شيرزاد ، شيرين ، تطوير قلعة اربيل ، ترجمة غير منشورة للقسم الثالث من اطروحتها في الهندسة المعمارية ، ١٩٧٩ .
— عمر ، محفوظ محمد ، امارة بهدينان العباسية ، الموصل ١٩٦٩ .
— فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ١٩٦٤ .
— لسترنج ، كي ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ .

- لونكريك ، ستيفن هيمسلي ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٤ ، بغـداد ١٩٦٨ .
- المنشيء البغـدادي ، محمـد بن احمد الحسـيني ، رحلة المنشـيء البغدادي ترجمها عن الفارسية عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ .
- نيبور ، كارستن ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة عن الالمانية محمود الامين ، بغـداد ١٩٦٥ .
- هاملتون ، أي ، ام ، طريـق في كردسـتان ترجمـة جرجيس فتـح الله ، بغـداد ١٩٧٣ .

الفصل التاسع

الخدمات العامة في المدن العراقية
(الحقبة الحديثة)

الدكتور عمـاد عبدالسلام رؤوف
كلية التربية ـ جامعة بغداد

اتسمت فكرة الحكم في دول العصور الوسطى حتى التـــي استمرت منها الى العصر الحديث ، ببساطتها المتناهية ، فمهمة الدولة تنحصر ، في نظر القائمين عليها ، في ثلاثة امور رئيسة لا تتعداها ، اولها : الحفاظ على حدود الدولة من الاخطار الخارجية وقمع ما يؤدي الى تغيير نظم الحكم فيها ، وثانيها : الاهتمام بجمع الضرائب من السكان لانفاقها على الادارة والجيش ، وثالثها : حل المشاكل المختلفة بين الناس ، وبينما تستدعي المهمة الاولى قيام مؤسســة عسكرية قوية ، وتتطلب المهمة الثانية انشـاء نظام ضريبي ومؤسسة مالية تتولى تنفيذه ، وتستلزم الثالثة تاسيس نظام قضائي فعال ، تبقى الخدمات العامة الاخرى ، صحية واجتماعية وبلدية وثقافية (والاخيرة تخرج عن نطاق هذا الفصل) خارج نطاق اهتمامات الدولة وانشطتها العامة .

وفي الواقع فان المجتمع الاسلامي ، في عهود ازدهاره ، كان يرى في توفير تلك الخدمات جزءا من واجباته الدينية ــ الاجتماعية ، بوصفها تدخل في نطاق ما أوجبه الله تعـــالى من العناية بالمسلمين ، الا ان تلك الخدمات لم تكن تنشأ بمبادرة رسمية من الدولة ، وانما يقوم بها « اهل الخير » من ابناء المجتمع الموسرين ، وبضمنهم رجال الحكم احيانا ، بصفاتهم الشخصية فحسب والحفاظ على ديمومتها لم يكن من واجبات مؤسسات الدولة ، وانما كان يقع على عاتق الجهود الخاصة للمؤسسين ، فالانفاق على المستشفيات والجسور والطرق ووسائل توصيل مياه الشرب لم يكن يجري من خزانة الدولة ، وانما من واردات ما اوقفه المؤسسون انفسهم من اوقاف خيرية ، ويتبع ذلك ان يتولى اولئك المؤسسون ومن يختارونهم من المتولين بعدهم ، ادارة تلك الخدمات والاشراف على اعمالها ، بموجب «الحجج الوقفية» التي بأيديهم ، والتي اعطيت من الاهمية ما جعل « نص الواقف كنص الشارع » ، وهو ما يفسر لنا لِمَ لم نسمع بوجود دواوين (او وزارات باصطلاح هذه الايام) تتولى العناية بشؤون المدارس ، على كثرتها في المدن الاسلامية ، او تعنى برعاية المستشفيات على تعددها وتنوع تخصصاتها ، او تهتم بتعبيد الطرق ونصب الجسور والعناية بها ، والاشراف الوحيد الذي تتولاه الدولة ، كان عن طريق القضاء ، اذ بوسع القاضي ، بحسب صلاحياته الدينية والاجتماعية ، ان يحاسب متولي الاوقاف ان هم اساءوا التصرف بما تحت ايديهم من موارد مالية ، او انهم لم ينفقوا تلك الموارد في اوجهها التي نص عليهـــا الواقف الاصلي ، وقد يصل الامر الى عزله ، وتعيين غيره ، ولكن ذلك لا يصل الى حد التدخل في شؤون المؤسسة التي ينفق عليها بأي وجه من الوجوه الاخرى .

وكان هذا الوضع يجعل شؤون الخدمات العامة في المدن ، على عاتق المجتمع كله ، لا على عاتق الدولة ، ويفرض نوعا من الاستغلال الحقيقي لهذه الخدمات ، وقد اثبت هذا الاستقلال قدرا من الفائدة عندما حافظ

على ديمومة المؤسسات الخدمية بعيدا عن آثار الاختلال السياسي الذي اصاب الدولة العربية الاسلامية بسبب تسلل العناصر الاجنبية اليها ، وضعف الشعور الرسمي بالمسؤولية تجاه توفير الخدمات للرعية، الا ان ذلك الوضع ، اثبت جدواه تماما ، حينما تعرضت المؤسسات الرسمية نفسها الى السقوط امام غزوات القوى الاجنبية ، فبسقوط الخلافة العباسية في العراق ، ابان القرن السابع للهجرة ، انتهى عهد الدولة المستقلة فيه ، والغيت كل مؤسساتها ، او وقعت تحت هيمنة المحتلين ، وبذلك امسى الشعب محكوما من قبل الاجانب ، الا ان فعالياته الثقافية والاجتماعية والبلدية ظلت بعيدة — في معظمها — عن تدخلهم المباشر • وهكذا فان انهيار الدولة ومؤسساتها لم يؤد — بالضرورة — الى انهيار الخدمات العامة ، وذلك لضعف ارتباطها بها ، او استقلالها عنها ، واكتفائها بمصادرها المالية الخاصة • صحيح ان مستوى اداء تلك الخدمات قد تأثر تأثراً بالغاً بظروف القطر العامة ، الا ان ذلك التأثر لم يكن بسبب تدخل السلطة المباشر في شؤونها ، وانما يعزى الى قيام تلك السلطة بالاستيلاء على الاوقاف ، وهي مصدر الانفاق عليها ، او اهمال المؤسسة القضائية العناية بشؤون متولي الاوقاف نظرا لتردي الوضع العام ، وانعدام الامن ، وتعاقب حوادث اجتياح المدن •

وكان حرص الواقفين على اختيار افضل العناصر لتولي العناية بما انشأوه من مؤسسة خدمية ذات نفع عام ، وتشديدهم في شروط اختيار المتولين من بعدهم ، وتأكيدهم على عدم التعرض بشيء الى ما اثبتوه في وقفياتهم ، يدل على مقدار المسؤولية التي كان يشعر بها المجتمع في الحفاظ على ديمومة الخدمات التي تقدمها تلك المؤسسات المهمة • ومن المؤسف ان معظم الوقفيات المحررة في الحقبة التي تلت احتلال المغول الايلخانيين مدن العراق ، حتى احتلال العثمانيين اياها ، قد ضاعت اصولها ، ولم يدون تفاصيلها احد من المؤرخين ، لقلتهم ونزرة ما كتبوه اصلا • لذا امسى

عسيرا ان نحدد طبيعة الخدمات الموجودة في مدن ذلك العصر ومستواها • وثمة مؤسسات وردت اسماؤها عرضاً في تضاعيف هذا الخبر او ذاك ، لكننا لانعلم طبيعتها ودورها ، مثل « عمارة الايكجية » و « عمارة السلطان احمد » وغيرهما • على ان معلوماتنا عن مؤسسات الحقب التالية اكثر وفرة بسبب توفر نصوص وقفياتها من جهة ، وعناية اكثر من مؤرخ باخبارها ، وبخاصة ما انشىء منها في اواخر العصر العثماني •

وسنحاول ، فيما يأتي ، ان نستعرض اهم ما كانت توفره المدينة العراقية من خدمات ضرورية ، صحية ، واجتماعية ، وبلدية •

الخدمات الصحية العامة :

حينما احتل المغول مدن العراق ، كان عدد غير قليل من المستشفيات العامة التي وردت اخبارها في مصادر القرن الثالث والرابع للهجرة ، قد اندثر ، او انقطعت اخباره ، فلم نعد نسمع بمستشفيات الرشيد وبدر وابن الجراح وام المقتدر والمقتدري وابن الفرات والامير بجكم وغيرها مما كانت تحفل به بغداد في تلك القرون ، كما غابت عنا انباء مستشفيات مهمة كانت قد شيدت في مدن اخرى ، كواسط والبصرة ، وفي الواقع فان بعض المستشفيات القليلة بقيت تؤدي الخدمات الصحية حتى نهاية عهد الدولة العباسية ، اهمها المستشفى العضدي في الجانب الغربي من بغداد ، والمشيد سنة ٣٧٢ هـ ، والمستشفى المجاهدي في الموصل ، المشيد سنة ٥٧٢ هـ ، ويعود سبب استعصاء هذه المستشفيات على الفناء الى كثرة ما وقف عليها من اوقاف ، والتي كانت تدر عليها اموالا طائلة تكفي لاعادة مرضاها ودفع رواتب اطبائها والعاملين فيها من الممرضين والفراشين والطباخين والصيدلانيين والبوابين والحراس ، فضلا عن الادوية والاغذية وما يتصل بذلك ، يضاف الى هذا اهتمام الحكام والامراء والموسرين برعاية شؤونها وتفقد احوالها ومنع المتجاوزين من التجاوز على مالها من اوقاف • وعلى الرغم من الاضطراب الكبير الذي ران على

البلاد في اثناء فترة الاحتلال المغولي، فان تلك المؤسسات استمرت تقدم خدماتها الى الناس مدة قرن كامل بعد العصر العباسي ، مستقلة عن سلطة الاحتلال بما لها من موارد خاصة بها .

لم نعد نسمع بمستشفيات اخرى تقام في مدن العراق الا نادرا ، ويمكن القول بان بناء مستشفى في مدينة ما امسى يعد دليلا على الاهمية الكبيرة للمدينة ، ومحاولة من حاكمها تقليد آثار الماضين من رجالها ، ففي الحلة انشأ احد حكام بغداد،وهو مجدالدين بن اسماعيل الكتبي(ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) مستشفى،وفي بغداد انشأ الوالي امين الدين مرجان مستشفى(دار الشفاء) سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م وتؤكد وقفية مرجان هذا على قوة التقاليد الخاصة باستقلال الخدمات الصحية في المدينة العراقية عن سلطاتها ، فالمستشفى يستمد امواله من الاوقاف العديدة التي وقفها الوالي عليه ، وتشمل قرى زراعية وبساتين عديدة من اعمال بغداد ، وخانات ودكاكين في بغداد ذاتها « وقفا صحيحا شرعيا مؤبدا مخلدا محرما .. لايندرس بكرور الاعصار ، ولا ينطمس بمرور الادوار»(١) وتأكيدا على مبدأ ابعاد هذه المؤسسة عن تدخل السلطة ابعادا كاملا فقد نص الواقف على « ان لا يؤجر من متغلب ومتعزز وجندي ، ومن يخاف عائلته»(٢) فهذا النص يشير الى نوع الخطر الذي كانت تتعرض له مؤسسات تلك العهود ، والاشارة الى عدم ايجار الوقف الى جندي فيها تلميح الى الحكومات العسكرية الاجنبية التي كانت تتوالى على احتلال العراق آنذاك ، وقد حاول الواقف توفير اقصى حد من ضمانات لادارة مؤسسته الصحية ، والمرتبطة اصلا بالمدرسة الكبيرة التي انشأها ، فأشار الى اهم الوظائف في هذه المؤسسة ، وهي وظائف : أ ــ المتولي ، ب ــ المستوفي حـ ــ المشرف ، وبينما يتولى (المتولي) المسؤولية المباشرة عن ادارة الشؤون الداخليـة للمؤسسة ، من توفير الاطباء والادوية والادوات وغير ذلك ، يقوم (المستوفي) بجمع الاموال التي خصصها الواقف للانفاق عليها

وتوفيرها في مواعيدها ، اما (المشرف) فهو المفتش المالي ، ويخضع الجميع الى ادارة (الوالي) الذي يعد رئيس المؤسسة ، و لايخضع الى اي اشراف او سيطرة اخرى ، باستثناء قاضي القضاة ، بل ان الوقفية ، امعانا في تأكيدها على استقلال المؤسسة ، جعلت من القاضي المذكور (معاونا) لا مشرفا ، كما حدث في الوقفيات المتأخرة .

ولا نعلم الى اي عصر استمر اداء هذه المستشفى لخدماتها الصحية العامة لسكان بغداد ، الا اننا نرجح انها توقفت اثر تخريب تيمور لنك المدينة في نهاية القرن الثامن الهجري ، ويمكننا ان نحمل هذا الطاغية مسؤولية تخريب واندثار مستشفيات اخرى في العراق ، ابرزها المستشفى المجاهدي في الموصل ، وهو الذي لبث قائما يؤدي خدماته الى اهل المدينة نحو ثلاثة قرون .

وبانقضاء عهد المؤسسات الصحية ذوات الاوقاف ، اصبحت المدينة العراقية ، منذ القرن التاسع للهجرة (١٥ م) خلوا من اية خدمات صحية عامة ، ومن ناحية اخرى ، ادى توالي الغزاة وتعاقبهم على احتلال المدينة العراقية ، الى ان تصبح هذه المدن عزلاء تماما امام أي مرض وافد ، او وباء داهم ، ولذا تعرضت المدينة في العراق في خلال القرون الاربعة الاخيرة الى انواع من الاوبئة ، كالطاعون والكوليرا والملاريا والتيفوئيد سنوات ١٦٨٩ و ١٧١٩ و ١٧٤٧ و ١٧٧٣ و ١٧٧٤ و ١٧٧٦ و ١٧٨٠ و ١٧٩٠ و ١٨٠١ و ١٨٢٧ و ١٨٣٠ و ١٨٦٥ و ١٨٧٣ و ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ و ١٨٧٧ و ١٨٨٩ و ١٩٠١ و ١٩٠٢ وغيرها ، ومع تكرار وفود الاوبئة ، والخسائر البشرية والاقتصادية الناجمة عن ذلك ، فان الخدمات الصحية بقيت بعيدة عن اهتمام السلطات العثمانية وعنايتها ، فلم نسمع عن اي اشراف رسمي على شؤون الاطباء ، ونوع العلاج المقدم للمرضى ، ولم تكن ثمة رقابة واضحة على سوق الادوية والمشتغلين بها ، بيد ان ظهور الحكومات المحلية

التي تمتعت بنوع من الاستقلال العملي ضمن الاطار العثماني ، كان ايذانا بوجود شيء من الاشراف الرسمي على هذا المجال ، من ذلك ان سلطات ولاية الموصل ، في عهد اسرة الجليليين العربية ، ولت طبيبا موصليا نايبها ، رئاسة الاطباء في المدينـــة ، ولكن تعوزنا المعلومات عمـــا اذا كانت هـــذه (الرئاسة) تعني وجود مؤسسة خاصة بهـــا تتولى الاشـــراف على شؤون الاطباء والمتطببين ، ومن المؤكد ان طلبة عديدين كانوا يتلقون الطب على يد هذا الطبيب ، ولكننا لا نعلم طبيعة الاماكن التي يتلقى فيها اولئك الطلبة علم استاذهم ، ومن المرجح انهم كانوا يقصدون داره ، حيث يتولى فحص مرضاه (الذين يحتمل انهم يبيتون فيها) او انهم يصحبونه في اثناء عيادته بيوت المرضى انفسهم ، ورغم الحظوة الكبيرة التي نالها هذا الطبيب لـــدى المدينة ، فان فكرة انشاء مؤسسة عامة تقدمالخدمات الصحية للسكان لم تكن تدور في اذهان اهل ذلك العصر •

وتشير المعلومات المتوافرة الى الظروف الصحيـــة السيئة التي كانت تعيشها المدن العراقية آنذاك ، فالازقة ضيقة ، ويكاد لاينفذ اليها ضوء الشمس والاسواق المسقوفـــة تحول دون نفاذ أشعة الشمس ، مما يؤدي الى تعفن المواد وفســـادها ، كمـــا ان عدم وجود نوافذ للبيوت في الطوابق الســـفلى المطلـــة على الطريق يزيـــد من صعوبة تهويتهـــا ، ومن ناحيـــة اخرى ، فان اكتضاض الاجزاء المسكونة من المدن بالدور يجعل من النادر وجود حدائق تقوم بدورها في تلطيف بيئتهـــا وتنقيتهـــا • كمـــا كانـــت ازقة المدينة تعج بالحيوانات ، من خيل وبغـــال وجمـــال وابقـــار وحمير ، تأوي الى اصطبلات شيدت بجوار دور اصحابها ، او داخلهـــا ، او الـــى الخانات العامة المشيدة قرب الاسواق لايواء الحيوانات القادمة من القرى والمحملة بصنوف الغلال والمنتوجات الزراعية • وكان من المألوف ان تجمع القمامة في كل محلة لتكون وقودا للحمامات فيها ، ومن ثم تكون مباءة للذباب وغير ذلك من الحشرات الضارة •

ولم تعرف المدن العراقية انشـاء المستشفيات الحديثة حتـى منتصف القرن التاسع عشر ، وكان اول مستشفى حديث هو الذي شيد في الموصل سنة ١٨٤٤ بامر من واليها محمد باشا اينجه بيرقدار[٣] ، وبما ان انشـاء هذا المستشفى سبق قيام اول ادارة صحية في تاريخ العراق ــ وهو ما سنبحث فيه فيما يلي من هذا البحث ــ ، فان معلوماتنا عـن ادارته ومسؤولية حكومـة الولاية عن ادامته غير كافية حتى الان ، وليس ثمة ما يشير الى الجهة الرسمية التي كانت تتولى الانفاق عليه ، او التي تشرف على شؤونه المختلفة .

الطـرق

ان العناية بالطرق لم تكن من واجبات الدولة ايضـا ، فلم تكن ثمة سلطة مختصة بالطرق ، من حيث تعبيدها او صيانتها مثلا ، كما لم تكن ثمة جهة رسمية مسؤولة عن تخطيط الطرق والمحافظة على حريمها ، ومع ذلك فان الناظر الى الخرائط والمخططات التي وضعها الرحالون والسياح لمدن العـراق ، وبخاصة بغداد والموصل والبصرة ، يجـد ان اقل التغيير كـان يحدث في طرق تلك المدن ، بل يمكن القول ان معظم طرق بغداد الشرقية التي وجدت في اوائل القرن العشرين لم تكن ــ في اسسها واتجاهاتها ــ الا طرقها منذ اواخر العصر العباسي ، وان تغيرت اسماؤها . ولا تختلف خرائط نيبور وجونز والخوجة عن بعضها الا قليلا[٤]، رغم كثـرة الطرق والازقة والاسواق وتعقد اتجاهاتهـا ، مما يبعث في النفس التساؤل عـن عوامل ثبات هذه الطرق ، مدة تزيد على السبعمائة سنة ، دونما تغيير تقريبا . وفي الواقع ، فان في وسعنا ان نعزو هذه الظاهرة الى قوة التقليد بالدرجة الاولى ،فلقد حافظ المجتمع على نمط حياته ، وعلى طرق تنقلـه ثابتة مستقرة ، ومع انه لم تكن ثمة سلطة تتولى ذلك ، الا انه كان في وسع الناس الشكوى لدى قاضي المدينة دائما اذا ما لاحظـوا ان احدهـم قـد

تجاوز على حرمة الطريق ، ويكون للقاضي حينذاك الحق في ازالة التجاوز على اساس انه يمس حقوق عابري السبيل ، ومن ثم فانه يقع ضمن صلاحياته الدينية الصرف ، ولم يكن من الممكن اغلاق طريق ، او توسيعه ، الا بعد استحصال موافقة القاضي ، وبصفة عامة ، فان موافقة الاخير لم تكن تحصل الا نادرا ، اما الانفاق على مشاريع الطرق فيكون من خزانة الولاية ، وبأمر من الوالي ، وللقاضي ان يصدر اعلاما شرعيا يعرض فيه مطالب الناس على الوالي ، والخاصة بتلك المشاريع ، وتصور احدى الوقفيات الصادرة سنة ١٢٤٣ هـ/ مراحل تعمير طرق في بغداد وتوسيعه ، ففي عام ١٢٤١ هـ/ « جاء جماعة من العلماء الى القاضي ببغداد يومئذ محمد راشد افندي بن فخرالدين فاخبروه بان طريق الجسر النافذ الى الجانب الشرقي من البلد الممتد من مسناة الجسر الى القهوة الشهيرة بقهوة زنبور فيه ضيق على المجتازين بسببه يحصل ازدحام ومشقة للمارين ، خصوصا من ضعف منهم كالصبيان والشيوخ والزمنين ، وسبب ذلك انه جادة واحدة ليس لها ثانية ، ويقابله من طرف الجسر الاخر الغربي ثلاث طرق متحاذية متباينة فطلبوا منه ان يعرض هذا الحال لحضرة الوزير .. داود .. ويرجو منه ان يفتح بابا للجسر اخر ويجعل الباب طريقا عاما يسلك منه الصغير والكبير فيكون في ذلك تيسير للسالكين وان يفتح الباب من مكان في حذاء الجسر هدمت عمارته وهو الآن خراب ليس فيه منفعة دنيوية ولا مصلحة أخروية ومع ذلك فهو مأوى المفسدين والزناة والفسقة ، وبعد الالحاح على القاضي اجابهم معتذرا بانه لقرب عهده لم يميز امور البلد الخيرية عن الشرية ، وفي اليوم الثاني جاءه اعيان العلماء باجمعهم ، وبينهم مفتي الحنفية محمد اسعد افندي ومفتي الشافعية عبيدالله افندي والسيد محمود افندي نقيب الاشراف فالتمسوا منه ان يعرض الحال على الوزير ... فذهبوا جميعا الى المكان لرؤيته ومشاهدة الازدحام وما فيه من الاذى ، ومن ثم تحققت له المنفعة فعرض حينئذ الحالة على حضرة الوزير ، فلما اطلع الوزير

على اعلام حاكم الشرع الشريف وعلم ان في ذلك مصلحة شرع في عمارة الباب والطريق العام »[٥] ويتضح من هذا النص صعوبة احداث تغيير في طريق عام ، رغم ظهور فائدة هذا التغيير ، ولاشك في ان مبلغ الصعوبة يكون اشد حينما لا يتعلق التغيير بفائدة عامة ، او لا يكون مقرونا برغبة فئة واسعة من سكنة المدينة ٠

ومن الثابت بحسب اوصاف الرحالين ، ان معظم الطرق في المدن العراقية في القرون الاخيرة لم تكن جيدة ، مما كان يسبب الضيق للسكان ، وعرقلة لحركة انتقال الناس والبضائع وبخاصة في فصل الشتاء حيث يتساقط المطر فيحيل تلك الازقة الى طبقات من الوحل يعلو بعضها بعضها ، وبرك من الماء يترامى بين جدران الدور المتقاربة ٠ ومع ذلك ، فان هذا الواقع السيء للطرق لم يدفع سلطات المدن الى العناية بها . برصفها بقطع الآجر او الحجر ، او بتنظيم شبكة صرف لمياه الامطار ، او تلك التي تتدفق من البيوت احيانا ٠ وقد وصف كاتب معاصر حالة الطرق في بغداد ، في آخر العصر العثماني ، بانها « موحلة بالشتاء بدون استثناء ، وتتجمع المياه في بعض الاماكن ، وليس لها مخرج كالاسواق وبعض الميادين ، مثل العوينة وسوق العطاطير وخان اللاوند وغيرها كثير ، فينتظر هناك حمالون يحملون الناس على ظهورهم من جانب الى آخر ، وهم يستعدون لمثل هذه القضية لانها تدر عليهم ربحا غير قليل في ذلك اليوم او اكثر من ذلك اليوم »[٦] ٠

ومما يزيد الطين بلة ، تلك المياه المتدفقة من « مزاريب » البيوت ، والتي تتجمع عادة في وسط الطريق لتعيق حركة السابلة فيه ، وقد شاع في المدن العراقية الكبيرة ، في اواخر القرن التاسع عشر ، ان يحفر صاحب كل بيت « بالوعة » تحت مزريب بيته ، وتأمر البلدية بتنظيفها عند موسم الامطار ، وكان معظم من يقوم بتنظيفها ، انما يفعل ذلك تدينا بحسبانه من اعمال الخير والبر ٠

ولم يكن ببغداد ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، غير طريق واحد معبد ، رصف بقطع من الصخر ، وبالحصى الكبار ، يبدأ من باب الجسر الوحيد للمدينة تقريبا ، وينتهي عند سوق باب الاغا ، وقد اشتهر بـ « عقد الصخر » نسبة الى رصفه بها ، ولا يعلم ، على وجه التحديد ، تاريخ تعبيد هذا الطريق الوحيد ، ومن المؤكد انه كان معبدا في اواخر القرن الثامن عشر[٧]. على ان القرن التاسع عشر شهد تعبيد طرق اخرى، هي شارع القشلة، المحاذي لسراي الحكومة ، وقسم من سوق السررجية ، وهو قريب من السراي ايضا[٨] مما يشير الى انها عبدت بامر من بعض ولاة بغداد .

الجسور

ان وقوع معظم المدن العراقية الكبيرة على حوافي الانهار الرئيسة ، وبخاصة دجلة والفرات ، جعل من واجب السلطات فيها توفير جسور صالحة لانتقال الناس ونقل بضائعهم وغلاتهم من هذا الجانب الى ذلك . ولقد اشار السياح والرحالون ، ابان القرون المتأخرة ، الى العديد من هذه الجسور ، ووصفوها وصفا تفصيليا ، ولاحظوا ان اقامتها على زوارق وشدها من طرفي النهر بالحبال والسلاسل ، لايكفي ، في احيان كثيرة لان تثبت في وجه سرعة تيار النهر وارتفاع منسوبه ، مما يؤدي الى انقطاعها ، بين حين واخر ، وهو امر كان يستلزم من تلك السلطات عناية مستمرة ونفقات كبيرة نسبيا ، وجهودا جسيمة ، تشمل صنع السلاسل ، والزوارق ، واستبدال التالف منها ، وملاحقة زوارقه في حالة انقطاعه ، واعادة نصبه بسرعة . ومع ان مثل هذا العمل كان يستدعي الاشراف اليومي على شؤونه ،الا انه ليست ثمة معلومات واضحة عن الجهة المسؤولة في المدينة العراقية عن تلك الشؤون ، ومن الراجح ان الذي يأمر بنقل جسر من مكان الى اخر ، او بنصبه ، هو والي المدينة ، وفي الغالب فان مواقع الجسور تكون قرب دور الحكم (القلاع الداخلية ، او السرايات فيما بعد) كما في بغداد ، والموصل ، حيث يسهل على سلطة المدينة

حمايتها والاشراف عليها • ومن المحتمل ان تكون نفقات الجسر اكبر مما تستطيع سلطة المدينة توفيره ، وعند ذاك ، يجوز للوالي ان يجتهد في توفير المال اللازم ومن أي وجه ، بوصف المشروع من مشاريع النفع العام للمدينة كلها ، فعندما اراد والي الموصل سنة ١١٣٣ هـ/١٧٢٠ م ، بناء قناطر ثابتة في الجانب الشرقي من دجلة تصل بين الجسر والبر في موسم الفيضان . فاتح اهل الموصل بما عزم عليه ، وبيّن لهم ان الامر يحتاج الى مبلغ من المال . وان خزينة الموصل لاتتحمل صرف مثل هذا المبلغ ، فاشار عليه اعيان المدينة ان يضع ضريبة على ارباب الحرف وتبنى القناطر بما يجمع من هذه الضريبة ، ولكنه فضل ان يكلف ثلاثة من اثرياء المدينة وضامني ضرائبها بتقاسم المبلغ المطلوب فيما بينهم ، فبنى كل من اولئك الثلاثة قسما من القناطر « فاستراح الناس من التعب » وتكرر انفاق الثلاثة على الجسر ، عندما تخربت القناطر بفعل المياة فبنوا مسناة في محلها ، وكان الولاة قد عجزوا عن تعميرها • ومن المحتمل ان يقوم الوالي بالعمل وحده والانفاق عليه من خزانة الولاية اذ ما توفر المال اللازم لذلك، وفي هذه الحالة، يستطيع سد المبلغ عن طريق فرض ضريبة محدودة على سالكي الجسر، كما فعل احد الولاة في الموصل سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٦م عندما « وضع على كل خيال يمر على جسر الموصل غرشا الى الميرة » وان استطاع ، اسقط المبلغ المنفق ، من جملة ما تدفعه الولاية الى الخزانة العامة في القسطنطينية باعتباره قد أنفق على مشروع له تعلق بصالح الدولة العام • وليس ببعيد أن يقوم وال بتعمير مسناة الجسر ، او اصلاحها ، على نفقته الخاصة ، بوصف ذلك من اعمال الخير والبر ، كما فعل احمد باشا بن حسن باشا والي بغداد حينما عمر مسناة جسر المدينة « من كيسه الخاص » على ان ذلك كله لم يدخل ضمن اطار ما كان يتولاه الوقف الاسلامي ، اذ ليست ثمة وقفية مخصصة للانفاق على جسر او قنطرة في مدن العراق في ذلك العصر •

وبعد تأسيس البلديات في المدن العراقية وما رافقها من توسع في عمران تلك المدن ، ازداد اهتمام السلطة بالجسور والقناطر بوصفها من المستلزمات الضرورية لتحسين طرق المواصلات بين المدن ، ففي سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م انشأ والي بغداد مصطفى عاصم جسرا من عوامات خشبية على معبر (قرارة) ولم يكن جسر هناك من قبل ، وفي سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م انشيء جسر اخر على نهر الخر غربي بغداد ، وساعد وجود مدرسة الصنائع في بغداد ، وما تخرجه من صناع ماهرين ، على تحسين مستوى تلك الجسور ، فعندما كثر انقطاع جسر بغداد وتفرق عواماته ، امر والي بغداد نامق بانشاء جسر من احدث طراز يومذاك وقامت بعمله مدرسة الصنائع ، وزود الجسر اول مرة بمقاهي عصرية « فكان ابهى منظر على نهر دجلة »[٩] .

مياه الشرب

شكل أمر توفير مياه الشرب لسكان المدن العراقية ، منذ اواخر العصر العباسي حتى اواسط القرن التاسع عشر ، مشكلة حقيقية لسلطات المدن ولسكانها على حد سواء ، وذلك لان استمرار توفر هذه المياه كان يعتمد — بصفة اساسية — على استقرار مجاري الانهار التي تقع على شواطئها ، او قريبا منها تلك المدن . ولما لم يكن ثبات المجاري المذكورة يحصل الا بجهود فائقة، ومنتظمة تبذل من سلطة مركزية قوية ومسؤولة ، فان حقبة الغزاة ، بما تمثله من تجزؤ للسلطة ، وخضوعها لعوامل التخلف ، شهدت تدنيا ملحوظا في ادامة تلك الانهار، مما ادى الى جفاف العديد من شبكات الري القديمة، وارتفاع عقيق مجاريها لتسبب الطمى المستمر ، واهمال كريها ، كما انه ادى من ناحية اخرى — الى تحويل بعض الانهار — حتى الرئيسة منها مجاريها غير مرة ، وفي فترات مختلفة ، الامر الذي تسبب في حرمان مدن عراقية بكاملها من مياه الشرب الضرورية ، وخلق مشكلة حقيقية لسكانها .

ومن اهم المدن التي اندثرت في اوائل العصر العثماني نتيجة لما تقدم من عوامل ، مدينة « واسط » الشهيرة ذات التراث الزاهر في القرون الوسطى، وذلك حين ادى اهمال شؤون الري الى ابتعاد مجرى دجلة عن المدينة ، وتحوله الى مجراه الشرقي المنحدر الى بلد « القرنة » ، فعم الخراب سائر المدينة وما ان حل القرن السابع عشر حتى كانت هـذه المدينة تقوم وحدها وسط البرية ، ولم تمض الا سنوات ، حتى هجرت برمتها . وللسبب نفسه ، اضطر اغلب سكان مدينة النجف الى الجلاء عن مدينتهم ، حتى لم يتبق من دور المدينة في القرن السادس عشر الا عشر ما كانت عليه من قبل . وكانت اسعار مياه الشرب باهظة ، حيث يضطر السكان الى نقل تلك المياه من نهر الفرات عند بلدة الكوفة ــ ومثل هذا الحال ينطبق على مدن « الرماحية » و « الحسكة » وغيرها من المدن والنواحي الاخرى .

ولم تؤد مشكلة توفير مياه الشرب الى اندثار المدن الثانوية فحسب، وانما الى انكماش المساحات المسكونة من المدن الكبيرة نفسها ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصر العباسي،ففي بغداد انحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في اواخر القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ثم استمرت عملية الانكماش السكني ، كمظهر من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فخلت اماكن وسيعة داخل الاسوار نفسها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدن المستقلة . وتحولت محلات مثل باب الازج وباب المراتب والبصلية وقطيعة العجم والريان وغيرها، الى صحراء قاحلة لا نبت فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد اهملت تدريجيا ، حتى اندثرت تماما في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥ م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه العديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من

دجلة، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب — من ثم — شكلا اخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير بالملاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الارض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم المدة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانقضاء صفحة العصر العباسي نفسه . وأقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قربهم » ، ولا شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة اولئك السكان من مياه الشرب فضلا عن توفير مياه الاستعمال ومن الراجح ان تكون الابار قد اتخذت موردا للنوع الاخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد ،منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) ، تطورا ملموسا في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تعتمد على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبينة بالآجر والنورة واخلاطها، ويرفع الماء اليها بواسطة الدواليب، فتجري المياه في القنوات المطلية بطبقة من القار ، مجتازة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب حتى تصل الى المواضع المهمة ، او الاكثر ازدحاما في السكن ، فتتفرع منها في قنوات اخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تحمل القناة الرئيسية الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبيا لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي، وليفنى ما يتبقى في الاراضي القاحلة حواليها . وهذا النوع من مشاريع

مياه الشـرب يذكرنا بمشروع قنوات الســاج الذي اقامه المنصور لمــد مدينته بالمياه مـن نهر دجلـة ، الا ان المشــاريع العثمانية تميزت بثباتهـا ودوام عملهـا ، وهــي في الواقع لـم تكـن الا تقليــدا لامثالهـا مـن المشاريع التي انشأها العثمانيون في بعض المـدن الكبيرة ، متأثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود قديمة

بيد ان استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . فقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هــذين النوعين ، فاعتبروا النوع الاول من المشاريع الخيرية العامة ، الموقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية المسماة « چشمة » . اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض الشروط عليه ، كتخصيص مائة للفقراء بالدرجة الاولى[١٠] ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ، يأخذ راتبه من غلة الوقت ، وما الى ذلك من امور

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف بأوليا جلبي الذي قدم بغداد سنة ١٠٥٨ هـ/١٦٤٨ م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥ م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « چشمة » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقربهم من النهر[١١] هذا في حين أعتبر الآقشهري[١٢] السبيل (او السبيل خانة) ما يملأ بالقرب بالاجرة ، « والچشمة » عيون الماء النضاحة ، ويقرب منها مـا تحمله القنوات من مياه دافقة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره اولياجلبي ايضا ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها بـ (٦٠٠٠) بئر . ونحن نعتقد بان وجه الصعوبة التي اشار اليها اوليا جلبي هو ان شواطيء بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه

هو ، اما سائر الشواطىء فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة بغداد التي رسمها نصوح السلاحي المطراقي سنة ٩٤٤ هـ/١٥٣٧ م ، وخارطة بغداد من عمل تافرنييه سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦ م[١٣] ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مشارع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الاوائل الى مد القنوات على عقود الاجر لتزود سقاياتها الداخلية.ويؤكد هذا القول ان دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها من دجلة راسا ، وانما من آبار عميقة حفرت خصيصا بها. ويدل بئر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني، وهو آخر مابقي من هذه الابار ،على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الاسوار والحصون . واذ بقيت هذه الاسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بامكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، عدا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ، حتى ان عددا من السياح الذين أقاموا ببغداد او مروا بها ، نوهوا بهذه المشكلة ، ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاشار الرحالة الايطالي الاب فنشنسو (Vincenzo) الذي زار بغداد سنة ١٠٦٧ هـ/١٦٥٦ م الى ان الماء الذي يباع ببغداد ، يأتي ملوثا بالقار ــ وان كان لا ضرر في هذا التلوث ــ ووصف طريقة جلبه الى المدينة، بانه كان ينقل على ظهور الثيران والجياد ، في قرب كبيرة من الجلد[١٤] . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوغة لا يؤدي الى ما لاحظه من تلوث الماء بالقار ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القار لحفظها من الضياع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم يتنبه سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١هـ/١٧٦٧م الى وجود قنوات عامة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى كثيرا من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من

الجلد يحملها بعضهم على ظهورهم ، بينما يحملها بعضهم الآخر على الحمير والبغال(١٥) • ومثل ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدومه الى بغداد سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٦ م حيث ذكر ان المدينة تزود بمياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصهاريج والاحواض غير معروفة فيها(١٦) •

ونظرا لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شراؤها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والاعيان واهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات بانشاء جملة من السقايات المهمة • ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وقفيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة السقاية ، وحدد رواتبهم بدقة • وصار للسقائين الذين ينقلون الماء الى السقاية رواتب معلومة• واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد «قرب» الماء التي يحملها السقاء كل يوم ، فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يوميا ، لقاء راتب قدره ٣٦٠ قرشا ، وجعلت السيدة نازندة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرش رائج (٤٥٠ قرشا صاغا) بينما حدد نقيب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايته بـ ٤٥ قرشا صاغا كل شهر •

ومثلما اهتم اولئك الموسرون بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية • فقد تفنن المهندسون والنقاشون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالواح الرخام المنقوش والقاشاني الملون وبشبابيك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بديعة ، آيات قرآنية ، وابيات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها احيانا ، وزاد آخرون بان اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها اشجارا تظلل الشاربين •

فكان من نتائج هذا الاهتمام أن زاد عدد السقايات العامة التي يملؤها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد[١٧] .

الحدائق العامة :

كان من جملة ما افتقدته المدينة العراقية في عصورها الحديثة ، الحدائق العامة والمتنزهات ، التي طالما عوضت عنها ، في خلال العصور السابقة ، حدائق الخلفاء والبساتين المتقنة مما انشأه الامراء وارباب السلطان ، فلقد اندثرت بسرعة دار الخلافة العباسية ببغداد ، بما كانت تضمه في جنباتها من جنائن بالغة الروعة والترتيب ، وتخربت متنزهات اخرى في ارجاء مختلفة من بغداد ومدن عراقية غيرها . وبدت هذه المدن ، كما تصورها كتابات السياح والرحالين ، وخرائطهم كئيبة المظهر ، تكتظ اجزاء منها بالبيوت الضيقة ، بينما تخلو الاجزاء الاخرى من اي مظهر من مظاهر العمران ، وتحيط بها غالبا المقابر الواسعة . وفي الواقع ، فان هـذه الاراضي الخالية ، والمقابر ، أمست نفسها متنزهات عامة لاهل مدن ذلك العصر ، يتنزهون فيها جماعات ، فيما عرف بـ « الكسلات » وقد خصصوا لكل زيارة لهذه المشاهد والمراقد اياما مخصوصة ، تقام فيها المهرجانات ومعالم الافراح ، مثل مشهد الامام ابي حنيفة ، ومشهد الامام موسى الكاظم ، وقبر مريم في الكرادة الغربية من بغداد،والسيد ادريس في الكرادةالشرقية، ومرقد الشيخ معروف ببغداد، وبعض تلك النزهات او الكسلات ما يدوم نهارا واحدا ، ومنها ما يزيد على ذلـك[١٧أ] .

واقدم حديقة عامة انشئت ببغداد في هذه القرون المتأخرة، مما وصلت الينا اخبارها ، حديقة كبيرة غناء ، انشأها والي بغداد حسين باشا سنة ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٣م قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي في اقصى بغداد الشرقية[١٨]، وجعل

عندها سقاية لشرب الماء ، وتسقى الحديقة من قناة مرفوعة على عقود تأخذ مياهها من نهر دجلة « فصار الجامع والتربة متنزها للخاص والعام » وقد بقيت هذه الحديقة عامرة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بسبب انها كانت جزءاً من اوقاف الوالي المذكور على جامع السهروردي ، وكان متولو الوقف يتعهدونها بالعناية جيلا بعد جيل .

وكان انشاء البلديات في مدن العراق ، وبخاصة في الرئيسة منها ، ايذانا بانشاء عدد من الحدائق العامة والانفاق عليها وادامتها ، ففي بغداد مثلا ، اقيم متنزه ضخم في بستان كان لاحد الولاة على شاطىء دجلة الشرقي ، عرف (بالمجيدية) واعتني به اعتناءً تاماً ، حتى اصبح متنزها لاهل بغداد يتمتعون بنسيمه وازهاره ومنظره الحسن . ثم اعقبه سنة ١٣٠٧ هـ/ ١٨٨٩ م متنزه آخر انشىء وسط « الميدان » وزود بحوض يحتوي على نافورة تقذف الماء بشكل جميل[١٩] وتحيط به المقاهي الممتدة على جانبي الطريق . على ان فكرة انشاء الحدائق العامة في المدن الاخرى لم تجد انتشارها الا بعد انقضاء العهد العثماني وتأسيس الحكم الوطني فيه .

التنظيمات البلدية المبكرة

لبثت ادارة المدينة العراقية ، المتضمنة مراقبة الاسواق والموازين والمكاييل وادامة المؤسسات ذات النفع العام من اختصـــاص جماعة العلماء ، وباشراف قاضي المدينة . وكان نواب الاخير يتولون مسك سجلات مدنهم ، التي يقيد فيها الذكور ويتم تسجيل التحركات والانتقالات وما الى ذلك . ولم تعرف هذه المدينة ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، اي شكل من اشكال التنظيمات البلدية الحديثة ، وعلى الرغم من المرسوم الصادر سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م باقامة « مختارين » في احياء المدن ، تناط بهم معظم تلك المسؤوليات[٢٠] ، الا ان تطبيق هذا المرسوم لم يجر في العراق حتى انتهاء حكم المماليك (سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١م) وقد وجد تطبيقه فعلا سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥ م ، ففي هـــذا التاريخ

جرى انتخاب المختارين للمحلات في مدن العراق ، فصار لكل محلة امام ومختاران اول وثاني ، ولكن اللوائح الخاصة بانتخابهم لم تصدر الا سنة ١٢٨١ هـ /١٨٦٤ م . وقد تضمن قانون الولايات الصادر عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م انشاء مجالس بلدية في مدن الولايات ، يتراوح عدد اعضاء كل مجلس منها بين ٦ و ١٢ عضوا ، ويرتبط بهذه المجالس موظفون دائمون ، منهم مهندس مدني . ومهندس معماري ، وحدد اختصاص المجلس بانه يتولى بوجه عام ما يتعلق بالنظافة والترقية العامة ، وبنوع اخص : صيانة الطرق والشوارع والبالوعات والارصفة ومصابيح الشوارع وكنس الشوارع ورشها وتوسيعها وتقويمها وتوفير الماء والغاز والتفتيش على المباني المتهدمة وذات الخطر على الناس والامر بازالتها والتفتيش على المواد الغذائية ومراقبتها والرقابة على الاسعار ، والمكاييل والموازين والمحلات العامة وما الى ذلك(٢١) .

وتنفيذا للقانون ، قسمت المدن العراقية الى دوائر بلدية بحسب سعتها فكانت بغداد تنقسم الى ثلاث بلديات ، تختص الاولى بالنصف الشمالي من الجانب الشرقي ، والثانية بالنصف الجنوبي منها ، والثالثة بجانب الكرخ جميعه . اما المدن الرئيسة الاخرى، فقد اصبح لكل منها بلدية واحدة(٢٢) .

ولقد اعتبرت مجموعة القوانين والانظمة الخاصة بالولايات ، الصادرة سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م الخدمات الصحية في المدن جزءا من اعمال البلديات فيها وداخلة في اختصاصاتها ، لذا ان اول ادارة صحية في العراق كانت تابعة لبلديات مدنه الرئيسة ، وبخاصة بغداد، وتعرف هذه الادارة بـ (طبابة البلدية) وكانت تشرف على مراقبة المطاعم العامة والمقاهي والقصابين والبقالين والخبازين من الوجهة الصحية ، ومراقبة تنظيف الاماكن الموبوءة بالاوساخ خشية انتشار الاوبئة والامراض السارية وتعقيم مياه الشرب وايجاد عربات يدوية صغيرة لنقل النفايات الى المزابل التي تكون عادة بعيدة عن المدينة ، وكان لطبابة البلدية

صيدلية ومستوصف لمعالجة الفقراء وتوزيع العقاقير التي يحتاجون اليهـا مجانـا .

ورغم تواضع هذه المؤسسة ، الا ان انشاءها كان بشيرا بتحسن ملحوظ للاحوال الصحية للمدينة العراقية بوجه عام ، فقد انيطت بها تدريجيا مهمة ادارة المستشفيات العامة التي ستقام فيما بعد ، والاشراف على المستشفيات والصيدليات الخاصة ايضا . وكان اول مستشفى تناط شؤونه بهـا ، هو (مستشفى الغرباء) الذي انشأه والي بغداد مدحت باشا في جانب الكرخ سنة ١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م من تبرعات سكان المدينة وهباتهم ، وبلغ عدد اسرته (٥٠) سريرا[٢٣]، يليه في العام نفسه (المستشفى العسكري) في الجانب الشرقي، عند مدرسة الصنايع ، وبلغ عدد اسرته (١٨٠) سريرا .

وشهدت نهايات القرن التاسع عشـر اهتماما متزايدا في توفير الخدمات الصحية ، ففي سنة ١٩٠٠ شيد ببغداد مستشفى جديد، زود بالآلات الجراحية من اوربا ، وقسم الى شعب مختلفة ، أهمها الامراض الباطنية والجراحيـة والعيون . وفي التاريخ نفسه، شيدت ادارة بلدية الموصل ، مستشفى حديثا عند باب سنجار ، احد ابوابها القديمة ، ثم تلاه مستشفى اخر في مدينـة البصرة .

وفي سنة ١٩٠٥ تم فصل الخدمات الصحية عن شؤون البلديات ، حين شكلت (رئاسة للصحة) تألفت من طبيب البلدية ومفتش صحي وكاتب ، وبعد ثلاث سنين ، استحدث منصب مدير صحة الولاية ، واستمر الوضع على هذا الحال حتى ١٩١٤ اذ تأسست مصلحة الصحة العامة بعد الاحتلال البريطاني[٢٤] .

وتتألف البلدية من رئيس ومعاونه ، ومن مجلس يتألف من ستة اعضاء، ومدة العضوية فيه سنتان ، وعند انتهاء هذه المدة يجري انتخاب ثلاثة منهـم بصورة دورية ، وعضوية المجلس فخرية بلا راتب ، ويجمع المجلس مرتين في الاسبوع برئاسة رئيس البلدية او من ينوب عنه، وله ان يدعو المجلس الى الانعقاد

عنداقتضاء الحال ، ومن واجبات المجلس وضع الميزانية العامة للبلدية وتقديمها الى مجلس ادارة الولاية للمصادقة عليها ، ومن اختصاصاته وضع الضرائب على بعض المهن والغاؤها عند الاقتضاء ، وأحالة الرسوم العائدة للبلدية على ملتزميها واحالة المشاريع العمرانية على المتعهدين ، ومن واجباته ايضا تقرير فتح الشوارع والاشراف على تبليطها واستملاك الدور والعرصات التي تمر بها ، وسائر مانص عليه القانون .

وتتألف البلدية من شعب متخصصة ، اهمهـا شبعة الهندسـة ويدير شؤونها مهندس يعاونه في اداء واجباته معمار مختص وعدد من الموظفين والكتبة وواجبات هذه الشعبة تطبيق قانون الابنية داخل المدينـة وضواحيهـا ومنح اجازات البناء ومراقبة الابنية الايلة للانهدام وتنظيم الخرائط والمخططات للشوارع المنوي فتحها وغير ذلك . وطبابة البلدية ويدير شؤونها طبيب يعاونه في اداء واجباته جراح وصيدلي وملقح للجدري ومولدة اضافة الى شعب للمحاسبة وللتفتيش وللتحرير[٢٥] .

وعلى الرغم من ادخال النظم البلدية هذه ، فان كثيرا من التقاليد السابقة للحياة المدنية لم يجد سبيلا للتغيير ، ولبثت قوة هذه التقاليد الراسخة هي التي توجه سكان المدينة في معاملاتهم وتحدد مواقفهم من الخدمات البلدية بوجه عام ، ويفهم مما ذكره كاتب معاصر ، مقدار الفجوة الحاصلة بين النظم البلدية الحديثة، وتقاليد المدينة الاسلامية القديمة، فيقول «واذا اراد أحد انشاء بناية او اجراء ترميم فبعد اخذ الرخصة من البلدية ورسمها غرش صاغ واحد يأتي احد جواويش (مراقبي) البلدية عند المباشرة ببناء جبهة الدار يأمرهم بالرجوع لتوسيع الطريق سواء أواسعا كان الطريق أم ضيقا ، وبعد ذهابه يعملون ما يريـدون .. » .

المصادر

بكنكهام :

رحلتي الى العراق . ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨)

جواد ، مصطفى ، وسوسة ، احمد :

دليل خارطة بغداد المفصل (بغداد ١٩٥٨)

جواد ، مصطفى ، ومعروف ، ناجي وآخرون .

بغداد . كتاب اصدرته جمعية المهندسين العراقية . (بغدد ١٩٦٩)

الحسني ، عبدالرزاق :

العراق قديما وحديثا (صيدا ـ لبنان ١٩٥٨)

الحنفي ، جلال :

الصناعات والحرف البغدادية ، بغداد ١٩٦٦

الدروبي ، ابراهيم :

البغداديون اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨)

رؤوف ، عماد عبدالسلام :

الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥)

تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد ، مجلة المورد ، المجلد ٨ العدد ٤ (بغداد ١٩٧٩)

الحسبة والمحتسب في الاسلام . بيروت ١٩٦٣

سالنامة بغداد ١٢٩٨ هـ مطبعة الولاية ـ بغداد

سالنامة البصرة ١٣٠٩ هـ مطبعة الولاية ـ البصرة

سالنامة ولاية الموصل ١٣٠٨هـ مطبعة الولاية ـ الموصل

سركيس ، يعقوب :

مباحث عراقية ، جزان ـ بغداد ١٩٤٨ و ١٩٥٣

سليمان فائق :

السهروردي ، محمد صالح :

لب الالباب . جزآن ، بغداد ١٣٥١

الشيخلي ، محمد رؤوف :
مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها . جزآن . البصرة ١٩٧٢
الصائغ ، سليمان :
تاريخ ، الموصل ،جزآن القاهرة ١٩٢٨ وبيروت ١٩٤٠
العزاوي ، عباس :
تاريخ العراق بين احتلالين . الاجزاء ٤ ــ ٨ بغداد ١٩٥٣ ــ ١٩٥٦
العلاف ، عبدالكريم
بغداد القديمة ، بغداد ١٩٦٠
العمري ، سعاد : بغداد كما وصفها السواح الاجانب بغداد ١٩٥٤ .
العمري ، ياسين :
منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوهجي ، الموصل ١٩٥٣
العمري ، ياسين :
غرائب الاثر ، نشره محمد صديق الجليلي الموصل ١٩٤٠
العمري ، ياسين :
غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، بغداد ١٩٦٧
العمري ، ياسين :
زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية ، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف ، النجف ١٩٧٤
مصطفى جواد وناجي معروف وآخرون :
بغداد ، اصدرته جمعية المهندسين العراقيين ، بغداد ١٩٦٥
نوار ، عبدالعزيز :
تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ١٩٦٨ ،
دائرة المعارف الاسلامية ، مواد متعددة ،

الهوامش

(١) نص الوقفية في :

عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٨٩ .

(٢) عماد عبدالسلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (النجف ١٩٧٥) ص ٤٠٠ .

(٣) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٢٣) ٣١٣/١ .

(٤) تنظر هذه الخرائط في اطلس بغداد للدكتور احمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) .

(٥) العزاوي : المصدر السابق ١٠٦/٢ .

(٦) محمد رؤوف الشيخلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ٨٥/١ .

(٧) عبدالرحمن السويدي : تاريخ حوادث بغداد والبصرة ، تحقيق الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف (بغداد ، ١٩٧٨) ص ٩٣ و ١٠٠ .

(٨) الشيخلي ٨٤/١ .

(٩) ياسين العمري : الدر المكنون ص ٥٨٠ (مخطوط) .

(١٠) محمد بن ولي الازميري : رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ .

(١١) اوليا جلبي سياحتنامه سي (استانبول ١٣١٤) ٤٢٠/٤ .

(١٢) الازميري : المصدر السابق .

(١٣) اطلس بغداد ص ١٢ و ١٣ .

(١٤) رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد العدد ٣ المجلد ٥ (بغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(١٥) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ترجمة سليم طه التكريتي ص٧٥

(١٦) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .

(١٧) التفاصيل في بحثنا المعنون « تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد » المنشور في مجلة المورد ، العدد ٤ ، المجلد ٨ (بغداد ١٩٧٩) ص ١٦٥-١٩٦

(١٧أ) ابراهيم الدروبي : البغداديون (بغداد ١٩٥٨) .

(١٨) مجموعة من وقيات بغداد (مخطوطة) .

(١٩) رسمها السيد رشيد الخوجة في خارطة بغداد التي وضعها سنة ١٣٢٤هـ /١٩٠٨م (انظر احمد سوسة : اطلس بغداد ص ١٦) .

(٢٠) دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية الجديدة٥٦٠/٧ (مادة بلدية)

(٢١) انظر عبدالعزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ٣٦٤ (القاهرة ١٩٦٨) .

(٢٢) الشيخلي : المصدر السابق ٨٤ .

(٢٣) العزاوي : المصدر السابق ١٩٩/٧ .

(٢٤) انظر عبدالحميد العلوجي : تاريخ الطب العراقي (بغـداد ١٩٦٧) ص ١٥١ ـ ١٥٧ وابراهيم خليل احمد : تاريخ الخدمات الصحية في العراق في القرون الاخيرة (بحث مطبوع على الالة الكاتبة القي في الندوة القطرية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ببغداد) .

(٢٥) ينظر قانون البلديات وتعديلاته ، في مجموعة القوانين العثمانية المسماة (دستور) ترتيب ثاني (استانبول ١٣٣٠) ٤١٩/٣ وعن هيكل بلديات العراق ، مجموعة سالنامات بغداد والموصل والبصرة .

الفصل العاشر

المدن العراقية كمراكز للنشاط الاقتصادي
في العهود المتأخرة ١٥٣٤ ـ ١٩١٤

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
جامعة بغداد / كلية الاداب

مواقع المدن العراقية وتطورها

اختلفت الاغراض او الوظائف التي انشئت من اجلها المدن العراقية الرئيسة كبغداد والموصل والبصرة • فبينما أنشئت المدينة الاخيرة لاغراض حربية ، فقد اتخذت الموصل الطابع نفسه ، على حين صممت بغداد لتكون حاضرة الدولة العربية العباسية ، فضلا عن كونها ذات أهمية تجارية •

وتغيرت بمرور الزمن الاصول الوظيفية لهذه المدن ، أو انها لم تعد تحقق الوظيفة الاصلية التي بنيت من أجلها • فالبصرة ــ كما قلنا ــ من مدن العرب الحربية لا علاقة لها بمضي الوقت بالوظيفة الحربية في شيء ، وبدلا من ذلك فان المدينة أخذت تنمو وتتسع كمدينة تجارية ــ حتى منذ عهودها الاولى • واذا ما كان بالامكان تحقيق غرض واحد من بناء المدينة العربية في العصور الاسلامية المبكرة ، فان مثل هذا الغرض لم يعد

مسكنا في العصور الحديثة ، اذ حلت محلها المدن متعددة الوظائف[1] ، وهذا ما نجده واضحا بالنسبة للمدن العراقية . فقد تلازمت عوامل عديدة اقتصادية واجتماعية وعسكرية في نموها وتطورها ، حيث سنركز في هذا المجال على الجانب الاول منها .

ويبدو انه قد طرأ بعض التغير على مواقع المدن العراقية من اجل ان تتماشى مع الوظائف الجديدة التي اخذت تمارسها . فقد احتلت مدينة البصرة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي موقعا جديدا يغاير موقعها السابق ، وهذا الموضع الذي تحتله البصرة الحديثة يقع على نهايات نهر العشار في موقع يتوسط مدينة البصرة القديمة وشط العرب[2]. أن الموقع الجديد جعل بالامكان تنظيم عملية نقل البضاعة من شط العرب الى مدينة البصرة وبالعكس ، ذلك لان القناة التي حفرت انذاك تتفرع من شط العرب وتمتد الى قلب المدينة وابعد من ذلك . وعندما تحدث عملية المد وتمتلىء القناة بالمياه يمكن ان تسير فيها السفن الكبيرة من ذات المائة والخمسين طنا حتى تصل الى وسط المدينةبعد سحبها على الاكتاف لفترة من الزمن حتى ايصالها الى قلب المدينة حيث تفرغ حمولتها . اما السفن الصغيرة والابلام فيمكن دخولها عن طريق القناة الى قلب المدينة دون أن تتأثر حركتها بعملية المد والجزر[3] . وهكذا أصبحت مدينة البصرة ، وبحكم موقعها المهم هذا ، تتمتع باهمية تجارية كبيرة اذ ترد البضائع اليها من مختلف البلاد : من جزيرة العرب ومن فارس وتركيا ، ومن الهند بصورة خاصة ، اذ تصل اليها السفن محملة بمختلف منسوجات الهند[4] .

وحدث تغير مماثل في مدينة الموصل ، وذلك من اجل تأدية وظيفة تجارية أفضل . اذ بينما كان مركز النشاط الاقتصادي للمدينة يقع في

منطقة الجامع الكبير المركزي في الفترة التالية لسقوط بغداد ، فقد انتقل هذا المركز الى الجنوب الشرقي باتجاه نهر دجلة ابان القرن الثامن عشر . ويمكن ان يعزى مثل هذا التطور الى سببين رئيسين: اولهما ان تشييد القلعة على طول نهر دجلة قد شجع على تطور المنطقة التجارية تحت القلعة ، وثانيهما ان وجود منطقة العبور على نهر دجلة بواسطة جسر مؤقت او ثابت ، ربما شجع على تعيين منطقة الاسواق والخانات بصورة متصلة بحركة النشاط التجاري(٥) .

اما مدينة بغداد ، فقد اختلفت نظرة العثمانيين اليها . وهي نظرة ترتكز على تصور ان هذه المدينة ليست الا حصنا عسكريا مهمته الرئيسة حفظ الاراضي التابعة للسلطان ، ومركزا لجمع الضرائب من تلك الاراضي وارسالها الى السلطة المركزية في القسطنطينية، بينما كان الغرض الرئيس لهذه المدينة هو ان تكون مركز النشاط السياسي والاقتصادي للدولة العربية . ومع ذلك فقد استمرت بغداد في توسعها وتطورها الاقتصادي الى ان أصبحت من المراكز التجارية المرموقة في هذا العهد . ويمكن ان نرى هذه الميزة حتى في خلال القرن السادس عشر في العراق ، إذ يشير الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار بغداد في سنة ١٥٧٣ الى أن « في هذه المدينة مستودعات كبيرة للسلع ، نتيجة موقعها الملائم ، يتم جلبها بطريق البر والبحر من انحاء الدنيا العديدة ، ولاسيما الاناضول وسوريا وارمينيا واسطنبول وحلب ودمشق وغيرها ، كيما يتم نقل هذه السلع ثانية الى الهند وفارس وغيرهما »(٦) .

النشاطات الاقتصادية في المدن العراقية والعوامل المؤثرة فيها

وصلت المدن العراقية قمة ازدهارها الاقتصادي ابان العصر العباسي ، ولكن هذا الازدهار سرعان ما اصابه التدهور والانحطاط بفعل الغزو المغولي للعراق ، حيث دمرت التجارة والصناعة التي وجدت في البلاد خلال القرون

الخمسة السابقة . واكتملت صورة هذا التدمير للعراق بالغزو التيموري في اواخر القرن الرابع عشر الميلادي واوائل القرن الخامس عشر ، حيث فقدت فيه البلاد كثيرا من الايدي العاملة الماهرة في الصناعة التي تم نقلهـا الـى سـمرقند عاصـمة تيمورلنك .

ولم يتخلص العراق مـن آثار الغزوات المغولية الا لفترة طويلة مـن الزمن ، وعندها اصبح موضع صراع طويل بين الفرس والاتراك ، وكـان من اكثر النكبات التي حلت ببغداد ومعالمها الاقتصادية هي فتنة بكر صوباشي الشهيرة عام ١٠٣٢ هـ /١٦٢٢ م ، التي تمكن فيها الفرس من الاستيلاء على بغداد ، فتعرضت البلاد فيها لكثير من التدمير والتخريب . يقول في ذلـك أحد الرحالة الفرنسيين الذي زار بغداد عام ١٦٢٨ « أن هـذه المدينة كبيرة جدا ، ولكنها قد تهدمت بسبب الحصارات الاخيرة »(٧) .

وعانت الحياة الاقتصادية في بغداد كثيرا من الحصار الذي فرضه علي باشا عام ١٨٣١ ، والمعارك التي دارت بين قواته وقوات داود باشا ، والتي كان من نتيجتها ان استبيحت المدينة لاعمال السلب والنهب . يحدثنا في ذلك الرحالة الانكليزي فريزر الذي زارها بعد ثلاثة اعوام من ذلك بقوله :

« وكانت الاسـواق تنم عن اكثر امارات العنـف ايلامـا واثـارة للحزن . فقد سقطت السقوف المحروقة واختلط رمادهـا بالحبـوب والعطاريات والرقي والقرع وسائر الخضراوات ... اي جميع الاشياء غير الثمينة التي لا تستحق الاخذ . وديس حطـام ما اتلف خـلال النهب بالاقدام . أما الحجر والدكاكين فقد كانت مفتوحة خاويـة ، وقـد خلعت ابوابها وشبابيكها ، ومن حسن حظ المدينة أن القسـم الاعظم من هذه مبني بالطين والاجر ، ولو لم يكن الامر كذلك لاتت النار التي أضرمها الجنون الطائش على كل شيء »(٨) .

وهكذا تركت الحروب والحصارات اثرها السيء على الناحية الاقتصادية عامة ، وأدت الى فتور حركة التجارة بصورة خاصة • على أن هذه الحالة قد نجمت ايضا بسبب الحكم السيء لكثير من الحكام الاتراك والمماليك في العراق،ومنها ماجاء نتيجة لاسباب خارج سيطرة السلطة الحاكمة وهي الكوارث الطبيعية التي حدثت انذاك •

فالحكام الاتراك ، وكما اشرنا ، كانوا ينظرون الى المدينة العراقية على انها مركز لجمع الضريبة ، ولهذا سلبت ثروات ضخمة من المدن العراقية على شكل ضرائب مختلفة ، اذ سادت الحواجز الكمركية بين المناطق المختلفة، وكانت الرسوم تجبى من المواطنين حتى عند الجسور والعبارات[٩] • وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار احد الرحالة الاوربيين عند زيارته للموصل عام ١٦٦٤ حيث قال :

« رأيت طرقا عديدة من دون سكان ، وابواب الحوانيت مغلقة • وعلمت أن التجار وأهل الصنائع تركوا اعمالهم وهربوا الى كردستان تخلصا من دفع الضرائب الباهظة •• اذا لم يبق لهم ما يقدمونه للضريبة العثمانية الجشعة »[١٠] •

وعلى أية حال ، فان الضرائب العالية قد حطمت الاقتصاد العراقي • اذ لم يرصد من هذه الضرائب التي تجبى من العراق الا جزء ضئيل منها للاغراض التي لها علاقة بالاقتصاد العراقي ، ويخصص القسم الاكبر للانفاق على الجهاز الاداري وفي المجالات التي تحددها السلطة الحاكمة العثمانية • وعلى ذلك لم تعد الضرائب التي تجبى من العراق ذات فائدة على البلاد •

تأثرت الصناعة في المدن العراقية بالسياسة المتبعة انذاك • فبعد استعادة العراق للسلطة العثمانية [١١] المباشرة عام ١٨٣١ ، اتخذ العثمانيون سياسات عديدة حدت من توسيع الصناعة وتمركزها في مناطق معينة • من ذلك أنهم اشتروا بعض المصانع والادوات الاحتياطية الضرورية من اوربا ، ولكن هذه

المصانع وجدت طريقها الى القسطنطينية ، وبعض المدن العثمانية الاخرى ، لا الى المدن العراقية[١٢] وفي الوقت نفسه ، فان السلطات الحكومية كانت تفرض بعض القيود الصعبة على تأسيس المعامل في المدن العراقية ، كاشتراطها على اولئك الذين يرومون تأسيس معامل جديدة ان يقدموا طلبا للحصول على ترخيص منها[١٣] ، ولم يكن هذا الامر سهلاً على المواطنين لما فيه من اجراءات كثيرة معقدة ومكلفة .

اتبع بعض الحكام في العراق اساليب قسرية كانت ذات مردود سلبي على التجارة والمعاملات التجارية . اذ انهم كانوا يقترضون الاموال من التجار ، دون ان تعاد الاموال المأخوذة في اي وقت من الاوقات ، او ربما تعود بمشقة النفس[١٤] . ففي بغداد احتاج الوالي علي رضا باشا (١٨٣١ ـ ١٨٤٢) الى المال ، فقرر الحصول عليه من التجار . ولم يمتلك احدهم ما فرض عليه من حصة ، فاضطر الى بيع ما يملكه من عقار وامتعة لتسديد المبلغ ، الذي سجل دينا على خزينة الحكومة . ولكن هذا التاجر ـ كما يقول سليمان فائق ـ لم يحصل على امواله الا بعد عدة سنوات[١٥] .

والاكثر من ذلك ان بعض الحكام في البصرة كانوا يفرضون الغرامات على التجار عندما يحتاجون الى المال ، بل كانوا احيانا يقتلون التجار الاغنياء للاستيلاء على اموالهم . من ذلك ما حدث لاحد التجار الاغنياء في اثناء حكم علي اغا متسلم البصرة ، الذي أقرض علي اغا مبلغا من المال ، ومع ذلك فقد صدر حكم الاعدام على هذا التاجر ، ونفذ فيه فعلا وصودرت أمواله[١٦] . وقد أدت مثل هذه الممارسات وممارسة اخرى مماثلة قام بها عزيز أغا متسلم البصرة مابين ١٢٤٠ ـ ١٢٤٧ هـ/١٨٢٤ ـ ١٨٣١ م ، الى هجرة تجار البصرة الى المناطق المجاورة ، وتدهور التجارة ومجمل النشاطات الاقتصادية الاخرى[١٧] .

اما الكوارث الطبيعية من أوبئة وفيضانات ومجاعات ، فقد كانت هي الاخرى ذات اثر واضح على النشاطات الاقتصادية للمدن العراقية ، ذلك لانها كانت تقضي في كثير من الاحيان ـ على ما يبنيه الانسان لمدة طويلة من الزمن • وتاريخ العراق في هذا العهد مملوء بمثل هذه الكوارث ، ولكن سأشير هنا الى فيضان وطاعون عام ١٨٣١ ، لما لهما من أثر بيّن على الاقتصاد العراقي الذي تدهور بشكل لم يكن معروفا ـ على حد قول لوتسكي ـ حتى بالنسبة لسكان هذا البلد[١٨] • اذ انزلا ضربة قاصمة بقواه الانتاجية ، واغلقت الدور وخلت الحوانيت والمصانع واصيبت التجارة بكساد خطير • ولم يكن في وسع العراق أن يسترجع قواه الا بعد مرور ما يربو على عشرين عاما من اثار الطاعون[١٩] •

وبسبب هذه الكوارث المتشابكة ، تناقص عدد السكان في بغداد من مائة وخمسين الفا الى عشرين الفا لاغير ، وادى الطاعون الى انقراض عائلات حرفية ماهرة ، ولعل الاستشهاد بما ذكره فريزر عن اثار هذه الواقعة يعطينا انطباعا واضحا عنها ، اذ يقول :

« ومن بين خطوط الاسواق الطويلة [في بغداد] أصاب الخراب العام عددا غير يسير منها ، وقد مرت مدة طويلة قبل عودة الاسواق التي بقيت مهدمة الى الامتلاء ، والدكاكين الى فتح ابوابها من جديد بمقدار يعتد به • فان معظم التجار ، وجميع الصناع وارباب الحرف تقريبا ، قد أتى عليهم الموت وأزالهم من الوجود • وانك في هذا اليوم [اي عام ١٨٣٤] لو اردت ان تحصل على بعض الحاجات المصنوعة ، التي كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد يقال لك « آه » أن ذلك لا يمكن الحصول عليه الان لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا ، ولذلك إنمحت من هنا صناعات معروفة بأكملها »[٢٠]

حركة النشاط الاقتصادي في المدن العراقية

على الرغم من ان الحكام العثمانيين والمماليك في المدن العراقية ، لم يولوا النشاطات الاقتصادية ــ بوجه عام ــ اهتماما كافيا ، الا انهم لم يعدموا في توجيه بعض العناية بها • اذ شرع بعض هؤلاء الحكام ببناء الاسواق والخانات ، واهتم بعضهم بتشجيع الصناعة والتجارة ، او بتسيير السفن البخارية في أنهار العراق ، او حماية الطرق والقوافل التجارية • وقد ساهمت هذه الخدمات ــ الى حد ما ــ في ايجاد نوع من التوازن بين حالة الاهمال والركود الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المدن العراقية ، والحالة التي تهدف الى تطويرها بالشكل الذي تدر فيه قدرا من المنفعة الاقتصادية على هذه البلاد •

ولعل من اقدم المرافق الاقتصادية التي شيدت في الفترة التي نشير اليها الاسواق التي بناها والي بغداد جغال زاده باشا عام ٩٩٩ هـ/١٥٩٠ م[٢١] ، واستمر قائما حتى عام ١٣٤٨ هـ /١٩٢٩ م كما نسب الى الوالي حسن باشا ، بناؤه لاحد الاسواق في جانب الكرخ عام ١٠١٠ هـ/١٦٠١ م ، والذي ظل يحمل اسمه ردحا من الزمن[٢٢] • وشيد حسين باشا السلحدار سوقا عاما جديدة قبالة المدرسة المستنصرية عام ١٠٨٤ هـ /١٦٧٣ م[٢٣] ، فعرفت المدينة نشاطا تجاريا ملحوظا ، وتجاوزت الاضرار التي خلفتها الحروب التركية ــ الايرانية التي دارت رحاها في العراق[٢٤] •

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت بغداد مدينة لسليمان باشا الكبير (١٧٨٧ ــ ١٨٠٢ م) ، ببناء سوق السراجين[٢٥] • وعرف عن داود باشا (١٨١٧ ــ ١٨٣١ م) تشييده لمجموعة من الاسواق تمتد لمسافة غير يسيرة ، وهي مبنية بناء جيدا بالجص والاجر المفخور ، ذات أطواق عالية[٢٦] ، وقد اعانت هذه المرافق على ازدهار التجارة في مدينة بغداد •

وبالاضافة الى بناء الاسواق فقد شهدت المدن العراقية ، اقامة الكثير من الخانات اللازمة لنزول التجار وخزن بضائعهم او اعادة الاهتمام بها ، فمنها ما كان على الطرق الخارجية كخان بني سعد (مابين مدينتي بغداد وبعقوبة) الذي بناه والي بغداد عمر باشا سنة ١١٠٠ هـ /١٦٨٨ م ، والخان الذي شيده والي بغداد حسن باشا (١٧٠٤ ــ ١٧٢٣ م) مابين النجف الاشرف وكربلاء عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٧ م(٢٧) . ومنها ما كان داخل بغداد حيث جدد الوالي الاخير خانات بغداد لراحة التجار والمسافرين(٢٨) .

وبعد فترة وجيزة من احتلال العثمانيين للعراق في النصف الاول من القرن السادس عشر . أصدروا عددا من القانو نامات المتعلقة بالولايات العراقية الثلاث بغداد والموصل والبصرة . وكانت هذه القانونامات قد عالجت معظم جوانب الحياة الاقتصادية ، بخاصة الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية والخارجية (الرسوم الكمركية) والمواد المصنوعة في هذه الولايات . ويبدو بان احكام تلك القانونامات قد بقيت سارية المفعول ، لان العثمانيين لم يصدروا غيرها ما يخص العراق في الفترات التالية .

فرضت الضرائب على كل ما يتعلق بالسلع والمنتجات التجارية والصناعية التي تجلب الى الاسواق في المدن العراقية ، ولكن هذه الضرائب قد تختلف في نسبتها وفي مسمياتها من مدينة لاخرى ، فمثلا ضريبة الباج تفرض في الموصل على السلع المارة بهذه المدينة دون أن تباع في أسواقها في حين انها تعني في البصرة الضريبة المفروضة على السلع المباعة في أسواق هذه المدينة(٢٩) . اما بالنسبة لضريبة التمغا فيبدو انها كانت متشابهة اذ انها تفرض على جميع البضائع القطنية والصوفية التي تصنع او تطرز محليا(٣٠) .

وبالنسبة للضرائب الكمركية فقد كان في بغداد ثلاثة مراكز للكمرك يستوفي كل منها الرسوم المقررة ، وكان أحدها في جانب الكرخ للقادمين من

سوريا والمركزان الآخران للقادمين من سائر الجهات[٣١] . وكان هناك ايضا كمرك في الموصل واخر في البصرة .

أما بالنسبة للضرائب والرسوم المفروضة على البضائع التي يجلبها الاوربيون ، بخاصة تجار انكلترا وفرنسا ، فقد نظمت بموجب تعريفات ومعاهدات خاصة كانت السلطات في بغداد والبصرة تحترمها ، وهي بمقدار ٣٪ عن كل بضاعة يجلبونها من الهند ، وتنقل الى مناطق اخرى بشكل تجارة ترانسيت ، في حين كان على التجار غير الاوربيين أن يدفعوا ٧٪ رسوما كمركية[٣٢] .

كانت الضرائب التجارية تجبى عادة على غرار الضرائب الاخرى في الدولة العثمانية بطريقة الالتزام الى اشخاص معنيين ، كما حدث في بغداد عام ١٦٣٩ حيث عهد كمرك بغداد الى شخص أرمني يدعى سفر لمدة ثلاث سنوات[٣٣] . وظل هذا النظام قائما دون الغاء حتى القرن التاسع عشر ، ولم يكن مقصورا على بغداد وانما طبق الامر نفسه بالنسبة للمدن العراقية الاخرى ، حيث كانت الكمارك في بغداد والبصرة تعطى بالضمان ويدفع التجار الى الضامن ٥٪ عن قيمة الاحوال تقديرا واذا وقع الخلاف بينهما ينتخب اثنان من الخبيرين بالاسعار يحكمان بينهما[٣٤] . ولم يتوفر في نظام الالتزام (او الضمان) اي وجه من أوجه العدالة ، ذلك لانه كان يسيطر عليه من يدفع أعلى الاسعار للدولة من المزايدين . وكان اولئك بطبيعة الحال يعملون لجر اكبر المنافع لانفسهم بصرف النظر عما يلحقه ذلك من اثار على الافراد وعواقب وخيمة على الدولة[٣٥] .

لم يجر تنظيم الرسوم الكمركية في العراق الا على أيام مدحت باشا (١٨٦٩ ــ ١٨٧٢) ، حيث الغى هذا الوالي عددا من الضرائب القديمة التي تشكل عقبة في سبيل التنامي الاقتصادي ، ومنها الضرائب الكمركية

التي فرضت بموجبه ضريبة ثابتة على تجارة الترانسيت مقدارهـا ١٪ مـن قيمـة البضـاعة[٣٦] .

حظيت التجارة والصناعة في المدن العراقية بنوع من التشجيع خـلال الفترة التي تقوم بدراستها . ففي مجال التجارة انعكس هـذا التشجيع في مظاهر منها التساهل الكبير الذي أظهره المماليك تجاه التجـار الاجانـب والوطنيين ، بحيث سكن عدد كبير من التجار الارمن واليهـود في بغـداد لممارسة الاعمال التجارية مع تركيا والهند[٣٧] . ومنها أيضا الثقـة التـي أراد المماليك ان يوجدوها بينهـم وبين التجـار ، وقـد عبـر بكنغهـام عـن هـذا الامـر بقولـه :

« لقد كان تأثير هذا الاجراء والاعتدال الذي أبدته الحكومـة مما كان يحس به في كل مكان ، انه زاد من النشاط في الميدان التجاري وحاز على رضى جميع العاملين به . ومثل هذه الثقة في حكام المـدن التركية (والمقصود بغداد) لم يكن اعتيادياً بصفة عامة »[٣٨] .

واتخذ تشجيع التجارة صورة اكثر انتظاما في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٧٨ ، حث والي بغداد قدري باشا متصرفي السناجق التابعة لولاية بغداد ، على تحري الوسائل الكفيلة بتقدم التجارة في سناجقهم، ورفع تقارير بها الى الحكومة المحلية في ولاية بغداد[٣٩] .

ادى نمو التجارة الخارجية والترانسيت الى ضرورة تطوير وسائل النقل، وعندئذ اعطيت أهمية خاصة لاستخدام البواخر في العراق . فقـد اوصى محمد رشيد رضا باشا الذي جاء الى ولاية بغداد سنة ١٨٥٣ بشراء عدد من السفن البخارية من أوربا ، لاستخدامها من اجل النقل التجاري بين بغـداد والبصرة[٤٠] ، واستورد من اجل ادامتها بعض المعدات الخاصة . واستمر نامق باشا في ولايته الثانية (١٨٦١ ــ ١٨٦٨) على النهـج نفسه وأوصى بدوره المصانع البلجيكية لصنع عدد من السفن البخارية لتشغيلها في نهـر

دجلة ، وفي عهده وصلت الباخرتان (بغداد) و (البصرة) الى بغداد وباشرتا العمل في حوالي عام ١٨٦١[٤١] .

اولى مدحت باشا تسيير البواخر في انهار العراق اهتماماً اكبر من غيره ، حيث وسع الملاحة البخارية واشترى باخرتين حديثتين ليرتفع عدد البواخر في عهده الى ثمان وشكل شركة نهرية خاصة للاشراف على أمورها ، عرفت باسم « شركة العمان العثماني » . كما قام بتنظيم خطوط ملاحية بحرية بين البصرة من جهة واستنبول ولندن من جهة أخرى[٤٢] . وتولت « شركة العمان العثماني » عملية نقل البضائع بين بغداد والبصرة ، وقد أجرت عام ١٨٧٣ تخفيضاً في اجور شحن البضائع من أجل تنشيط التجارة في العراق[٤٣] .

سعى كثير من الولاة للمحافظة على سلامة القوافل التجارية البرية والنهرية . الا أن الفضل الاكبر في ضبطها وسلامتها قد ارتبط باسم سليمان باشا ابو ليلة (١٧٤٨ — ١٧٦١) وداود باشا . ففي زمن الاول كان لا يمكن لاي قافلة او واسطة نقل بالسفر من الحلة الى البصرة دون حراسة قوية ، بسبب التهديد الذي تتعرض له التجارة من حالات التعرض والنهب . وبسبب انعدام الامن أيضا فان كثيرا من التجار السوريين والاتراك كانوا يسافرون الى أصفهان لشراء البضائع التي كانت ترد من الهند . ولكن بفضل الاجراءات الكثيرة التي اتخذها سليمان باشا ، فقد أصبح باستطاعة المرء — كما يقول ينبور — « أن يسافر لوحده بغير حاجة الى رفقة او حراسة سواء اكان السفر في دجلة أم في الفرات ام في البر ، ولا يجسر أحد على نهبه وسلبه ... كما وتحولت التجارة من اصفهان الى هذه البلاد عن طريق البصرة وبغداد ... بفضل الأمان »[٤٤] واتخذ داود باشا اجراءات مماثلة لحماية القوافل التجارية ، وكان لتوفر حالة الامن في عهده ، آن نشطت حركة التجارة كثيرا[٤٥] .

اتخذت اجراءات الحماية صورا مختلفة • فبالنسبة للطرق البرية فقد وضع بعض الجنود في الخانات الموجودة على الطرق الخارجية من أجل حمايتها ، اذ يشير تكسيرا في معرض حديثه عن الخانات الموجودة ما بين كربلاء وبغداد عام ١٦٠٤ ، الى أنه وجد في « خان الحصوة ـ في مفرق الحلة ـ كربلاء على الطريق العام الى الحلة ـ عشرة الى اثني عشر جنديا للمحافظة على الأمن في الطريق »(٤٦) وعرف عن مدحت باشا انه أقام الحصون ومراكز الحراسة في كثير من مدن الفرات والنقاط المهمة على هذا الطريق ، كديار بكر ، والقائم ، وعنه ، وهيت والفلوجة(٤٧) •

وفضلا عن ذلك ، فمن المعروف بأنه قد جرت الاستفادة من قبائل العقيل التي استوطنت جانب الكرخ في بغداد ، من أجل ان تقوم بعملية حراسة الطرق والمسالك التجارية ، وقيادة القوافل الذاهبة من بغداد الى دمشق(٤٨) •

أما بالنسبة للطرق النهرية فقد انيطت حمايتها بعدد من السفن المعدة لهذا الغرض • يقول في ذلك جو تايلر « كان للحكومة في تلك المنطقة ـ اي القرنة ـ اسطول من السفن تضعه هناك للمحافظة على التجارة النهرية »(٤٩) •

أما فيما يخص الاهتمام بالصناعة فقد جاء متاخرا قياسا بالتجارة • وكان الوالي داود باشا قد ادخل مصنعا لصناعة الاقمشة على الطراز الجديد ، واستدعى الفنيين الاوربيين لهذا الغرض(٥٠) •

جرت عدة محاولات في العصور المتأخرة في العراق من وقت الى آخر لجعل الصناعة تناسب الى حد ما المستوى العصري • وكان الوالي نامق باشا اول من أدخل معملاً حديثاً يدار ميكانيكيا عام ١٨٦٤ ، استخدم فيه الصوف المغزول محليا لصنع الالبسة العسكرية(٥١) للتطور الصناعي في العراق ففي اول خطاب ألقاه بمناسبة تعيينه واليا على العراق في ١٨٦٩ اكد مدحت باشا على ضرورة الاهتمام ويقترن اسم مدحت باشا بمحاولاته الجادة

بالصناعة الحديثة[٥٢] . وفي العدد الاول من الجريدة التي اصدرها باسم « الزوراء » تحدث عن « السفر في البحار » و « حركة طرق الحديد في الاقطار بواسطة البخار » وعن « المعامل » وغير ذلك من التسهيلات النافعة و « الصنائع المتنوعة »[٥٣] . وتتمثل جهود مدحت باشا في تطوير الصناعة بتوسيع معمل النسيج المعروف في بغداد باسم « العبخانة » الذي اسسه سلفه نامق باشا ، وخصص الاموال لجلب ماكنة حديثة له تبلغ من القوة ٧٠ حصانا ، لتزايد الطلب على الاقمشة العسكرية ، التي كان ينتجها المعمل[٥٤] وفي مجال الصناعة ايضا أنشأ مدحت باشا مدرسة الصناعة (الصنائع) ، التي كان يعلم فيها بعض الصنائع كالحياكة والسكافة والخياطة[٥٥] ، واستمرت هذه المدرسة بتعليم الطلبة وتدريبهم للعمل في المعامل التي انشئت فيما بعد .

اولت السلطات المحلية في بغداد الصناعة قدرا من الاهتمام من أجل تشجيعها وتطويرها . من ذلك القرار الذي اتخذته الحكومة المحلية ببغداد عام ١٨٧٣ ، بالتقليل من استيراد المصنوعات الاجنبية ، والسماح للمعمل التابع (لشركة العمان العثمانية) بانتاج الأثاث المعدنية ، بعد أن كانت ترفض قبل تلك السنة السماح للشركة بانتاجها[٥٦] . كما اهتم والي بغداد ، نامق باشا الصغير ١٨٩٩ ، بالحد من اعتماد صناعة النسيج ـ التي كانت تقوم بها مدرسة الصناعة ببغداد ، وغيرها من الصناعات الاخرى ، على الغزل المستورد من الخارج ، وسعى الى تأسيس معمل للغزل في المدرسة ، وحث على استيراد ماكنة أخرى للغزل لحساب المدرسة[٥٧] !

ومن مظاهر ذلك الاهتمام أن تلك السلطات لم تكن تطالب أرباب الصناعة ـ عند تأسيسهم محلات صناعية ـ ان يقدموا اية شهادات ، او ان تشترط عليهم شروطا معينة ، كما لم تكن تفرض عليهم ضرائب كبيرة ، باستثناء تلك التي كانت تفرضها على مصنوعاتهم في حالة تصديرها الى الخارج وكانت زهيدة[٥٨] .

على أن الاهتمام بالصناعة ، لم يكن مقتصرا على السلطات الحكومية فحسب ، وانما تعداه الى المواطنين أيضا • اذ عمد بعضهم لاسيما في بغداد والبصرة ، الى ادخال الالات الحديثة في الصناعة ، والى تأسيس معامل حديثة • فعلى سبيل المثال ، تقدم اثنان من كبار تجار بغداد بطلب الى الحكومة المحلية في بغداد سنة ١٩٠٧ ، لمنحهما اجازة بتأسيس معمل للدقيق والخبز والمعكرونيا ، وقد وافق مجلس ادارة ولاية بغداد على منحهما الاجازة(٥٩) كما أسس عدد من المواطنين شركة نسيج صغيرة في بغداد سنة ١٩٠٨ ، وكانت تعتمد في انتاجها على الانوال اليدوية الاوربية المستوردة(٦٠) • وشرع احد المواطنين بتأسيس شركة مساهمة لصناعة الجواريب والفانيلات في بغداد في سنة ١٩٠٨ •

أما مواطنو البصرة ، فقد أظهروا اهتماما بتأسيس معامل جديدة ، وبادخال الالات الحديثة في الصناعة بالبصرة • فقد أدخل احد المواطنين في سنة ١٨٨٧ معملين في البصرة أحدهما للثلج والآخر لطحن الحبوب • وعدّ المعمل الاخير ، الذي كان يشتغل بالبخار ، بمثابة اول معمل بخاري أسس بالبصرة(٦١) •

كذلك استورد احد مواطني البصرة ماكنة بخارية لكبس عرق السوس في سنة ١٨٩٢ ، بعد أن كان قد أستورد قبل تلك السنة ماكنة يدوية للغرض نفسه • واستورد مواطن اخر من البصرة عام ١٨٩٥ محركاً قوته ٢٥ حصانا ، ونصب عليه هباشة لتقشير الرز وتنظيفه ، وركب عليه مطحنة للحنطة • واسس الشيخ عبدالواحد باش أعيان — احد أبناء الأسر البارزة في البصرة معملين بالبصرة في سنة ١٩٠٩ ، احدهما لحلج القطن وتنظيفه من البذور ، والاخر لاستخراج زيت الخروع(٦٢) •

المـدن العراقيـة كمراكز تجاريـة

على الرغم من أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الهنـد في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر قـد ادى الى ركود التجارة في الشرق الى حد ما ، وقلل من حجم تجارة المرور (الترانسيت) دون شك ، فقد بقي ثمة تبادل نشيط في المنتجات المحلية . بيد أن تجـارة المرور قداستعادت نشاطها في فترات لاحقة ، ومع عودة هذه التجارة فقـد بدات المدن العراقية تمارس وظيفتهـا التجارية كمركز لتجـارة المـرور ، فضلا عن وظيفتهـا التجارية المحليـة .

على ان الوظيفة التجارية في هذا البحث لا تعني العلاقات التجارية التي تربط المدينة بالعالم الخارجي وانما الفعاليات التجارية الداخلية التي توفرها المدينة لخدمة سكانها ، وذلك بتهيئة السلع والبضـائـع المنتجـة محليـا والمستوردة على حد سواء . وفي هذا المجال ، كما أشرنا سابقا ، فان تطور الوظيفة التجارية للمدن العراقية ، قد نتج اما بسبب بعض الجهـود التي تمت خلال العهد العثماني في العراق ، او بسبب حالات عفوية جاءت نتيجة للنشاط التجاري الذي مرّت به هذه المدن[٦٣] . وعلى هذا فان التأكيـد سيقوم على دراسة الوظائف التجارية للمدن العراقية باعتبارها مركزا للنشاط التجاري الخارجي والداخلي ، المتمثل بالاسواق والمرافق الوظيفية الاخرى .

هناك حقيقتان لابد من ادراكهما منذ البداية اولاهما : أن بغداد كانت مركز تجارة الترانسيت الحقيقي على اساس أنها نقطة تجميع وتوزيع هـذه التجارة والتجارة الخارجية ، وثانيتهما ، ان تجارة الترانسيت كانت مقصورة الى حد بعيد بين الخليج العربي والمناطق الغربية في ايران[٦٤] . وعلى هذا الاساس نلاحظ ان سـلع تجـارة الواردات لمدينـة بغداد أما انها كانت بضـائع مرور فقط الى الاقطـار المجـاورة ، او انهـا المركـز الرئيس لتوزيع تجـارة الاسـتيراد الخارجيـة .

فبالنسبة لكون بغداد « مركزاً لتجارة المرور » فقــد اكتسبت هــذه الشهرة منذ القرن السادس عشر ، ونعتها الرحالة الاوربيون بهذه الصــفة ، وحافظت على هذه السمعة خلال القرن السابع عشر[٦٥] . ولم يقتصر الامر على بغداد ، بل كانت البصرة والموصل مراكز مماثلة لتجارة الترانسيت ، لفترة امتدت حتى افتتاح قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد وفرت هذه التجارة للمدن العراقية الكثير من الايرادات[٦٦] .

ونقل جزء هام من التجارة الخارجية الايرانية بطريــق الترانسيت عبر بغداد والبصرة ، وساعدت عملية تنظيم الضرائب الداخلية في العراق عــام ١٨٦١ على تطور هــذه التجــارة الى درجة كبيرة[٦٧] . وتألفت تجــارة الترانسيت من السلع التي كانت تستوردها ايران عن طريق العراق ، ومــن تلك التي كانت تصدرها عن طريقه ، واشتملت سلع الاخيرة على الســجاد والافيون والتنباك والصمغ ومواد الدباغة والشال والجلود .

وعلى الرغم مما ادى اليه فتح قناة السويس من تقليص في حجم تجارة الترانسيت بين العراق وايران ، وجعلها تقتصر فقط على تجهيز المناطــق الشمالية الغربية من ايران لاسيما كرمنشاه ، على أثر تطــور بعض الموانىء الايرانية في الخليج العربي ، بعد ان كانت ايران تتجهز قبل فتح تلك القناة ، بمعظم احتياجاتها من السلع الاوربية عن طريق التجار في بغداد[٦٨] . الا أن ذلك لم يحل دون بقاء تلك التجارة مزدهرة بعض الشيء كما يستدل ذلــك مــن أن قيمتهــا كانت تبلــغ في اواخر القــرن التاســع عشــر حوالــي ٥٠٠ر٠٠٠ بــاون[٦٩] .

اما بالنسبة لتوزيع التجارة الخارجية فقد كانت المدن العراقية الثلاث بغداد والبصرة والموصل مركزاً رئيسا لهذه التجارة ، بينما اقتصرت اهمية المدن العراقية الاخرى على توزيع السلع ، التي كانت بغداد والبصرة تحصل عليهــا .

تتألف تجارة بغداد الخارجية في الغالب من البضائع الهندية التي تجلب اليها من الهند والبنغال ، والبضائع الاوربية وغيرها ، وكانت ممثلة بالسكر والحرير والملابس الناعمة والخشنة وغيرها ، التي يتم توزيعها في شمال العراق وسوريا واسيا الصغرى(٧٠) • كما يتم توزيعها الى بعقوبة ــ مركز محافظة ديالى ــ وكربلاء والنجف والعمارة حيث تحصل على السلع المستوردة مقابل ايصال منتوجاتها الزراعية الى بغداد(٧١) •

لقد زاد حجم التجارة الخارجية لبغداد في العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، يستدل على ذلك من ازدياد عدد السفن التي كانت تنقل هذه التجارة • ويعلل بكنغهام الذي زار بغداد عام ١٨١٦ ، هذا الامر الى « التساهل الكبير الذي اظهرته الحكومة الحالية في مطاليبها »(٧٢) • وفي الوقت الذي توسعت فيه المتاجرة بالسلع الهندية ، فقد تدنت التجارة مع ايران بشكل ملموس • ويعود ذلك لان الايرانيين بدأوا يجدون لانفسهم الطرق الخاصة بهذه التجارة ، مما حرم العاملين بالتجارة الخارجية في بغداد من مورد كبير كانوا يجنونه من جراء مرور هذه التجار بأيديهم(٧٣) • ومع ذلك يجب ان ننوه بان العراق ظل يعيد تصدير قسم من وارداته الى ايران ، وقد بلغت نسبة السلع التي اعاد العراق تصديرها الى ايران في ستينات القرن التاسع عشر ما يقرب ثلث وارداته ، وانخفضت تلك النسبة الى اقل من ذلك في سنة ١٩١٣(٧٤) • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان حوالي ربع مستوردات بغداد لوحدها كان يعاد تصديره الى ايران للفترة مابين ١٨٨٨ ــ ١٨٩٥ ، ما عدا التجارة الترانسيتية في الموصل والبصرة(٧٥) •

اما بالنسبة للبصرة ، فقد كانت مركزا تجاريا رئيسا لما يجلب الى العراق من منتجات وسلع مختلفة عن طريق الخليج العربي بواسطة سفن مختلف الدول ، وكانت تقوم بتصدير هذه المنتجات والسلع التي ترد اليها الى بغداد عن طريق دجلة أو بواسطة القوافل ، ومن هناك اي من بغداد ،

توزع هذه السلع والمنتجات • يقول الرحالة ينجهولت الذي زار البصره في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٦٦ عن التجارة الخارجية : « والبصرة ترسل الى بغداد بجميع البضائع التي تردها من الخليج على وجه التقريب ومن ثم توزع على العراق العربي والموصل وانحاء ايران الغربية والشمالية • ويرد من الهند عن طريق البصرة السكر والقهوة والصمغ والبهارات والانسجة القطنية والاخشاب الفاخرة • أما البضائع الاوربية فاهمها الاقمشة القطنية والحرائر »(٧٦) •

وشذت الموصل عن هذه القاعدة ، اي انها لم تكن تعتمد على بغداد في الحصول على منتجاتها التجارية الرئيسة ، ولكنها كانت تحصل عليها بصورة مباشرة من اوربا او عن طريق حلب ، وذلك قبل افتتاح قناة السويس • وتولت الموصل توزيع تلك الواردات على شمال العراق وايران والجزيرة وديار بكر • وبعد عام ١٨٦٩ • وجد تجار الموصل انه من الافضل لهم الحصول على تجهيزاتهم القليلة عن طريق بغداد ، وليس عن طريق حلب • ولذلك اخذت تجارة الموصل مع بغداد ، بالازدياد منذ اوائل القرن الحالي ، على حساب تجارتها مع حلب ، مما رفع من مكانة بغداد التجارية ، وجعلها مركزاً لتجارة العراق الخارجية باسره(٧٧) •

ولما كانت بغداد والبصرة مركز التجارة القادمة من الهند والخليج العربي ، فقد ورد اليها التجار من مناطق عديدة من الشرق • يقول تكسيرا في ذلك : « وقد كان التجار يترددون على بغداد من الهند وايران ومعهم بضائع وسلع وافرة عن طريق البصرة والنهر والبر وكانوا يترددون كذلك من ديار بكر وحلب ودمشق وطرابلس وسائر البلاد مع انواع المنتجات »(٧٨) •

ولم تقل البصرة شأنا عن بغداد في هذا المجال ، اذ كان تجار مختلف مدن آسيا الصغرى مثل القسطنطينية وديار بكر ونصيبين وغيرها يأتون سنوياً للمتاجرة مع هذه المدينة ، وهم يحملون منتجات هذه المناطق من

البضائع التي تحتاج اليها أسواق الهند ، وهم يأتون بها الى البصرة في نفس الوقت الذي تأتي فيه السفن الاوربية وغيرها ، حيث يقومون ببيع ما جلبوه من منتجات في البصرة وشراء ماجلبته تلك السفن من البضائع التي تحتاج اليها اسواق الاناضول . وقد اشار تافرنيه(٧٩) اثناء زيارته البصرة سنة ١٦٥٢ الى كثرة تجار القسطنطينية وازمير وغيرها في هذه المدينة وبانهم يشترون البضائع والسلع التي ترد من الهند مثل الفلفل والقهوة والسكر والقماش الابيض ، في حين ان المواد التي يجلبونها معهم من الاناضول تتكون من القنب والصابون والاقمشة والجلود التركية .

وكان هناك الكثير من التجار الاوربيين في البصرة وبغداد ، حيث يقومون ببيع البضائع التي يستوردونها من سورات في الهند والاقمشة التي تصنع في البنغال وبعض الاقمشة الانكليزية الصنع ، وكان ابرز اصناف التجار الاوربيين هم من الانكليز والفرنسيين والايطاليين . لقد كان للتجار الانكليز في البصرة خلال القرن الثامن عشر مقيمية دائمة تابعة لشركة الهند الشرقية ، في حين كان لهم في بغداد وكيل لادارة وتصريف بضائع الشركة المذكورة . ويبدو ان الارباح التي كانت تجنيها الشركة ابان القرن المذكور لم تكن عالية ، وربما كان وجودها لاغراض سياسية ، يقول تايلر في ذلك :

« أن الارباح التي تجنى من هذه التجارة (اي الاستيراد) لا تفي بالمصاريف الكبيرة التي تنفق على المقيمية وما تتطلبها من خدمات ، ولكن وجود المقيمية ضروري للابقاء على العلاقات مع الجزيرة وتنظيم الاتصالات والرحلات البرية مع المستعمرات الانكليزية في الهند »(٨٠).

وكان للتجار الفرنسيين ممثل في البصرة ، وهو يمارس اعماله التجارية. أما التجار الايطاليون في البصرة فقد كانوا يزاولون تجارة لا بأس بها مع البندقية عن طريق حلب ، وكان لهم ممثل في بغداد لتمشية معاملاتهم

التجارية وشراء البضائع والمواد الخام مـن أنحاء القطر • كما يزاول التجار من أهالي البصرة تجارة واسعة في البن مع اليمن[٨١] •

في الوقت الذي أدت فيه المدن العراقية وظيفتها كمركز لتجارة المرور وتوزيع التجارة الخارجية ، فانها كانت تقوم بتوفير السلع والمنتجات الداخلية ، وتصدير الفائض عن الحاجة المحلية الى الاسواق الخارجية • على أن التباين والاختلاف بين الانتاج الريفي البسيط المرتكز على الزراعة ، وانتاج المدينة القائم ، على الصناعة والتجارة ، قد أوجد الحاجة لقيام حركة تجارة واسعة في المنتجات المحلية ، خصوصا بوجود فائض في هذه المنتجات وضرورة مبادلتها بانتاج الطرف الاخر •

تألفت معظم المواد التجارية المحلية من المنتجات الزراعية والحيوانية المصنعة وغير المصنعة ، سواء تلك التي تجري بين المدينة والمناطق التابعة لها ، او بين مدينة واخرى • فبغداد مثلا كانت تحصل على كثير من المنتجات الزراعية والحيوانية كالقمح والشعير والحبوب وجلود الاغنام والماعز من سوادها وقراها[٨٢] • • كما اتسعت بشكل ملحوظ عمليات تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين المدن المختلفة ، فكانت الموصل تبيع الفحم لبغداد والبصرة ، بينما تخصصت العمارة ببيع الرز ، ومناطق ديالى وعانه ببيع القطن ، والمناطق الشمالية في العراق بالتبغ[٨٣] •

لما كانت المناطق المحيطة ببغداد والبصرة تتمتع بخصب طبيعي ، لذلك فقد اشتهرت بزراعة النخيل والرز والحبوب ، وكثير من منتوجات هذه المناطق كانت تصدر الى الخارج[٨٤] • ومع اشتهار البصرة بالتمور فقد كانت كميات كبيرة منه تصل اليها من بغداد لتصدر كميات منها عن طريق نهر الكارون الى المقاطعات الفارسية ، كما يصدر قسم اخر منها عن طريق شط العرب الى الهند[٨٥] •

وتتميز البصرة عن بغـداد بكونها ميناء العـراق البحري ، لذا ان كثيرا من منتوجاتهـا كالتمور والقمـح والشعير والـذرة البيضاء والارز والصوف ، كانت تصدر الى الخارج[٨٦] • كما أشتهرت أسواق البصـرة بالخيل التي كانت تأتيها مـن مختلف المناطـق كالديوانية والحلة ، وكانت تجد لها رواجا في موانىء الخليج العربي وأسواق بومبي في الهند • وقـد استمرت البصرة محتفظة بمركزها التجاري فيما يخص تجارة الخيول ، وذلك طيلة النصف الاول من القرن التاسع عشر ، حتى أصدرت الدولة العثمانية في منتصف القرن المذكور قرارا منعت بموجبه تصدير الخيـول العربيـة الأصيلة من البصرة للاسباب التاليـة :

١ ــ الحفاظ على تلك الانواع من الانقراض نتيجـة لامتصاص اسـواق الهنـد لهـا في كل عـام •

٢ ــ تزويد الجيش المقيم في العراق بما يحتاج اليه من الخيول[٨٧] •

وفي الموصل حركة تجارية داخلية واسعة النطاق ، اذ يرد اليها من المناطق الجبلية في العراق البندق واللوز والجوز والاصواف ، الذي تقوم بتصديره الى بغداد وحلب[٨٨] • ومع أن الحنطة والشـعير كانا متوافرين بكثـرة في الموصل ، الا أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر ، لم تكن هناك تجـارة واسعة للحبوب بين الموصل وأوربا ، لان النقل التجاري بين الموصل وبغداد يتم بواسطة الاكلاك[٨٩] • واشتهرت الموصل باقمشتها القطنية ، حيث كان يجري نقلها الى سائر الجهات في العراق[٩٠] •

تمت التجارة الداخلية على أيدي التجار الوطنيين ، الذيـن عرفـوا بالنشاط والحيوية[٩١] • ففي الوقت الذي مارسوا فيه لقـل المتاجر بـين المدن العراقية المختلفة ، فقد كانوا يقومون بتصدير المنتجات المحلية الـى الخارج • ولكن يبدو ان هؤلاء كانوا يقومون باحتكار التجارة مما كـان يؤدي الى رفع أثمانها • يقول في ذلك احد المعاصرين المهتمين مـن القـرن

التاسع عشر : « وقد حصرت تجارة بعضهم بهذه الايام المتاخرة في الحنطة والشعير والدخن والارز والسمن والذرة والهرطمان والماش والعدس والحمص والفول حتى ارتفعت اثمانها وضيق على الفقراء • فعمت الفاقة أغلب الاهالي لان تجارها — اي بغداد — لم يكتفوا بان يشتروها من الخارج ويبيعوها بايديهم بل أصروا على حكرها وبيعها بأثمان فاحشة »[٩٢]•

وبالنسبة لتصدير المنتجات المحلية المهمة الى الخارج ، كالاصواف والجلود ، فأنهم كانوا يتحينون الفرص لشرائها باسعار زهيدة وبيعها في الخارج باثمان مرتفعة ، كما حصل عام ١٩٠٣ — ١٩٠٤ حيث جمع التجار في بغداد والموصل مادة الصوف ، لارتفاع سعر هذه المادة في انكلترا وامريكا[٩٣] •

الاسواق

في البداية يجب التنويه الى أن عملية التبادل التجاري الذي تمارسه المدن بعد ان تتم على النطاقين الخارجي والداخلي ، تنتقل السلع والبضائع الى الاسواق حيث المخازن الكبيرة والحوانيت (الدكاكين) والخانات • وعن طريق هذه المرافق تبدأ عملية توزيع السلع والبضائع بصورة مباشرة الى المواطنين ، عن طريق عملية البيع والشراء ؛ وهو ما يعكس لنا الصورة الحيّة المتفاعلة في هذا المرفق الاقتصادي المهم للمدن العراقية •

وعلى أساس الأهمية الاقتصادية للاسواق فقد روعيت اعتبارات كثيرة عند بناء المدن العربية ، ومن بينها المدن العراقية ، من أجل تقديم خدماتها الوظيفية بشكل افضل • ومن تلك الاعتبارات بناء الاسواق في المداخل الرئيسة للمدن ، باعتبارها مراكز لتجمع التجار وأهل الريف والوافدين من الاقطار البعيدة للتزود بما تنتجه المدن الرئيسة أو ما يصل اليها من البضائع والسلع • وفي بغداد ، المدينة العربية الانشاء ، فان خريطتها ذات الخطوط المتوازية والعمودية تبدو واضحة تماما في منطقة الاسواق الرئيسة والخانات•

اذ ان هذه المنطقة كانت منتوحة باتجاه المنطقة الخارجية للمدينة من خـلال عدد من المحاور الرئيسة التي كان يجري عبرها نقل الاشخاص والبضائع[٩٤] .

كما فرضت طبيعـة المناخ السائد في المدن العربية نمطـا معينا مـن الاسواق ؛ غالبا ما تكون مسقفة للوقاية من الامطار وأشعة الشمس والرياح العاتية[٩٥] . ولقد لوحظ عند بناء الاسواق وملحقاتها كالخانات والقيسريات معالجة أمور أساسية كتوفير الضياء الكافي باقل حرارة ممكنة وضمان حركة الهواء داخل هذه الاسواق ؛ وكذلك توفير حرية الحركة للمشاة ولوسائط النقـل المسـتعملة فيهـا[٩٦] .

واذا ما رجعنا الى روايات الرحالة الاوربيين الذيـن زاروا بغـداد ، والمدن العراقية الاخرى ؛ في الفترة موضوع البحث نجد أن أوصافهم تنطبق الى حد بعيد الى ما أشرنا اليه من خصائص المدينة العربية ، بخاصة وجود الاسواق المرتفعة المغطاة بالسقوف المعقودة بالآجر ، والمجهـزة بالفتحـات الكافية للاضاءة[٩٧] . غير أن اسواقا اخرى ، كما يشير بكنغهام وولستيد ، كانت مسقفة باخشاب منبسطة تمتد في الوسط من جانب الى آخر وذلـك لتدعيم السقف المصنوع من القش والاوراق الجافة او اغصـان الاشـجار والحشائش ، او القماش الخشن المشدود بحبال متعارضة[٩٨] .

وهناك اعتبار يتعلق بتنظيم الاسواق والمحلات التجاريـة في المـدن العراقية بشكل حلقات متتابعة ،وفقا لاهميتها الاجتماعية والاقتصادية ، اذ ان اكثر المراكز او المحلات أهمية غالبا ما تكون مجاورة أو محاذية للجامع الرئيس في مركز المدينة وعلى هذا الاساس فان المحلات المتخصصة ببيـع التوابل والقهوة والملابس الثمينة والصناعات الجلديـة الغالية والروائـح العطرية تكون اقرب الى المركز . أما السلع الاستهلاكية والكماليات الاخرى ذات التقييم الواطيء فكانت توجد في الازقة السوقية الخلفيـة لمواضـع السلع الاولى . أما الوحدات الانتاجية (أصحاب الحرف) فغالبا ما كانت

تقع في مكان منزوٍ بعيداً عن المحلات التجارية التي يكثر فيها الازدحام[٩٩]. أما النشاطات الاقتصادية الاخرى التي هي أقل أهمية ومختلفة عنها ، كتلك التي تتطلب اتصالا وثيقا مع عالم الريف ، او تتطلب اماكن واسعة ومفتوحة ، او تسبب ازعاجا كبيرا للمواطنين المجاورين ، فقد جرت العادة على دفعهم الى ضواحي المدينة . أن ادراج هذه النشاطات الاخيرة كان أمراً ثابتاً من مدينة الى أخرى بحيث كانت بالصورة الاتية : اسواق الفواكه والخضر ، أسواق الحبوب ، اسواق الماشية ، الجزارين ، الدباغين ، الخبازين وما شابه ذلك[١٠٠] .

ووفقا لمبدأ ترتيب المحلات حسب أهميتها الاقتصادية ، نجد هناك الاسواق المتخصصة في بغداد والمدن الاخرى . حيث أن كل سوق من الاسواق او ان جزءا منها كان يختص بتجارة معينة ، وهذا ما يتيح المجال للمشتري ان يتفحص ويقارن بين البضائع المتشابهة في اكثر من محل تجاري. فمثلا كان في بغداد سوق الصياغ وسوق التمارين (الشورجة) وسوق الصفارين وسوق القز وسوق البزازين وسوق الكبابجية وسوق الخياطين وسوق الاسكجية وسوق اليمنجية وسوق التوتونجية (باعة التبغ) وسوق السريرجية (باعة الاسرة)، وكلها موزعة حوالي الميدان والسراي وتمتد جنوبا حتى وسط المدينة[١٠١] .

كما كانت هناك أسواق متخصصة في الموصل كسوق اليمنجية وسوق العطارين ، وسوق باب الجسر وسوق الصفارين وسوق الملاحين (قرب باب الطوب) وسوق العلوة (قرب الجامع المنسوب له) ، كما أن هناك سوق عند ميدان القلعة الداخلية ــ كما هو الحال في بغداد ــ يعرف بسوق الميدان وغير ذلك[١٠٢] ولا تختلف البصرة عن المدن العراقية الاخرى من حيث اسواقها المتخصصة اذ يشير خورشيد افندي « الى أن هناك سوقا في البصرة

يضم أصناف مختلفة من اصحاب الحرف اليدوية والبقالين وباعة الاسماك والصاغة والحدادين واخرين غيرهم »[١٠٣] •

ولعل من الضروري الاشارة هنا ، بان عددا من التغييرات في موقع الاسواق قد حدثت في العصور المتاخرة ، وهذه التغيرات مهمة جدا ، لأنها تشير الى اضمحلال النشاطات التجارية القديمة وظهور أخرى جديدة • ولعل ذلك يعود الى ظهور انواع جديدة من الانتاج والتجارة (القهوة والتبغ وانواع التجارة المستمدة منها) واضمحلال بعض النشاطات القديمة[١٠٤] •

واضافة الى هذه الاسواق كانت هناك فسح او ساحات مكشوفة في بغداد تباع فيها بعض من انواع السلع ، وقد سميت باسمائها مثل « سوق الغزل » و « سوق الموسلين » و « سوق الحنطة » وغيرها • ولعل من اهم هذه الاسواق والتي كانت اكبرها وازهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية في بغداد ــ غير ان اي سوق من هذه الاسواق ــ كما يقول فريزر « لا يمكن أن تمت بصلة الى اي رونق او بهاء »[١٠٥] ويبدو ان هذه الميادين او الساحات المفتوحة كانت منتشرة في سائر المدن العراقية الاخرى وتختص كل واحدة منها بتجارة معينة •

اما بالنسبة للحوانيت (الدكاكين) الموجودة في داخل اسواق بغداد ، فانها مرصوفة على جانبي الشارع ويواجه بعضها بعضا ، وهي مؤلفة من غرف صغيرة لا تزيد مساحة الواحد منها على ثمانية اقدام ، وفيها يجلس التجار ويبسطون بضائعهم[١٠٦] •

قدر أوليا جلبي حوانيت بغداد في منتصف القرن السابع عشر بألفي حانوت[١٠٧] ، وقدرها الرحالة الاوربيون في نهاية القرن الثامن عشر باضعاف مضاعفة[١٠٨] • ولكن ، كما أشرنا سابقا ، فان حوادث الفيضان التي تعرضت لها بغداد عام ١٨٣١ قد اتت على كثير من أسواقها ومحلاتها ،

مما يدل على تناقص عدد حوانيت بغداد انذاك . يقول فريزر في ذلك « أما الدكاكين نفسها فهي دكاكين رثة ، غير مرممة في كثير من الحالات ، وكثير منها فارغ غير مشغل »[109] . اما في نهاية القرن التاسع عشر ، فقد أصبح في بغداد ، التي يعد نفوسها حينذاك بـ (٢٠٠) الف نسمة ، حوالي (٤) الاف حانوت . اما في البصرة ، التي كان عدد نفوسها (٦٠) ألف نسمة فقد كان فيها مابين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ حانوت[110] .

كانت أسواق بغداد ، والمدن الاخرى ، مكتظة بالناس دائماً ، ومليئة دكاكينها بالسلع المختلفة ، حتى لقد تطرف جيمس فيلكس جونز عند وصفه لأسواق بغداد عام ١٨٥٣ بقوله : « ولا تعني الاسواق سوى أماكن تجمع الرجال والبضائع »[111] . ولا يخفى ان أسواق بغداد في تلك الايام كانت هي الشوارع العامة لوسائط النقل أيضا ، وهذا مما يولد حالة الازدحام فيها . والاكثر أهمية من ذلك أن الاسواق في بغداد قد وفرت لزبائنها كل شيء ، بحيث يخرج المرء فيها وهو مقرور البال بسبب تنوع البضائع المعروضة[112] .

لقد كانت الملابس والاقمشة المستوردة من سورات في الهند ، والسراويل المجلوبة من كشمير ، والانسجة المصنوعة محليا من اكثر البضائع المتوافرة في أسواق بغداد ، ويلقى اللون الاحمر بمختلف أطيافه ودرجاته ، والالوان الزاهية الاخرى رواجا هناك[113] . وفضلا عن ذلك فهناك أيضا الاصباغ والزينات التطريزية ، والسيوف الصقيلة ، والبنادق الملمعة التي تطلق باشعال عود الثقاب ، والاحذية ذات الالوان البراقة ، والعطور ، بخاصة ماء الورد ، متوافرة كثيرا ، وتعمل كلها على رسم صورة حية مبهجة للشخص[114] .

أما بالنسبة للموصل فقد كانت اسواقها هي الاخرى تغص على الدوام باصناف عديدة من السلع والبضائع ، كالاصباغ والاقمشة القطنية ، ولكن

يظهر أنه منذ الربع الثالث من القرن التاسع عشر ، وبسبب تدهور الصناعات المحلية كما سنرى ، أخذت الصناعات الاوربية ، بخاصة الانكليزية ، تغزو أسواق هذه المدينة[115] . وكذلك ينطبق الحال بالنسبة للبصرة التي تتوافر في أسواقها البضائع توفرا حسنا ، ولكن بسبب انعدام البضائع المنتجة محليا فقد كانت البضائع المستوردة تتألف من الاقمشة والسكر والادويه والساعات ، فضلا عن بعض المنتجات العربية المستوردة مثل عمائم مسقط، وعباءات الحسا وهي عبارة عن طرحات صوفية بدون اكمام[116] .

التنظيمات الاقتصادية في السوق : الاسعار ، المحتسب ، الصيرفة

من الملاحظ ان الاسعار في أسواق المدن العراقية لم تكن محددة،بل انها تختلف من مدينة الى أخرى ، وكانت أسعار كثير من المواد الاساسية تخضع لمسألة التعامل في البيع والشراء . ولعل ما يعيننا هنا من أخذ صورة عامة عن طبيعة الاسعار في المدن المختلفة ، هو الاشارة الى ما ذكره الرحالة البريطاني جاكسون الذي زار كلا من البصرة وبغداد والموصل عام ١٧٩٧ ، ويقارن بين أسعار المواد المختلفة في هذه المدن حيث يقول :

« وتوجد في بغداد سوق واسعة مزودة بمختلف انواع البضائع ولكن الأسعار فيها اعلى من أسواق البصرة بصورة عامة »[117] . اما بالنسبة للموصل فقال : « كان السوق فيها واسعا ومزودا تزويدا حسنا بالسلع . وكانت أسعار معظم المواد المعروضة للبيع ، ماعدا الملابس ، معتدلة تماما »[118] .

على ان رخص الاسعار الموجودة في أسواق الموصل وأسعارها قد وردت على لسان الرحالة فنشنسو الذي مر بالعراق في القرن السابع عشر حيث قال :

« وقد مررت اكثر من مرة بأسواق المدينة (أي الموصل) ، فأخذني العجب من الاسعار البخسة التي تطلب لمختلف البضائع .

فالشاة الواحدة تباع باربع شاهيات (نوع من العملة التي انتشرت في العراق زمن (العثمانيين) • والحمل الكبير من الفواكه بدرهم واحـد اي باقجة (نقد فضي استعمل في العـراق في العهد العثماني) واحدة لا غـير ••• أمـا الخيـول فحـدث ولا حـرج ، فهـي مـن مختلـف الاجنـاس »[119] •

وبسبب الاختلاف في الأسعار فقد وجد نظام الحسبة (الاحتساب في الفترة العثمانية) في الأسواق ، من أجل مراقبة الاسعار والاوزان والمقاييس المستعملة وجودة السلعة ، وقد عهد بهذه المهمة الى « المحتسب » • وكانت العادة أن يجري تعيين محتسب لكل مدينة من المـدن التي يوجد بها قاضٍ ــ الذي يكون المحتسب مسؤولا امامه بشكل مباشر ــ من أجل أن يراقب القوانين الخاصة بالاسواق رقابة دقيقة ومن جملتها نظام الاسعار[120] •

وهناك بعض الاشارات الى أن المحتسبين في بغداد في مطلـع القـرن السابع عشر كانوا يقومون بواجباتهم خير قيام ، وهذا ماذهب اليه الرحالـة تكسيرا الذي زار المدينة في عام ١٦٠٤ ، وقال عن المحتسب :

« أن الاسواق كان لها (بلوك باشي) ــ ويقصـد المحتسب ــ خاص يتولى حماية البائعين والشارين معا ، ويمنـع حصول الاعتداء أو الغش • وقد كان يعمل أيضا على حل المنازعات بالحسنى أو بالقوة كما تقتضيه الظروف والاحوال • وحينما يعجز عن ذلك كان يأخـذ المتخاصمين الى القاضي ••• ولم ير خلال الشهرين اللذين أقام فيهما ببغداد اي تخاصم بين الناس في الأسواق او الاعتداء عليهم »[121] •

بيد أنه بعد فترة ليست طويلة طبق نظام الالتزام في الاحتساب ببغداد• اذ أصبح على ملتزم الاحتساب ان يدفع مبلغا معينا من المال «كبدل التزام»، وبعد حصوله على مصادقة القاضي ، وحاكم المنطقة يمنـح الملتـزم وثيقـة « شرطنامة » ، تخوله حق ممارسة صلاحيات ومهام المحتسـب • وكانـت

الرسوم التي يتسلمها المحتسب والمسماة برسوم الاحتساب تفرض على كل السلع المباعة في الاسواق .

على ان هذا النظام ـ شأنه في ذلك شأن نظم تحصيل الدولة الاخرى ـ قد لحقه كثير من الجور والظلم . لذلك فقد جرى التاكيد في تعريفة الاحتساب الصادرة عنها عام ١٠٩٤ هـ /١٦٨٣ م ، على ضرورة التزام ضامني الاحتساب بالرسوم المفروضة قانونا وعدم الجور على الناس والباعة في الاسواق . اذ جاء فيها « لقد شوهد رأي العين ان ضامني الاحتساب في بغداد يجورون على عباد الله ويعتدون عليهم بأخذهم لأكثر من الرسوم المنصوص عليها قانونا »(١٢٢) . وهكذا نلاحظ أن اسلوب الالتزام في الاحتساب ، الذي كان مرتبطا ارتباطا وثيقا باحدى المرافق الحيوية في المدن الا وهي الاسواق قد اضر بهذه المؤسسة في العهود المتأخرة ، ذلك لان منح الاشخاص لمنصب الاحتساب قد أصبح مستندا الى اعتبارات مالية صرف لا أخلاقية .

ولعل من الانظمة المالية التي ارتبط وجودها بوجود الاسواق : نظام الصيرفة ، الذي وجد اصلا لتسهيل عملية المعاملات التجارية داخل المدن وخارجها . وقد ارتبطت مهنة الصيرفة وبيع السفاتج (الكمبيالات المالية) في العراق باليهود ، وبدرجة أقل بالمسيحيين(١٢٣) .

ومن خلال القيام بهذه المهمة ، استخدم الصيارفة اليهود مختلف الاساليب والحيل من أجل تحقيق أرباح عالية ، والتحكم باسعار البيع والشراء . من ذلك مايذكره لنا خورشيد افندي عن قيام صيارفة بغداد عام ١٨٥١ بمبادلة النقود الاجنبية بالشاهي ـ عملة عثمانية تعادل الواحدة منها اربعين بارة او قرشا وهو يساوي ثمان بيزات ـ وعادة تكون بسعر أقل من سعرها الاعتيادي بنسبة ٥ ـ ٨٪ ، وبعدها يبيع الصيارفة هذه النقود الاجنبية بما يعادل قيمتها من البضائع وفي بعض الاحيان يستبدل

بها الذهب . لقد ظهرت الحاجة لمثل هذا النوع من المبادلة ذلك لان التجار الاجانب القادمين لشراء التمور من البصرة لا يملكون غير النقود الاجنبية فعليهم تصريفها او تحويلها الى الشامي لكي يدفعوا لبائعي التمور عند عملية الشراء . وللتخفيف من وطأة هذه الحالة ، فقد ضربت الحكومة عملة جديدة هي المجيدي نسبة الى السلطان عبدالمجيد الذي حكم مابين ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ ـ لكي تساعد الناس في عملية البيع والشراء وتوجد الاستقرار النقدي ، حيث اصبح المجيدي الواحد معادلا للشامي ويساوي ٩٨ بيزة[١٢٤] .

ومارس الصرافون اليهود في بغداد أيضا عملية اقراض الفلاحين بفوائد مجحفة . ذلك لان العثمانيين كانوا يتقاضون ضريبة الارض مقدما من الفلاحين قبل نضوج المحصول ، فيضطر هؤلاء الى الاستدانة من الصرافين في المدن ، بشرط أن يسددوا لهم ذلك بعينات من الصوف او غيره فيقبلها الفلاحون بنصف السعر الذي تباع به في السوق تقريباً[١٢٥] .

لقد ضعف عمل الصرافين اليهود كثيرا في أواخر القرن التاسع عشر بسبب افتتاح فروع « البنك العثماني » في كل من بغداد والبصرة والموصل في عام ١٨٩٣ ، في اعقاب اتفاقية عقدت في تلك السنة مع البنك الايراني ـ الذي كان قد أسس له فروعاً في العراق منذ سنة ١٨٩٠ ـ تم بموجبها ، انهاء اعمال فروع البنك الايراني في العراق ، وحلول فروع البنك العثماني محلها[١٢٦] . وجدير بالذكر ان هذه البنوك لا ترتبط بالعثمانيين او بالايرانيين بشيء رغم اسمائها ، اذ انها كانت في الاصل بنوكاً اجنبية تعمل في هذه البلاد .

وعلى أية حال ، فقد ادت فروع« البنك العثماني » في العراق خدمة كبيرة لرجال الاعمال المحليين بتسهيل معاملاتهم التجارية ، بعد ان كانت مثل هذه الخدمات محصورة بيد الصيارفة اليهود الذين استغلوا فرصة عدم وجود منافسة لهم فاتفقوا فيما بينهم واخذوا يفرضون ضرائب عالية

على الاشخاص الذين يلجأون الى مساعدتهم المالية ، بخاصة مصدري الخامات المحليين ، مما قلل من نسبة الفائدة التي يحصلون عليها[١٢٧] •

الخانات

عند الحديث عن الاسواق ، فلابد من التطرق الى الخانات أيضا باعتبار أن وظيفتها تكمل وظيفة الاسواق • لقد صمم كل جزء من الخان لكي يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة التجارة ومن يقوم بها • اذ تمارس عملية الخزن وتبادل البضائع وايواء التجار المسافرين وحيواناتهم ، وكل ما من شأنه ان يخدم هذه الاغراض •

لقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الخانات لخدمة الاغراض التجارية :

١ ــ الخانات الواقعة في مركز المدينة ضمن منطقة الاسواق •

٢ ــ الخانات الموجودة في أرباض المدينة •

٣ ــ الخانات المقامة على طرق القوافل التجارية •

فبالنسبة لخانات النوع الاول ، الكبير منها والصغير ، فقد تركزت بالقرب من منطقة الاسواق ، وان مقدار هذا التركز يعطي المرء فرصة تقدير الدور الذي تؤديه التجارة في المدينة[١٢٨] • وقد تعددت اختصاصات هذه الخانات فكانت مكاناً للتجارة الداخلية والخارجية ، ومأوى للتجار الغرباء والمسافرين ، ومخازن لبضائعهم وسلعهم •

ويصف تكسيرا الذي زار مدينة بغداد سنة ١٦٠٤ هذا النوع من الخانات فيقول : « وقد كان يوجد في وسط المدينة على مسافة قريبة من النهر سبع او ثماني اسواق طويلة تمتلىء دكاكينها بالسلع المختلفة ، والمنتجات المحلية ، بالاضافة الى الكثير من الخانات التي كان يشتغل بها التجار بأعمالهم • وكانت كلها تسد في الليل وتقفل بسلاسل الحديد »[١٢٩] ولعل من أمثال هذا النوع من الخانات أيضا ماذكره أوليا چلبي عن خانات

بغداد ، حيث ذكر : خان چفال الكائن عند رأس السراجخانة ، وخان مراد باشا وخان ابراهيم عند رأس سوق الجند ، وخان خورمالي بالقرب من المحكمة الشرعية ، وخان البصري مقابل المحكمة وخانات الغرب وخان جامع الخلفاء[١٣٠] .

أما خانات النوع الثاني ، او الموجودة في أرباض مدينة بغداد ، فلم تختلف في مهامها عما كانت عليه داخل المدينة ، اللهم الا من حيث نوع الوظيفة وحجم الخدمات المقدمة وحجم الخان وطراز عمارته وموقعه ووسيلة النقل المستخدمة . وفي بغداد التي كان عدد خاناتها اثنين وعشرين خانا ــ حسب تقدير نيبور عام ١٧٦٥ ، فقد كان أربعة منها في ضواحي المدينة ، ويسكنها التجار[١٣١] .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أننا لا نجد الا تقريرا عاما لاعداد الخانات الموجودة في كل من الموصل والبصرة ، دون ذكر لمكان وقوعها او لنوع الخدمات الدقيقة التي تقدمها . فنيبور نفسه يذكر عن خانات الموصل « ان فيها خمسة عشر خانا او بيوتا عامة يأوي اليها الغرباء وبينها خمسة خانات صغيرة ورديئة . أما البقية فهي كبيرة وواسعة وقد بنيت خصيصاً لتوفير الراحة »[١٣٢]

أما النوع الثالث من الخانات ، او المقامة على طرق القوافل التجارية ، فقد ازدادت أهميتها إبان العهد العثماني في العراق نظراً لفقدان الامن على تلك الطرق من ناحية ، ولاستمرار حركة التجارة والحج عبر المدن العراقية من ناحية أخرى ، فكانت المأوى الأمين للقوافل والمسافرين . لقد تركز هذا النوع من الخانات بشكل خاص على طريق النجف ــ باعتبار انه طريق تجاري وطريق الحجاج أيضا ، حيث وجدت مجموعة كبيرة من الخانات المتصلة مابين بغداد والنجف ، وكانت تبعد الواحدة عن الاخرى مسيرة ساعتين الى أربع ساعات . وقد اختلفت الاغراض التي انشأت من أجلها

هذه الخانات ، فقسم منها انشأه العثمانيون لحماية القوافل التجارية ، وشيد القسم الاخر أناس غايتهم الربح والكسب ، وقسم ثالث أنشأ خدمة للمسافرين ولابناء السبيل(١٣٣) .

على أن اهم الخانات على الطريق مابين بغداد ــ كربلاء ــ النجف ، « خان الكهيا » في الجنوب من بغداد ، و « خان أزاد ــ احيانا يرد باسم أسد ، وسعد » ، الذي أنشىء ليتسع لنحو خمسمائة شخص . وخان الاسكندرية وهو يتسع لالف شخص ، وتتوافر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد ، من حظائر للماشية ، او غرف للمسافرين ، ومسقفات مرتفعة واسطبلات للخيول ، واماكن للطبخ وبئر . وخان المحاويل الذي كان مشابها لخان الاسكندرية وهو اكبر منه تقريبا(١٣٤) .

لقد وضع التركيب الهندسي للخانات بشكل يؤدي الى تقديم أفضل الخدمات للمسافرين وبضائعهم وحيواناتهم . فهي تتألف من بناء واسع ذي مدخل واحد او عدة مداخل ، فيها ساحة وسطية (فضوة) غير مسقوفة ، يحيط بها بناء يتألف من طابقين ، يخدم الطابق الارضي وساحته كمرابط للحيوانات او اماكن لحفظ السلع والتجارات ، اما الطابق الثاني فيخدم لاغراض السكن ولمبيت التجار والزوار(١٣٥) .

المدن العراقية كمراكز صناعية

واقع الصناعة العراقية وتطورها

لم تتطور المدن العراقية بكونها مركزا واحدا من مراكز النشاط الاقتصادي ، وانما تطورت لكونها مركزا لنشاطات اقتصادية مختلفة . ولكن في الفترة التي نقوم بدراستها ، يبدو ان معظم المدن العراقية قد تحولت الى مراكز للمبادلات التجارية بالدرجة الاولى ، او بمعنى اخر تدهور وظيفتها الصناعية على حساب وظيفتها التجارية[١٣٦] ، وعلى هذا الاساس يجب ان لا نتوقع وجود صناعات مزدهرة ، او حدوث تطورات هامة في مجال الصناعة .

بقيت الصناعة في المدن العراقية ، حتى في اثناء القرن التاسع عشر . اكثر النظم الاقتصادية محافظة على تنظيمها وطرائقها التقليدية في العمل وبلا شك ان واقع الصناعة في العراق قد ورث وضعا متخلفا في عهود السيطرة العثمانية حيث سادت خلال هذا العهد علاقات انتاجية متخلفة ، ولم تجر الا محاولات قليلة لجعل الصناعة العراقية تتناسب مع ما وصلت اليه الصناعة المتقدمة .

لم يشهد العراق ثورة صناعية او اي تقدم ملموس خلال العهود المتأخرة وان المعامل ومكائن الغزل والنسيج التي جلبها بعض الولاة العثمانيين لا يمكن اعتبارها بداية حركة صناعية واسعة في العراق ، لان معظمها قد جلبت لاغراض خاصة خدمة للجيش الموجود في العراق وقد

تعطل معظمها بعد فترة قصيرة كما اهمل بعضها الاخر ولما يعمل بعد • ولم يعد في العراق الا الصناعات اليدوية القائمة على سد متطلبات الزراعة أولا ، ولسد حاجة السكان من الضروريات ثانيا[١٣٧] •

لقد جاء في التقويم السنوي (السالنامة) لولاية بغداد سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ تحت عنوان الصناعة مايلي : « بالنسبة للحالة الحاضرة في العالم تعتبر الصناعة غير متقدمة ، فالتعدين مفقود تقريبا ويعتمد على ما يجلب من الخارج كالحديد والنحاس والبرنج والذهب والفضة ، اما الصناعة الرائجة فهي اعمال الحدادين والصفارين والصباغين والنجارين وصانعي الاحذية والسراجين والدباغين والخزفيين وصناعة المنسوجات من القطن والصوف والحرير »[١٣٨] •

ظلت معظم الصناعات العراقية صناعات قديمة ، ولم تتعد كونها بقايا للصناعات الحانوتية والبيتية التي سبق ان كانت مزدهرة في عهد الدولة العربية العباسية ، ولم تظهر الصناعات الحديثة في العراق ، الا في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر وعلى نطاق ضيق • وقد كان أغلب الانتاج الصناعي في العراق في فترة بحثنا يعتمد على النظام الحرفي القديم ، والالات البسيطة جدا التي كانت تدار بالايدي أحيانا ، او بواسطة الحيوانات كالماشية والخيول في احيان أخرى ، وكان يقتصر بيع منتجات الصناعة المحلية هذه كليا تقريبا على الاستهلاك الداخلي[١٣٩] •

لم تكن الصناعات الحديثة تؤلف سوى نسبة ضئيلة من الانتاج المحلي ، نظرا لضآلة عدد منشأتها في العراق • فعلى سبيل المثال ، لم يكن في بغداد معامل تستخدم المكائن البخارية سوى معمل واحد للنسيج ، ومعمل واحد للثلج ، ومعمل واحد للطحين ، ومكبسين للصوف ، فاذا ما علمنا ان مدينة بغداد كانت مركزا صناعيا رئيسا للعراق كافة تبين لنا

مدى قلة استخدام الصناعة في العراق للالات الحديثة[١٤٠]. اما البصرة فلم يكن فيها سوى مصنع واحد للثلج ، ومعمل طحين واحد[١٤١] .

وتتحدث المعلومات المتعلقة بالتجارة الخارجية عن النمو المطرد لاستيراد البضائع الصناعية ، التي احتلت الاسواق الداخلية ، بخاصة الاقمشة والمنسوجات ، اما استيراد المكائن الحديثة فكان قليلا جدا خلال هذه الفترة ، خاصة بالنسبة للمؤسسات التي تنتج للسوق الداخلية . وليس عبثا ان يشير احد القناصل البريطانيين في العراق « أن ايصال ماكنة نسيج يدوية واحدة يعتبر حادثا يستحق الاهتمام البالغ في تلك الفترة »[١٤٢] .

انواع الصناعات العراقية وتلبيتها للحاجة المحلية

كانت صناعة الغزل والنسيج ، بانواعها المختلفة ، تمثل اهم الصناعات القائمة في المدن العراقية ، ولكنها ظلت صناعة حرفية بالدرجة الاولى ، تعتمد في انتاجها على الالات اليدوية البسيطة كالدواليب والجوم .

فمنذ بداية القرن السابع عشر ، حيث زار تكسيرا بغداد عام ١٦٠٤ ، كانت هناك صناعة واسعة للاقمشة ، معتمدة على عدد كبير من الانوال وهنا يقول : « ان البلاد تنتج الكثير من القطن والحرير ، وكانت هذه المنتجات تغزل كلها فتستخدم في الصناعة المحلية ببغداد ، التي كان يوجد فيها مايزيد على اربعة الاف نول لحياكة الاقمشة الصوفية والقطنية والحريرية ومنسوجات الكتان ، وجميع هذه الانوال كانت دائبة في شغلها وغير عاطلة عن العمل »[١٤٣] . وقد ظلت صناعة النسيج القطني والحريري تحتفظ بنشاطها قبل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، بحيث قدر القنصل البريطاني العام في البصرة ، عدد العاملين في هذا المجال ببغداد عام ١٨٦٦ بـ (٣٥٠٠) حائك نول[١٤٤] . وفضلا عن دور صناعة النسيج المشار اليها آنفا ، فقد وجد ببغداد معمل حديث للنسيج يعرف بالعبخانة ـ اي معمل الانسجة) ، وكان تحت اشراف السلطات العثمانية الحاكمة في العراق[١٤٥] .

اشتمل اهم منتجات صناعة النسيج في بغداد على الشراشف والازارات، التي كانت تصنع من الحرير او القطن وتطرز بالخيوط الذهبية او الفضية ، والكوفيات (جمع كوفية وتستخدم للعمائم) الملونة بالالوان الزاهية التي تعد من أهم الصناعات البغدادية ، وهذه كانت تصنع من الحرير او القطن وتطرز بخيوط الذهب والفضة ، والعباءات ـــ النسائية والرجالية ـــ التي كانت تصنع من الصوف ، او الحرير وتطرز بخيوط الذهب أو الفضة(١٤٦) . وكذلك الازارات ـــ وهي كالعباءة للنساء ، منسوجة مـــن حرير ومزينـــة بخيوط الذهب ، او من حرير وقطن ، وربما من قطن فقط(١٤٧) . كما كـــان يتم انتاج انواع من الاقمشة ، كالقماش المعـــروف بـ (أغاباني) ، الـــذي كانت تصنع منه الاقمشة الصيفية الخفيفة وتطرز به العباءات(١٤٨) ، والقماش المسمى (اللنكات) وهو قماش قطني مخطط ، وكذلك قماش (اللاجات) ، وهو نوع اخر من الاقمشة القطنية ، وقماش (القطنـــي) وكـــان يصـــنع من الحرير والصـــوف(١٤٩) .

أما بالنسبة لمعمـــل العبخانه ، الـــذي يعـــرف احيانـــا (بالاعمالات العسكرية) فقد كان يصنع فيه الجوخ والخـــام ، والملابس الحريريـــة ، والصوفية والقطنية وغير ذلك(١٥٠) .

اما بالنسبة لصناعة النسيج في الموصل فقد كانت تمارس على نطـــاق واسع في هذه المدينة ، وتختص بصناعة الاقمشة القطنية . وكان الرحالـــة ايفز الذي زار الموصل عام ١٧٥٨ قـــد اشـــاد بصناعة النســـيج الموصـــلي (الموسلين) واثنى على جودة مصنوعاتها(١٥١) . كمـــا اشار الرحالة نيبور عام ١٧٦٦ الى وجود « مصانع كثيرة للنسيج والحياكة وطباعة النقوش على المنسوجات »(١٥٢) . وتتمثل صناعة النسيج بالمنســـوجات علـــى اختـــلاف انواعها ، الحريرية والقطنيـــة والصوفية ، والكوفيات والعباءات والخـــام والبسط ، والسجاد ـــ سجاد الحرير الذي كان يطرز بالازهار وهو اكثر متانة

وجودة من المصنوعات الاوربية ـ على حد قول الرحالة البريطاني جاكسون[١٥٣] .

وفيما يتعلق بصناعة النسيج في البصرة فلم تكن على غرار بغداد والموصل ، اذ يقول خورشيد افندي في ذلك « لا ينتج في البصرة قماش يستحق الذكر اذ لا يوجد فيها الا عدد من الحاكة الذين ينسجون القماش القطني والصوفي »[١٥٤] .

ومن الصناعات الاكثر شيوعا في المدن العراقية الصناعات الجلدية ، وهي تقوم على المنتجات الجلدية ، وعلى صناعة دبغ الجلود . وهاتين الصناعتين هما من الصناعات الحرفية القديمة ، اما منتجاتها فقد تألفت من السروج والاحزمة والاحذية والنصول والبرادع[١٥٥] .

ومن الصناعات الاكثر رسوخا في مدينة بغداد وضواحيها صناعة دباغة الجلود ، اذ وجد فيها اضافة الى المعمل المعروف بـ (الدبخانة عدد كبير من محلات الدباغة ، لاسيما في منطقتي المعظم والكاظمية . وقدر لوريمر عدد محلات الدباغة في المعظم في سنة ١٩٠٨ بـ (٤٠) معملا وضمن انتاجها بـ (٥ر٠٠٠) جلد اسبوعيا[١٥٦] . كما وجدت صناعات جلدية في كل من الموصل والبصرة ، وكانت تتألف من الاحزمة والاحذية على اختلاف أنواعها[١٥٧] .

اما الصناعات الانشائية ، المتمثلة بالطابوق والكاشي ، فقد بدأت الصناعة فيهما في سبعينات القرن التاسع عشر ، وغدت بغداد واحدة من اهم مراكز صناعتهما . اذ بلغ عدد معامل الطابوق فيها في اواخر ثمانينات القرن المذكور (٢٥) معملا[١٥٨] .

أما بالنسبة للصناعات المعدنية والفخارية ، فقد كانت منتشرة في غالبية المدن العراقية . اذ ازدهرت بغداد بصناعة الاواني النحاسية ، وتألفت

تلك المصنوعات من الاواني التي تستخدم في اعداد القهوة كالغلايات واواني القهوة والاطباق النحاسية الكبيرة(١٥٩) . كما كانت هذه الانواع من الصناعة منتعشة في الموصل ، حيث كانت تنتج فيها الاواني النحاسية المختلفة كالقدور ، والصواني وأوعية الماء واواني القهوة ، اضافة الى الاواني البرونزية كالشمعدانات ، واكواب الماء والمواقد وغيرها(١٦٠) .

وفيما يخص الصناعات الفخارية في العراق ، فقد كانت بغداد واحدة من المراكز التي أزدهرت فيها هذه الصناعة ، اذ ان عدد المعامل التي قامت بصناعة الفخاريات في مدينة بغداد (١٣) معملا(١٦١) . اما المراكز الاخرى التي وجدت فيها هذه الصناعة فهي مدينة البصرة . اما اهم المنتجات الفخارية فكانت تتألف من الجرار والاباريق والحباب(١٦٢) .

وهنالك بعض الصناعات الزجاجية التي تركزت في بغداد والبصرة ، اذ وجد معملان للزجاج في كل من بغداد والبصرة ، وقد اختصتا بصناعة الادوات الزجاجية المختلفة والقناديل(١٦٣) .

وعرفت صناعة الثلج في بغداد والبصرة منذ عام ١٨٨١ ، حيث تأسس معمل للثلج في كل منهما(١٦٤) .

ومن الصناعات الاخرى التي اشتملت عليها الصناعات العراقية صناعة الصابون ، واشتهرت مدينة بغداد بهذه الصناعة اذ ضمت معملا واحدا(١٦٥) . ويوجد الى جانب الصناعات المذكورة صناعات اخرى اقل اهمية كصناعة الحلويات والدبس ، والحصر ، والسلال وغيرها .

ومن الملاحظ على الصناعة العراقية بصورة عامة انها كانت صناعة قديمة ويدوية يعود تأريخها الى العصر العباسي ، وان معظمها كان يزاول في الحوانيت او في البيوت ، كما أن اثمان منتجاتها كانت مرتفعة بالقياس الى أثمان المنتجات المستوردة ، مما مكن الاخيرة من أن تجتذب جمهور

المستهلكين اليها ، وادى هذا بدوره الى كساد المصنوعات المحلية ، وانخفاض كمية انتاجها[١٦٦] .

ظلت معظم الصناعات اليدوية في العراق حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة صناعة النسيج المحلية ، تضمن الجانب الاكبر من حاجة الاسواق المحلبة . وعلى الرغم من ان بعض السلع ذات النوعية الخاصة كانت تستورد من أوربا او من الاقطار المجاورة ، فان المنتجات اليدوية العراقية كانت تصدر الى بعض دول الشرق الاوسط ، وبخاصة ايران[١٦٧] .

ففي بغداد مثلا ، وجد اوليفيه الذي زار المدينة عام ١٨٠٠ أن العديد من انواع الاقمشة القطنية التي تلبي حاجات الطبقات الفقيرة حيث يقول :

« أن هناك صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية فقط والخاصة باستعمال العرب . بالاضافة الى القيام بانتاج الاقمشة القطنية النفيسة والمطبوعة باشكال مختلفة غير لماعة لاستعمال النساء والاولاد والناس المنسوبين للطبقة الفقيرة . وفضلا عن ذلك فهناك الصناعة القطنية وصناعة الزوالي والمخمل للوسائد والدواوين وترسل الى مناطق مختلفة ، كالموصل وحلب والشام وبكميات كبيرة »[١٦٨] .

وعلى أية حال ، فان صناعة المنسوجات في بغداد ، قد سدت حاجة الاسواق المحلية كافة قبل تأثرها بحركة المنافسة مع السلع الاجنبية المستوردة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بل ان بعض هذه الصناعات ، كالكوفيات مثلاً ، كانت قد امتازت بالجودة والمتانة . وهي على حد تعبير لوريمر — اكثر متانة من مثيلاتها التي تصنع في مانشستر[١٦٩] .

كان للموصل أيضا شهرة في صناعة المنسوجات المختلفة ، حيث كانت تؤمن احتياجات المدينة كافة ، ويصدر منها كل سنة مقدار كبير الى سائر الجهات ، الا ان انتشار المصنوعات الاوربية جعلها عاجزة عن منافستها ، فانحطت الصناعة فيها[١٧٠] .

اما بالنسبة للصناعات الجلدية فقد كانت حتى منتصف القرن التاسع عشر كافية لسد احتياجات السوق المحلية في داخل المدن الرئيسة وفي خارجها • ففي بغداد مثلا ، كانت تصنع الاحذية الجلدية الحمراء والصفراء التي يلبسها العرب وسكان بغداد من الطبقات المحافظة • كما يصنع البابوج ونوع اخر من الاحذية النسائية المسمى « المشط » ، وهو حذاء أصفر طويل تلبسه النساء المسلمات المسنات[١٧١] • لكن الذي يبدو ان المنتوجات الجلدية لم تكن جيدة الصنع بوجه عام[١٧٢] •

ولما كانت الصناعات الانشائية (كالطابوق والكاشي) قد بدأت في وقت متأخر من القرن التاسع عشر ، لذلك فان انتاجها انذاك كان يعجز عن سد الحاجة المحلية[١٧٣] •

وبالنسبة للصناعات المعدنية والاواني المنزلية ، فقد كان انتاج بغداد والمدن الاخرى ، يسد الحاجة المحلية[١٧٤] • ولكن التدهور اصاب صناعة الاواني النحاسية في العراق في اواخر القرن التاسع عشر ، نتيجة لمنافسة الاواني المعدنية المطلية بالميناء التي كانت تستورد من النمسا[١٧٥] •

الصناعات العراقية والعوامل المؤثرة فيها

ظلت الصناعات العراقية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بعيدة عن المنافسة الاجنبية • ولكن منذ منتصف القرن المذكور ، بدأت المنتجات الوطنية تتأثر باستيراد مواد احسن وأرخص منها من اوربا لاسيما مصنوعات المكائن الحديثة[١٧٦] •

الا أنه منذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ فقد دخلت الصناعة العراقية مرحلة جديدة تميزت بتدهور الانتاج وانحلاله ، وذلك بسبب زيادة منافسة المنتوجات المستوردة للمنتوجات الوطنية ، مما جعل الصناعات اليدوية المحلية تتدهور باستمرار • لقد امتازت المنتوجات الاجنبية المعتمدة على

المكائن بانخفاض أثمانها ، في حين كانت المنتوجات الوطنية تتميز بارتفاع أثمانها ، نظرا لان الاولى تعتمد على الانتاج الآلي الكبير فيما كانت الاخيرة تعتمد على الانتاج اليدوي المحدود ، بحيث لم يترك لها فرصة المنافسة(١٧٧).

وتضافرت عوامل أخرى دون قيام صناعة حديثة في العراق منها : قلة رؤوس الاموال المستخدمة ، فعلى الرغم من الارباح الكبيرة التي كان قد حصل عليها العراق من تجارته الخارجية ، الا أن هذه الارباح لم تستثمر في الصناعة ، اذ انها تركت بايدي أصحاب الاراضي وكبار التجار . وفي حين عزف أصحاب الاراضي عن استثمار أموالهم في الصناعة لعدم اكتراثهم بها ، فقد استثمر كبار التجار أرباحهم ثانية في التجارة ، فيما لم تكن أرباح صغار التجار تكفي لتأسيس صناعة حديثة(١٧٨) كما أن كثيرا من معامل اعداد الصادرات ، وهي أول المؤسسات الصناعية الالية التي قامت في العراق في نهاية القرن التاسع عشر ، واستخدمت فيها الاجهزة الميكانيكية بنطاق واسع ، قد انشأت لتلائم السوق العالمي بدلا من ملاءمتها للسوق المحلي الضيق(١٧٩) . اما استيراد المكائن والخامات نصف المصنوعة ، التي يحتاج اليها الحرفيون لانتاج البضائع التي يكثر الطلب عليها محليا ، خاصة منها الغزول والاصباغ (النيلة) ، فقد كانت قليلة جدا خلال هذه الفترة(١٨٠) .

ولعل من أبرز الامثلة التي نسوقها في هذا المجال على تأثر المصنوعات المحلية بالمصنوعات الآلية الرخيصة المستوردة هي صناعة النسيج . فمع انها كانت قد نجحت في البداية في مجابهة منافسة المنتوجات الاجنبية ، التي كان عليها أن تدفع تكاليف النقل ، وتتغلب على استمرارية واعتياد المستهلكين الذين كانوا قد تطبعوا على استهلاك المنتجات المحلية ، وخاصة بالنسبة للبضائع الحريرية ذات النوعية العالية ، الا أنها عجزت في النهاية عن منافسة المصنوعات الاجنبية . فعلى سبيل المثال ، ارتفعت واردات بغداد من المنسوجات والملبوسات في العقد الاخير من القرن التاسع عشر الى مايزيد

على نصف مليون دينار ، بعد ان كانت استيراداتهـا في منتصـف ستينيات القرن نفسه تبلغ (٩٤٠٠٠) دينارا[١٨١] • يقول كوتلوف في ذلك : « لقد عملت الصناعات الاوربية الرخيصة ، على قتل الانتاج المحلي للاقمشة بصورة تدريجية • حيث ازدادت وتأثر اضمحلالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • بل ان ما أعتاد الناس على استعماله من الاقمشة المحليـة الملونـة ، استبدل به الاقمشة الاجنبية البيضاء ، وأصبحت المصنوعات المحلية ، اقـل استعمالا من الشيت الاجنبي الجاهز »[١٨٢]

وترتب على تدفق المنسوجات الاجنبية على العراق ونجاحها في منافسة صناعة النسيج المحلية ، أن انخفض عدد دور صناعة النسـيج في العـراق انخفاضا شديدا • فعلى سبيل المثال ، اصبح عدد هـذه الدور في مدينـة بغداد في مطلع القرن العشرين بضعة مئات ، بعد أن كان عددها في منتصف القرن التاسع عشر يناهز (١٢٠٠٠) دار[١٨٣] •

وتحت ضغط المنافسة الاجنبية ، كان على صناعة النسيج اليدويـة ، أما ان تتطور واما ان تتلاشى تدريجيا • لذلك فقد بذلت الجهود ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي ، لاستيراد الانوال اليدوية الاوربية لتحل محل الانوال المحلية الصنع ، خاصة بالنسبة للمنسوجات الحريرية • وتكللت الجهود بالنجاح في سنة ١٩٠٨ ، عندما تشكلت شركة صغيرة ببغداد لتشجيع وتطوير صناعة النسيج ، عن طريق استخدام الانـوال الاوربية • وعلى الرغم من أن الشركة قد عملت بصورة جيدة انذاك ، الا أن نجاحهـا في هذا المضمار كان محدوداً جداً[١٨٤] •

وهكذا فشلت الجهود الرامية الى الحد من منافسة المصنوعات الاجنبية حتى الحرب العالمية الاولى ، وكانت النتيجة أن فقدت الصناعات العراقيـة المختلفة مركزها السابق ، باستثناء بعض الفروع القليلة منها ، خاصة تلـك

التي تلبي الحاجات الخاصة بالسوق المحلية ، لانتاج الملابس الشعبية والاواني وغيرها ، فضلا عن الاعمال الحرفية الدقيقة[١٨٥] .

التنظيمات الحرفية ودورها في الحياة الاقتصادية للمدن

كانت التنظيمات الحرفية هي المميزة الاساسية للمدن العربية الاسلامية في العصور الوسطى ، ويبدو أن هذه الصفة ظلت ملازمة لها حتى في القرون التي أعقبت انهيار الدولة العربية العباسية ، ولا أدل على ذلك من أن معظم فروع الصناعة — رغم تدهورها الشديد — والتي كانت تنتظمها مثل هذه التنظيمات قد ظلت قائمة في العهود التالية مثلما كانت موجودة في العهود السابقة .

كانت التنظيمات الحرفية هي تنظيمات مهنية ، وفي الوقت الذي لا نجد فيه اي اشارة الى هذه التنظيمات في القرن السادس عشر في العراق ، فأنها تصبح اكثر وضوحا في القرن التالي حتى يمكن القول أن معظم السكان قد اصبحوا ينتظمون في مثل هذه التنظيمات[١٨٦] . وربما يمكن الوصول الى هذه النتيجة اعتمادا على ماذكره ولستيد الذي زار بغداد عام ١٨٣٠ في ان « لكل فرد حرفته المخصصة له ، فاما ان يكون من البقالين أو التجار ، او موظفا لدى الحكومة . ولا يتمتع الفرد باي احترام ان لم يكن لديه عمل يمارسه »[١٨٧] . ويعزز هذا الرأي ما أورده أوليا جلبي الذي زار بغداد في منتصف القرن السابع عشر ، وقال حينئذ « حرفهم جميعا — أي اهل بغداد — جيدة ولاسيما صناعةالسروجواصحابها يتمتعونبشهرةواسعة وان الصاغة والخياطين والحدادين وصناع السيوف لهم صيت ذائع وشهرتهم في صناعتهم اكثر ذيوعا من أهل هذه الحرف في ديار بكر.وفي بغداد أهل الحرف والصناعات في سوق السلطان »[١٨٨] . وازدادت اهمية التنظيمات الحرفية في العراق ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، باعتبارها تنظيمات اقتصادية — اجتماعية ذات أسس اخلاقية خاصة ، تحمي أصحاب كل حرفة

من التعدي ، وتضمن مستوى مقبولا للحرفة ، وتحدد اسعار منتجاتها ، وتنظم العلاقة بين الدولة وأرباب الحرف •

كانت المهن التي يشملها هذا النمط من التنظيم هي أرباب الصنائع والحرف من مختلف الاصناف ، والتجار من مختلف الانواع • ويجري التأكيد في الوقت الحاضر على التمييز بين طوائف الصناع وطوائف التجار ، بيد انه من الصعوبة بمكان التمييز بينهما حتى القرن التاسع عشر ، ذلك لان اصحاب الحرف مثلا يقومون ببيع ماينتجونه في الاسواق ، وهنا يصعب التفريق بين أصحاب الحرف والتجار(١٨٩) •

وعلى أية حال ، فان مايهمنا هنا هو التأكيد على الدور الاقتصادي الذي قامت به كل هذه التنظيمات الحرفية في المدن ، سلبا او ايجابا ، اكثر من التأكيد على نوعية التنظيمات الشكلية القائمة حول كيفية اختيار الاعضاء والمراسيم الخاصة بذلك •

كان رؤوساء الحرف ــ او مشايخهم ــ قبل كل شيء ، هم الواسطة لتنظيم العلاقة بين أصحاب الحرف والحكومة ، وهي في الغالب علاقة خاصة بالضرائب • ولم يقتصر امرهم على توزيع حصص الضرائب على الاعضاء ، بل انهم كانوا ايضا مسؤولين عن دفعها • وكذلك كان عليهم ان يقوموا بحفظ النظام بين أعضاء الحرف ورعاية مصالحهم والفصل في الخلافات او الخصومات فيما بينهم واحيانا اصدار الاحكام لمعاقبة المذنبين منهم(١٩٠) •

ومن جهة اخرى ، كانت الرقابة اليومية على معاملات الحرفيين ، الى جانب جباية الضرائب والرسوم ، في أيدي مفتش خاص يدعى «المحتسب» ؛ وهو موكل من قبل قاض المدينة بتدقيق الموازين ومراقبة الاسعار • بيد أن السجلات التي تتعلق بالعراق تخلو من الاشارة الى هذا المنصب ، وان كانت تشير الى الضريبة التي تجبى من الاسواق باسم « ضريبة احتساب » او « رسوم اسواق »(١٩١) •

ولما كان الاحتساب بطريقة الالتزام موجوداً منذ القرن السادس عشر ، فمعنى هذا ان اصحاب الحرف المختلفة التي كانت تشير اليهم الوثائق العائدة لتلك الفترة بصورة مفصلة ، كانوا يدفعون انواعا من الضرائب الحرفية الى الملتزمين ، وتعرف هذه الضرائب بالتمغة او الطمغة[١٩٢] ويبدو انه لنفس الاسباب المالية والادارية المتعلقة بسهولة جمع الضرائب وفقا لنظام الالتزام ، انتظم أصحاب الحرف في الموصل في القرن الثامن عشر تحت رئاسة شيخ يعرف باسم « شيخ الاصناف السبعة » ، الذي كان له دفترا خاصا يبين فيه اوجه الانفاق واسبابها ، والاشراف على سير الامور المالية للاصناف باسرها[١٩٣] .

وكان من بين الوظائف الاقتصادية الاساسية التي تمارسها التنظيمات الحرفية قيامها باقرار اسعار عادلة بالاتفاق مع الحكومة التي تضع في كثير من الاحيان حدا أعلى للاسعار ، وفضلا عن المحافظة على أسرار الحرفة وانتقالها ، والتجانس في انماط السلع المنتجة[١٩٤] . وكان لكل نوع من أرباب الحرف قانون خاص يعرف بـ (الدستور) ، يتعلق بالامور المالية الخاصة بالصنف وبخاصة ما يتعلق بتحديد أجور الصناع ، وتقدير كمية الانتاج ، والضرائب المفروضة على الصنف ، وتكشف سجلات ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر عن وجود عدد كبير من « دساتير العمل » هذه ، فكان هناك دستور للقصابين والدباغين والعطارين ولدلالي الاقمشة والعقاقير ولصباغي الغزول[١٩٥] .

شهدت المدن العراقية في اواخر القرن التاسع عشر تطورات عديدة ، أدت الى ضمور التنظيمات الحرفية ، وتقلص تأثيرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية عامة . ذلك أن ازدياد حركة استيراد المنتوجات الاجنبية الرخيصة ، التي نافست المنتوجات المحلية على نحو خطير ، مما تسبب في انخفاض عدد ورش النسيج في بغداد من (١٢) الف ورشة في منتصف القرن

التاسع عشر الى بضع مئات فقط في مطلع القـرن العشرين • ومثل هـذا ماحدث في البصرة والموصل ، حيث اختفت تقريبا بعض انـواع الصناعات التي كانت قد اشتهرت بهما هاتان المدينتان •

وعلى هذا الاساس فقد شهد اوائل القرن العشرين قيام بعض أربـاب الحرف باضرابات عامة مطالبين بزيادة أجورهم • وقد وقع الاضراب الاول في أواخر عام ١٩١٢ ، عندما اجتمع دباغو الاعظمية في أحـدى الردهـات مطالبين ــ فيما يبدو ــ بزيادة في الاجور ، وقد عدلوا عن الاضراب بعد ان زيدت اجورهم • وحدث الاضراب الثاني في السنة التالية ، وقـد تـرك الدباغون أعمالهم هذه المرة وطالبوا برفع اجورهم بمقدار ٢٥٪ « فاضطر أصحاب المعامل الى تحقيق رغبتهم ، فعادوا الى أشغالهم »[١٩٦] •

واذا ما علمنا ان هذا الاضراب لم يكن موجها ضـد السلطة او مـن يمثلها وانما ضد رئيس الصنف ، فان ذلك يدل على ان حالة من التفجـر اخذت تعمل على تدمير ما تبقى من التنظيمات الحرفية التقليديـة ، تاركـة المجال امام تنظيمات جديدة ، اكثر تمثيلا لظروف المرحلة التالية وحاجاتها ، لتحل محلها في قيادة حركة العمل في العراق الحديث[١٩٧] •

الهوامش

(١) الدكتور جمال حمدان ، المدينة العربية (القاهرة ، مطبعة الجبلاوي ، ١٩٦٤) ص ٧٠ .

(٢) رجب بركات ، نهر العشار : أصل نشوء مدينة البصرة الحديثة ، مجلة الخليج العربي (البصرة) ، المجلد السابع عشر ، العدد ٣ ــ ٤ (١٩٨٥) ص ١١٢ .

(٣) خورشيد أفندي ، ولاية البصرة في كتاب سياحة نامه حدود ، ترجمة الدكتور نوري عبدالبخيت السامرائي ، مركز دراسات الخليج العربي ــ السلسلة الخاصة ٥٣ (١٩٨١) ص ٩ ، انظر أيضا جون باتيست تافرنيه ، العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد (مطبعة المعارف ، بغداد، ١٩٤٤)ص٨٤ .

(٤) فنشنسو ، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر (١٦٥٦ ــ ٥٨) ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (١٩٧٦) ص ٨٤ .

(٥) Andrè Raymond, The Great Arab cities in the 16th - 18th Centuries, New York University Press, New York, 1984) p. 23.

(٦) ليونهارت راوولف ، بغداد في سنة ١٥٧٣ ، ترجمة وتقديم وتعليق سليم طه التكريتي ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثاني (١٩٧٦) ص٧٧ .

(٧) بروفنس ، رحلة باسيفيك ده بروفنس الى العراق عام ١٦٢٨ ، ترجمة الدكتور يوسف حبي ، المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الاول (١٩٨٥) ص ٥٣ .

(٨) جيمس بيلي فريزر ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، نقلها الى العربية جعفر الخياط (مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤) ص ١٩٠ــ٩١ .

(٩) ل.ن. كوتلوف ، ثورة العشرين ، ترجمة الدكتور عبدالواحد كرم ، (دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧١) ص ٧٩ .

(١٠) سبستياني ، رحلات سبستياني الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد التاسع ، العدد الثالث (١٩٨٠) ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

(١١) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(١٢) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٢) ص ١٧٦ .

(١٣) الزوراء، السنة التاسعة والثلاثون، العدد ٧٥٦، ١٧ محرم، ١٣٢٥هـ .

(١٤) كارستن نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري (مطبعة دار المعرفة : بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٠٧ ، سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة (مطبعة دار المعرفة : بغداد ، ١٩٥٤) ص ٥٦ .

(١٥) تاريخ بغداد ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(١٦) نيبور ، مشاهدات ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(١٧) لقد اورد القاضي احمد نورالدين الانصاري : النصرة في اخبار البصرة ، تحقيق الدكتور يوسف عزالدين (مطبعة الشعب ، بغداد ، ط١ ١٩٧٦) ص ٣٥ ـ ٣٨ كثيرا من الحالات التي تشير الى هجرة تجار البصرة ، مسميا فيها اسماء ، هؤلاء التجار والمناطق التي توجهوا اليها .

(١٨) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني (دار التقدم ، موسكو ، د.ت) ص ١٦٩ .

(١٩) المصدر نفسه .

(٢٠) فريزر ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٢١) نظمي زاده مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس (مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧١) ص ٢١٠ .

(٢٢) بيدرو تكسيرا ، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، لخصها عن الانكليزية جعفر الخياط ، مجلة الاقلام . الجزء الرابع ، السنة الاولى (كانون الاول ، ١٩٦٤) ص ١٤١ .

(٢٣) نظمي زاده ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

(٢٤) روبير مانتران ، بغداد في اثار المستشرقين الفرنسيين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل ، المورد ، العدد الرابع ، المجلد الثامن (١٩٧٩) ص٤٨٠ .

(٢٥) مانتران ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٢٦) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٢٧) نظمي زادة ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

(٢٨) المصـــدر نفســـه .

(٢٩) خليل علي مراد ، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٠٤٨–١١٦٤هـ / ١٦٣٨–١٧٥٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة بغداد ، كلية الاداب (١٩٧٥) ص ٤٢٣ .

(٣٠) ج . ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، طبع بمطابع علي بن علي ، الدوحة ، قطر ، د . ت ، ج٣ ص ١٠٦٢ .

(٣١) تكسيرا ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣٢) نيبور ، مشاهدات ، ص ٤٥ ، لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ١٠٥٣ .

(٣٣) يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ، (شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغـداد ، ١٩٥٥) ج٢ ص ٢٣٢ .

(٣٤) يوسف رزق الله غنيمة ، تجارة العراق قديما وحديثا (مطبعة العراق ، بغـداد ، ١٩٢٢) ص ١١١ – ١٢ .

(٣٥) جيمس فيلكس جونز ، بغداد في سنة ١٨٥٣ ، ترجمة عبدالوهاب الأمين ، المورد ، المجلد الثالث ، العدد الثاني (١٩٧٤) ص ٦٩ .

(٣٦) الدكتور مظفر حسين جميل ، سياسة العراق التجارية (مطبعة النهضة ، القاهـرة ، ١٩٤٩) ص ١٦ .

(٣٧) اوليفيه ، الرحالة الفرنسي اوليفيه يصف بغداد عـام ١٧٩١ ، تقديـم وترجمة د. يوسف حبي ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابـع (١٩٨٢) ص ٢٢ .

(٣٨) جمس بكنغهام ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي (مطبعة اسعد ، بغـداد ، ١٩٦٨) ج١ ص ٢٠٦ .

(٣٩) الزوراء ، السنة التاسعة ، العدد ٧٥٦ ، ٢٤ ربيع الاخر ١٢٩٥ ، نقلا عن جاسم محمد حسن ، العراق في العهـد الحميدي ١٨٧٦ – ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ١٩٧٥ ، ص٢٩٢ .

(٤٠) مانتران ، المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .

(٤١) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، (شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد ، ١٩٥٥) ، ج٧ ص١٣٦ ، ١٥٣–١٥٤ .

(٤٣) نابليون الماردیتي ، تنزه العباد في مدينة بغـداد (المطبعـة اللبنانيـة ، بيروت ، ١٨٨٧) ، ص٣٤ ، لوتسكي ، المصدر السابق ، ص١٧٣ .

(٤٣) الزوراء ، السنة الرابعة ، العدد ٣٣١ ، ١٩ محرم ١٢٩٠ ، نقـلا عـن حسـن ، العراق في العهد الحميري ، ص ٢٩١ .

(٤٤) كارستن نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين (شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥) ص ٥٨ .

(٤٥) جيمس ريموند ولستيد ، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي (مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، ١٩٨٤) ص ٨٥ .

(٤٦) تكسيرا ، المصـدر السـابق ، ص ١٤١ .

(٤٧) الدكتور عبدالرزاق عباس حسين ، نشأة المـدن العراقية وتطورهـا (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٧) ص ٦٠ .

(٤٨) كليمان هيوار ، خطط بغداد ، عربه وعلق عليه ناجي معروف (مطبعة العاني ، بغـداد ، ١٩٦١) ص ٣٤ .

(٤٩) رحلة جون تايلر الى العراق سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٠ ، ترجمة وتعليق الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الحادي عشـر . العـدد الاول (١٩٨٢) ص ٤٠ .

(٥٠) امـين بن حسن الحلواني المدني ، خمسة وخمسون عاما من تاريـخ العراق ١١٨٨ ـ ١٢٤٢ هـ ، مختصر مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود للشيخ عثمان بن سند البصري (القاهرة، ١٣٧١) ص٢ .

(٥١) كاثلين ام . لانكلي ، تصنيع العراق ، ترجمة الدكتور محمد حامـد الطائي والدكتور خطاب العاني ، مكتبة دار المثنى ، بغـداد ، ١٩٦٣) ص ٤٦ ، حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ٢٩٢ .

(٥٢) انظر نص الخطاب في جريدة الزوراء ، العدد الاول ، المؤرخة في ٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ /١٨٦٩ م ، نقلا عن العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٧ ص ١٦٣ ـ ٤ .

(٥٣) الدكتور كمال مظهر احمد ، الطبقة العاملة العراقيـة (دار الرشـيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ص ٢٥) .

(٥٤) داود افندي صبليوا ، بغداد ، مجلة المقتطف ، السنة الخامسة ، الجزء الاول (حزيران ، ١٩٨٠) ص ١٥٠ ، لانكلي ، المصـدر السـابق ،

ص ١٦ ، ٤٦ . ولكن يبدو ان هذه الماكنة لم تصل الى بغـداد نظـراً لاندلاع نيران الحـرب الفرنسـية الالمانية في عـام ١٨٧٠ . لانكلـي ، المصـدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٥٥) صليوا ، المصـدر السـابق ، ص ١٥١ .

(٥٦) الزوراء ، السنة الرابعة ، العدد ٣٢٦ ، ٢ محرم ١٢٩٠ ، نقلا عن حسن، العراق في العهد الحميدي ، ص ٢٣٢ .

(٥٧) الزوراء ، السـنة الحادية والثلاثون ، العـدد ١٨٢٣ ، ١١ ربيع الاول ١٣١٧ ، نقلا عن حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

(٥٨) ديولافوا ، رحلة مدام ديولافوا الى كلدة ــ العـراق سنة ١٨٨١ ، نقلها الى العربية عن الفارسية علي البصري (بغداد ، ١٩٥٨) ص ١١٨ .

(٥٩) الزوراء ، السنة التاسعة والثلاثون ، العدد ٢١١٧ ، ١٧ محرم ١٣٢٥ ، نقلا عن حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٦٠) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٦١) حسن ، المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٦٢) المصـدر نفسـه .

(٦٣) Raymond, op. cit, p. 23, 26, 28.

(٦٤) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩ .

(٦٥) الدكتور زكي صالح ، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤ (مطبعة العاني، بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ، العمري ، بغداد كمـا وصـفها السـواح الاجانـب ، ص ١٣ .

(٦٦) سليمان فائق ، تاريخ بغـداد ، ص ١٧٦ .

(٦٧) لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٦٨) محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق (المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٥) ص ٢١٧ ــ ١٨ .

(٦٩) W.B. Harris, from Batum to Baghdad (Edinburg and London, n.d.), p. 298.

(٧٠) ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧١) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٢ .

(٧٢) رحلتي الى العـراق ، ج١ ص ٢٠٤ .

(٧٣) بكنغهام ، المصدر نفسه ، ج١ ص ٢٠٧ .

(٧٤) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٧٥) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٤١٠ .

(٧٦) ينجهولت ، كما اوردها مير بصري في : تجارة العراق قبل تسعين عاما، جريدة البلاد ، العدد ٤٨٧٢ ، ٣١ كانون الثاني ، ١٩٥٧ .

(٧٧) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٢٦٢ .

(٧٨) تكسيرا ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٧٩) رحلة تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر ، ص ٩٨ .

(٨٠) تايلر ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٨١) نيبور ، مشاهدات ، ص ٢٢ ــ ٢٣ ، ٤٥ .

(٨٢) المارديني ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٨٣) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٨٤) نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٤٥ .

(٨٥) خورشيد افندي ، المصدر السابق ، ص ٦ .

(٨٦) الدكتور شرف الدين بن عارف ، احوال البصرة الاجتماعية والاقتصادية في اواخر القرن التاسع عشر ، نقله الى العربية حسين علي الداقوقي ، مجلة الاخاء العدد ٤ ــ ٥ ، السنة الثامنة (اب ــ ايلول، ١٩٦٨) ص١ .

(٨٧) الدكتور حسين محمد القهواتي ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ ــ ١٩١٤ (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٨٠) ص ٣٨٠ .

(٨٨) نيبور ، رحلة ، ص ١١٤ .

(٨٩) بادجر ، الموصل حسب رحلة بادجر ، تعريب الاب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، السنة الثالثة ، العددان التاسع والعاشر (١٩٧٥) ص ٦٥ .

(٩٠) دومنيكو لانزا ، الموصل في القرن الثامن عشر ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيدويد (المطبعة الشرقية الحديثة ، الموصل ، ط٢ ، ١٩٥٣) ص ١٦ .

(٩١) اوليا جلبي ، مقتطفات من مشاهدات اوليا جلبي في بغداد ترجمة حسين علي الداقوقي ، الاخاء ، العدد ٥ ــ ٦ ، السنة ١٢ ، ايلول ــ تشرين الاول (١٩٧٢) ص ٥ .

(٩٢) صليوا ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٩٣) انستاس الكرملي ، حالة بغداد التجارية والزراعية للسنة المالية ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ، مجلة المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ٦ ، ١٥ اذار سنة (١٩٠٥) ص ٢٤٢ .

(٩٤) Raymond, op. cit, p. 36.

(٩٥) د. خالص الاشعب ، اصالة المدينة العربية ، افاق عربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول (ايلول ، ١٩٧٧) ص ٣٥ .

(٩٦) د. هاشم خضير الجنابي ، المدينة الاسلامية وخصائصها ، مجلة التربية والتعليم (جامعة الموصل) . العدد ٢ (١٩٨٠) ص ٣٣٠ .

(٩٧) انظر على سبيل المثال اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ ، بكنغهام ، المصدر السابق ، ج١ ص ٦١ ، جون اشر ، مشاهدات جون اشر في العراق ، ترجمة جعفر خياط ، مجلة سومر ، المجلد ٢١ ، العدد ١ — ٢ (١٩٦٥) ص ١٠٢ .

(٩٨) بكنغهام ، المصدر السابق ، ج١ ص ٩٨ ، ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٩٩) الجنابي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(١٠٠) Raymond, op.cit, p. 13.

(١٠١) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ حاشية المترجم ، د. عماد عبدالسلام رؤوف ، المدينة العراقية في كتاب حضارة العراق (بغداد ، ١٩٨٥) ج١٠ ص ١٨٣ .

(١٠٢) عماد ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(١٠٣) ولاية البصرة من كتاب سياحة نامة حدود ، ص ٥ .

(١٠٤) Raymond, op. cit, p. 12, 38.

(١٠٥) فريزر ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(١٠٦) عن وصف مفصل لدكاكين بغداد انظر ، اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ ، ولستيد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(١٠٧) اوليا جلبي ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بغداد ، الاخاء العدد ٦ ، السنة الثانية (تشرين الاول ، ١٩٦٨) ص ١ .

(١٠٨) لقد قدر ايف دكاكين بغداد في عام ١٧٧٩ ب (١٢) الف دكان ، وهو عدد قد لا يكون دقيقا . انظر د. مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة، دليل خارطة بغداد (بغداد ، ١٩٥٨) ص ٢١١ .

(١٠٩) رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ص ٧٨ .

(١١٠) لوريمر ، دليل الخليج ، ج١ ص ٢٥٢ ، كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩٣ الكسندر آدموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٢) ص٤٠ .

(١١١) بغداد في ١٨٥٣ ، المورد ، العدد الاول ، الجزء الثالث (١٩٧٤) ص٣٤ .

(١١٢) اوليفيه ، المصدر السابق ، ص ١٩ .

(١١٣) ولستيد، المصدر السابق ، ص ٧٩، فريزر، المصدر السابق ، ص٨٧ .

(١١٤) المصدران انفسهما .

(١١٥) اشر ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(١١٦) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي (بغداد . د . ت) ص ٣٠ ، اداموف، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١١٧) جاكسون ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(١١٩) رحلة الاب فنشنسو الى العراق ، ص ١٩٦ .

(١٢٠) هاملتون جب ــ هارولد بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة الدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى (دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١) ج٢ ص ١٢٩ .

(١٢١) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٤ .

(١٢٢) سركيس ، المصدر السابق ، « مادة تعريفة الاحتساب في بغداد سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م » ، ق٢ ص ٢٤٣ .

(١٢٣) غنيمة ، المصدر السابق، ص ٧٤ ، بن عارف، المصدر السابق ، ص٢ .

(١٢٤) ولاية البصرة من كتاب سياحتنا مة حدود ، ص ٦ ــ ٧ .

(١٢٥) اشر ، المصدر السابق ، ص ١١٤ ــ ١٥ .

(١٢٦) غنيمة ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ــ ١١١ .

(١٢٧) اداموف ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(١٢٨) Raymond, op.cit, p. 44.

(١٢٩) مشـــاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، ص ١٤٤ .

(١٣٠) مشاهدات اوليا جلبي ، ص ١ .

(١٣١) رحلة ينبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٤٤ .

(١٣٢) المصدر نفسـه ، ص ١١١ .

(١٣٣) نيبور ، مشاهدات ، ص ١٠٧ ، بكنغهام ، المصـدر السـابق ، ج ١ ص ٢٣٨ ، كيبوم لجان ، رحلة لجان الى العراق عام ١٨٦٦ ، ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الثاني عشر ، العدد الثالث (١٩٨٣) ص ٦١ .

(١٣٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الخانات انظر : بكنغهام ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٥ ، نيبور ، مشاهدات ، ص ١٠٧ .

(١٣٥) د. هاشم خضير الجنابي ، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة : دراسة في جغرافية المدن (مطابع مديرية دار الطباعة والنشر ، جامعة الموصـل ، ١٩٨٢) ص ١٨ .

(١٣٦) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(١٣٧) فيصل محمد الارحيم ، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ — ١٩١٤ ، (مطابع الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٥) ص ١٧٣ — ٤ .

(١٣٨) بغداد سالنامة سي ، ١٣٢٥ ، ص ١٩٧ .

(١٣٩) اداموف ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، انظر ايضا

Charles Issawi, The Economic history of the Middle East, 1800. 1914 (chicago, 1966), p. 181.

(١٤٠) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٣

(١٤١) لوريمر ، المصـــدر نفســـه .

(١٤٢) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(١٤١) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٥ .

(١٤٣) مشاهدات تكسيرا ، ص ١٤٥ .

(١٤٤) حسـن ، التطـــور الاقتصـــادي في العـراق ص ٢ ، لانكلـي ، المصـدر السـابق ، ص ٤٥ .

(١٤٥) الماردينى ، المصدر السابق ص ٣٥ ـ ٦ .

(١٤٦) الماردينى، المصدر نفسه، ص ٣٦، اشر، المصدر السابق، ص١٠٢ .

(١٤٧) المصدران السابقان انفسهما .

(١٤٨) لوريمر ـ المصدر السابق ـ ج٣ ص ٩٩٣ .

(١٤٩)لوريمر ، المصدر نفسه ، الماردينى ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٥٠) الماردينى ، المصدر نفسه ، صليوا ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(١٥١) Edward Ives, Avoyage From England to India in the years 1758-1759 (London, 1773) p. 324.

(١٥٢) ينبور ، رحلة ، ص ١١٤ .

(١٥٣) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، ص١٠٥ .

(١٥٤) ولاية البصرة من كتاب سياحتنا مه حدود ، ص ٦ .

(١٥٥) الماردينى ، المصدر السابق ، ص ٣٧

S.H. Longrigg, Iraq 1900 to : 1950 (oxford University press, London, 1953), p. 28.

(١٥٦) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٣ .

(١٥٧) اداموف ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(١٥٨) Longrigg, op. cit, pp. 27-8.

(١٥٩) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٤ .

(١٦٠) موصل ولايتي سالنامة سي ، ١٣١٠ ، ص ١٣٥ ، نقلا عن حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ص ٣٣٨ .

(١٦١) لوريمر المصدر السابق ، ج١ ص ٢٥٢ .

(١٦٢) صليوا، المصدر السابق، ص١٥٠،الماردينى،المصدر السابق، ص٣٥ .

(١٦٣) الماردينى ، المصدر نفسه ، بن عارف ، المصدر السابق ، ص٢ .

(١٦٤) لوريمر ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢٥٣ .

(١٦٥) المصدر نفسه .

(١٦٦) حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ص ٣٤٧ .

(١٦٧) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٣٨١ ، لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(١٦٨) اوليفيه ، نقلا عن العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب، ص٣٨ .
(١٦٩) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٣ .
(١٧٠) موصـل ولايتـي سالنامة سي ، ١٩١٢/١٣٣٠ ، ص ٨٩ ، لانـزا ، المصـــدر الســابق ، ص ١٦ .
(١٧١) لوريمر ، المصدر السابق ، ج٣ ص ٩٩٤ .
(١٧٢) Longrigg, op. cit, p. 28.
(١٧٣) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٣٠٣ .
(١٧٤) Longrigg, op. cit, p. 27.
(١٧٥) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨١ .
(١٧٦) بادجر ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .
(١٧٧) أداموف ، المصدر الســابق ، ص ١٨٣ .
(١٧٨) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٥ — ٦ .
(١٧٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤ ، كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
(١٨٠) كوتلوف ، المصــدر نفســه ، ص ٨٠ .
(١٨١) حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، ص ٢٨٢ .
(١٨٢) ثورة العشرين ، ص ٨١ .
(١٨٣) كوتلوف ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .
(١٨٤) لانكلي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .
(١٨٥) كوتلوف ، المصــدر الســابق ، ص ٨٢ .
(١٨٦) Gabriel Baer, The administrative, economic and Social Functions of Turkish Guids, Int. J. Middle East. Stud, I (1970), p. 29.
(١٨٧) رحلتي الى بغداد ، ص ٩١ .
(١٨٨) مقتطفــات ، ص ٥ .
(١٨٩) Baer, op. cit, p. 31
(١٩٠) جب وبوون ، المصـــدر السابق ، ج٢ ص ١١٤ ، انظــر ايضا الدكتور محمد انيس ، الدولة العثمانيــة والشرق العــربي ١٥١٤ — ١٩١٤ ، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ، (د . ت) ص ١٤٩.

(١٩١) د. رفعت علي أبو الحاج ، الانتاج والتجارة والضرائب في ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر طبقا ماجاء في قانون الولاية ، مجلة البحوث التاريخية الليبية ، السنة الخامسة ، العدد الثاني (يوليو ١٩٨٣) ٣٠٥ ، ٣٠٨ .

(١٩٢) ابو الحاج ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .

(١٩٣) امين العمري ، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء حققه ونشره سعيد الديوهجي (مطبعة الجمهورية ، الموصل ، ١٩٦٧) ج١ ص ١٤٢ – ٣ ، انظر ايضا د. عماد عبدالسلام رؤوف ، الملامح الاجتماعية لنظام الاصناف في العراق ابان العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة الثانية عشر ، العدد ٣٩ – ٤٠ (ديسمبر ، ١٩٨٥) ، ص ٤٥٢ – ٤٥٥ .

(١٩٤) ز . ى . هرشلاغ ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، نقله الى العربية مصطفى الحسيني (دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣) ص ٣٠ .

(١٩٥) عماد ، الملامح الاجتماعية ، ص ٤٥٣ ، ابو الحاج ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .

(١٩٦) لغة العرب ، كانون الثاني ١٩١٤ ، ص ٣٩١ – ٢ ، نقلا عن كمال مظهر احمد ، الطبقة العاملة العراقية ، ص ٣٤ .

(١٩٧) عماد ، الملامح الاجتماعية ، ص ٤٦٠ .

مصادر البحث

١ ـ المصادر العربية

اداموف ، الكسندر ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) .

أبو الحاج ، د. رفعت علي ، الانتاج والتجارة والضرائب في ولاية البصرة خلال القرن السادس عشر طبقا لما جاء في قانون الولاية ، مجلة البحوث التاريخية الليبية ، السنة الخامسة ، العدد الثاني (يوليو ، ١٩٨٣) .

احمد،كمال مظهر،الطبقة العاملةالعراقية (دارالرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١).

الارحيم ، فيصل محمد ، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ (مطابع الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٥) .

أشر ، جون ، مشاهدات جون أشر في العراق ، ترجمة جعفر خياط ، مجلة سومر ، المجلد ٢١ ، العدد ١ ـ ٢ (١٩٦٥) .

الاشعب د. خالص ، اصالة المدينة العربية ، افاق عربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول (ايلول ١٩٧٧) .

الانصاري ، القاضي احمد نورالدين ، النصرةفي اخبار البصرة ، تحقيق الدكتور يوسف عزالدين (مطبعة الشعب ، بغداد ، ١٩٧٦) .

انيس ، محمد ، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ ـ ١٩١٤ (مطبعة الانجلو المصرية ، د.ت) .

اوليا جلبي ، مشاهدات اوليا جلبي في بغداد ، ترجمة حسين علي الداقوقي ، الاخاء ، العدد ٥ ـ ٦ ، السنة ١٢ (ايلول ـ تشرين الاول ، ١٩٧٢).

اوليفيه ، الرحالة الفرنسي اوليفيه يصف بغداد عام ١٧٩١ ، تقديم وترجمة د. يوسف حبي ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابع (١٩٨٢).

بن عارف ، الدكتور شرفالدين ، احوال البصرة الاجتماعية والاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر ، نقله الى العربية حسين علي الداقوقي ،

بادجر - الموصل حسب رحلة بادجر ، تعريب الاب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، السنة الثالثة ، العددان التاسع والعاشر ١٩٧٥ .
الاخاء ، العدد ٤ ــ ٥ ، السنة الثامنة (اب ــ ايلول ، ١٩٦٨) .

بركات ، رجب ، نهر العشار : اصل نشوء مدينة البصرة الحديثة مجلة الخليج العربي (البصرة) . المجلد السابع عشر ، العدد ٣ـ٤ (١٩٨٥) .

بروفنس ، رحلة باسيفيك ده بروفنس الى العراق سنة ١٦٢٨ ، ترجمة الدكتور يوسف حبي ، المورد، المجلد الرابع عشر، العدد الاول (١٩٨٥).

بكنغهام ، جمس ، رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي (مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٦٨) . الجزء الاول .

تايلر ، جون ، رحلة جون تايلر الى العراق سنة ١٧٨٩ــ١٧٩٠ ، ترجمة وتعليق الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الحادي عشر ، العدد الاول (١٩٨٢) .

تكسيرا ، بيدرو ، مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤ ، لخصها عن الانكليزية جعفر الخياط ، مجلة الاقلام ، الجزء الرابع ، السنة الاولى (كانون الاول ، ١٩٦٤) .

جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي (بغداد . د . ت) .

جب ، هاملتون ، وبوون ، هارولد ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة الدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى (دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧١) جزءان .

جميل ، د. مظفر حسين ، سياسة العراق التجارية (مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٤٩) .

الجنابي ، د. هاشم خضير ، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة (مطابع مديرية دار الطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٨٢) .

الجنابي ، د. هاشم خضير ، المدينة الاسلامية وخصائصها ، مجلة التربية والتعليم (جامعة الموصل) ، العدد ٢ (١٩٨٠) .

جونز ، جيمس فيلكس ، بغداد في سنة ١٨٥٣ ، ترجمة عبدالوهاب الامين ، المورد المجلد الثالث ، العدد الثاني (١٩٧٤) .

حسين ، الدكتور عبدالرزاق عباس ، نشأة المدن العراقية وتطورها (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦١) .

حسن ، جاسم محمد ، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ ــ ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

حسن ، محمد سليمان ، التطور الاقتصادي في العراق (المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٥) .

حمدان ، الدكتور جمال ، المدينة العربية (مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٦٤).

خورشيد افندي ، ولاية البصرة من كتاب سياحة نامة حدود ، ترجمة الدكتور نوري عبدالبخيت السامرائي ، مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ، السلسلة الخاصة (١٩٨١) .

راوولف ، ليونهارت ، بغداد في سنة ١٥٧٣ ، ترجمة وتقديم وتعليق سليم طه التكريتي ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثاني (١٩٧٦) .

رؤوف ، د. عماد عبدالسلام ، المدينة العراقية ، كتاب حضارة العراق (بغداد ، ١٩٨٥) الجزء العاشر .

رؤوف ، د. عماد عبدالسلام ، الملامح الاجتماعية لنظام الاصناف في العراق ابان العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة الثانية عشر ، العدد ٣٩ ــ ٤٠ (ديسمبر ١٩٨٥) .

سبستياني ، رحلات سبستياني الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد التاسع ، العدد الثالث (١٩٨٠) .

سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية (شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، ١٩٥٥) ق٢ .

صليوا ، داود افندي ، بغداد ، مجلة المقتطف ، السنة الخامسة ، العدد الاول (حزيران ، ١٩٨٠) .

العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين (شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، ١٩٥٥) .

العمري ، امين ، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، حققه ونشره سعيد الديوهجي (مطبعة الجمهورية ، الموصل ، ١٩٦٧) الجزء الاول .

العمري ، سعاد ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة (مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤) .

غنيمة ، يوسف رزق الله ، تجارة العراق قديما وحديثا (مطبعة العراق ، بغداد ، ١٩٢٢) .

فائق ، سليمان ، تاريخ بغداد ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٢) .

فريزر ، جيمس بيلي ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، نقلها الى العربية جعفر الخياط (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٤) .

فنشنسو ، رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (١٩٧٦) .

القهواتي ، الدكتور حسين محمد ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ – ١٩١٤ ، (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٨٠) .

الكرملي ، انستاس ، حالة بغداد التجارية والزراعية للسنة المالية ١٩٠٣ – ١٩٠٤ ، مجلة المشرق ، السنة الثامنة ، العدد ٦ (اذار ١٩٠٥) .

لانزا ، دومنيكو ، الموصل في القرن الثامن عشر ، عربها عن النص الايطالي القس روفائيل بيدويد (المطبعة الشرقية الحديثة،الموصل،ط٢، ١٩٥٣).

لانكلي ، كاتلين ام ، تصنيع العراق ، ترجمة الدكتور محمد حامد الطائي والدكتور خطاب العاني ، مكتبة دار المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣) .

كوتلوف ، ل . ن م ، ثورة العشرين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل (دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧١) .

لجان ، كيبوم ، رحلة لجان الى العراق عام ١٨٦٦ ، ترجمها عن الفرنسية وعلق عليها الاب الدكتور بطرس حداد ، المورد ، المجلد الثاني عشر ، العدد الثالث (١٩٨٣) .

لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ، ترجمة الدكتوره عفيفة البستاني (دار التقدم ، موسكو ، د . ت) .

لوريمر ، ج . ج ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، طبع بمطابع علي بن علي (الدوحة ، قطر ، د . ت) .

المارديني ، نابليون ، تنزه العباد في مدينة بغداد (المطبعة اللبنانية بيروت ١٨٨٧ ،

المدني ، امين بن حسن الحلواني ، خمسة وخمسة عاما من تاريخ العراق ١١٨٨ – ١٢٤٢هـ ، مختصر مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود للشيخ عثمان بن سند البصري (القاهرة ، ١٣٧١) .

مانتران ، روبير ، بغداد في اثار المستشرقين الفرنسيين ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل ، المورد ، العدد الرابع ، المجلد الثامن (١٩٧٩) .

مراد ، خليل علي ، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٠٤٨ – ١١٦٤ هـ/١٦٣٨ – ١٧٥٠ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

نظمي زادة مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس (مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧١) .

نيبور ، كارستن ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين (شركة دار الجمهورية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٦٥) .

نيبور ، كارستن ، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري (مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٥) .

هرشلاغ ، ز . ي ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط، نقله الى العربية مصطفى الحسيني (دار الحقيقة، بيروت ، ١٩٧٣)

ولستيد ، جيمس ريموند ، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي (مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، ١٩٨٤) .

Baer, Gabriel, The administrative, economic and Social functions of Turkish Guilds, **Int. J. Middle East. Stud** 1 (1970).

Harris, W. B., From Batum to Baghdad (London, nid.) Issowi Charles, The economic history of the Middle East, 1800-1914 (Chicago, 1966).

Ives, Edward, Avoyage from England to India in the years 1755-1757, and 1958- 59 (London, 1773).

Longrigg, S.H., Iraq 1900 to 1950 (Oxford, Univ. Press, London, 1953) Raymond, Andrè The Great Arab Cities in the 16th(18th centuries, New York Univ. Press, NewYork, 1984).

المحتوى

